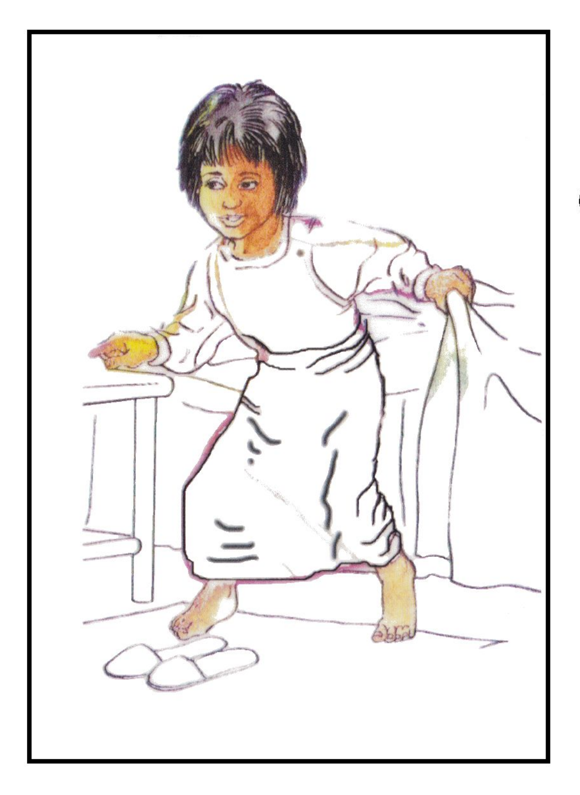
عزيز نيسين

هكذا أتينا إلى الحياة



الجزء الأول

«ذكريات الطفولة»

ترجمة

محمد مولود فاقي







NESIN
Hakadha 'atina ilá al-hayah /
1

هكذا أتينا إلى الحياة

* هكذا أتينا إلى الحياة

«ذكريات الطفولة» - I

* تأليف: عزيز نيسين

* ترجمة: محمد مولود فاقي

* الطبعة الأولى ٢٠٠٤

* **الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع**

سورية - دمشق - ص.ب: ٢٢٢٠٥

هاتف: ٤٤١٨٢٠٢ - ٤٤١٨١٧٢

* التوزيع في جميع أنحاء العالم:

الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع

* موافقة الإعلام: (٧٥٦٢٧)

* العمليات الفنية: **مؤسسة سندباد**

سورية - دمشق - ص.ب: ٩٢٢٣ - هاتف: ٢٢٣١٠٥٥

فاكس: ٢٤٥٢٥٦٥ - بريد الكتروني: sindbad@scs-net.org

عزيز نيسين

هكذا أتينا إلى الحياة

« ذكريات الطفولة »

الجزء الأول

ترجمة

محمد مولود فاقي

عنوان الكتاب باللغة التركية

AZIZ NESIN

BÕYLE GELMIS

BÕYLE GITMEZ

من أجل ذكرى أمي

أُمي يا أجمل الأمهات

أنت أجمل الجميلات

تزوجت في الثالثة عشرة

وأغمضتِ عينيكِ للحياة

قبل أن تعيشي

أنا مدين لك

بهذا القلب الذي يتفجر بالحب.

لا أملك حتى صورتك

لأن التصوير يُعدُّ جرماً

لم تري فيلماً سينمائياً ولا مسرحية

كان بيتكِ فارغاً من كل شيء.

لا كهرباء ولا مدفأة. ولا ماء. ولا غاز

ولا أريكة للجلوس

لم تذهبي البحر أبداً

ولم تتعلمي القراءة والكتابة والحساب

رأيتِ العالم من خلف الحجاب الأسود

فارقتِ الحياة وأنت في ريعان الصبا

لم تفرحي في حياتك

الأمهات لن يمتن بعد الآن قبل أن يعشن حياتهن

هكذا أتينا للحياة، ولن نفارقها بإرادتنا

عزيز نيسين

الجنيات والساحرات

بين حين وآخر يسألني الكثيرون

ـ كيف تكتب بهذه الكثافة؟.

يقولون أن هنالك جنيات يلهمن الكتَّاب والفنانين، وأنهنَّ، أي الساحرات والجنيات ينفخن الفن في ألبابهم. وأصبحتُ عندما تُذكر أمامي الجنية الملهمة. أتخيل. عروسة البحر أسفلها سمكة وأعلاها إنسان. وثمة فتاة أخرى تسمى عروسة السماء.

طائر برأس إنسان. هذه الفتاة الملهمة تعشِّشُ على كتف الفنان. وتهمس في أذنه. وكأنها تلقنه الفن.

لا أملك ساحرة إلهام. ولكنني أملك جنية إلهام وغولَ إلهام. جنياتي لا يشبهن البشر أبداً، إنهن يمتلكن عشرة بالمائة من الإنسانية. وتسعة بالمائة من أشكال الوحوش. هؤلاء الجنيات أو الوحوش لا يعششون على كتفي. بل يعتلون ظهري. وأنا مغلول اليدين منكمشاً على ذاتي لا أقوى على الحراك، هؤلاء الساحرات والجنيات. لا تعشن فُرادى. بل على شكل قطعان، إذا نزلت اثنتان عن ظهري. تصعد ثلاث.

الساحرات قبيحات الشكل والمنظر. والجنيات رائعات الخُلق والخَلق، الساحرات تضربنني. والجنيات تُمسدن شعري وجسدي.

جنيات الإلهام وساحرات الوحي. عندما تهمسن في أذن الفنان تلهمنه وتفتحن أمامه أبواب الفن والإبداع.

ولكن هؤلاء الساحرات والجنيات. يركبن على ظهري دائماً. يتعلقن. يضربنني. كالوحوش. يصرخن في وجهي.

ـ هيا اكتب. لا تتوقف اكتب. لماذا أنت متوقف هكذا؟.

من سمح لك أن تنام؟. هيا استيقظ. لا تجلس هكذا. هيا تحرك

بسرعة. لا يحق لك أن تمرض. شيشكْ. هيا تحرك. اكتب.

جنيات إلهامي. وساحرات إلهامي ووحوشي. وطالبو الإيجار وأثمان حاجياتي. كلها ضرورات لا تنتهي أبداً.

إذا لم أكتب. ماذا أفعل يعني؟.

لا شيء يلهم الإنسان ويدفعه إلى العمل الزائد. مثل الحذاء المثقوب.

لو كنت أملك حق القرار. لأضفت بنداً جديداً لمتن حقوق الإنسان العالمي، حق المرض. حق مكتسب وطبيعي لكل إنسان. لا يحقّ لأي تجاهله أو الاستغناء عنه بأي شكل من الأشكال. بل من حق كل إنسان أن يمرض بما فيه الكفاية.

نظرت بإعجاب وبحسد إلى أولئك المرضى المستقلين والسعادة تملأ وجوههم. لأنني لم أذق طعم السعادة حتى في المرض خلال الخمسين سنة الماضية، ولو ليوم واحد. لأن جنيات إلهامي ووحوشي لا يتركونني أبداً. إنْ في يقظتي أو في حلمي. موجودون معي في كل مكان وزمان.

ـ اكتب

ـ ها أنذا أكتب

ـ اكتب أكثر.

ـ هاأنذا أكتب أكثر

عندما أنظر إلى المروج الخضراء الندية أتمنَّى التمدد فوقها طولاً وعرضاً حتى لو لحظات. لو أستطيع المشي حافياً فوق التربة. أحس وكأن تعب الخمسين سنة من حياتي ستغرق في جوف الأرض. سيأتي يوم أرتاح فيه نهائياً. ولكن مع الأسف لا أعرف إن كنت سأرتاح فيه من التعب أم لا!.

عندما يسألني أحدهم:

ـ كيف تستطيع الكتابة بهذا الشكل؟.

أشعر حقاً بغضب خفيٍّ مفاجئ. ـ كأننا نكتب على كيفنا. نكتب لأننا في ضائقة. في فاقة.

ولكن لو حصل شيء لا يمكن تصديقه. لو ولدت مرة ثانية مثلاً، لو جئت إلى الحياة مرة أخرى. لن أستطيع اختيار سوى هذه الطريق. أظل هكذا. أتمنى الرحيل سعيداً من تعب هذا العمل اللذيذ.

أكتب بمواضيع مختلفة. أبحث في أمور كثيرة. وأبدع في متاهات الأدب المختلفة. وأعتقد أن سبب ذلك يعود إلى معاشرتي لجميع طبقات المجتمع عندنا. وهذه هي بعض الأعمال التي قمت بها في حياتي بائع أحذية ـ الرعي ـ العسكرية ـ المحاسبة ـ الرسم ـ بائع صحف ـ كاتب صحفي ـ بقال ـ سجين الجنون وهو مسلك صعب ـ أما البطالة ـ فقد كانت من أصعب المسالك على الإطلاق ـ ولن أنسى ماسح الأحذية ـ والحلاقة. وأعمالاً أخرى كثيرة.

أعرف أن مذكراتي ليست كبيرة. ولا تحمل أهمية. ولكنها ربما تسترعي انتباهكم لأنها. تحاكي حياة الكثيرين، نمط عيشهم، وتعبهم، وجدِّهم، وكفاحهم. وهاأنذا أبدأ بسرد قصة حياتي. دون كذب أو نفاق. وبشكل واقعي ومنطقي ومباشر.

القرآن وماكينة الخياطة والمقعد

أول ما رأيت الدنيا تفتحت عيناي على الطريق. اللهب الأحمر والدخان الأسود الكثيف الذي كان يغطي وجه السماء. قبل هذه الحادثة لا أتذكر أي شيء على الإطلاق. لكن تلك الحادثة بقيت عالقة في ذاكرتي بتفاصيلها كلها.

أيقظتني أمي. ثم مدت يدها وتناولت الحقيبة الزرقاء المخاطة من القماش الأطلس والمعلقة على الجدار. والتي تضم في داخلها القرآن الكريم. قبَّلَتها على عجل ووضَعَتْها على رأسها. وعلقتها في عنقي ثم

حملت أختي الصغيرة من الأرجوحة.

كنت أرى وجه السماء من خلال النافذة. كأنه جدار أحمر مخيف. كانت النار تزمجر وألسنة اللهب المتطاولة تطرح في الجو القرمزي. شرارات نارية صغيرة. تتوزع في كل مكان فتنير الفضاء بالأنوار الحمراء. تتراقص هنا وهناك. تكبر حيناً وتصغر أحايين أخرى. تطول وتقصر. نظرت إلى المرآة فرأيت السماء الملتهبة. كأنها محشورة في داخلها.

باب الزقاق يضرب بقوة. أنين وعويل في الخارج لم أعرف سببهما. كان الأنين يتقطع بين حين وآخر ببكاء طفل. أو صراخ امرأة.

كنت أرى شرارات النار. تصطدم بزجاج النافذة. أصوات لا معنى لها. هنا وهناك وصوت الحريق. يعربد. وفجأة اختفى زجاج النافذة إما أنه ذاب. أو كُسر. ولفحت وجهي موجة من الحرِّ الشديد.

فُتح باب الغرفة بقوة. وفجأة، امتلأت بمجموعة من الناس يتزاحمون. يحملون الأشياء المبعثرة ثم يخرجون. كانت أمي تظن أن هؤلاء قد جاءوا لمساعدتنا.

نزلت أمي الدرج وهي تحملني بإحدى يديها، وتحمل أختي الصغيرة بالأخرى. وأخرجتنا إلى الزقاق. وضعتنا على العتبة. ودخلت البيت ثانية.

كان الموجودون في الزقاق. قد دخلوا الغرفة أيضاً. وخرجوا بعد فترة حاملين الأمتعة التي سرقوها. كانوا على عجالة يتعثرون بنا أنا وأختي ويدوسوننا بأرجلهم. رجعت أمي وهي تحمل آلة الخياطة في إحدى يديها وفي الأخرى المقعد. وكانت آنذاك في الثامنة عشرة من عمرها. ولم تستطع أن تنقذ من الحريق سوى طفليها والقرآن وآلة الخياطة والمقعد. لقد اشترت آلة الخياطة من كدها وعرق جبينها.

لم أرتعب لحظة واحدة من كل هذه المناظر التي دارت حولي آنذاك.

حسبتها. ليلة من ليالي الأفراح. أو سهرة من سهرات العيد هكذا طُبعت في ذاكرتي.

بعد باب الزقاق. لا أتذكر أي شيء ولا أتذكر أيضاً ما جرى من أحداث في تلك المسافة الممتدة من باب الزقاق حتى المقبرة. عندما استيقظت في اليوم التالي. وجدتُ أننا في المقبرة. وعرفت أننا أمضينا الليلة هناك نلتحف السماء، كانت المقبرة مليئة بالمتاع والأثاث والناس المعدمين. وبكاء الأطفال.

كانت أختي تنام على أرجوحة شدتها أمي بين جذعي شجرتين من أشجار السرو. بعد فترة طويلة، عرفت مكان بيتنا الذي التهمه الحريق. كان الموقع يسمى يني جشمة ويطل على شرق قاسم باشا.

أصبحت أحاديثنا تتمحور حول الحريق الذي أتى على بيتنا. في كل بيت ننتقل إليه كنا نقول: كنا نملك بيتاً في يني جشمة.

كان العام (١٩١٩). أبي غير موجود في المنزل. لقد غادرنا منذ زمن طويل إلى الأناضول. وتركنا هناك وحدنا. وراح يحارب الأعداء من أجل الاستقلال.

ألا تفهمون؟

يتحدث الآباء والأمهات عن بعض ما حدث لنا في صغرنا. بشكل كبير ويرددونه على الدوام. أما نحن فنحسب تلك الحادثة. كأنها حقيقة عشناها بيقيننا ووجداننا. وكأننا نتذكرها بدقائقها. حيث تمتزج الحقيقة بالحلم.

الذكرى الأولى في حياتي. الحريق. لون الحريق الذي انطبع في ذهني الصغير، وترك آثاراً لا تمحى في عقلي وذاكرتي: لكن ثمة حادثتين لا أتذكرهما أبداً، غير أن سردهما لمرات كثيرة أمامي من قبل أبي وأمي. حسبتني عشتهما حقيقة.

ولكن الحقيقة تقول عكس ذلك. لأن عمري كان لا يتجاوز الثلاث سنوات ونصف ومن المستحيل أن يتذكر طفل بهذا العمر تلك الأحداث.

يُطرق باب الزقاق بقوة. هناك قفل خشبي كبير على الباب ذو لون رمادي. في ذلك اليوم خاطت أمي لنفسها فستاناً جديداً، لو رأيت قطعة صغيرة من ذاك الفستان الآن. لعرفتها على الفور. قطعة حريرية حمراء رائعة عليها خطوط دائرية بيضاء.

هبطت أمي الدرج وهي تلبس ذلك الفستان وكانت نسمات رطبة تهب من خلال جوانب الدار الواسعة.

تفتح أمي الباب، فيدخل أبي حاملاً زنبيلاً في يده، يقبلها على شرفة الباب، أما أنا. فأسرعت إلى نساء الحي أخبرهنَّ بما حصل وأقول لهنَّ:

ـ أبي قبَّل أمي.

يضحكن. ويضحكن. ومن خلال ضحكاتهن عرفت أنني تكلمت عن شيء ممنوع يجب أن لا أتحدث عنه. فخجلت كثيراً.

كان لهذه الحادثة تأثير كبير في مجرى حياتي القادمة وبخاصة عندما أقرر بناء عش زوجي أساسه الحب والتفاهم.

وهذه هي الحادثة الثانية:

فيما كنا جالسين على المائدة نتناول طعام الغداء تلبية لدعوة من إحدى العائلات قدموا سمكاً مطبوخاً على الفرن. وزعوا السمك على صحون الجميع وعندما أقول لهم:

ـ إنه سمك ممتاز.

يقولون: إنه جميل.

أقول بعد قليل: ولكنه مطبوخ بشكل جيد.

يؤكدون كلامي: نعم إنه مطبوخ بشكل جيد.

ثم أكرر:
ـ أحببت هذا السمك كثيراً. إنه ممتاز.
ـ صحة وعافية.
لم أعد أحتمل. فصرخت قائلاً:
ـ أنتم لا تفهمون أبداً. أقول لكم مراراً إنه سمك ممتاز. كي تضعوا في صحني قطعة أخرى.
لا أعلم. إن كنت أتذكر هاتين الحادثتين أم أعزوهما إلى كثرة القال والقيل والتكرار الكثير. حادثة أراها من خلال دخان وضباب مضى عليهما سبعة وأربعون عاماً.

فراخ الفئران المذابة بزيت الزيتون

بعد المقبرة. وجدنا أنفسنا في منزل صغير مكون من طابق واحد لا أعلم. إن كنا استأجرناه. أم ترأف بنا أحد المحسنين وأخذونا إليه بعد حادثة الحريق.
العائلة المحبة للخير والتي أوتنا إلى بيتها مكونة من رجل وامرأة.
الرجل تاجر في سوق قاسم باشا التجاري. يبيع أنواعاً مختلفة من البهارات مثل الفلفل الأسود والأبيض والأحمر والزنجبيل. والقرنفل. وإلى ما هنالك.
الفصل شتاء. وذات يوم كان الرجل يقوم بتقطيع الحطب في إحدى زوايا حديقة منزله الصغيرة. وأنا واقف أراقبه عن كثب فتقول لي زوجته:
ابتعد عنه كي لا تصيبك شظايا الحطب.
أتراجع بعض الشيء. ولكن أظل أراقبه من مكاني الجديد.
يواصل الرجل العمل. فأحضر قرمة كبيرة ليسند عليها قطع الأخشاب المراد تقطيعها. يفتح شقاً في القرمة. ويدخل فيه خشبة أخرى. ويضربها بمؤخرة البلطة. وهكذا.

يرفع البلطة في الهواء. والطرف الحاد. القاطع يلمع كحد السيف. يهوي على الحطب ويخرج زفيراً قوياً هيه وضع إحدى رجليه على طرف الحطب كي لا يتحرك من مكانه.

رفع البلطة ثانية وهوى بها على الحطب. ولكن البلطة هوت على رجله عوضاً عن الحطب فتفجر الدم. وتبين أنها فتحت جرحاً كبيراً.

كان على الجدار الخشبي الخارجي للبيت الصغير. عبوات زجاجية معلقة بالمسامير. أنزلوا زجاجة ودهنوا مكان الجرح بالسائل الكثيف الموجود في داخلها وضمدوا الجرح. في تلك البيوت تعشِّش فئران كثيرة مع صغارها، وكان أهل البيت يضعون هذه الفراخ الصغيرة حديثة الولادة والتي لا تقوى الحراك، ضمن الزجاجات المعبأة بزيت الزيتون. ويعلقونها بمسمار خارج الغرفة فتذوب هذه الفئران الصغيرة داخل الزيت، جراء بقائها الطويل تحت أشعة الشمس. هذا السائل المذاب يستعملونه لمداواة الجروح والقروح. بالفعل شفي جرح الرجل بعد مدة قصيرة.

انتقلنا من هناك. إلى منزل مكون من طابقين. على ضفة نهر قذر. في قاسم باشا. حيث سكنا في غرفة متواضعة من الطابق الأول.

على الإنسان أن يصعد درجتين ليصل إلى باب الزقاق. والباب مكون من درفتين على كل درفة وضعت لوحة حديدية محفورة على شكل زهرة في الأعلى. وفوق كل لوحة حلقتان حديديتان. الباب مدهون منذ زمن بعيد وآثار الدهان باقية على شكل بقع متناثرة هنا وهناك. عندما ترفع إحدى الحلقتين وتضرب يأتيك صوت من الداخل:

- من الطارق؟.

إنه صوت امرأة فتية يخرج من الأعماق. أعرف جيداً كيفية فتح الباب. وفي أكثر الأحيان كانوا يقولون لي:

ـ هيا أسرع وافتح الباب.

كنت أسرع وأصعد الدرج حتى أصل. لكن قصر جسمي لم يسمح لي بالوصول إلى مستوى مفتاح الباب الحديدي. فأقف على رؤوس أصابعي وأرفع لسان المزلاج فيفتح الباب. فتستقبل وجهي برودة ناعمة. وأعلم من رائحة البصل (المدبَّل). أكثر الأحيان. أن الفاصولياء اليابسة هي التي تطبخ في البيت. العائلات الثلاث المستأجرة تطبخ الفاصولياء فتتوزع رائحتها الطيبة في الجو وتثير الشهية. عندما نهبط السلم. نجد فسحة واسعة، وأرضية مغطاة بالأحجار حيث تقع غرفتنا إلى اليسار نصعد خمس درجات خشبية حتى نصل إليها وإلى اليمين باب يؤدي إلى الحديقة. لكن قبل ذلك هنالك غرفة أخرى، يسكنها العم حسن وزوجته الخالة حواء. ويقع المطبخ مقابل الفسحة الحجرية. وإلى يمين المطبخ غرفة أخرى تشغلها الخالة زهرة.

أصحاب المنزل يقطنون في الطابق الثاني. ربُّ البيت يشرف على الحمّالين وزوجته زنجية.

للمنزل نافذتان تطلان على النهر الذي يسيل بضعف شديد، وعلى الطرف الآخر منه، أرض تزرع بالخضروات مسوَّرة بصفائح التنك الصدئة. أرجوحة أختي الصغيرة تمتد بين جدارين. لأن غرفتنا مقسّمة نصفين. على امتداد النافذتين مقعد من صنع محلي. أصعد عليه كي أراقب النهر. وسط الجدار المقابل فراغ كبير (يوك) نضع فيه الفرش والوسائد نهاراً.

تضع أمي آلة الخياطة فوق صندوق خشبي صغير وتجلس أمامها على طرّاحة تخيط الثياب. يدخل القماش الأميركي الأبيض من الأمام ويخرج من الجهة الثانية بنطالاً طويل الساقين. كانت أمي تخيط الألبسة الداخلية للجنود وتكسب المال لنعيش؟. عندما يسود ظلام الليل. تشعل

أمي مصباح الكاز (نمرة خمسة) ثم تنزل الفرش والأغطية من (اليوك) وتغسل يدي ورجلي جيداً وتمددني على الفراش كي أنام وتقول لي:

ـ هيا نم يا بني.

ثم تعود ثانية إلى آلة الخياطة. وتدير مقبضها دون توقف وعندما تبدأ أختي بالبكاء. تشد حبل الأرجوحة وتهزها هزاً ناعماً وتقول: نامي يا بنيتي.

عندما أنام وأغطي رأسي. وتغفو أختي. تبدأ أمي أغنيتها الحلوة على شكل همس لذيذ لتروح عن نفسها وتنسى تعبها.

كانت تطعمنا، وترعانا. بالمال الذي تكسبه من خياطة الألبسة الداخلية للجنود. في الليل تخيط الثياب وفي النهار تحوك بسنارتها الدانتيل الذي كان يزين غطاء رأس النساء في تلك الأيام. كل يوم أنام على صوت قرقرة آلة الخياطة. كنت أحسب أن أمي تحوك الدانتيل من نور ودموع عينيها وليس من الخيوط ذات الألوان المتعددة. كم تمنيت لو أني حصلت على واحد من تلك الأعمال التي كانت أمي تصنعها لأعطيت مقابلها، جميع كتبي التي كتبتها والتي لم أكتبها حتى الآن.

مقابل غرفتنا. تسكن عائلة، امرأة ورجل. الخالة حواء وزوجها العم حسن الذي كان يعمل بستانياً في معمل للجيش وأصله من البحر الأسود. كانت العائلة تسكن غرفة واحدة. وعندهما طفل رضيع. وكانت أرجوحة الطفل تمتد بين جداري غرفتهم فتقسمها نصفين. كغرفتنا تماماً وكانت الخالة حواء تقول لي:

ـ هل تهز أرجوحة الصغير.

أمسك بالأرجوحة. أما هي فتنصرف لإعداد الطعام. أهزها وأقرأ قل هو الله أحد. بدلاً من (النينات) التي ما كنت أحبها ولا أحب ترديدها. بعد أن ينام الطفل. كانت الخالة حواء تعطيني قطعة خبز فيها نوع من الأدام.

العيدية الأولى

أول بنطال وحذاء لبستهما في العيد. كنت في الخامسة من عمري. حتى ذلك العام لم أكن أملك بنطالاً ولا حذاء. فقط الجلابية المائلة للبياض كانت لباسي الوحيد.

البنطال القصير الذي خاطته لي أمي. من المخمل الأسود. وضعت على طرفي ساقيه أزراراً صدفية جميلة. أما القميص فقد وضعت على ياقته زهرة من الحرير الأحمر.

خرجت بألبستي الجديدة صباح العيد. ووقفت أمام الباب. وإذا بطفل من عمري يلبس جلابية قديمة وصندلاً مهترئاً. يدفعني إلى مياه النهر القذرة فاتسخت ثيابي الجديدة، فخلعوها عني وألبسوني جلابيتي المائلة إلى البياض.

أول يد أنثى

في إحدى الغرف الثلاثة الكائنة على يمين الفسحة الحجرية. كانت عائلة الخالة زهرة وزوجها محمد أفندي. الخالة زهرة عندها طفل من عمري وبنت اسمها ثروت. من زوجها القديم. كان محمد أفندي ينهال بالضرب المبرح على ابنة زوجته ثروت كل مساء. وكانت ثروت تصرخ وتئن من الألم. وأمي التي عاشت دون أب أو أم. بدأت تسمح لثروت بالنوم عندنا وربما أننا لا نملك سوى فرش واحد. كانت ثروت تنام معي على الفراش. وكان عمرها آنذاك بين الرابعة عشر والخامسة عشر. عندما تدخل الفراش. كانت تشد اللحاف حتى يغطي رأسها. وتبدأ يدها بزيارة كل نقطة من جسدي. ثم وفي النهاية. تأخذ يدي وتضغطها على صدرها. كنت أعرف أن ما تقوم به عيب وحرام. ولكن لشدة خجلي لم أستطع البوح بذلك لأحد. كنت أغفو ويدي في المكان الذي تريده ثروت وصوت آلة الخياطة لم يلبث يصم أذني غير مبالٍ بما أنا فيه.

في أحد الأيام طُردت ثروت من البيت شر طردة وعادت بعد عام وكأنها قد كبرت عشرة أعوام دفعة واحدة. أصبحت تانغو من الدرجة الأولى. كانت تنتعل حذاء عالي الكعبين أعطت أمها مالاً وحقيبة جلدية كانت تستعملها. ولم تظهر ثروت بعد ذلك اليوم أبداً.

إن كانت لا تزال حية. فعمرها الآن فوق الستين. أما شقيقها من أمها فقد ذهب إلى أوروبا بعد أن أنهى دراسته الثانوية في معهد أجنبي.

الصفعة الأولى والأخيرة من أمي

كان صاحب بيتنا يعمل رئيساً للحمالين في الميناء. وهو من أصل كردي. طيب القلب كثيراً. أما زوجته الزنجية. فكانت متعجرفة لا تتنازل عن أنفتها ولا تتحدث مع أي من المستأجرين. أما ابنه محمد أفندي الوسيم. كان يحبني كثيراً وينادني كل صباح عند ذهابه إلى عمله:

- نصرررررت!.

فأخرج من الغرفة بسرعة كبيرة وأنا أردد. هاه.

نبَّهتني أمي عدة مرات قائلة: عيب لا تقل هاه يا بني. قل أفندم. أقول لها حاضر يا أمي ولكن عندما يأتي في الصباح وينادني. أنسى تنبيهاتها. وفي إحدى المرات اقتادتني أمي إلى الغرفة، بعد ذهاب محمد أفندي. وصفعتني بقوة.

كانت هذه الصفعة الأولى والأخيرة من أمي طوال حياتي.

صبيحة اليوم التالي. ناداني محمد أفندي. خرجت من الغرفة مسرعاً وأنا أقول: هاه أفندم. بعدها لم أقل هاه مرة أخرى أبداً.

الطفلة التي نُذرت إلى الله

مرضت شقيقتي الصغرى البالغة من العمر ثلاث سنوات. بعد عدة

أعوام استنتجت شخصياً أن مرضها ناجم عن سوء التغذية وأنها مصابة بمرض في العظام والمفاصل يسمى روماتيزم.

كانت رجلاها لا تقويان على حملها. أين الطبيب؟. وأين الدواء؟.

كان الطبيب بالنسبة لنا مخلوقاً تتعذر علينا رؤيته أو سماع صوته. والوصول إليه من رابع المستحيلات. أما ما يتعلق بالأطفال الذين يموتون. كانوا يقولون: الله أعطى والله أخذ. لو كان الطعام متوفراً والغذاء جيداً بالنسبة لأختي لكانت في حالة رائعة. لم نسأل عن طبيب أو سواه، استخدمنا جميع الأدوية الشعبية المجانية. التي يحضرها العجائز. في نهاية المطاف قالوا لها:

عند آذان المغرب. خذي ابنتك إلى المقبرة واتركيها إلى جانب حجر من أحجارها. وغادري المقبرة دون أن تنظري إلى الخلف. ولا تذرفي من عينيك دمعة واحدة. ثم يذهب شخص آخر من خلفك إلى هناك ويعود بالطفلة إلى البيت. شرحت أمي لأختي كل ذلك. وطلبت منها عدم البكاء عندما تتركها هناك. كي تعود إليها. وتمشي وتركض بشكل جيد كانت أختي ذكية وجميلة إلى أبعد الحدود.

كانت أمي تحمل شقيقتي بين ذراعيها كل مساء. وتمسك بيدي ونذهب إلى المقبرة الكائنة بين قاسم باشا وباي أوغلو. كانت المقبرة تسمى جوركلوك حيث أشجار السرو. ترخي بظلالها على المقبرة فتخيم عليها العتمة المبكرة. أحجار المقبرة تراءت لنا أكبر من حجمها. عندما ينتشر صوت المؤذن على أطراف المقبرة. كانت أمي تنزل أختي من حضنها وتجلسها قرب أحد الأحجار الواقفة. ثم تمسك بيدي ونبتعد عن المكان بسرعة دون أن ننظر خلفنا. استمرت هذه العملية شهوراً طوالاً. حتى الشتاء.

وطوال هذه المدّة. لم تحاول أمي النظر إلى خلفها ولو لمرة واحدة. ولم نسمع شقيقتي تبكي وهي التي لا تبلغ من العمر سوى ثلاث سنوات.

مع كل هذا الذهاب والإياب إلى المقبرة. لم أستطع رؤية وجه أمي مرة واحدة. لأنها كانت تخفيه خلف الغطاء أو الحجاب. كم تعذبت يا ترى كي لا تبكي. كي لا تنزل دمعة من عينيها. عندما نصل البيت. ترمي نفسها فوق الأريكة وتجهش بالبكاء حتى تعود أختي من المقبرة مع الشخص الآخر.

بعد مرور وقت طويل فكرت ملياً بهذا الوضع. واستنتجت أن الناس يأخذون أولادهم إلى المقبرة. لأنهم لا يملكون زاد يومهم ولا قوت أولادهم ولهذا فهم يقدِّمون أولادهم قرابين إلى الله قائلين:

ـ يا رب هاأنذا تركت ولدي لك. يا رب اطمر مرضه تحت التراب وأعده لي سالماً معافى.

بئر النيات

ما كنا نعرف شيئاً عن أبي. أخباره لا تصل إلينا أبداً. أين كان. وماذا يفعل. ربما قد مات في الحرب.

النساء يتحدثن مع بعضهن: إنه هناك بئر للنيات. فإذ نظر إنسان ما إلى داخل هذه البئر، فإنه يرى الشخص الغائب إن كان على قيد الحياة. أو ميتاً. أو لا يرى شيئاً مطلقاً أو يرى نعشاً داخل البئر.

ذهبنا أنا وأمي مع جارتين إلى تلك البئر الكائنة على سفوح أيوب ـ خلف مقهى بيير لوتي ـ نبهتني أمي قبل أن نصل إلى البئر قائلة:

ـ ابقَ هناك ـ إياك أن تأتي معنا.

اتجهن صوب البئر. ومددن رؤوسهن نحو القاع. اقتربتُ منهن رويداً رويداً. ومن خلال أغطية رؤوسهن تطلعت نحو الأسفل فرأيت أبي سالماً معافى. يركب زورقاً. ومر الزورق على عجل ووالدي عليه، ربما هذه انعكاسة طفولية لذهني الصغير. ولكني كنت قد رأيت أبي بلحمه ودمه.

أما أمي والنساء الأخريات فلم يرونه. ولم أستطع أن أقول لهن أنني رأيت أبي خوفاً من أمي.

التداوي بخوخ الجقل وورقة الإبرة

في أحد الأيام. طُرق الباب الخارجي. ففتحته. وإذ بي وجهاً لوجه أمام شخص محروق الشعر والرموش والحواجب. أحسست بخوف شديد فصرخت: ماما ـ حملني الرجل الواقف أمام الباب وهو يقول:

ـ ألم تعرفني يا بني؟.

إنه والدي. لقد فرَّ من قبضة الأعداء الذين جمعوا الناس داخل المسجد وصبوا عليهم البنزين وأحرقوهم. أثناء انسحابهم من البلد.

فور وصول أبي إلى البيت استلقى على الفراش مريضاً. ونام شهوراً طويلة. دون أن يعرف نفسه. في تلك الأوقات العصيبة.

خاطت أمي كثيراً من السراويل الداخلية وحاكت الدانتيل. دون كلل أو ملل حتى تأتي بالمال. وتعتني بأبي.

كان أبي قد ضعف كثيراً وبقي مدة طويلة مستلقياً على الأريكة. لا يستطيع حراكاً. يحاول جاهداً أن يصنع لنفسه بعض الأدوية النباتية أو العشبية، وبين حين وآخر تصيبه نوبات وترتفع حرارته فيبدأ بالارتجاف كما تنتابه قشعريرة فيصرخ:

ـ دثّريني يا هانم.

حتى في ساعات غضبه كان يناديها بالهانم. ولكنني لا أتذكر موقف أمي تجاه أبي. وما كانت تقول له. وكيف تكلمه. ولكن أسمعها تتحدث عنه مع الأخريات. تقول: أفندينا. أو أفندي. وبعض الأحيان كان تذكره لجارة قريبة أو إنسان عزيز رجلنا أو تبعنا.

ـ غطيني يا هانم. بالله عليك أسرعي غطيني.

كانت أمي تجمع كل ما تجده في الغرفة من الأغطية والمعاطف

وكل شيء. فيتحول فوق أبي ما يشبه الهضبة الصغيرة. ولكن أبي يستمر بالصراخ بغضب في وجه أمي. وكأنها هي المسببة لهذه القشعريرة.

ـ أقول لك غطيني يا هانم.

في أحد الأيام انتابته قشعريرة قوية وصار يرتجف بقوة. أحسست معها أن أرض الغرفة الخشبية يهتز من شدة ارتجافه.

ـ هيا اذهبي واشتري لي خوخاً أخضر فجاً. خوخ جقل.

كان والدي رجلاً قاسياً. ينفعل كثيراً. يريد أن يستجاب طلبه بأي شكل من الأشكال. وربما كان يريد خوخاً حامضاً ليخفف من شدة الحرارة التي في أعماقه.

ذهبت أمي إلى البستان المقابل ورجعت وهي تحمل بعض الخوخ. خوخ الجقل. فأكلها أبي بصعوبة بالغة.

في اليوم التالي، نهض على رجليه. كان وضعه الصحي قد تحسن كثيراً. وظن أن شفاءه جاء من خوخ الجقل. وظل يروي هذه الحادثة لسنين عديدة.

ـ خوخ الجقل خلصني من المرض. ولولاه مت. كان يحب المبالغة كثيراً. فيقول: ذلك اليوم أكلت نصف كيلو من الخوخ.

والذي أكله حقيقة لا يتعدى حفنة واحدة.

كان الصداع ينتاب أبي من حين لآخر. وهو في ذلك العمر. كان يدخل ورقة الصنوبر المدبدبة في أنفه وعندما ينزف يرتاح من الصداع.

الموت الأول

كان أبي قد أحضر تفاحاً إلى البيت وقال لي:

ـ استدر نحو الخلف.

حولت رأسي نحو الحائط. فوقعت تفاحة أمامي. قال لي ثانية:
ـ انظر. هذه التفاحة أرسلها الله لك فاشكره.

الله الذي أرسل لي التفاح لم يحسن صحة أختي. ماتت أختي.

عندما كان أبي يخرج من المنزل حاملاً النعش الصغير. كنت واقفاً في مدخل منزل الخالة زهرة أضحك. لأنني كنت أحسب أن ما يجري أمامي لعبة ليس إلا.

نعم. يجب أن تكون لعبة. لأنهم يضعون أختي الصغيرة في النعش. ويحملونها إلى المقبرة. كي تعود إليها صحتها وتعود من هناك سالمة معافاة.

قالوا: أدخلوا الولد إلى الغرفة.

أدخلوني. جاءت أمي وهي تبكي وقبلتني. وقالت:
ـ أختك ماتت. الضحك عيب.

خجلت من نفسي. لأنني أحسست أنني قمت بعمل أُلام عليه. ويسألوني دائماً، لماذا تمزح على الدوام. لا أدري. ولكن أعتقد أن الشيء الذي جعلني ساخراً ممازحاً. هي طريقة حياتي التي عشتها. ولم أستطع الوصول إلى هنا إلا من خلال الدموع الكثيرة التي ذرفتها.

الحب الأول ومن طرف واحد

كان العم حسن. جارنا في الحوش والذي كان يعمل في القيادة البحرية في قاسم باشا والمسمى (ديوان خانة) يزرع الأزهار والخضراوات في حديقة منزله. كنت أقلّده في حفر الأرض بعض الأحيان. وكان يتعمد إبعاد الفأس الصغير عن متناول يدي كي لا أستعمله أثناء غيابه فيعلقه على عمود خشبي مثبت في الأرض. وكنت أهز العمود سراً وأنزل الفأس عنه وأحفر الأرض.

إلى جانب الحديقة. خمّ لدجاجات مالك البيت. كنت أنظر إلى

الدجاجات وهي تدور ضمن هذه الفسحة الضيقة وأشفق عليها. وأحزن من أجلها كثيراً. وصرت أفتح باب الخم وأُخلي سبيل الدجاجات.

لكن الديك لا يكاد يخرج من الخم حتى يقفز على رأسي ويضربني بمنقاره ومخالبه على وجهي. كان رائع المنظر ذا ريش أحمر لمّاع. وله عرف كبير وطويل. أستطيع أن أسميه وحشاً لأنه لا يقدر قيمة الإحسان والخدمة التي أسديتها له. كان ريشه يلمع تحت أشعة الشمس فتنعكس عنه ألوان رائعة. عندما يقفز فوقي. كنت أهرب من هناك وأدخل الغرفة وأغلق الباب خلفي، فيبدأ بالقفز على الباب ويضربه بمنقاره ومخالبه. لا أعرف لماذا كان يعاديني؟.

كنت أعطي قطعة الخبز التي كانت تقدمها لي الخالة حواء، مقابل هزّ أرجوحة طفلها. للديك الذي كان يهجم علي بمنقاره ومخالبه ويجرح وجهي ورأسي ويعود فيأكل الخبز بعد أن أهرب إلى داخل الغرفة. علماً بأنه ما من أحد يفتح باب الخم غيري. ولا يطعمه إنسان سواي.

في أحد الأيام انقضَّ علي انقضاضة ظالمة وخائنة وبقوة. حاولت الهروب. إلا أنني وقعت على الأرض. فخلصني منه ابن صاحب المنزل. الشاب.

كان وجهي يقطر دماً. ولما علمت بأنهم قرروا ذبح الديك. دخلت الغرفة وقبعت في مكان خال من الناس. لا يراني أحد. وأجهشت بالبكاء. سمعت صياحه يملأ الحديقة. ربما أمسكوه. كان الديك يصيح في الخارج وأنا أبكي في الداخل.

ذهبت إلى العم حسن. ورجوته، فذهب إلى صاحب البيت وطلب منه عدم ذبح الديك. لأنني كنت قد وعدته أنني لن أخرج بعد الآن إلى الحديقة. حلفت بالقرآن والخبز. عندما رأوا بكائي. لم يذبحوا الديك.

في أحد الأيام. خرجت إلى الحديقة سراً. هززت العمود هزاً قوياً. فسقط الفأس الذي كان معلقاً في أعلاه. ولكنه هذه المرة سقط على رأسي. ودخل الطرف المدبب في جبهتي. فأمسكت به وانتزعته بقوة.

كان الدم يسيل من رأسي ووجهي. دخلت غرفتنا. نساء الحي كن مجتمعات هناك. عندما شاهدنني بهذه الحال. علا صياحهنَّ دفعة واحدة. وصرخن من الخوف، خفت من صراخهن، وأجهشت بالبكاء. فأخذن. حفنة من الملح وضغطن مكان الجرح. ثم وضعن قليلاً من التبغ وضمَّدوا رأسي.

بعدها لم أخرج إلى الحديقة مطلقاً ولذلك كانوا يقولون لي:

ـ عندما فجت رأسك ـ عاد عقلك.

مع أنني كنت لا أخرج لا خوفاً من جرح رأسي، بل خوفاً على الديك كي لا يذبحوه.

زهرة

أمي. لا تعرف القراءة والكتابة. ولكنها حساسة جداً. تحب الخير كثيراً. جميع الأمهات أفضل النساء في العالم. وأمي كذلك. وبما أنها أمي. فهي من أفضل وأحسن النساء.

في أحد الأيام. قطفت زهرة من الحديقة وقدمتها لأمي. فرحت كثيراً. قالت: هيا لنقطف مزيداً من الأزهار يا ولدي.

خرجنا إلى الحديقة. فأشارت إلى زهرة وقالت:

ـ انظر إلى هذه الزهرة. كم هي جميلة؟. هذه الزهور فيها روح يا بني. إذا قطفناها تموت المسكينة. لكنها تكون جميلة أكثر وهي على غصنها. ومع هذا فعند كل زهرة كانت تقول لي:

ـ إذا أردت قطفها اقطفها.

أنا مدين. لأمي بكل ما أملكه من العادات الحسنة والإيجابية.

جئت إلى الدنيا كي أضحك، ولكني أبكي لسبب لا أعرفه

أجمل بيت على طول ضفة النهر القذر. هو البيت الذي يقطنه حافظ رجب أفندي. خارجه مدهون بالصفرة الفاقعة.

كانوا يقولون. صوت حافظ رجب أفندي. جميل جداً. وأنه إنسان مشهور جداً. حتى إنه يغني. هكذا كانوا يقولون. لكن أبي يغضب كثيراً منه أي من حافظ رجب لأنه يغني. باعتقاده أن ذلك يشكل ذنباً كبيراً كونه حافظاً للقرآن.

إلى جانب منزل حافظ رجب، بيت تسكنه امرأة غنية إلى حد ما بالنسبة لنا. وكانت هذه المرأة تحبني كثيراً.

محمد أفندي ابن صاحب منزلنا سيتزوج، العروس فتاة جركسية جميلة جداً. جميلة إلى حد الجنون. وسيقام العرس في حديقة المنزل.

أترابي خُتنوا منذ مدة طويلة. وأمي ما زالت تفكر في موضوع ختاني. من أين ستأتي بالمال. كي تقيم حفلة الختان.

يقولون إن الحفلة تكلف كثيراً. فما كان عليهم إلا أن يحددوا موعد حفلة الختان. ضمن حفلة العرس القائمة بين الشاب الكردي محمد أفندي والفتاة الجركسية الجميلة.

لا نملك أريكة في منزلنا. ننام فوق الفرش الممدودة على الأرض.

وعند الصباح نرفعها. ونضعها في العنبر فوق بعضها وننشر فوقها شرشفاً يغطيها. استعرنا أريكة لليلة واحدة من الجيران. وأعطانا جار آخر طاقماً من الفرش. وضعت الأريكة على طرف الحديقة.

والدي غير مبال بكل هذه الأمور. ربما من شدة الفقر ورُبَّما وهي الحقيقة أنه لا يبالي. وضعت أمي على رأسي غطاءً كتبوا عليه ما شاء الله. وأعتقد أنها استعارت الغطاء أيضاً من أحد الجيران. يومها كنت

ألبس ثياب العيد. البنطال القصير والقميص. وأخذتني أمي إلى منزل تلك المرأة الشبه الغنية القاطنة قرب منزل حافظ رجب لأقبل يدها.

بدأ العرس في تلك الليلة. والذي يعتبر عرساً غنياً بالنسبة لحالنا الفقير. فيه المسرح الكوميدي. والغناء. والرقص. إلى ما هنالك.

وصار محمد أفندي بما معناه ساعدي الأيمن أو كفيلي هذه العادة تطبق في المحافظات بحيث يصبح مساعدي من أقرباء الدم. يعتني بي ويرعاني ويحفظني من كل سوء مدى الحياة. (مثل الإشبين أو العراب) بعد الختان. ذقت الأمرين. بقي الجرح ينزف لشهور طويلة.

وكانوا يضعون عليه من تلك البودرة التي تشبه القهوة. يأخذونها من جذوع الأشجار المهترئة والمعفنة.

الهدية الوحيدة التي جاءتني أثناء حفلة ختاني. أعطتني إياها. تلك المرأة الشبه الغنية. وهي عبارة عن جمل صغير منحوت من الخشب بني اللون جميل المنظر. حدبته عبارة عن غطاء. وفي الغطاء حفرتان جميلتان. عندما رأيت الجمل. نسيت ألم الختان بعض الشيء.

وضعته داخل ثيابي. أو في حضني. أما أبي فقد أعطاني مجيدية من الفضة.

مطربة الحفل امرأة جميلة، كأني أسمع صوتها الآن. صوت نسائي. رخم. مختنق. إلى حد ما، كانت تغني:

جئت إلى الحياة كي أضحك
ولكني أبكي لسبب لا أعرفه
أين أنت يا جملي الصغير الجميل. أين أنت الآن؟.
أنا أبكي لسبب لا أعرفه.
جئت إلى الحياة. أين أنت أيها الجمل الجميل. أين أنت الآن؟.
وأين ذهبت؟.

ارغب. التقط طربوشك

سجلوني في مدرسة الحي. البعيدة عن بيتنا كثيراً. علي أن أسير بمحاذاة النهر الذي أصعد قاطعاً الطريق الطويل حتى آخره. وأنعطف شمالاً. ماراً أمام المخفر؟. صعوداً مقابل البقال اليوناني. حيث المدرسة هناك وهي عبارة عن منزل صغير.

المعلمة امرأة تتارية. وعندها ثلاث بنات. كنت أراهن جميلات. أو هكذا يتراءى لي. يومذاك. كان الروس البيض يتدفقون على استانبول. وعرفت هذا الشيء من خلال حادثين اثنين. الأول: كان والدي يحضر معه إلى المنزل أوراقاً نقدية كبيرة عليها أعداد لاتينية. أمامها أصفار كثيرة ثلاثة أصفار أو أربعة حتى خمسة أيضاً.

كانوا يقولون إنها أوراق نقدية روسية. وأن الروس البيض هربوا هذه الأموال معهم بعد الانقلاب الشيوعي. كان أبي قد أحضر معه عدة أوراق منها. وكان الآخرون يملكون الكثير من هذه الأموال.

ويقال: إن والدي كان يشتري الواحدة من هذه النقود بمائة (بارا).

والحادث الثاني الذي أعرفه. عن تدفق الروس إلى استانبول: هو وجود امرأة روسية جميلة تقيم في مدرسية الحي. امرأة فاتنة. مقتدرة وعارفة بكل الأمور. كانت تصنع الآباجورات الجميلة من الفلوشات.

وذات يوم. عندما رأينا آباجوراً عملاقاً صنعته تلك المرأة على السطح. أصابتنا الدهشة جميعاً نحن تلاميذ المدرسة. كان ذلك الآباجور يشبه إلى حد كبير المركبة الفضائية التي نشاهدها اليوم.

وكما الحال في كل المدارس. كان التلاميذ يلبسون الطرابيش على رؤوسهم أيضاً.

كنا نجلس على الأرض وأمامنا (طاولات) خشبية صغيرة، وأول

طربوش لبسته في حياتي كان في أول يوم ذهبت فيه إلى مدرسة الحي.

تعلمنا تركيب الحروف. وحفظنا السور القصيرة من جزء عمَّ.

كنا نبدأ الكتابة بالريشة القصبية وبهذا الدعاء: رب يسر ولا تعسر رب تمم بالخير. وكنا نقرأ هذه الأدعية بالعربية قبل أن نعرف معناها بالتركية وفي بداية كل عمل نود القيام به.

في أحد الأيام بينما كنت أقرأ ألم نشرح لك. وأنا أهز نفسي هزاً قوياً عرفت أن هذه السورة هي سورة الانشراح.

كيف تعلمنا. وحفظنا كل تلك الكلمات التي لا نعرف معناها أو مضمونها؟. ونحن أطفال صغار. كيف عمدوا إلى غسل دماغنا آنذاك. حفظنا أشياء كثيرة ونحن أطفال في الخامسة من عمرنا.

(ألم نشرحِ لك صدرك ورفعنا عنك وزرك. الذي أنقَضَ ظَهركَ. ورفعنا لك ذِكْرك. فإن مع العسر يسرا وإن مع العسر يسرا. فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب).

لم يشرحوا لنا معناها بالتركية. ولربما لكون اللغة التركية أصعب من العربية كنت أقرأ هذه السورة. ولما وصلت فيها إلى الآية الأخيرة. وما إن خرجت من فمي وإلى ربك فارغب. وإذا بالطربوش الذي على رأسي يطير. آمان. طربوشي سيضيع مني. إنه يطير. نظرت نحو الأعلى. وإذا بالطربوش على طرف عصا المعلمة. كيف استطاعت أن تلتقطه بطرف عصاها. وهي جالسة في مكانها؟.

عندما نطقت بكلمة فارغب. قالت المعلمة:

ـ فارغب. التقط طربوشك. (هنا تأتي الصيغة بالتركية على القافية) وأخذتْ طربوشي عن رأسي، احترت في أمري. ماذا أفعل؟. لا أستطيع أن أطالب بالطربوش من شدة خجلي. عندما أعود إلى البيت. ستقيم أمي القيامة على رأسي، إذا قلت لها: إن المعلمة أخذت

طربوشي. هل تصدقني؟. فشراء طربوش آخر لي يعادل شراء مسجلة للبيت في هذا الزمن.

رجعت إلى البيت باكياً. لا أتمنى أن يراني أحد على هذه الحال. كنت أبكي سراً على الدوام. ولهذا السبب كان أبي يقول لأصدقائه:

ـ ابني لا يبكي أبداً.

عندما اقتربت من المنزل. مسحت وجهي وعيوني. وقلت لأمي حذراً:

ـ المعلمة أخذت طربوشي يا أمي.

قالت: ما شاء الله. ما شاء الله. ابني وصل فارغب. قالت وبدأت تقبلني وتمسح رأسي ووجهي بفرح وسرور.

فاتضح لي أن هذه عادة. عندما يصل الطفل بقراءته وحفظه للقرآن إلى سورة الانشراح. وعندما ينطق بكلمة فارغب. تلتقط المعلمة طربوشه وهي تقول: فارغب التقط طربوشك. وهكذا تكون المعلمة قد بلغت أبوي الطفل رسالة: معناها: ابنكما نجح. كبطاقة الجلاء.

بعد الامتحان، عندها يذهب أحد الأبوين إلى المعلمة حاملاً معه بعض الحلويات كالبقلاوة أو الفطائر. ويرجع بالطربوش.

صنعت أمي بعض الفطائر، وحملتها إلى المعلمة فعاد إلي طربوشي.

أما أمي فقد حزنت كثيراً لأنها لم تأخذ للمعلمة شيئاً من البقلاوة. غير أني الآن لا أستطيع أن أشرح لأولادي سبب حزن أمي.

الحقيبة القماشية

مدرسة الحي بعيدة. مطر وبرد وثلج. لا أملك معطفاً. أحس ببرد قارس. يداي تجمدتا.

خاطت لي أمي حقيبة قماشية ملونة من الخاكي. وضعت دفتري وكتابي ضمنها. من شدة البرد. لم أستطع إمساك الحقيبة بيدي. كنت

أضمها تحت إبطي. ولكي أقي يدي من البرد كنت أضعها تحت المحفظة.

عند العودة من المدرسة. كانت يداي تؤلمانني كثيراً. لدى وصولي إلى المنزل مساء أحد الأيام، قالت لي أمي:

ـ أين محفظتك؟.

نظرت تحت إبطي. الحقيبة غير موجودة في مكانها. يداي جامدتان من شدة البرد. إحساس اللمس فقد كلياً منهما. لم أشعر بسقوط الحقيبة من تحت إبطي. رجعت القهقرى أفتش عن الحقيبة طوال الطريق، ولكن دون جدوى.

كان أبي يقص هذه الحادثة بشكل آخر وكما يلي:

ـ لقد اشتريت له حقيبة جديدة. غالية الثمن جداً. وجميلة جداً. ومتينة جداً. لها ثلاثة جيوب. قفل. هل تعرفون ماذا حصل؟. أضاعها منذ اليوم الأول. من شدة البرد. واه يا بني. عندما سألناه عن الحقيبة نظر تحت إبطه. وعندما لم يجدها بدأ يجهش بالبكاء. قلت له: لا تبكِ يا بني سأشتري لك حقيبة أفضل منها واشتريت له حقيبة جديدة.

كان والدي يقص حادثة الحقيبة على هذا النحو. ومن كثرة تكرارها صار يصدق نفسه. كان أبي يقص ما يجول في خاطره. وما كان يتمناه. ولم أستطع أن أقول له ولو مرة واحدة:

ـ ليس الأمر كما ترويه يا أبي.

كان يروي القصة ضاحكاً. وأنا أستمع إليه مبتسماً.

أكثرنا يخجل من الفقر. وكأنه ذنبنا. وأنا كذلك أخجل من عيب الفقر. على مدى سنوات طوال. حتى اليوم الذي صرت فيه كاتباً. وما فهمته بعد ذلك، أن العيب هو في الأثرياء. في بلد غالبيته من الفقراء.

سيأتي يوم. يخجل فيه المرء من غناه. ويحاول جاهداً كي يبقي إثراءه سراً.

الحادثة التي سأرويها لكم جرت بعد عدة أسابيع من حركة (٢٧) أيار.

كنت مع أحد أصدقائي الأغنياء. في سفينة شحن السيارات نجتاز البوغاز. وفي مجرى الحديث بادرني بقوله:

ـ سأبيع سيارتي الكاديلاك.

قلت: لماذا؟.

قال: لأنني أخجل؟.

قلت له: ولماذا تخجل.

أجاب: عندما أمر في الشارع، ينظر المارة إلى السيارة بشكل غير طبيعي. أخجل منهم ومن نفسي. ومن كوني أركب سيارة مميزة. سأبيعها وسأشتري سيارة بسيطة.

خجل الأغنياء عندنا يدوم لوقت قصير بين الأكثرية الفقراء. يومين أو ثلاثة أيام على مدى ثلاثين عاماً.

عندما أضعت حقيبتي في يوم مثلج. لم يشتر لي والدي بديلاً عنها. ولكن أمي. خاطت لي حقيبة بديلة من قماش الخاكي السميك.

حلاوة الجوز

في مسرحيتي هل تقتربون بعض الشيء. يعمد الطفل الصغير ميشا إلى بيع الآلة الموسيقية التي صنعها والده الأسطة متّى في السوق. عاد الطفل بعد أن باع الآلة ولم يعط والده الحساب كاملاً. عندها غضب والده غضباً شديداً. تدخلت زوجته قائلة:

ـ لا تحمل عليه كثيراً يا روحي. ربما اشترى حلاوة الجوز.

هذه المسرحية ترجمت إلى الألمانية والإنكليزية واليونانية. ووردتني

رسائل من المترجمين جميعاً وكأنهم متفقون على نفس النقطة يسألونني عن حلاوة الجوز:

فشرحت لهم الأمر برسالة أرسلتها لهم.

مرة أخرى وصلتني رسائل أخرى يسألونني فيها لماذا حلاوة الجوز وليس شيئاً آخر مثل الشوكولا. أو غيره؟. طبعاً لم أستطع الإجابة عن سؤالهم هذا. لأنه صعب جداً.

الآن سأشرح الأمر لكم.

باعة كثيرون يقفون أمام باب مدرسة الحي. يبيعون الفاكهة وغيرها.

فيتهافت الأطفال عليهم ليشتروا ما يريدون. ولم يكن أهلي قادرين على إعطائي مصروفي اليومي ولذا لم يكن بمقدوري أن أشتري منهم شيئاً.

الفقر يجعل عيون البعض جائعة وكما يولّد الشبع في عيون الآخرين شبعاً حسب شخصية الإنسان. أما أنا فقد خلقت القناعة شبعاً في عيوني لأنني ما كنت أشتهي شيئاً وبخاصة عندما أرى الأطفال وهم يأكلون الحلويات المتنوعة والبندق والفستق. والبزور وهم يتلمظون ويلحسون أيديهم وأصابعهم. ولكن الوحيد الذي كنت أمر أمام بائعي حلاوة الجوز دون أن انظر إليهم كي لا تثار شهيتي. في أحد الأيام. اشترى أحد زملائي قطعة منها. فقرض منها قطعة وناولني الباقي.

قلت له وكأنني لا أشتهيها.

ـ لا أريد.

لقد علمتني أمي أن طلب المال عيب. وطلب شيء من بائع متجول. قلة تربية. لذا ما ألححت يوماً على أمي لشراء شيء ما. على اعتبار أنه عيب كبير.

كما هو الحال في كل صباح. استيقظت من نومي باكراً. أبي وأمي

كانا نائمين. لم يستيقظا بعد. رأيت قميص أبي مرمياً فوق المصطبة. دسست يدي في جيب القميص. وخلطت الأوراق النقدية التي فيه. وأخرجت ورقة من فئة مائة بارا. ثم حملت حقيبتي القماشية. وخرجت إلى الطريق. بائع حلاوة الجوز هناك. اشتريت منه قطعة كبيرة.

عندما حاولت قضمها. وإذا بطفلين يتدافعان. وقعا فوقي. فسقطت قطعة الحلاوة على الأرض. وسط مياه آسنة. أخرجتها من الماء. كنت في حيرة من أمري. ماذا أفعل؟. وكيف أتصرف، وإذا بالطفل الذي حاول إعطائي قطعة من الحلوة قبل أيام. يقول لي:

ـ ألن تعطيني قطعة منها؟.

قلت له: وقعت في الماء.

قال: ليكن.

أعطيته الحلاوة. فأكلها بشهية.

رجعت إلى البيت ونسيت أنني اختلست المال من جيب أبي.

قال لي والدي بصوت ناعم:

ـ ماذا اشتريت اليوم بمصروفك يا بني؟.

قلت: أي مصروف يا أبي؟. قلت ذلك. وتذكرت ما حصل معي. بعد أن عاد إليّ روعي. تذكرت المال الذي أخذته من جيب القميص. طأطأت رأسي نحو الأرض. ولم أنبث ببنت شفة. ولو تفوهت بكلمة واحدة. كنت سأبكي.

قالت أمي على الفور:

ـ لا تضغط عليه كثيراً. ربما اشترى قطعة من حلاوة الجوز.

عندما كنت آخذ المال من جيب القميص. كان أبي وأمي يراقبانني من تحت اللحاف. فنهضت والدتي وتبعتني خطوة بخطوة حتى المدرسة. ورأتني وأنا أشتري حلاوة الجوز من البائع.

من عادة والديّ إذا شاهداني أقترف ذنباً. ألا يقولا لي شيئاً. وكأن الأمر عادي جداً بالنسبة لهما. وكم هو رائع هذا التصرف. لأن تأثيره يكون إيجابياً. انظروا. المسرحية التي كتبتها بعد أربعين عاماً. أدخلت فيها حلاوة الجوز.

الملائكة

كنت في الخامسة والنصف من عمري. عندما اصطحبني أبي إلى أحد الجوامع في ليلة من ليالي رمضان لنصلي صلاة التراويح. وقال لي يومها:

ـ افعل ما يفعل الكبار أمامك.

الصلاة. صلاة التراويح. صلّ. صلّ. لا تتوقف. كنت أقف خلف آخر صف من المصلين. سجدنا وركعنا وقمنا. سجدنا وركعنا وقمنا. لا أدري في أي ركعة حصل أن. سجدت وبقيت مكاني دون حراك حيث غلب علي النوم. ونمت.

يقولون أنه عندما انتهت الصلاة بحثوا عني هنا وهناك في كافة أنحاء المسجد حتى وجدوني. حملني أبي بين ذراعيه وجئنا إلى البيت. بعد ذلك صار يروي هذه الحادثة ويضحك.

مرة أخرى أخذني إلى جامع آخر. تلا أحدهم القرآن بعد صلاة الظهر. وبما أن تلاوة الرجل كانت رائعة إلى حد كبير. أعجب به والدي. وتعرف عليه هناك. وأحضره إلى منزلنا. اسمه غالب علي غالب. وأصبح بعد ذلك. العم غالب.

العم غالب. روماني الأصل. يتحدث العربية والفارسية والفرنسية وفوق ذلك كله ملم بعلم الرياضيات وهو درويش صوفي في الرفاعية والقادرية. ويعتبر حسب زمانه. تقدمياً وثورياً إلى أبعد الحدود. لذا لم يستطع معاشرة الشيوخ.

كان عاطلاً عن العمل. لكنه خطاط ممتاز ينظم الشعر الغنائي ويلحنه. حتى أنه كان يلحن الأناشيد الوطنية.

العم غالب هو من علمني القراءة والكتابة في بداية الأمر. ثم بدأنا باللغة العربية. في الثامنة من عمري حفظت القرآن الكريم. سر والدي لذلك. وصار يتباهى بي أمام الآخرين.

أما والدتي فكانت غاضبة. ألبسوني جبة. ووضعوا عمامة على رأسي. وصرت أقرأ القرآن بعد صلاة الظهر. في الجامع الكبير. في قاسم باشا. كان المستمعون يبكون عند سماعهم تلاوتي. ويحتارون في كيفية تعلمي التجويد وأنا بهذا العمر. ذات مرة بعد أن تلوت بعض الآيات في الجامع الكبير. دنا مني مؤذن الجامع وحدثني قائلاً:

- لماذا لا تأتي إلى صلاة الجمعة؟. في أيام الجمعة يمتلئ الجامع بالملائكة وتطير هنا وهناك فوق هذه القبة.

فعل الطيران أيقظ في مشاعري حب الطيور. حسبت الملائكة طيوراً كبيرة مزينة. وصرت أذهب إلى صلاة الجمعة. وفي كل جمعة كنت أسأل العم غالب.

- أين الملائكة يا عم غالب؟.

شرح لي العم غالب: أن الملائكة مخلوقات نورانية لا ترى. ملائكة الرب التي توسلت إليهن كثيراً من أجل أمي وأختي الميتتين كن مختفيات. لا يستطيع أحد رؤيتهن.

السخرية

بعد الآن لا يوجد مدرسة. لن يرسلونني إليها. لأن العم غالب هو من كان يدرسني. الدرويش علي غالب. ينام في غرفة صغيرة في تكية قاسم باشا.

غرفة قذرة. صغيرة. ذات رائحة خشبية عفنة. كنت أتلقى الدروس

في هذه الغرفة. أتعلم حسن الخط. يعني أن اكتب بخط جميل. وأتعلم الحساب والهندسة. بدأنا بالدروس العربية: (نصر ـ ينصر ـ نصراً ـ وهو ناصر وذاك منصور ـ لم ينصر ـ لما ينصر) أوف ف ف.

دروس التجويد (إدغام مع الغنة ـ وإدغام مع الشمسية ـ يجب ان أمد مقدار أَلِفَين) أوف. أوف. أكاد أختنق.

لم اعش طفولتي أبداً. لم أدحرج (كراجة) ولم أقفز على الحبال. ولم ألعب بالطيارات الورقية. أو بأية لعبة كان يلعبها الأطفال آنذاك.

لم يمر علي يوم واحد كنت فيه طفلاً. مع أنني كنت أحب اللعب والجري والقفز كما يحب الأطفال.

ينتهي الدرس. أصعد إلى غرفة العم غالب. كنت أراقب الأطفال وهم يلعبون في العرصات وداخل البساتين وعند مروري بمحله (يحي كاهيا في قاسم باشا) في طريقي إلى بيتنا. أراقبهم وأشتهي اللعب معهم. كنت امشي. أسخر من الأطفال حيناً ومن نفسي أحياناً. ها أنذا أكبر. سأصبح غنياً. سيكون عندي منزل كبير غرفة كبيرة. وأجمل غرفة فيه لن يدخلها غيري أبداً. لأنها ستكون مليئة بالألعاب. القطارات وهي تسير فوق السكك الحديدية. الدمى المتنوعة. والسيارات والزوارق التي تسير لوحدها داخل حوض مملوء بالماء. وبالونات ونفاخات ورقية هوائية. وطيارات.

العيب أن يلعب شخص كبير بهذه الدمى. ولهذا السبب فقط. سأغلق باب غرفتي الخاصة من الداخل.

أصِلُ المنزل وأنا أطير مع تخيلاتي الميتة. أحب أحلام اليقظة والسخرية. لأنها الوحيدة التي بقيت لي ميراثاً من طفولتي. فهي تسلي الإنسان وتريحه وتفرغه من كل الآلام والمصاعب. فالفن أحياناً يعتبر نوعاً من أحلام اليقظة أو السخرية. لأنه يخرج مكنونات الإنسان وبقية الكبت ويريح الأعصاب.

العم غالب مدمن على النارجيلة. مقاهي كثيرة يتردد إليها. وكثيراً ما كنا نأخذ الدروس في المقاهي. ونمضي فيها أكثر من خمس ساعات في اليوم. هذه هي مصيبة طفل صغير لا يتعدى عمره ست سنوات. غذاؤنا الكعك والشاي. ونادراً جداً ما كان أبي يعطي للعم غالب خمسين قرشاً كي نذهب إلى المطعم.

في نهاية الطريق الطويلة الممتدة. مقابل الجامع، الكبير، مقهى صغير وسط حديقة تحيط به الأشجار من كل جانب. تعود ملكيته للسيد حسن أفندي. وحسن أفندي هذا يصب فضلات الشاي. والمياه الملوثة عند جذور الأزهار. الكثيرة والمتنوعة. المتسلقة منها والعادية. ليسقيها.

يحيط بالحديقة سور من العيدان المتقاطعة. والأخشاب. ليفصلها عن الطريق. أو تتسلق عليها الأزهار المتنوعة. تتفتح أكمامها عند الصباح عن ألوانها. الدخانية والبنفسجية الفاتحة. والوردية. والسماوية الفاقعة. على شكل أبواق بيضاء تستقبل النور بفرح وعند المساء تعود وتنطوي وتغمض عينيها وتنام. وكأن عملها اليومي قد انتهى.

وفي زاوية الحديقة. عريشة عنب خضراء تخيم بظلالها الوارفة على جزء غير صغير من الحديقة. المشهد الماثل أمام عيني: طاولة خشبية عرجاء مهترئة. استوطنت الأقذار والأوساخ في شقوقها. عليها قطعة مرمرية مربعة. ويداي الاثنتان فوقها. يدان صغيرتان. في اليمنى. قلم رصاص ماركة التمساح. وتحت اليسرى مجموعة من الدفاتر.

وليس بعيداً عنها علبة معدنية صفراء يوضع فيها السكر. يتطاير حولها سرب من الذباب. وكؤوس شاي فارغة. مهملة ومعلقة صدئة تغفو بين الأباريق. نقشت على مقبضها صورة أسد إيراني. أما أنا فكنت أشبه

بقزم صغير من أقزام (جيلفر). أمام العم غالب بعباءته البنية ذات الياقة المفتوحة. وكأن الزمن قد جمد كلياً. لا يتحرك. هذه هي الصورة الماثلة الآن أمامي. فيلم قصير من طفولتي.

موسيقا متزامنة. رائعة. حشرجة نرجيلة العم غالب.

ـ هيا قل فعل كتب.

ـ أقوله. مسترسلاً.

ـ كتب ـ يكتب ـ كتابة. فهو كاتب وذاك مكتوب. لم يكتب. لما يكتب.

ـ عدد الأبواب.

ـ !.

ـ أذكر اسم الفاعل.

عندما يأتي دور أسئلة الحساب. لا أستطيع الإجابة عنها. أفكر وأفكر. أحس وكأن ساعات طويلة قد مضت. آه لو يأتي المساء وأتخلص من هذه المصيبة. أراقب الأطفال في الطريق الطويلة. وأحلم أحلام اليقظة. حتى أصل إلى المنزل.

سأترك أفكاري وأحلام يقظتي وأرجع إلى العم غالب. أراه يقرأ لمعجبيه الأشعار الصوفية:

لماذا أنت مغرورة أيتها النفس الأمارة بالسوء. كوني عظيمة. أية هدية تمتلكين كي تقدميها للمولى الجبار، جئت إلى الدنيا. وتقولين أنا أنا. كوني عظيمة: أية هدية تمتلكين تقدمينها للمولى الجبار؟.

كان يستخف بمستمعيه. أكانوا يفهمون كلامه أم لا. وكأنه يتحدث لنفسه وليس للآخرين يحكى عن سقراط وأفلاطون وأرسطو. ثم يتابع: قال ابن خلدون. وقال الجاحظ. وقال مولانا. أما أنا فكنت احسب هؤلاء الذين يتحدث عنهم الأنبياء أو الرسل.

وكان بين المستمعين: مغن في البحرية. وإمام المسجد. ومتقاعد مبشر. وكاتب عرائض وبائع خردة. والقهواتي حسن أفندي.

أحياناً كان يتذكرني فيحصل ما أخشاه.

- ماذا حصل. هل رسمت معيناً أو مثلثاً؟.

- رسمت

- ماذا يسمى المثلث ذو الأضلاع المتساوية؟!.

- مثلث متساوي الأضلاع.

- طيب. انظر إلى هذه الزوايا التي رسمتها. ماذا تسمى؟.

- زاويتان متجاورتان داخليتان.

المستمعون في ذهول تام. يحسبونني أقرأ دعاء. يرددون.

- ما شاء الله ـ ما شاء الله.

يقول العم غالب: اكتب!.

اكتب مسألة حسابية أو معادلة. وأغوص في التفكير ويغوص هو في حديثه مع الآخرين. في الحقيقة ما كنت أفكر. لكنني أتظاهر بذلك. علي أن أحل المسألة الحسابية التي أملاها علي. أرفع رأسي نحو الأعلى والأسفل وكأنني أغوص في التفكير والحل. وجهي متجه صوب الجدار. حفرت فيه صورة حجرية ملونة لملكة جمال العالم. وإلى جانبها صورة شاه إيران وزوجته. في عنقها عقد ماسي مرصع بست قطع ألماسية. بدت لي المرأة قبيحة. مع أن الشاه يستطيع أن يتزوج ملكة الجمال. حتى ملكة جمال العالم.

- هل حلّيتها؟.

أعود إلى حاضري ويقظتي مع سؤال العم غالب. كلا لم أحلّها. تتعمق الأخاديد الثلاثة الموجودة بين حاجبي العم الغالب. وتتسع أكثر. يحضر أبي. يأخذني من المقهى. بعض الأمسيات نذهب إلى بازار

قاسم باشا. نشتري خبزاً قديماً يابساً. أرخص من خبز الفرن بعشر «بارات». يضع الخبز في صرة كبيرة يخرجها من جيبه أمام صندوق البائع ذي العجلات الثلاث بعد أن أعطاه أربعين بارة.

كان الغلاء فاحشاً.

يقول والدي: كنا بأربعين بارة نأكل أفخر المأكولات. وفي أفخر المطاعم. في عهد أفندينا السلطان عبد الحميد.

نعود إلى بيتنا. يعني إلى غرفتنا الوحيدة. من واجبي أن أنشر قطعة القماش التابعة للمائدة وأضع فوقها الطاولة الخشبية المستديرة. وفوقها الصينية التي لم تكن من النحاس. بل من معدن آخر. على أطرافها رسوم لأزهار متنوعة. كنت احبها كثيراً وأتباهى بها أمام الجيران. لأنهم لا يملكون مثلها. نتربع على الأرض ونضع أطراف قطعة القماش فوق أرجلنا. كي لا تسقط فتات الخبز على الأرض.

تضع أمي الطبق النحاسي الكبير المملوء بالطعام وسط الطاولة. نأكل جميعاً من ذلك الطبق. ولكن ليس بأيدينا كما يفعل الجيران لأن أمي قد أدخلت إلى بيتنا الملاعق والشوك. فالجيران كانوا يستعملون أصابعهم بدلاً منها.

لوهلة طويلة بقي طعامنا من نوع واحد. خال من اللحم وعلى الأغلب الفاصولياء اليابسة. لا نمل أكلها أبداً. في بعض الأحيان توضع السلطة أو النجومية (الخيار+اللبن). وعند الانتهاء من الطعام يجب أن نقول: الشكر لك يا ربي فالإنسان لا يشعر بالشبع إذا لم يقل ذلك: فلو أكلت لقمتين فقط وقلت الشكر لك يا ربي تشعر بأنك انتفخت من الشبع.

أما الضيف فمكرم جداً عند أمي، لأنها تطهو أنواعاً كثيرة من الطعام ناهيك عن الحلوى. ولا ينهض أحد عن المائدة إلا بعد تلاوة بعض

الأدعية. ونرفع أيدينا إلى الأعلى. فإن كان العم غالب موجوداً هو من يقرأ الدعاء. وإلا فوالدي من يتولى ذلك. ونقول آمين.

بعد الانتهاء من الدعاء مع مسحة خفيفة لوجوهنا. يقول الضيوف لأبي: ليهب الله جزدانك بركة ابراهيم الخيل.

بعد الانتهاء من الطعام. أضع الطاولة فوق المصطبة. حيث تتحول من طاولة طعام إلى طاولة للقراءة والكتابة. على الأقل بالنسبة ثم نطفئ مصباح الكاز ذي النمرة الخامسة. كي نوفر الوقود. ونشعل بدلاً عنه السراج ذي الضوء الخافت الذي يشبه عيون الأموات. أكتب الوظائف التي أعطاني إياها العم غالب. ويبدأ النعاس يغالب أجفاني. فيصطدم رأسي بالطاولة مرات عدة حينها تقول أمي:

ـ هيا يا بني. اترك الدرس واذهب للنوم.

درس في الجمباز

ركبنا أنا والعم غالب إحدى سفن الخليج الصغيرة. من ميناء الجسر.

نحن الآن في إحدى صالات الدرجة الثانية. وجد العم غالب على الفور أناساً يتحدث إليهم. يقص لهم حكاية:

ـ يقال أن حضرة الحاج بكتاشي ولي: أعطى أحد مريديه. ثلاث سجاجيد وقال له: احملها إلى أخي حضرة الشيخ أحمد الرفاعي.

حمل الدرويش المسكين السجاجيد الثلاث وسافر. كان عليه أن يقطع الأناضول من غربها إلى شرقها. حتى يصل إلى الشيخ احمد الرفاعي وهو جائع ومتعب وحائر. قال في نفسه: سأبيع منها واحدة وأحمل الاثنين إليه. من أين سيعرف أنني أحمل إليه ثلاثة سجاجيد؟.

قال ذلك وباع واحدة منها. وجعل من ثمنها زاداً لسفره الطويل.

بعد أيام. انتهى زاده. ولم يبق معه قرش واحد يبتاع به طعاماً فقال في نفسه: كيف سيعرف أني احمل إليه سجادتين. سأبيع إحداهما

وأحمل له الأخرى. بعد مضي شهور طويلة أوصل السجادة الوحيدة إلى حضرة الشيخ أحمد الرفاعي وقال له. بعد أن قبّل طرف ثوبه. هذه هدية الحاج بكتاشي ولي.

فما كان من حضرة الشيخ أحمد الرفاعي إلا أن فتح النافذة التي فوق رأسه وقال يا أخ حاج بكتاش. هل أرسلت لي سجادة واحدة؟. فجاء صوت من خارج النافذة يقول: أرسلت لك ثلاث سجاجيد أيها الأخ.

لم يستطع الدرويش المسكين التحمل أكثر وهو جائع ومتعب. فخلط الحال بالأحوال وعلى مدى شهور طويلة وقال لهما:

ـ بما أنكما قريبان من بعضكما هكذا أيها (البزونكان الكبيران) المشعوذان لماذا تركتماني أحمل السجاجيد طوال هذه الشهور وجعلتما مني سارق سجاد. لماذا لم تعطوا السجاجيد لبعضكما من النافذة؟.

كان العم غالب يستعمل كلمة البزونك الكبير كثيراً في أحاديثه وكأن الكلمة تعني منصباً أو مقاماً أو رتبة كبيرة بالنسبة له.

ثم يقص لهم عن عبد القادر الجيلاني: وعن سقراط وأفلاطون. ويلفظها: فلاطون.

كم كان حديثه شيقاً للمستمعين. كانوا يفتحون أفواههم وهم ينظرون في وجهه. ويصغون إليه. ويهمسون فيما بينهم بتعجب.

ـ إنه إنسان عالم!.

ولك آمان لقد وصلت السفينة إلى ميناء قاسم باشا منذ وقت طويل. وبينما كان يهبط السلم مسرعاً. كانت السفينة قد أقلعت من الميناء. فيقفز العم غالب من السفينة. ويقول لي عن الرصيف.

ـ اقفز. هيا اقفز بسرعة.

إذا قال العم غالب اقفز. معناه يجب أن أقفز. رجعت نحو الخلف

استعداداً للقفز غير أن المسافرين امسكوا بي. وإلا كنت سأقفز. ليس إلى الرصيف. بل إلى البحر. لأن الباخرة قد ابتعدت أكثر من ثلاثة أمتار عن الرصيف.

دارت السفينة كل موانئ الخليج. سلمني موظف الميناء إلى الموظف المسؤول عن الطعام. كانت الظلمة قد أطبقت تماماً. وضعوني في سفينة أخرى أعادتني إلى ميناء قاسم باشا. كان العم غالب ينتظرني على الرصيف. والغضب يسيطر عليه بشكل غير معقول. بعد أن عدنا إلى البيت قال:

ـ بعد الآن سأعطيك دروساً في الجمباز. لو أنك تدربت على الجمباز لقفزت من السفينة بسرعة. في القرن العشرين. على الجميع أن يتدربوا على الجمباز. سنبدأ بالدروس اعتباراً من صباح الغد.

بدأ والدي يستعر غيظاً من كلمة الجمباز «جيمناستيك» ويقول:

ـ ما هذا الجمباز الذي تتحدث عنه؟. ليقرأ دروسه. ليتعلم العربية والفارسية.

أما العم غالب فقال:

ـ التربية الروحية والتربية البدنية يجب أن تسيرا جنباً إلى جنب.

الجمباز بالنسبة لأبي كفر. كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير.

بقي مشروع دروس الجمباز مجرد قول فقط. يا ترى كيف كان سيدربني العم غالب على الجمباز؟. وهو على الدوام بعباءته السميكة ذات اللون البني وياقتها المتسخة بالسمن والزيت. وعلى رأسه طربوش من شعر الماعز. طوقته عمامة خضراء، وينتعل في رجليه حذاء بلاستيكياً. صيفاً وشتاءً. لا اعرف ماذا كان فطوره، أما غذاؤه فكان يأكل الكعك مع الشاي. وبين حين وآخر كنا نذهب إلى بعض التكيّات الدينية. نتناول الطعام هناك.

أول مرة أكون فيها معلماً

ظننت اني اعرف أشياء كثيرة فوجدتني لا أعرف شيئاً.

كان العم غالب عندنا في المنزل فنهض وقال: ـ صارت الساعة الثانية عشرة. حان وقت الذهاب. فرددت عليه مباشرة: انتظر حتى تصير الثالثة عشرة وتذهب.

ضحكوا كثيراً. وسخروا مني أكثر. الساعة التركية آنذاك كانت تنتهي في الثانية عشر. ولا تكون الثالثة عشرة أبداً. والغروب قديماً كان يحين عند الثانية عشرة. في فصول السنة كلها.

قالوا أن فرماناً جديداً قد صدر. أو من هذا القبيل. أن مصطفى كمال قد أمر. لست أدري: انه على الشيوخ والأئمة الخضوع لامتحان. قبل أن يصبحوا شيوخاً أو أئمة للمساجد. وإلا فسوف يحرمون المشيخة أو الإمامة.

بدأت أعطي دروساً لأحد أئمة الجوامع الكائنة قرب بازار قاسم باشا. أتقاضى منه في الأسبوع خمسين قرشاً. اعلمه. التجويد واللغة العربية.

كان إيجار غرفتنا آنذاك مائة قرش في الشهر. في الوقت ذاته. كان العم غالب يعطي دروساً في الرياضيات والجبر لعقيد في البحرية أيضاً.

في إحدى الأمسيات. دعانا العقيد لنتناول طعام العشاء على مائدته.

ظننت أن بيته مثل السرايا الكبيرة. وهناك رأيت الببغاء لأول مرة. وسمعتها تتكلم. ففي كل مرة يدق فيها الباب الخارجي للمنزل. كانت الببغاء تصيح من الطارق؟.

كان العم غالب يقرأ في ذلك البيت بيوتاً من شعر نسيمي وأشعاراً للشاعر المصري نيازي وللشاعر البغدادي روحي ويتلو الإلهيات للشيخ

سلطان. ثم قرأ شيئاً من أشعاره التي نظمها. وتدعى شعر التكيّات والزوايا.

أعطاني العقيد البحري معادلة في الجبر فحللتها. وأعطاني معادلة أخرى. حللتها أيضاً. وأخرى وأخرى. أربع معادلات حللتها كلها. بدأ العقيد البحري يجهش بالبكاء متأثراً بشدة ذكائي. وقال أن هذا الحدث ليس سوى معجزة إلهية بحتة. كيف يقوم ولد صغير بحل هذه المعادلات الصعبة والمعقدة؟. كان الرجل يبكي حقيقة.

وبشكل فاضح. ولدى رؤيتي هذا الرجل العملاق يبكي أمامي. بدأت أنا الآخر بالبكاء. وهمست في أذن العم غالب:

ـ هل حليت المعادلة خطأ؟.

فضحكوا وضحكوا.

المدرسة الحكومية

حصل أول نزاع كبير بين أمي وأبي. بسببي. كانت المدارس الحكومية آنذاك حديثة العهد. ويسمونها. الكتاتيب الابتدائية أو المدارس الابتدائية. كانت أمي تقول:

ـ سأضع ولدي في مدرسة حكومية.

أما والدي. فكان ضد كل شيء يأتي من طرف الحكومة. لأنه سيجعل مني حافظاً للقرآن أو درويشاً أو شيخاً. شيخاً بعمامة. ولأول مرة وقفت أمي في وجهه. عاندته. حتى ولو تلقت منه الصفعات الموجعة أو ضربات العصا. وكانت تقول:

ـ هل ستجعل من الولد صوفياً.

أمي التي قالت هذا الكلام. كانت تصلي الفروض الخمسة. ولا تفطر ولو يوماً واحداً من شهر رمضان.

كان العم غالب يؤيد ويدعم رأي أمي. يجب أن تذهب إلى المدرسة

الابتدائية هذا ما كانت تقوله أمي على مدى أيام طويلة:

ـ سيذهب ولدي إلى المدرسة الحكومية. وسيكون إنساناً كبيراً. تقول ذلك وتبكي وتبكي. وكما هي العادة. حصل ما أراده أبي. وخسرت أمي. في ذلك الوقت كانت هنالك كلمة تتردد باستمرار تنصر.

ومعناها بالتركية. أي تحول المسلم إلى مسيحي. حسبما يقوله أبي. إن الذين يدرسون في المدارس الحكومية. يتنصرون أي يصبحون نصارى أو مسيحيين.

أنا شخصياً كنت مع أمي. لأنها أمي أولاً... وثانياً لأن تعلم اللغة العربية صعب جداً. كنا نتعلم بالفارسية. ولست أدري لماذا.

بدأ العم غالب. يعلمني الفرنسية بدلاً من الفارسية. هل لأنه كان غاضباً من أبي. أو لسبب آخر؟. لست أدري.

الأمهات يأكلن الضرب

لم يبدر أي شيء غير عادي عن النساء الجارات اللواتي ينالهن الضرب بالعصي من أزواجهن. فالخالة زهرة القاطنة في غرفة مقابل غرفتنا. كان نصيبها الضرب والتوبيخ من زوجها كل يوم دون أن يسمع لها صوت.

أي لم يكن أحد يسمع صوتها. أما صراخ زوجها فكان يملأ البيت باستمرار وكأنه هو من ينال الضرب.

أما الخالة حواء. فكانت تنال نصيبها من زوجها حسن أفندي مرة كل يومين أو ثلاثة، لأنهما شابان ومتزوجان حديثاً. منذ عام ونصف تقريباً. ولم يكن زواجهما قد أكل عليه الدهر وشرب. كان يضربها عند كل مساء تقريباً.

كنت أسمع من أمي قصص الضرب والإهانة للنساء الجارات. لأنها كانت ترى وتشاهد عن كثب. قصة المآسي المتكررة والمتنوعة. وآثار

العدوان والعنف الجسدي ومرة بعد مرة فهمت أن النسوة كن يتباهين بأنفسهن وبأزواجهن. عندما يقصصن ويرين آثار الضرب لأمي.

كانت أمي من النساء اللواتي لا ينالهن الضرب أو التوبيخ. وهذا عائد لها. لا لأن أبي لا يعد من الرجال الذين يضربون زوجاتهم، بل على العكس. كانت أمي من النساء اللواتي لا يتركن مجالاً للزوج كي يضربها ويقسو عليها. ومع هذا. فقد نالت نصيبها مرتين من أبي.

قليلون من أصدقائي الذين كانوا يقولون أن آباءهم يضربون أمهاتهم وخاصة من أبناء العائلات الذين كانوا في صفي. فضرب الزوج لزوجته يومذاك كان أمراً عادياً بالنسبة للجميع.

قريباتنا الزنجيات

للزنجيات مكانة كبيرة في قصة حياتي. سأحاول سرد كل قصة من قصصهن على انفراد وحسب الدور.

كان عدد الزنجيات كبيراً في استانبول أثناء طفولتي. الأغنياء والفقراء آنذاك عاشوا معهن. أي من أصدقائي. وكانت لهن مكانة كبيرة في حياتهم.

نشر الأستاذ أحمد راسم في مجلته القمر الرسمي مقالاً في شهر تشرين الأول (١٩٢٤) الموافق لعام (١٣٤٠) للهجرة. أي بعد ثلاث سنوات من تاريخ قصة حياتي التي أرويها الآن. بعنوان: (العِرْقُ) الذي انتهى. كان يحكي قصة الزنوج والزنجيات في استانبول آنذاك.

مرت استانبول بمرحلة كانت فيها الزنجيات تسمى بهذه الأسماء.

«الأخت» والدادا «والأم المرضعة» وماما «دادي». هذا العرق كان موجوداً بكثرة في استامبول.

أنا شخصياً عايشت أواخر مرحلة تجارة العبيد وتجارة الأبيض والأسود. وأعرف أن مصر وطرابلس الغرب واليمن والحبشة. كلها

كانت تتاجر بالزنوج والزنجيات وخاصة الحبشة. وكانت بيوتات كثيرة تنتشر في حي قراقاش وتوب خانة والفاتح وبازار الخيل. في استانبول تسكنها الزنجيات الأسيرات.

حتى فتيات الشركس الجميلات المتحررات كن يتواجدن في تلك البيوت أيضاً. وكانوا يبيعون الواحدة بألف وألف خمسمائة ليرة ذهبية صفراء. أما البيضاوات فكن أغلى سعراً من الزنجيات. وأتذكر تماماً. كيف اشترت أمي زنجية صغيرة عمرها بين عشر وإحدى عشر سنة بـ (اثني عشر ذهباً). كنت قد أسميتها منتصف الليل. الزنجية الأسيرة. يكون حظها جيداً بعض الأحيان. تتزوج وتخلف.

وعندها تبدأ (النينة المرضعة). والأخت (والدادي) و(الدادي الأفندي).

وهي المرتبة الأخيرة التي تصلها الزنجية في البيت الذي تظل فيه ولا تغادره. تكون أختاً حقيقية. ودادي حقيقية. وتكون في المرتبة الثانية. يسمع كلامها في البيت بعد الهانم. وتعتبر من الشخصيات البارزة والمسيطرة في البيت. الأطفال يكبرون ويترعرعون تحت رعاية الأم والأخت الزنجية. وكان الشباب والأطفال يطيعون كلام الأخت الزنجية والدادي والمرضعة أكثر من كلام أمهاتهم. هذا العرق الذي حاولت أن أعرفه لكم. الآن على وشك الانتهاء.

كانت النساء العربيات والزنجيات يقمن حفلة في أحد أيام أيار. مرة في السنة. وربما هي عادة دينية اجتماعية دخلت إلى تركيا. من أفريقيا أو من البلدان الأخرى التي جاء منها هؤلاء النسوة.

الحفلة تقام خارج المدينة. والنساء الاستنابوليات يجهزن الطعام. ويحضرن الحفلة البدائية التي تقيمها النساء العربيات.

كانت أمي والزنجية التي أهدتني تمثال جمل في حفلة الختان التي

أقيمت من أجلي. قد قررتا الذهاب إلى تلك الحفلة. الدينية. الاجتماعية.

استأذنت والدتي من أبي ليسمح لها بالذهاب إلى هناك. لأنها لم تكن تتجاسر على الخروج. حتى ولو إلى باب الزقاق. إن لم يسمح لها أبي بذلك. كانت أمي تعرف جيداً طبع أبي. أعطاها إذناً. ولكن سيقلب عليها الدنيا بعد رجوعها.

ما عدت أذكر أين ذهبنا ولا في أي بقعة من ضواحي استانبول كانت تقام تلك الحفلة؟. منطقة خضراء جميلة. أشجارها كثيفة.

نساء زنجيات كثيرات جداً. اجتمعن على شكل حلقات. وبدأن بإرسال صيحات غريبة. يقفزن. يدبكن. يلبطن. يقمن بحركات غريبة. حتى يغبن عن الوعي. وكانت تسمى أمسكهنَّ آباؤهنَّ. انتشرن هنا وهناك. بعد أن تعبن وأصبح الزبد يخرج من أفواههن وهن يزغردن لو لو لو.

ما زلت أذكر عندما كنا نأكل أصنافاً متعددة من الحلويات والأطعمة تحت شجرة وارفة الظلال. كانت أمي مضطربة. خائفة. كأنها تجلس على كومة كبيرة من الأشواك. فهي تعلم بما كان ينتظرها عندما تعود إلى البيت. لم يرق لها طيب طعم البقاء هناك وكانت تقول بين الحين والآخر:

هيا. لنذهب إلى البيت. تأخرنا كثيراً.

بعد العصر تقريباً. رجعت الزنجيات. هادئات. ساكنات وهن يحملن الأغصان والجذوع المتنوعة. والأعشاب. ولم يلبثن أن أحرقن ما أحضرنه من الحطب فوق المرج. وصنعن من مخلفات الاحتراق أدوية.

مع آذان المغرب رجعنا إلى البيت. جريمة أمي أنها لم تدخل البيت قبل ذلك لأنه يعاب على المرأة أن تسمع آذان المغرب وهي خارج منزلها.

في الوقت الذي كان فيه أبي ينهال على أمي ضرباً. كان آذان المغرب لم ينته بعد. والمؤذن يردد.

- حيّ على الفلاح. حي على الفلاح.

أبي يضربها وأمي تبكي وتبكي.

دماء كثيرة نزفت من أمي هنا وهناك. نقلوها إلى المشفى. لم يقولوا لي شيئاً. ولكن تخميني كان في مكانه. أمي كانت حاملاً بعد الضرب والقتل، أجهضت الحياة التي كانت قد بدأت تتكون في رحمها.

حادثة الضرب الثانية كانت أكثر مرارة. على المرأة المسلمة أن تخفي شعرها، ومحرم على أي غريب رؤيته عدا زوجها ووالدها وإخوتها. ولا يمكن أن تبان يدها فوق المعصم أيضاً. وإذا صادف ورأى غريب شعرها أو يدها فوق المعصم. تعتبر طالقاً شرعاً.

كانت أمي امرأة جميلة. بكل ما فيها من صفات: صوتها. وجهها. طولها. حديثها. كل شيء فيها. فقط كانت قصيرة بعض الشيء.

أما أبي. إلى جانب رقة قلبه. وحنانه وطيبه. كان حاد المزاج بعض الشيء. يغضب بسرعة ويغار على أمي كثيراً. ورجعي إلى أقصى درجة. يعيش حياة ما قبل قرنين من العام الذي هو فيه. وكان يحس بالندم، بعد كل إيذاء يسبّبه لوالدتي ويشعر دائماً أنه لم ينصفها ولم يعدل ومع هذا يكتم ندمه، ولا يظهره لأحد.

عندما تذهب أمي إلى السوق تكون مرتدية مئزرها الأسود. ولا ترفع حجابها. الكثيف عن وجهها مهما كان. فإذا صادف وخرجت مع أبي وهذا ما كان يحصل نادراً لا يسيران جنباً إلى جنب أبداً. أبي يسير مسرعاً في المقدمة حاملاً «البستون» أو العصا في يده. وأمي تتبعه وهي على بعد خطوات منه. أما أن يسيرا جنباً إلى جنب فهذا عيب.

أرادت أمي شراء بعض البكرات الحريرية، التي كانت تستعملها في

التطريز اليدوي. دخلت أحد المتاجر الكائنة على مدخل السوق. وهي تمسك بيدي. ووالدي من خلفنا. وكان البائع. إما يونانياً أو يهودياً.

طلبت أمي حاجتها. أخرج البائع بعض معروضاته. وبما أنها لم ترَ الحرير بشكل جيد من خلف الحجاب الكثيف. فاضطرت إلى رفعه قليلاً بيدها منحنية نحو الأرض وألقت نظرة على البكرات الحريرية. هذا هو ذنب أمي الكبير. كيف ترفع حجابها أمام رجل غريب؟. وخاصة أنه غير مسلم. مع أن أمي رفعت الحجاب بعض الشيء ونظرت إلى البكرة الحريرية. وبسبب هذا انهال أبي عليها ضرباً بالعصا الذي كان يحمله.

كاشف كبير

للغرفة التي كنا نسكنها بالإيجار نافذتان تطلان على الزقاق المجاور. عربات الخيل لم تكن تستطع المرور لضيق الزقاق ذي الأرصفة الخربة. أما السيارات فلم تكن قد مرت بتلك المناطق. على طرف الرصيف من الجهة المقابلة نهر صغير ضعيف الانسياب. تسبح فيه الأقذار. (صرف صحي). وعلى الطرف الآخر من النهر سياج من الصفائح الصدئة تفصله عن البستان المجاور.

كل مساء، كنت أجلس أمام النافذة. أنظر إلى البعيد. وفي الوقت نفسه. أنتظر مجيء أبي. كان هذا الوقت يعد من أسعد أوقات النهار بالنسبة لي. صيرورة الحياة بأدق تفاصيلها. مرسومة في رأسي. زمان بلا قيمة ولا أهمية. خارج زجاج النافذة شريط مشبك لا يُرفع أبداً.

أسندت خدي إلى هذا الشبك الصدئ المهترئ. وقد وشَّت أطرافه قرب الخشب ألياف سمراء. أنظر إلى البعيد. فيبدو لي كل شيء مجزأ كمربعات صغيرة ومن وراء مربعات الشبكات، أرى الغربان تعود إلى أعشاشها أسراباً كأنها غيوم كثيفة. وفي مثل هذا الوقت من كل مساء، تنعق وتحوم تباعاً. في خلوة السماء المترامية الأطراف. كنت أحس

بالدهشة والحيرة لدوران الغربان المنتظم وبهذا الشكل الجميل، تتحول حمرة المساء مع مرور كل دقيقة إلى ألوان أكثر حمرة وسواداً. أفكر بنفس الأشياء في تلك اللحظات: أن أقوم بعمل مهم جداً. أو باكتشاف شيء ما. ولكني جاهل. لا أفقه شيئاً عن الاكتشاف أو المكتشفين ولا كيف يكتشفون؟. وكيف يبدعون؟. أقول في نفسي: لو أحفر الأرض، أو التربة وأجعل من الحفرة موقداً أحرق فيه الحطب، وأضع فوقه قدراً وأطمرها بالتراب ثانية. من يدري، ماذا سيحدث؟.

خدي مستند إلى خشب النافذة. أحس بالسعادة العظمى. وأنا أحلم أحلام اليقظة وخدِّي مسنود على الخشب. أرى وجه السماء على شكل جزر صغيرة ـ داخل مربعات الشبك ـ الغربان تعود إلى أعشاشها وهي تدور في السماء. وتصيح صيحات همجية. ماذا يحدث لقدر الطعام داخل التربة؟. والنار تشتعل باستمرار. هذا اكتشاف كبير بالنسبة لي. لم يكن أحد قد فكر بهذا الشيء من قبل.

لو فكروا بذلك. لجربوه. الطعام يغلي. أفتح الحفرة ثانية. ولكنها حفرة عميقة جداً جداً. من يدري ماذا يوجد تحت الأرض؟. أنزل إلى الأعماق. أحمل في يدي مصباح الكيروسين الذي نملكه. أشعله. أتركه. في أسفل الحفرة التي حفرتها. وأضع حوله قطعة من الخشب. كي لا يطفأ المصباح ولا يتكسر زجاجه. وبعد أن أضع قطعة من الخشب فوق المصباح.

أعيد التراب إلى الحفرة. وفوق الخشب. وأغلقها. المصباح يشتعل على الدوام داخل الحفرة. حتى انتهاء الكيروسين فيه. ولكن ماذا يحصل يا ترى؟. ربما. وهل هناك مجال لربما؟. بالتأكيد سينفجر المصباح تحت الأرض. ستحصل أشياء أكثر غرابة. عندما أكبر سأقوم بأشياء كثيرة. سأكتشف أموراً أخرى أكثر جاذبية. الكبار لا يفكرون بمثل هذه الأشياء

أبداً. وجدّيون على الدوام. يذهبون إلى أعمالهم كل صباح ويعودون إلى بيوتهم عند المساء.يأكلون. ويشربون ويتحدثون. ويتخاصمون فيما بينهم. ولكنهم لا يفكرون بما أفكر فيه وما أخطط له.

لازال خدي مستنداً على الإطار الداخلي لخشبة النافذة. الخشبة. اهترأت. وهرمت حتى زال لونها الحقيقي. وضرب عليها اللون الأسمر. شرايينها خرجت كالألياف من داخلها. أحلام اليقظة تداعب مخيلتي على الدوام وبخاصة عندما أسند خدي على شرايين خشب النافذة وأنا أحركه تباعاً. وأجول في دنيا الاكتشافات الجديدة.

ضربات أسمعها على الباب. هذا طرق أبي: جات. جات. جات ضربات قاسية وغاضبة... مزلاج الباب الداخلي. يتزلزل ثلاث مرات. جات. جات. جات.

أُسرع وأفتح الباب. والدي في حالة غليان شديد وغضب حاد. ولكن ليس من اجل شيء تافه. عند خروجه في الصباح ترتسم الابتسامة على وجهه تسرع أمي. تستقبله. تأخذ الأغراض من يديه وهي مبتسمة.

سيطبع أبي قبلة على خدي. قبل كل شيء. وسيقبل أمي. ولكن داخل الغرفة. نعم في الغرفة. ولن أقول هذا الشيء لأحد. يقولون. أنه عيب كبير أن يحكى ولد عن تقبيل أبيه لأمه للغرباء... للآخرين.

قرية تسمى أنّاج تابعة لناحية فونا

جاءت أمي من قرية تسمى «أنّاج». تابعة لناحية «فونا» من محافظة أو ولاية «أوردو». الناحية الآن تسمى «برشمبا» (الخميس).

اسمها القديم فونا. كلمة يونانية وتقرأ على شكل «غونا».

ومعناها الأنف. لأن ناحية برشمبا تقع بين رأسين. وهي قرية يتدفق الجمال من أطرافها.

جدي. محمد. موظف. يقولون أن أمي جاءت إلى الحياة بعد شهرين

من ذهاب جدي إلى العسكرية. يجب أن يكون في عام (١٩٠٠). إما قبل عامين أو بعد عام. وأن جدي. غاب عن العائلة أكثر من أربعة أعوام. لا خبر ولا رسالة. تنبئ عن مكان وجوده. ولكنه عاد شخصياً إلى فونا بعد أربع سنوات. فوجد عنده ابنة في الثالثة والنصف من عمرها. اسمها «حنيفة» يراها لأول مرة. ولكنه لم يمكث طويلاً في القرية. فقد دعوه إلى الخدمة الاحتياطية. ولما أنهاها وعاد وجد أن ابنته حنيفة قد بلغت الخامسة والنصف من عمرها.

أما جدَّتي فعندما حملت بطفلها الثاني. انقطعت عن العمل. ولن تستطيع الخروج إلى الجبل ورعي القطعان. ولا تستطيع قطع الحطب. أو أن تحفر حقل الذرة ولا الذهاب إلى البازار.

هل تعرفون معنى الذهاب إلى البازار؟. (عرفت ذلك عندما زرت المنطقة في عام ١٩٥٩). نساء فونا يقطعن الحطب. ويحملنه على ظهورهن ويذهبن إلى مدينة «أوردو». وعليهن أن يجتزن الأنهار والجبال والهضاب والسهول. حتى يصلن المدينة. وهناك يبعن الحطب ويشترين الأقمشة والملح والكاز والضروريات الأخرى ويعدن بنفس الطريق إلى منازلهن (هل تعلمون أننا قطعنا المسافة بين برشمبا وأوردو بالحافلة خلال ثلاث ساعات في عام ١٩٥٩).

جدَّتي عندها طفلة في السادسة وطفل رضيع. ولا تستطيع صعود الجبل أو قطع الحطب وحمله إلى البازار في مدينة أوردو. وجدي فقير بكل ما في الكلمة من معنى فقد ذهب إلى العسكرية لمدة أربع سنوات. وللخدمة الاحتياطية لعامين. فساءت أحواله كثيراً حتى صار على الحضيض مادياً.

ماذا تعني المرأة بالأصل: تعني الحقل والفأس والحمل وعربة الحمل. تعولُ نفسها من خلال هذه الأشغال الشاقة. ولا ترى شيئاً أعظم منها

قدراً وقوة إلا العمل. وجدي لا يملك الخيل ولا العربة ولا الثور ولا القطيع ولا البقر. ولهذا السبب يتزوج واحدة أخرى على جدتي أو يضطر للزواج من أخرى. العروس الجديدة رائعة بكل معنى الكلمة. قوية البنية ـ تصعد الجبل وتقطع الحطب. مدبرة في كل شيء، تدير أعمال البيت على أكمل وجه. تبدأ العروس الجديدة بتطوير شخصيتها وتنفيذ كل ما تريده من جدي. يبدأ الصراع بين جدتي من جهة وبين القادمة الجديدة.

شِئْنَ أم أَبَيْنَ. هنا يقع جدي في حيرة وبين نارين... هل يقف إلى جانب جدتي الجميلة الرائعة أم أولاده. أم إلى جانب العروس الجديدة المدبرة. القوية. التي تدير شأن البيت؟. تبدأ الفاقة بالضغط على القرية. كل الرجال في العسكرية. الجوع مسيطر. ما أسعد الذي يجد حساء الذرة فقط. وليس الخبز.

الزوجة الجديدة. تضغط على حنيفة المسكينة بكل طاقتها تركلها. تضربها. تخنقها. تطلب منها القيام بأعمال لا طاقة لها بها حنيفة المسكينة ذات الستة أعوام. تجري من هنا إلى هناك. خلف البقرة. إلى الحقل إلى بستان الفستق. إلى جلب الماء. وكل هذا لم ينفعها بشيء وخاصة بعد أن أنجبت خالتها ولداً. أضحت حنيفة تتواجد في البيت كثيراً. الجوع والفقر من جهة والضغط من جهة أخرى جميع القرويين يشفقون على حنيفة.

حنيفة ابنة الغير

يقولون إن أحد المسنين ذهب إلى مدينة أوردو ـ فطلب منه مدير الميناء وهو عقيد بحري أن يبحث له عن ابنة ليتبناها. فقال في نفسه. يجب أن أنقذ حنيفة المسكينة من محنتها.

عندما عاد إلى القرية. شرح ذلك لجدي الذي توجه سيراً إلى أوردو.

يمشي ويمشي. جدي من الأمام وحنيفة تتبعه من خلفه. يقطعان الجبال والوديان والأنهار والهضاب. وحنيفة حافية القدمين حتى وصلا المدينة.

العقيد البحري ـ مدير الميناء السيد سليم. يرى حنيفة. وزوجته كذلك. حنيفة جميلة. أعجبتهم كثيراً. الزوجة سيدة من استانبول طيبة القلب وحساسة جداً وشابة. اسمها ثريا. ولها صبي بسن حنيفة اسمه أديب. وإما أن يكون أصغر من حنيفة بعام واحد وربما عامين.

يعود جدي إلى القرية. ولكن دون حنيفة. وتبدأ جدتي بالبكاء والعويل. بقيت دون حنيفة وتبكي باستمرار.

ضغطُ الفقر من جهة وضَغطُ الضّرة من جهة أخرى، لم تستطع تحملهما بعد الآن. لا تعرف مكان وجود حنيفة. ولا اسم من أخذها.

في صبيحة أحد الأيام حملت رضيعها وخرجت من القرية. وبدأت المسير. حتى وصلت قرية بعيدة جداً (القرية تقع إلى جانب المحطة الرادارية التي بناها الأميركيون في ضواحي برشمبا). دخلت تلك القرية.

وفيها قريب لها بقيت عنده. ولم تر بعد ذلك زوجها ولن تراه أبداً.

يموت الرضيع من سوء التغذية ومن عدم العناية به. تتزوج جدتي ثانية في تلك القرية. الزواج والطلاق ليس لهما علاقة بالدولة ولا بالمحاكم. إمام القرية يعقد النكاح. ويطلق أيضاً. ستلد جدتي. أولاداً كثيرين من زواجها الثاني.

آلام الحسرة والفراق تزداد يوماً بعد يوم. لدى جدي. يريد رؤية ابنته حنيفة. الشوق إليها يكبر في أعماقه مع مرور كل ساعة. يحس بالندم. لماذا فعل بها هكذا؟. لماذا أعطاها. هي أيضاً. كانت تجد الطعام الذي يشبعها على الأقل وستعيش نصف جائعة. لقد وصل إلى حالة لا يستطيع التحمل أكثر على فراق حنيفة.

في زيارتي الأخيرة إلى قرية أنّاج عام (١٩٥٩). قابلت أم حنيفة

بالتبني. فقد جاوزت الثمانين من عمرها. امرأة محدودبة الظهر. شرحت لي موقف جدي. أنا لم أطلبها كي تكون لنا بمثابة ابنة. وقالت لوالدها هكذا. فقال لنذهب: هيا لنذهب ونأخذ الفتاة. وتبقى معنا هنا. قلت أيضاً: إذا تركَتْها أمها وذهبت فلتذهب. لنأخذها نحن ونعود كلنا. ذهبنا إلى أوردو لنأخذ أمك.ولكن أمك لم تأت معنا. فعادت ثانية إلى ذلك البيت. دخلت وسترت نفسها.

طرق جدي باب السيد سليم وصرخ: أعيدوا لي ابنتي لا أريد إعطاءها لكم. كانت حنيفة عاتبة على والدها. لم تخاطبه ولو بكلمة واحدة. فقد وجدت في بيت السيد سليم. دنيا جديدة. عالماً جديداً. استحمت. صارت نظيفة. وألبسوها الثياب الجميلة. ازدان شعرها. احتضنت الجوارب قدميها لأول مرة. اشتروا لها حذاء جميلاً.

على جسدها ثياب جديدة. بعد مسير عدة مئات من الأمتار بدأت تبكي، فكّرت بأنها ستعود إلى تلك القرية. ستمشي حافية في حقول الذرة. مرة أخرى ستعمل في مزارع الفستق. ناهيك عن صياح وغضب الخالة. وقتلها وضربها. أفلتت من يد والدها وهربت. ثم دخلت البيت. لن تعود إلى القرية أبداً. لأنهم أعطوها طواعية لبيت غريب.

عاد جدي إلى القرية دون حنيفة أيضاً. فقد أنجبت له زوجته ولدين. في هذه المرة أيضاً استدعي للخدمة الاحتياطية في الجيش. من يدري كم عاماً سيبقى محتفظاً به. وأخيراً قُتل في ضواحي مدينة «غموش هانه». ودُفن في مكان مجهول. أولاده الاثنان أي أخوالي. كبرا وتزوجا. ولكنهما لا يعرفان ان لهما أختاً تسمى حنيفة. وقد عرفا بذلك بعد مرور سنوات طويلة.

سُرِّح السيد سليم من العسكرية وتوظف في مكان آخر وانتقل من هناك ليصبح مديراً للموانئ. ثم مديراً للثانوية البحرية في (هيبلي - استانبول) ووالدي معهم.

عبد العزيز أفندي من عشيرة أولاد عثمان

من شابين قرة حصار ـ قرية غولفا

هنالك ناحية تسمى «شابين قرة حصار» في منطقة «غيروسون».

الناحية أقرب إلى مدينة سيواس من غيروسين مركز المنطقة وفي الناحية أيضاً قرية تسمى «غولفا». لا تذهب إليها السيارات. حتى الخيول تصلها بصعوبة بالغة. والمسافة من القرية إلى الناحية مسيرة خمس ساعات تقريباً. ولكن بالنسبة لنا تحتاج ليوم كامل.

محمد أفندي إمام قرية غولفا. من عشيرة أولاد عثمان. عنده ستة أولاد ثلاثة ذكور وثلاث إناث. الثاني قبل الأخير والدي عبد العزيز.

أراضي قرية غولفا غير خصبة (قاحلة). لا تغل سوى واحد من أربعة وبصعوبة كبيرة ـ أهالي قرية غولفا. أقوياء. قساة. عندهم طاقة تحمل كبيرة. سويّون. مرتبطون بأرضهم كثيراً. لا يفترقون عن قريتهم إلا نادراً. وقد يفارقونها أحياناً لعدم خصوبة أرضهم الكلسية.

يهاجرون إلى استانبول في مقتبل العمر. يعملون ويكدّون ويرسلون الأموال إلى ذويهم. ومهما كانت مدَّة الاغتراب سيعودون إلى قريتهم غولفا عاجلاً أم آجلاً وعندما يموتون سيدفنون حتماً في قريتهم النائية. البعيدة. ذات التربة الكلسية غير المعطاءة. والتي يستحيل أن ترى في أراضيها ولو شجرة واحدة.

يعمل الفولغانيون في حدائق الدولة وحدائق قصور الأثرياء. بوابين وحمالين. ويجدون أعمالهم أغلب الأحيان. في منطقة /أورتاكوي/. وتعد قلب استانبول. هناك يعملون وهناك يجتمعون.

مصطفى وشعبان أخوا عبد العزيز يعملان في استانبول. يقال إن والد عبد العزيز قد علّم ابنه عبد العزيز في القرية تلاوة القرآن والكتابة، ويلتحق وهو في الحادية عشرة من عمره بأخوته في استانبول. ويجد

عملاً مناسباً له. ولكن المبلغ الذي يوفره ـ يأخذه أخوه شعبان.

وشعبان شاب وسيم إلى حد ما. طويل القامة. يضرب ويصفع لكنه شاطر متفلسف وغوغائي. يتصارع مع الآخرين على الدوام. قاطنو «ببك» يخشونه. يضرب. يضرب. يكسر ويكسر. ويشرب الخمرة أيضاً. يأخذ الأموال من عبد العزيز عنوة. ولا يتجاسر عبد العزيز على مخالفته يوماً ليقول له: المال مالي لا أعطيك إياه.

عيب على الإنسان أن يقف في وجه أخيه الأكبر ويقول له هذا الكلام. فالأكبر له واجب الاحترام على من هم أصغر منه.

الفاكهة التي تسمى زيتون

كان أبي يقص علينا هذه الحادثة وهو يضحك:

لا يوجد في منطقتنا لا زيتون ولا زيت. حتى لم نكن نعرف اسمه. ذات يوم رأيت عند أحد البقالين في «ببك» حبات سوداء تلمع موضوعة في قفة. وكانت مكورة ولينة. ورأيت بعض الأشخاص يأكلون منها فقلت في نفسي. يجب أن تكون فاكهة لذيذة. لأن هذه الفاكهة غير موجودة في قريتنا غولفا ولا في منطقتنا. اشتهيتها. وتمنيت لو أني أملك المال وأشتري بعضاً منها. سآكل الأوقة دفعة واحدة.

دخلت دكان البقال في أحد الأيام وقلت له.

ـ زن لي نصف أوقة من هذا الشيء. وضعها البقال ضمن ورقة جريدة. وذهبت إلى الميناء. ووضعت حبة في فمي.

آمان كم هي مرّة. ومالحة. إنها فاكهة لا تؤكل وقذفت ما في يدي إلى البحر وعدت. طبعاً أنا أعرف أبي جيداً. كل ما قاله وما نقله لنا صحيح مائة بالمائة.

إلا قَذْفه بالزيتون إلى البحر. فلن أصدقه. لم يرم الزيتون إلى البحر. أعرف ذلك من نفسي. لأنني مثله طبق الأصل. فقد أكل الزيتون

مهما كانت مرارته وملوحته قائلاً: دفعت من أجله المال. فإذا لم يأكله أعطاه لشخص آخر - كي لا يذهب سدى.

في قصر المصريين

والدي عبد العزيز يعمل في أحد قصور المصريين الذي يعيش فيه أمراء. أكثرهم من أصل تركي.

عبد العزيز الصغير مثل الجن. ذكي ومتفان في العمل. ومستقيم.

رشيق، سريع الحركة. ويستطيع الإنسان أن يثق به. جذب انتباه الجميع بسرعة قصوى. أحبوه بعد فترة قصيرة. أراد أحد الأمراء تعليمه فعهد به إلى أستاذ في القصر ليتولى تدريسه عندما تسنح له الفرص.

أرسل عبد العزيز الأموال التي استطاع أن يدّخرها ويخفيها عن شعبان آغا إلى والده في القرية. مع بعض من أبناء بلده (كان والدي مرتبطاً بعائلته ويضحي من أجلها الغالي والنفيس).

أصبح عبد العزيز في السادسة عشرة من عمره. فهو شاب بكل معنى. وسيعود إلى قريته مسقط رأسه. لقد صفّ الذهب الذي وفره داخل (كمره) جعبة نطاقه لأن فيه أمكنة خاصة لوضع الذهب. وجعبة النطاق أهم مكان يستطيع المرء أن يحمي فيه أمواله من قطاع الطرق واللصوص. ولكن حماية الذهب من أخيه شعبان آغا صعب جداً. ظلّ ينتظر وصول القارب الذي سيحمله إلى سفينة كانت قد ألقت مرساتها في مكان بعيد. ذهبه في (كمره) نطاقه والهدايا في يديه وأمتعته مربوطة قربه. وبينما كان يهم في امتطاء القارب إذا بأخيه شعبان آغا يأتي لوداعه.

- شو معك مصاري يا عزيز؟.

احترام الكبير واجب. ولا يستطيع أن يكذب على أخيه الأكبر. فأخبره عبد العزيز عن كمية المال الذي يحمله. سيأخذ المال ليعطيه لأبيه.

ـ أين مصرياتك؟. أرني إياها.

ـ في نطاقي.

ـ أرني إياها سأعطيك مبلغاً آخر لتحمله إلى أبي.

أخرج عبد العزيز الذهب من جعبة نطاقه.

ـ أعطني إياهم.

أخذ شعبان آغا الذهب ووضعه في جيبه وغادر المكان.

حمل أبي أمتعته وصعد إلى السفينة. لكنه لم يبقَ معه حتى أجرة السفر.

لاحظ أحد المسنين حزنه. وهو من قريتهم فقال له:

ـ ماذا كنت ستفعل بتلك الأموال يا ولدي؟.

عملت طويلاً ووفرت كثيراً وسآخذهم إلى أبي.

سأله المسن عن عدد قطع الذهب التي كان ينوي أخذها إلى أبيه فأخبره عبد العزيز عن المبلغ الذي كان بحوزته. أخرج الرجل من جيبه الذهب بالعدد الذي ذكره وقال له:

ـ تعيد لي ديني بعد عودتك إلى استانبول.

كان والدي يقص هذه الحادثة على الدوام. وفي كل مرة كان يجهش بالبكاء ويقول: المال الذي أعطاني إياه الرجل. لم يكن مصروف عيد بل كان ثروة. بعد أن عدت إلى استانبول عملت طول عامين كاملين حتى وفيت الرجل ما أقرضني إياه.

عاد عبد العزيز إلى القرية. وأعطى المال لأبيه. ووزع الهدايا على الأهل جميعاً وحظي بدعاء ورضا والده. كنت رجلاً كبيراً ومع هذا كان يغضب مني وكان يقول:

يجب أن تنال رضا والدك. خذ دعاء الوالد وافعل ما شئت.

كان يقول هذا ولكنه كان يدعو لي على الدوام.

زوّجه والده من إحدى فتيات القرية. عبد العزيز كان واعياً عاش في استانبول. تعلم الكثير. تغيرت دنياه كلها لم يكن ممن تعجبهم فتاة القرية. ولكن ماذا يفعل؟. إنه كلام الأب. ويجب أن يسمع كلامه.

تزوَّج، لكنه. لم يبق طويلاً في القرية. عاد إلى استانبول ولم يرجع ثانية إلى القرية ولم يرَ زوجته الأولى بعد ذلك أبداً. عاد مرة أخرى إلى قصر المصريين. وأعاد الدّين إلى ابن بلده ذلك العجوز الطيب.

شاب من غولفا وفتاة من أناّج

مياه كثيرة تمر تحت الجسور. وأمور كثيرة تحصل. وقصص لا حصر لها تحكى وعبد العزيز. أصبح عبد العزيز أفندي. ولكنهم ينادونه عزيز أفندي. والأفندية لها شأن كبير في تلك الأيام بعد زواجه في القرية. تزوج أربع مرات متتالية. هكذا يقولون.

ليس رجلاً كما يجب. حياته الاجتماعية سيئة. لا يستطيع التلاؤم مع الآخرين. يغضب بسرعة ويثور. لم يعش مع زوجاته الأربع إلا لوقت قصير. فإحداهن لم يبق معها سوى ليلة. عقد قرانه عليها في المساء وتركها عند الصباح. ولم يعد إليها ثانية.

لا يحكي لنا قصة حياته. كان يردد بعض الكلمات ويمضي.

لا أعلم عن حياة أبي إلا القليل منها. أنه كان يعمل مساعداً لدى أرناؤوط باشا. أحد باشوات عبد الحميد. كان أبي يحب الظهور والتعالي كثيراً. وهو أحد المساعدين الاثنين للباشا «أرناؤوط». غضب المساعدان مرة من الباشا (ما من إنسان هناك لم يغضب عليه أبي). فقد عمد المساعدان على ربط ساقي الباشا. وعلقاه بالسقف. زاعمين أنهما سيعطيان درساً للباشا. وغاب عن ذهنهما أنهما هما اللذان سيأخذان الدرس الحقيقي. طبعاً الباشا لم يمت. ولم يعلقاه كي يُقتل. طُرد المساعدان من العسكرية ونفيا إلى فيزانا.

يقولون: أنهم قد أجبروا والدي على تكسير الحجارة لرصف الطرق. تعمد أن يحكي لي هذه الحادثة. لتكون قصة حياته درساً لي وعبرة. كان يفتخر بنفسه ويقول:

ـ أينما ذهبت أكون رأساً. ولم أكن في المؤخرة أبداً. عندما كنت منفياً وضعوني على رأس المنفيين. جميعهم كانوا متعلمين أكثر مني. وعلى مستوى عال من الدراية والمعرفة. في هذه الحياة على الإنسان أن يتقن عمله على أكمل وجه.

وجلّ غضبه عليّ. كان بسبب عدم معرفتي لمصلحتي وعملي.

عمل عزيز أفندي بداية الأمر في الثانوية البحرية رئيساً للبساتنة ثم صار موظف الإعاشة فيها. وكان مدير الثانوية العقيد البحري السيد سليم.

كما قلت: لم يفكر أبي طوال حياته سوى بالترقية والقفز نحو سلطة أعلى. وكان يستحق ذلك. فقد كان ذكياً ومستقيماً ومتفانياً في العمل.

ولكن نقطة ضعف كانت تحول دون تطلعاته. وهي تدني مستواه العلمي لكنه استعاض عن ذلك كما روى لي السيد سليم: أن أبي كان يحب تعلم اللغات.

وعن رغبته التحدث. بلغة طبقة الموظفين. فمثلاً بدلاً من أن يقول: دهشتلي. كان يقول: دفشتلي. دفشتلي كثيراً. جاء من الدهشة.

أحب السيد سليم، عزيز أفندي كثيراً. لمهارته وسرعته في إنجاز كل عمل يوكل به إليه وعزيز أفندي كان يدخل منزل السيد سليم ويخرج. حاملاً معه الأزهار بين وقت وآخر. ولكن لمن كانت هذه الأزهار؟.

ابنة السيد سليم بالتبني. إقبال. فتاة في الثالثة عشرة من عمرها. رائعة الجمال. وعزيز أفندي في الثانية والثلاثين من عمره.

وتغيير اسم الفتاة المتبناة عادة قديمة. وهو شيء مألوف ومعروف.

يستطيع المرء أن يعرف أن الفتاة متبناه وليست ابنة حقيقية من اسمها. كانوا يبدلون اسم حواء أو حنيفة إلى إقبال. فقد غيروا اسم أمي من حنيفة إلى إقبال لأن اسم حنيفة لم يعجبهم ولم يرق لهم. أنا شخصياً ما كنت أعرف اسم أمي إلا إقبال. ولكن بعد مرور عدة سنوات عندما ذهبت للانتساب إلى المدرسة. عرفت اسمها الحقيقي.

اسم حنيفة يعطيني. وربما من الناحية الصوتية. نداء (القديفة) (نوع من الأزهار) لأن أمي كانت امرأة مثل تلك الزهرة، بشعرها وجسدها ووجهها ويديها وطبعها وصوتها.

وأبي عكسها تماماً. ملامح قاسية. قوية. ولكنه في داخله سهل ولين إلى أبعد الحدود. يحب المساعدة كثيراً. ويحب الخير للجميع ويحسن إلى كل محتاج.

طفل اسمه محمد نصرت

مرت الأيام وتقدم عزيز أفندي يطلب يد إقبال من السيد سليم. فوافق على زواجهما. وتم عقد قرانهما وكان. زواج عزيز أفندي من قرية غولفا من أولاد طوبال عثمان. من حنيفة. من قرية أنّاج ناحية فوتا كما ذكرت في هيبلي آدا عام (١٩١٣).

قدّمت زوجة السيد سليم ثريا هانم لأمي جهازاً مكوناً من آلة خياطة. ومصباح على الكاز وأشياء أخرى صغيرة.

آلة الخياطة هي الوحيدة التي خلصتها أمي من الحريق الذي حدث في منزلنا في حي (يني جشمة).

لقد مات أول أولادهما. ثم ولدت أنا. هكذا يقولون. عام (١٩١٥). أثناء معركة «جنق قلعة» المشهورة وفي ذروتها تماماً. ولهذا السبب أسماني السيد سليم، نصرت ومعناه: مساعدة ـ مساعدة الله ـ النجاح ـ الفوقية. وسبب هذه التسمية كي يساعدنا الرب وننتصر على

الأعداء في المعركة. محمد هو اسم جدي وأنا محمد نصرت.

بعد ولادتي بشهر واحد. ولدت زوجة السيد سليم ابنها الثالث عبد القادر. واجبات أمي لم تنته بعد. وبدأت ترضع عبد القادر معي. وهكذا صرنا أنا وعبد القادر أخوين في الرضاعة.

ماذا جرى بعد ذلك. لا أدري. الحادثة الأولى التي أتذكرها هي الحريق في يني جشمة.

يجب أن تحلق الرؤوس صفراً

مرة أخرى كانت أمي في المشفى. وأنا وحيد في البيت الذي كنا نسكنه في حي قاسم باشا. قرب المجرور (أو كما يقوله الكاتب. النهر الخرائي). فتولّت الجارات مهمة الاعتناء بي. الخالة زهرة والخالة حواء. لا أستطيع الخروج من الغرفة.

فأبي لا يعود إلى المنزل حتى المساء. عندما يطول شعر رأسي. أذهب إلى الحلاق الذي يقع دكانه في نهاية الطريق الطويلة. كانت أجرة الحلاقة مائة بارة على الأغلب.

أذهب إلى الحلاق مرتدياً ثيابي المشهورة آنذاك المخططة بالأبيض والأسود. منتعلاً صندلاً أسود. يجب أن يُجزَّ شعري من أساسه. بماكينة الصفر. أو بماكينة الدرجة الثانية. حتى إذا بقي قليل من الشعر في رأسي يكون. نصف سم تقريباً. لكن أبي سيغضب مني كثيراً. لأنه هو الآخر كان يحلق شعره على الصفر دائماً. ويقول:

ـ المسلمون لا يطلقون شعورهم. الكفار وحدهم الذين يطيلونه.

ثم إن الشعر الطويل يأخذ قوة الولد الصغير. فلا يكبر. يجب أن يبقى الولد الصغير أقرعاً على الدوام. يعاب على الرجل إن أطال شعره. الشعر للنساء فقط. فإن قصت المرأة شعرها تذنب. وكذلك إذا أطال الرجل شعره يذنب.

أصل الحكاية ليس هذا. فإذا قصّ المرء شعره نمرتين أو أكثر. معناه أنه سيذهب إلى الحلاق في أقرب وقت. ومعناها. تكرار عملية الذهاب إلى صالون الحلاقة. ودفع مائة بارة في كل مرة. أما إذا قص شعره من أساسه أي على الصفر فسيتأخر نمو الشعر ويتقلص عدد الزيارات إلى الحلاق. ويتقلص دفع المائة بارة أيضاً.

هذا ما كنت أشعر به. قال شو. الشعر يأخذ قوة الولد. والمرأة تذنب إن قصت شعرها. والولد يبقى قصيراً. ما كنت أصدق مثل هذه الترهات. لأنني لا أرغب مطلقاً في إطالة شعر رأسي عندما كنت أذهب إلى الحلاق أقول له:

ـ أرجوك على النمرة صفر يا عماه.

لا أدري ماذا حصل في إحدى المرات. ربما نسيت أن أقول للحلاق. أو أحسست أنني ذكرت النمرة الثانية لأنها أسهل لفظاً. لا أدري لماذا. لكن الحلاق قصّ شعري بماكينة النمرة الثانية. عندما عاد أبي في المساء ورأى الشعر في رأسي «نصف سم». غضب كثيراً. وبالرغم من أنه لم يضربني لكن غضبه كان يكفيني. اخترعت سبباً ودخلت التواليت وبكيت.

كنت أشعر بحرقة وحسرة على أمي. لأنها في المشفى. ولأنني كنت وحيداً. قررت الهرب من البيت. سأخرج إلى الأزقة. فيها عشرات الأطفال المشرَّدين. يمدون أيديهم. قررت أن أخرج وأتسول. عندما غادر أبي صبيحة اليوم التالي. أسرعت بالخروج من المنزل خلفه. لا ألوي على شيء. أجري نحو الطريق الطويلة. وجلبابي الأبيض المخطط بالسواد ترتفع أطرافه. وصندلي يشحذ الأرض شحذاً. كنت سأجلس على جانب الطريق. وأمد يدي للمارة. زرعت الطريق مرات كثيرة جيئة وذهاباً من ميناء قاسم باشا حتى محلة الفجر في أقصى الشرق. لم

أستطع الجلوس ولا أن أمدّ يدي بأي شكلٍ من الأشكال. صار الوقت ظهراً. وجاء العصر. أحسست بالجوع كثيراً. كلا. لن يكون هذا الأمر. لا أستطيع. فرجعت إلى البيت.

تحت الشاحنة الإنكليزية

استانبول محتلة، جنود الأعداء فيها. وكلما فكرت الآن بما جرى وما قيل في تلك الأيام. أستطيع استيعاب ما كان يصعب عليّ فهمه. زنوج سنغاليون كانوا يقفون أمام باب الترسانة في طلعة أونكاباني. المتجهة نحو باي أوغلو،، واضعين الحراب على رؤوس بنادقهم. كنت أراهم كلما مررت من هناك كنت أخافهم من سوادهم ومن أطوالهم.

الأمهات يقلن لأطفالهن وينبهنهم بين الحين والآخر.

- إذا وجدتم شيئاً في الطريق لا تلتقطوه. كي لا ينفجر بأيديكم وتموتون.

هذه الكلمات ما كانت تقال عبثاً ولا تخويفاً للأطفال. الأمهات كن مقتنعات بذلك. كنَّ يتحدثن فيما بينهن: يقال: أن جنود الأعداء يتركون الدمى المختلفة وقطع الشوكولا. وأشياء أخرى على الأرض وأن هذه الأشياء ليست سوى قنابل موقوتة. عندما يلتقطها الأطفال تنفجر. ويموتون. ويقولون: إن أولاداً كثيرين ماتوا جراء ذلك. إنهم يريدون قتل أطفال الأتراك.

نحن أيضاً كنا نصدق ما كنا نسمعه. ونخاف كثيراً. هذا ما أعرفه عن احتلال استانبول. والحادثة الثانية التي لا أزال أذكرها جيداً. بقائي تحت شاحنة انكليزية.

كان والدي معلماً للتطبيقات التي تجري في المدرسة الزراعية في كالندر. وأمي في المشفى ثانية. فاضطررت للإقامة مع أبي في المدرسة الزراعية. أبي عنده غرفة. قضيت أياماً جميلة رائعة هناك.

حديقة كبيرة فيها أشجار كثيفة. وعلى ما أذكر المدرسة الزراعية موجودة في «حلقلي». في يني كوي. وربما ذكرياتي تتداخل فيما بينها. أتذكر: أن المدرسة متاخمة للبحر. وكان قارب المدرسة مربوطاً بوتد على الرصيف. كنت أدور. وألعب بحرية. آكل من طعام المدرسة اللذيذ.

ذات يوم ركبت القارب. وحللت الحبل الذي يربطه بالرصيف. وربما انفك من تلقاء ذاته. سار القارب. متجهاً نحو البوغاز (المضيق) لاحظ تلاميذ المدرسة اتجاه القارب. فأسرعوا. ركبوا قارباً آخر وأعادوني إلى الرصيف. فرحتي الجميلة هذه بقيت في منتصفها لم تكتمل كانت أمي ترقد في مشفى «حسكي النسائي». المشفى بشكل عام مخصص للنساء. كنت أذهب مع والدي لزيارتها كل يوم جمعة.

ننزل من سراج هانة نحو أق سراي حتى نصل المشفى. وبينما كنت أمر وسط الساحة وجدت نفسي فجأة تحت شاحنة انكليزية كبيرة. مكوّراً تحت عجلاتها. كنت أرى أبي وأنا أنظر إليه من تحتها عملاقاً يدفع الشاحنة نحو الخلف. هو الآخر سيقع تحتها وتدهسه. أسرع المارة وأخرجوني من تحتها. جاءت الشرطة. وتركوا والدي يضرب السائق.

ـ سأشتكي. وبدأ الشرطة يشرحون لأبي. لا يمكن تقديم دعوى بحق السائق. لأن السيارة تابعة للجيش الإنكليزي المحتل. والسائق يوناني.

ـ الآن أستطيع فهم ما حصل. بعد تفكير طويل وبعد مرور سنوات طويلة: كانت استانبول ترزح تحت أقدام الغرباء.

تراءى لي أن أبي قد أوقف الشاحنة... لم يوقفها فقط بل دفعها نحو الخلف أيضاً. أنا الوحيد الذي يصدق هذه العملية. أي كذلك، كيف أوقف تلك الشاحنة العملاقة ودفعها نحو الخلف. كان يكرر ذلك مراراً ويحكي كيف خلصني من موت محتم.

جئنا إلى الرصيف وأنا في حضن أبي. كشفوا عن جسمي كله. فلم يلاحظوا سوى بعض الخدوش الصغيرة في ظهري. فقالوا سالم معافى والحمد لله ومشينا. كان بائع ألبسة بالية يمشي أمامنا فأوقفه والدي واشترى منه سترة ألبسني إياها. كي يحد من خوفي وقلقي. أعجبتني كثيراً. لأنني عندما لبست قميص رجل كبير. أحسست أنني صرت رجلاً.

قال أبي:

ـ إياك أن تقول لأمك شيئاً. كي لا تحزن. القميص الذي ألبسه لم يعجب أمي. فقالت لوالدي: ـ ما هذا؟. لقد حولت الولد إلى ولد يتيم الأم.

مشعوذ في القارب

خرجت أمي من المشفى. ولكنها لم تتحسن. قالوا أن امرأة مثل أمي كانت تعاني من نفس المرض. وأنها تناولت علاجاً خاصاً تحسنت حالتها على أثره. كنا نذهب إلى بيت تلك المرأة. يعني أنا وأمي.

لم يكن أبي يخرج مع أمي إلا نادراً. ولم يكن يأذن لها بالخروج لوحدها. ولهذا كانت أمي تأخذني معها إذا كانت الزيارة بعيدة بعض الشيء وصرت أعتبر نفسي وكيل أبي.

ركبنا أحد القوارب من ميناء القوارب المتاخم لميناء السفن في قاسم باشا قاصدين ميناء «يميش». على القارب ثلاثة آخرون امرأة ورجلان.

وما أن أصبح القارب وسط الخليج إذا بأحد الرجلين يقول: ـ إذا أردت أستطيع أن أقسم هذا القارب نصفين فالنصف الأول يبقى هناك والنصف الثاني هنا.

الجميع صامتون.

ـ ألا تصدقون ما أقوله؟. جرِّبوا ليقل أحدكم. لا أصدقك. وليرَ ماذا

سيحل بكم؟. إذا قررت أستطيع خلع إبهامي هذا وأرميه في البحر؟.

وما أن قال ذلك ـ حتى أخذ يده اليسرى بيده اليمنى. وبدأ بنزع إبهام يده اليسرى. شدّ وشدّ وشدّ. حتى خلع إبهامه أمام نظراتنا وذهولنا. وعندما صار إبهام يده اليسرى في يده اليمنى سألنا بصوت قوي:

ـ هل أرميه إلى البحر

صرخت المرأة الأخرى والتي كانت تضع على وجهها حجاباً كثيفاً مثل أمي.

ـ إياك أن ترميه. آمان. بالله عليك.

ـ إذا أردت أستطيع أن أنزع رأسي عن جسدي وأرميه في البحر وهكذا بدأ يلعب ويقفز. ويعود ثانية إلى مكانه.

لم يخفنا ما كان يقوله الرجل، بل ما كان يخطط له.

ـ كيف؟. هل يقوى على قطع القارب إلى نصفين؟.

لقد اعترى البحار الأشقر الذي يقود القارب. خوف شديد وتمنى لو أنه يصل الميناء في أقرب وقت. اقترب القارب من ميناء «يميش». ونزلنا.

وفي المساء عندما عاد أبي إلى البيت. فكرت في أن أقص عليه هذه الحادثة غير العادية. إلا أنني خشيت أن يغضب على أمي. رجل غريب يخلع إبهامه في القارب وأمي تراقب ذلك. بالتأكيد سيغضب. عندما روت أمي تلك الحادثة غير العادية:

قال لها أبي:

ـ ذاك الرجل يخدع أبصاركم. إنهم يقومون كثيراً بمثل هذه الألعاب. الجميع اليوم يعرفون هذه الحيل. حتى طلاب المرحلة الإعدادية.

من الذي غلب الأعداء في حرب الاستقلال

كنا نذهب مرة في الأسبوع إلى التكة الكائنة في «جوروكلك» (اسم حارة).

الشيخ الأفندي في التلّة هو عبارة عن هجين من العربية والكردية.

قوي البنية. ذقنه تصل إلى صرته وسيم إلى حد ما. له زوجتان إحداهن تسمى «شافر هانم» والأخرى «وسيلة».

يقال أن السيدة شافر مرتدة عن الأرمنية. (والتكة) بيدها. كلامها مسموع على الدوام. أما الست وسيلة. فامرأة هادئة ساكنة. صامتة. تحب البقاء دائماً في الظل. ولها ولدان إثنان: الكبير. تابع للشيخ أفندي وهو شاب وسيم. أما الصغير فيبدو منكفئاً على ذاته. وهو شاب أكثر من الأفندية. كنا نذكر الله في خانة السماح التابعة للتكة. وأنا أيضاً كنت مع الذاكرين. ألبس جلباباً أبيض. وعلى رأسي عرقية خاصة. كلما طال ذكرنا لله. كنا ننفصل عن ذواتنا. نجهش بالبكاء. لا نعرف شيئاً. ومع هذا يصعب على الإنسان أن يصف آثار الذكر والمشاعر التي تراودنا. عشرة دراويش يدورون وسط خانة السماح دون توقف. أنا الآخر. أدور مع الباقين. راقصي السماح. ويشعر الإنسان أنه سيطير من كثرة الدوران. وأن أرجله قد ارتفعت عن الأرض. متجهاً نحو السماء. لم أشعر بالدوار مطلقاً جراء كثرة الدوران. وربما بسبب العادة.

بينما كان الهواء يملأ أطراف جلابيب الدراويش العشرة الدائرين. هناك خمسة عشر درويشاً. يُدخلون الأسياخ (أو الشيش) في خدودهم. بعض الأسياخ اسطواني وبعضها مثلث الحافة. أطرافها مدببة ورؤوسها مكوّرة. الرؤوس الكروية مزينة. وفي كل رأس سلسلة. هذه الأسياخ ذات الرؤوس الكروية يدخلها الدراويش في خدودهم. السيخ الذي يدخل من الفم يثقب الخد ويخرج من طرف آخر. يدورون هكذا والأسياخ مغروزة في خدودهم. وهم يذكرون الله. وهناك آخرون يغرزون سيخين أو ثلاثة أسياخ في خدودهم. دون أن يخرج الدم من المكان المغروز فيه.

على أطراف خانة السماح كلها. أعمدة خشبية. يعمد دراويش آخرون إلى دق الأسياخ المغروزة في الخدود. في تلك الأعمدة الخشبية. على كل عمود ثبت درويشان أو ثلاثة. ومع هذا يستمرون في الذكر. وعلى طرف خانة السماح مجموعة من الدراويش. يصرخون متابعين حركة الشيخ. حتى تكون النغمة موحدة. يقولون:

ـ يا حي. يا قيوم. يا حي يا قيوم.

بعد ذلك يشارك الدراويش المثبتون في الأعمدة. بالذكر يا حي يا قيوم. وتتحول النداءات إلى إيقاع واحد. الله. الله.

عندما يصل هذا التدفق العاطفي أو الابتهاج إلى أعلى درجاته.

يبدأ العرض الأخير من هذه العروض الطقوسية. فتظهر السيوف البراقة. منقوش عليها آيات قرآنية وأشعار. يعمد بعض الدراويش على مسح هذه السيوف بألسنتهم. ومن حدها. القاطع. كي يثبتوا أن السيوف لا تبتر ألسنتهم.

يتحرك الشيخ الأفندي. يكشف عن ظهره بعد أن يرفع جبته وعباءته. ويتمدد فوق أحد السيوف القاطعة التي يمسكها أحد الدراويش. الشيخ الأفندي ممدود على السيف. رأسه على أحد أطراف السيف ورجلاه على الطرف الآخر. متدليتان نحو الأرض. يدورون به حول خان السماح لمدة طويلة. وما كان يحيرني كثيراً.

هو أن سيفاً قاطعاً رفيعاً مثل الشعر. كيف لا يقطع الشيخ الذي وضع كل ثقله عليه. وكيف لا يقسمه إلى شطرين من ظهره؟. الجو يشبه جو السيرك بالتمام والكمال. ضرب الدفوف وقرع الأجراس.

والدراويش المبتهجون يكررون يا حي يا قيوم يا الله.

يهزون رؤوسهم ذات اليمين وذات الشمال وعلى إيقاع واحد. بعضهم يدورون والهواء يتلاعب بأطراف جلابيبهم. الأسياخ المدببة

مغروزة في الخدود. وبعضها مغروز في الأعمدة. والأعمدة محفورة ومهترئة من آثار الأسياخ المفرومة فيها.

أنا الآخر كنت أدور في إحدى المرات أدخلوا سيخاً في خدي.

كان ذلك أشبه بحلم ليس إلا. يومها قال والدي: ـ لا تخف. ولا تجعل الخوف يسيطر على قلبك. لن تحس بألم الجرح. ستسلم نفسك إلى الباري من كل قلبك.

أهم شيء أن تؤمن بذلك. إيمان كامل دون شك ولا ريبة.

كان العم غالب يقول: اجتياز موسى البحر بسبب إيمانه أنه لن يغرق. لو آمن الإنسان حقاً. بأنه لن يغرق. يستطيع السير فوق مياه البحر بكل راحة. هذا النوع من الإيمان. هو غير التواكل الذي نعرفه.

بعد ذلك بسنوات طويلة كتبت على دفتر ملاحظاتي هذه الكلمات عندما يقرر الإنسان الموت. يموت لأنه مؤمن بحتمية موته. عندما ينتزعون السيخ من الخد. يعمد الشيخ أفندي إلى وضع بصاقه (لعابه) على مكان خروج السيخ. هذا البصاق (اللعاب) هو الدواء الناجع والفعال. عندما أدخلوا السيخ في خدي. لم أشعر بالخوف أبداً. ولم أحس بأي ألم. ولهذا قلت آنفاً. هذه الحادثة مرّت كحلم ليس إلا. لا أعتقد أن آثار السيخ باقية في خدي. لا دماً ولا جرحاً.

والكل يعلم أن عضلة الخد الحنك خالية تقريباً من الشعيرات الدموية. وعدم حدوث النزف أو بقاء الأثر تابع لعدم كثافة الأوعية الدموية.

على الجانب المقابل للمحراب والذي يجلس فيه الشيخ مجموعة من الأقفاص السلكية. خلف القفص مجموعة من المقاعد. يجلس عليها الغرباء منهم الفرنسيون والألمان واليهود واليونانيون والأرمن. يشاهدون حلقات الذكر داخل خان السماح. ودوران الدراويش. والابتهاج والتدفق العاطفي ذا الدلالات البعيدة. طبعاً. يشاهدون ذلك بأجر. بمال

يدفعونه. ولكن وجودهم يبقى سراً عن الآخرين. لا يعلن أحد عن وجودهم. أما لو كان هناك غرباء أعزاء من أصحاب الجاه. ويدفعون المال الكثير. لأضافوا لعبة النار. حيث يشعلون النار في أفواههم.

بالتأكيد رأيتم لاعبي السيرك في صالات العرض كيف يخرجون النار من أفواههم. هذه النار هي عبارة عن مواد كيماوية. لا تحرق جسد الإنسان. أما النار التي يأخذها الدراويش ليست من تلك النيران الخادعة. لأنني رأيت البعض يقلون البيض في أفواههم. وهذا أيضاً يخفي وراءه خدعة ما.

حفلات الذكر هذه كانت تقام أيضاً عندما يزور تكتنا. عناصر ودراويش من تكة أخرى. ما كانوا يبغون الوصول إليه من كل ما تقدم، هو التأكيد بأن السيوف والرصاصات لا تؤثر فيهم. وأن النار لا تؤذيهم فلا يحترقون.

إذا لم يأت أجل الله فلا موت من حادثة لهؤلاء. حتى جيش العدو الجرار بأسلحته الكبيرة والفتاكة لا يستطيع قتل أصحاب هذه الطرائق.

لقد أشاع الدراويش في بقاع الأناضول. أن النصر في حرب الاستقلال. لن يأتي إلا من خلالهم لأنهم. لا يحترقون ولا يخترقهم الرصاص ولا السيوف. ولا يموتون. ولهذا حاولت أن أذكر بعض ما يشاع في هذه التكات. الدراويش والشيوخ وحدهم. هم الذين رموا الأعداء إلى البحر في إزمير وليس الجيش. ويشيعون أيضاً أن قيادة القوى اليونانية والضباط والجنود اليونانيين كانوا يقولون:

ـ نحن لم ننهزم أمام الجيش التركي. وكنا نستطيع سحقه ولكن ماذا نفعل؟. وقد ظهر أمامنا الدراويش بألبستهم البيضاء وبذقونهم التي تصل حتى صررهم. يحملون السيوف والحراب. لا يؤثر فيهم المدفع ولا الرشاش ولا أي سلاح. كانوا يخرجون من وسط النار ويهاجموننا. لقد قطّعونا بسيوفهم.

القوى الانضباطية

الوضع الحقيقي هو على الشكل التالي: كانت تركيا في ذلك الوقت منقسمة على نفسها إلى قسمين: الأول هم جماعة القوى الوطنية المساندة لحرب الاستقلال. والثاني هم جماعة السلطان ومن كانوا إلى جانبه ويسمونهم القوى الإنضباطية. هذه الزمرة كانت تدعمها قوى الاحتلال. وتمنح كل عنصر يسجل نفسه معها ليرة واحدة عن كل يوم. وعلى الأغلب أن هذه المبالغ كانت تصرف من قبل القيادة الإنكليزية أو الفرنسية.

وإليكم جدولاً بالمصاريف اليومية التي كان يسجلها العم غالب. كي نعرف قيمة الليرة التركية آنذاك:

٥,٥٠ قروش	طعام	١٠ - ٤ - ١٩٢١
١,٣٠ بارة	خبز وجبنة	١١ - ٤ - ١٩٢١
١,٢٠ بارة	خبز وجبنة	١١ - ٤ - ١٩٢١
٥,٧٥ قروش	فاصولياء	٢١ - ٥ - ١٩٢١
٢,٢٥ قروش	حليب	١٢ - ٤ - ١٩٢١
٣,٠٠ قروش	بطاطا	١٣ - ٤ - ١٩٢١
٢,٧٥ قرش	بياز	١٤ - ٤ - ١٩٢١
٤,٥٠ قروش	كفتة	١٥ - ٤ - ١٩٢١

يعني كانت الليرة تساوي مبلغاً كبيراً.

التكات كلها وبأغلبية عناصرها ودراويشها مع القوى الإنضباطية.

أي أنهم كانوا إلى جانب السلطان. مثلاً. كان الابن الأكبر لشيخ جوروكلك. مسجلاً لدى الإنضباطيين. بعد مرور عدة سنوات علمت أن العم غالب كان مع القوى الوطنية. كان يحب الغازي مصطفى كمال ويؤيده بشكل أعمى. والجدول الذي عرضته لكم والذي أخذته

من دفتر ملاحظاته يبين طريقة حياته. وأعتقد أنه عاش على المبالغ التي ذكرها في دفتره. وربما يضاف الشاي والكعك إلى تلك المواد. وبعض الأحيان كان يأكل في التكات والزوايا ومن طعام العاشوراء.

لم يكن أبي من القوى الإنضباطية. ولكنه كان ملكياً وظل مرتبطاً بالسلطان عبد الحميد حتى الرمق الأخير من حياته. ولكن مالم أستطع فهمه حتى الآن. لماذا ترك أولاده وزوجته ومنزله وذهب إلى الأناضول. وقاتل الأعداء تطوعاً. مما أدى إلى مرضه وملازمته الفراش شهوراً طويلة.

ربما فعل ذلك لتخليص البلد من الأعداء. ولكنه بقي يحترم ذكرى عبد الحميد إلى جانب ارتباطه بالباب العالي.

وأعتقد أن أبي وأمثاله حاولوا المستحيل. حاربوا الأعداء. ليخلّصوا السلطنة والخلافة من رجسهم. ولكن عندما حرر مصطفى كمال أتاتورك الوطن. صاروا أعداءً له. ولهذا فالإنضباطيون حسبما تقدم. ومنهم الشيوخ والدراويش والمرتبطون بالخلافة والسلطنة سينزلون إلى الشوارع لإستقبال مصطفى كمال. بعد انتصاره الساحق على الأعداء.

الإحساس الأول بالظلم

في نهاية الذكر. خيّم على خانة السماح ما يشبه الصمت المطبق. يهدأ الدراويش ويعتريهم نوع من التعب اللذيذ. يضعون إحدى أيديهم على ركبهم، والأخرى فوق قلوبهم. رؤوسهم محنية نحو اليمين. جميعهم يزفرون وبدفعة واحدة وعلى إيقاع واحد هوووه يكررونها حتى تنقطع أنفاسهم. هذا الزفير يدوم عدة دقائق.

لم أر العم غالب في تلك الاحتفالات الذكرية التي تقام بالسيف والسيخ والنار. لم تَرُقْ له مشاهدتها . كان ضد تلك الحركات. ولكنه لم يفصح عن ذلك. أما أبي فكان يدخل السيخ أو الشيش في النار ويضعه في فمه.

كانوا يسمون التكة الموجودة في جوروكليك (دركاه الشريف). العم الغالب كان أكثر العالمين والمتعليمن بين أولئك الذين يزورون التكة. وربما هكذا يتراءى بالنسبة لي. كان العم غالب يقرأ دعاء الشيخ أفندي. ودعاء الشيخ عبد القادر جيلاني قدس الله سره عليك يا حبيبي. الصلاة والسلام عليك يا خليل الله الصلاة والسلام عليك يا....

بعد ذلك يقرأ منظومة أسماء الله الحسنى للشيخ عبد القادر جيلاني. وهي بالعربية منظومة طويلة. ثم يبدأ الشيخ الأفندي بالدعاء. وعندما تنتهي حفلة الذكر أو السماح. يذهب كل إلى شأنه. ولكن هناك الرتب العالية. أو ذوو المقامات العالية. فينتقلون إلى غرفة أخرى من الطابق العلوي. حيث يتواجد ضباط وموظفون كبار. وشخصيات أخرى كثيرة معتبرة. تقام الحوارات وتقرأ الأشعار التكوية الدينية. كل أسبوع تقريباً يقرأ العم غالب ما يكتبه من الشعر الصوفي الديني. ويطلق على أشعاره اسم غالبي نهائي وكلها أشعار تحفز على التعليم وتعلم الإنسان جوهر الحياة.

بعد عدة سنوات. داهم البوليس المدني /المخابرات السياسية/ بيتي مرات عدة. فأخذوا كتبي ودفاتر ملاحظاتي ودفاتر العم غالب التي بقيت عندي. أخذوها كلها ولم يعيدوها. تمنيت كثيراً لو احتفظوا بها عندهم. ولكن يستحيل عليهم فعل ذلك. لقد باعوها دون أي اعتبار لقيمتها المعنوية. ورأيت منها الكثير لدى بائعي الكتب القديمة. ومرات عديدة. اشتريت كتاباتي ودفاتري وملاحظاتي من الباعة.

لماذا؟. لست أدري فقد بقي عندي أحد دفاتر العم غالب. لم يأخذه البوليس. سأقدم لكم بعض أشعاره الآن. وتعتبر تلك الأشعار بالنسبة لي كنزاً كبيراً وذات قيمة معنوية عالية. ولولا وجود العم غالب وتعليمه لي. ما كنت هذا الإنسان الذي تعرفونه فأنا مدين لأمي وله كثيراً.

ـ أقمت ستارة. وأشعلت شمعة كي أظهر الذل والأهوال.
العاقل يفهم من كل الرموز ومن هول المآل.
تاركوا الحسد والغيرة. يتركون القيل والقال.
تاركوا سر الأسرار يتركون أهل الحال والأحوال.
ـ الإشارة تكفي للعارف والنقطة هي درس هذه اللحظة.
هل يسمع الكلام من يملك إذن الحيوان والعبدة.
الجاهلون هم أم البلاء وتوقف الخطوة.
ستائرنا تعرف مقام العبر وتقدمها للمتعلم ذي النظرة.
ـ العاشق بحاجة إلى معشوق والمعشوق إلى عاشق.
إذا كنت عاشقاً أترك الآخرين في حال سبيلهم وأنطوي.
اجعل الحب الحقيقي في قلبك جيداً ولا تحترق.
ستائرنا وفيّةٌ للسراي ولصلة الرحم والحق.
ـ العاشق الصادق يفهم ما يدور في خلدي.
لو أصب الوجد في روحه. حتى أشرح له أحوالي.
لو صار عندي جسدٌ واحدٌ حتى يفهم أسراري.
ستائرنا شفافة للعاشقين والمعشوقين وفي كل آن.
ـ لو صار الحب ملزماً لتحولت إلى زمان.
لو صرت سكيراً. لسكرت في لحظة وآن.
لو ماتت الكائنات وزال الزمان والمكان.
ستائرنا أمكنة ضمن أسرار اللامكان.
ـ من يفهم كل ما يقوله غالب. يحس بنشوة النصر.
ومن يعترض على ما يقوله. لابد له من أن ينتحر.
أعرف أن الفاهمين يمتلئون بالذوق والفخر.
ستائرنا معادلة للذوق دون غاية أو نظر.

هذا أول ظلم أحسست به لما كان عليه أستاذي على غالب.

كنت أقارن بينه وبين الشيخ أفندي. وألاحظ كم يبقى الشيخ جاهلاً وإلى حد كبير بالنسبة للعم غالب. ليس الشيخ أفندي فقط. كل الأئمة والشيوخ وأولئك الموظفين الكبار والدراويش والضباط وشيوخ الزوايا الأخرى. يُصنَّفون جهلاء بالنسبة له.

كان الجميع يقولون عنه: إنه رجل كالبحر في علمه. عميق. إنه محيط بلا نهاية. ولكن في الوقت الذي كان فيه الآخرون يعيشون حياة مترفة إلى حد ما. كان الدرويش على غالب يرزح تحت نير الفقر بين نصف جائع ونصف شبع. ولا تفارق قدميه الجوارب الممزقة والأحذية البالية. إلى جانب تمسكه بالنظافة.

فهو لا يحب الاستحمام. حتى أن القمل كان يرعى في جسده بين وقت وآخر. في شبابه خدم العسكرية كضابط احتياط. وامتهن التعليم. وأحياناً انتسب إلى سلك الشرطة.

ولكنه قدّم استقالته. أما الآن فهو عاطل عن العمل. يبحث عنه ولا يجده. يتمنَّى أي عمل. يقدم له الراحة والخبز اليومي. وعدوه كثيراً. بإعادته إلى سلك التعليم. ولكن عبثاً. كتب إلى معارفه. وقدَّم عروض الحال للدوائر. همه الوحيد أن يأتي بأمه المسكينة العاجزة. ويقدم لها الحياة والأمان والإحسان. همه أن يتزوج ويبني عشاً زوجياً كما في خياله. منذ سنين لم ير أمه. لأنه لا يستطيع أن يعتني بها.

يجلس في زاوية أحد المقاهي. ويقرقر بنرجيلته وهو يقرأ كتاباً فرنسياً أو فارسياً أو عربياً. ويعطيني الدروس عندما يتذكرني. ويعمد أكثر الأحيان إلى شرح الفلسفة اليونانية أو الصوفية لأشخاص لا يعرفهم ولا يعرفونه، ليحس بالراحة والاطمئنان على الأقل. المستمعون لا يفهمون شيئاً. ولكنهم متعجبون بكلماته غير المفهومة. وهذا ما كان يريح العم غالب.

الظلم الأول الذي قابلته في حياتي هو وضع العم غالب. التمرد الأول بدأ وأنا في السادسة من عمري. لا عدل يسود الأوساط الحياتية. كنت أغضب كثيراً عندما يتهمه أبي بالإسراف. لأنه كان يدخن كل يوم نرجيلة. كان يشتري تنبك النرجيلة بنفسه. من أرخص الأنواع.

أصدقاؤه ومعارفه كثيرون في وزارة التربية والتعليم. من مفتشين وموظفين كبار حتى المستشارين. كانوا يرسلون له الرسائل ويعدونه بالعمل.

مديحة جميلة شيشلي

بما أن جميع أهالي قرية أبي «غولفا» أقرباء على درجات متفاوتة. فالجميع ينادون بعضهم بالعم. الصغير يقول العم للكبير، والكبير ينادي الشاب بالعم. وهنالك قروي من مسقط رأس أبي. كانا يقولان لبعضهما: عمي.

هذا الرجل أكثرهم غنى. وبصيرة. أغنى الغولغانيين على الإطلاق. هذا ما كنت ألاحظه. يرتدي ثوباً غامقاً من قماش خاص. وثلاثة سلاسل فضية لساعته التي تتدلى من ثلاث أمكنة على جلبابه. حذاؤه يلمع دائماً. نظيف. وثلاثة من أسنان فمه مغطاة بالذهب. وهذه من علامات الغنى في تلك الأيام يدهن شاربه بالزيت أو الصبغة ليحول لونه إلى لون الفستق المحروق.

كي يبدو شاباً. تفوح منه رائحة الطيب على الدوام إنها رائحة الورد الجوري والتي كانت تبقى عابقة في غرفتنا بعد مغادرته. كان يمشي وأصابعه تداعب حبات مسبحة الكهرمان الكبير فتتراتب نقراتها وهي تنزل خلف بعضها البعض. علبة سجائره لماعة من مادة «الفاكفون».

وكنت أتساءل كيف أصبح هذا العم غنياً؟. هل لأنه كان يعمل في سوق الخميس رئيساً لإحدى الغرف في الخان القديم.

كانت هنالك امرأة جميلة جداً. ذاع صيتها وبلغ بيوت قاسم باشا. والجرائد تكتب عنها دائماً. اسمها مديحة جميلة شيشلي. امرأة صبغت عالم الحب بألوانها لمرحلة طويلة. امرأة. دوّخت الرجال وجعلتهم يقتتلون من أجلها. امرأة. هدمت بيوتاً كثيرة. وأفلست الأغنياء وأطفأت مواقد كثيرة. ولأن الجميع. رجالاً ونساءً كانوا يتحدثون عنها. وأنا الآخر سمعت بشهرتها آنذاك.

كانت تكمن للرجال الأغنياء. فتسحقهم وتأخذ أموالهم وتجعلهم على شفا الإفلاس خلال مدة قصيرة. تتلاعب بعقول وعواطف. أكثر من خمسة رجال دفعة واحدة.

كان هذا العم أحد المدمنين عليها. الجميع يتحدثون عنه. لأنها سحرته وصار مجنوناً بهواها. لا يكترث لشيء. نسي بيته وأولاده.

لم يقم وزناً لكبر سنه وهيبته وشخصيته. كان يريدها على الدوام. أما مديحة الجميلة فكانت لا تكترث به.

قال عنه والدي: المسكين أصبح مجنوناً. جنونه. واضح وصحيح وصارخ. فعندما كان يتحدث في بيتنا عن علاقته بها يبكي كطفل صغير. فيقول والدي: إن مديحة الجميلة. قد استعملت سحراً. فسحرته. أفقدته لبه. حيرته. أراد أن يساعده. ليخلصه من أنيابها وسحر جمالها. وخطط لتحقيق ذلك. ولكن ما كان نوع هذا التخطيط. وكيف سيطبقه. لست أدري.

وما أعرفه. أن مديحة المشهورة بجمالها ستأتي إلى منزلنا. وسأتعرف على أشياء خاصة عن حياتها من أبي. لأنه كان عرافاً سيسألها أسئلة وستجيب.

كان ضرب المندل والعرافة منتشرين بكثرة في ذلك الوقت. وكان العرافون يعرفون ما حدث وسيحدث في المستقبل. فيضعون نقطة حبر

فوق إبهام أحد الأطفال. يطلب من الطفل أن ينظر إلى نقطة الحبر. ويقرأ العرّاف بعض الأدعية. ثم يسأل الطفل:

ـ هل ترى الشخص الفلاني؟.

يرى الطفل الأشياء المسروقة. ويعرّف على مكان وجودها. وسارقها. يرى الإنسان المفقود. ومكان وجوده. تنعكس الأشياء المسروقة والسارق والمفقود خلال نقطة الحبر على شكل أشياء صغيرة جداً. يعتقد الطفل أنه يرى الأشياء حقيقة من خلال أسئلة العرّاف. وبعض الأحيان يستعملون الماء الموضوع في الكأس أو في الطاسة.

بدلاً من نقطة الحبر الموضوعة فوق ظفر الإبهام. يكفي أن يكون الطفل الناظر إلى الحبر أو الماء ذكياً. الأطفال الأغبياء لا يرون شيئاً في الماء أو نقطة الحبر. وعندما يسمع الطفل بأنه ذكي. ولكي يثبت لهم ذلك، يصبح مجبراً في الرد على أسئلة البصار. مديحة الجميلة. ستأتي إلى منزلنا. وستسأل أبي عن أشياء عدة، أما أنا فسأنظر إلى الماء وسأقول إنني رأيت شيئاً ما. وقد خضت هذه التجربة من قبل. ولم أر أي شيء لا في الماء ولا في نقطة الحبر. نعم لم أر شيئاً. ولم أقل إنني أرى عن الأشياء التي لم أرها. ولكن في هذه المرة بالذات. سأقول كل ما يريده أبي. كي نخلص العم من مديحة. جميلة شيشلي.

جاءت مديحة الجميلة. المشهورة بشحمها ولحمها إلى منزلنا.

نظرت إلى الماء. سألني أبي. قلت نعم. سألني أبي: قلت: لا.

المرأة سعيدة بكلماتي. ولكن السعادة غير بادية على وجه أبي.

كلما أقول: نعم. كان أبي يحذرني. قائلاً:

ـ انظر جيداً يا بني. انظر بدقة يا بني.

كنت أصر على ما قلته ولا أتراجع. فهمت بعد ذلك. أنني كنت أقول عكس ما كانوا يريدونه مني. أو الكلام الذي اتفقنا على ترداده.

بدلاً من نعم. أقول لا. وبدلاً من لا. أقول نعم. وهكذا عطَّلت أعمال العم كلها. ولهذا وحده. كانت المرأة سعيدة. وسعادتها بادية على محياها. عندما كانت تجتاز عتبة الباب. أعطت أبي مبلغاً من المال. رفض أبي المال قائلاً: إنه لم يقم بهذا العمل من أجل المال.

عندها عمدت مديحة الجميلة على القيام بعمل لم نكن نتوقعه منها. أفرغت موجودات محفظتها الجلدية السوداء. وألقت بها نحوي وهي تقول:

ـ الولد يلعب بهذه المحفظة. عندما خرجَتْ مديحة شيشلي الجميلة من الغرفة قال أبي:

ـ لماذا فعلت هذا يا ولدي. لقد قلتَ عكس ما كنا نتوقعه منك.

وكنت أظن أنني أقوم بتطبيق المطلوب مني. عندها قال أبي:

ـ إذن القسمة هكذا. لن يتخلص العم من مخالب مديحة شيشلي الجميلة بعد فترة قصيرة من هذه الحادثة. قتلت مديحة الجميلة. إما بضربة سكين أو بالرصاص. وتناولت الجرائد والمجلات الخبر بشكل واسع. كُتبت عنها القصص والروايات. هذا ما أتذكره. بقي اسمها على الألسن لسنين طويلة. كانت المحفظة التي أعطتني إياها تعبق برائحة عطرة.

بعد أن كتبت ذكرياتي عن مديحة الجميلة. وفيما كنت أقلب دفاتر ملاحظاتي وأوراقي الخاصة. وجدت قصاصة جريدة تتحدث عن تلك المرأة. ولكن مع الأسف الشديد. لم أجد اسم الجريدة ولا تاريخ صدورها. ولا اسم الكاتب. وحسبما جاء في تلك المقالة لم يكن اسمها مديحة. بل مليحة. وربما بقي الاسم في ذاكرتي هكذا وهاأنذا أعرض لكم ما جاء في تلك القصاصة.

كانت هنالك امرأة جميلة جداً اسمها مليحة. تجذب بجمالها

وأنوثتها أقوى الرجال. كلام الناس عنها لم ينته أبداً.

وذات يوم بينما كانت مع خادمتها زينب يتنزهان على عربة خيل في طريق المسلخ تعرضتا لهجوم من قبل أحد القبضايات وأمطرهما بوابل من الرصاص. حتى فارقتا الحياة.

نشرت الجرائد خبر هذه الجريمة على صدر صفحاتها الأولى وعلى مدى أيام. وبقيت الجريمة الدموية في ذاكرة الناس لا تنسى لسنوات عديدة. نظمت فيها الأشعار والقصائد. والمدائح حتى أن أحدهم كتب مسرحية. عرضت في الهواء الطلق. وبقيت كتب الحب والغرام. تتداولها الأيدي بكثرة. ومن الكتب التي أذكرها كتيب صغير على غلافه صورة مليحة الجميلة.

تحدث الناس عنها في استانبول. كأنها أسطورة للجمال والحب.

حمام النساء

أعتقد أن أطفال جيلي والجيل الذي سبقنا قد رافقوا أمهاتهم إلى حمام النساء. وذلك لضيق ذات اليد. حياة العمارات الكبيرة لم تكن قد دخلت استانبول بعد. هنالك عمارات كانت موجودة ولكنها تعد على الأصابع. قاطنوها أغنياء جداً. أو هكذا يعتبرون. وكانوا يتهمون من قبل الفقراء بأنهم عديمو الأخلاق والدين، لأنهم يعيشون عيشة الحضارة والعصر. يختلط الرجال بالنساء في حفلات الرقص والسهرات.

ـ لعب القمار. حفلات الخمر والمجون. هذه عي علامات سوء الأخلاق آنذاك. قاطنو البيوت العادية. لا يعرفون ما هو البانيو.

بعض البيوت كانت تحوي أماكن تسمى غسل خانة. وهي أماكن. مغلقة من مادة /الشينكو البيضاء/. يستحم أهل البيت فيها أو كما يقولون، يغسلون الجنابة. أما بيوتنا نحن. الفقراء والمعدومين. أمثالنا. لم يكن عندهم غسل خانة. بل كانوا يضعون الماء في صفيحة على النار

حتى يغلي ويستحم الناس وسط الغرفة في طشت كبير. وبسبب صعوبة هذا الحمام. صار الناس يذهبون إلى حمام المدينة وعلى ما أتذكر. كانوا يتقاضون عن كل فرد سبعة قروش ونصف القرش. وبما أنهم لا يأخذون عن الأولاد كانت الأمهات يأخذن أولادهن حتى الكبار منهم إلى حمام النساء. وكانت حارسة باب الحمام تقول لبعضهن.

ـ ولك يا هانم... لقد ظهر شاربه وذقنه. لا ينقصك إلا أن تحضري معك والده أيضاً.

كن يقلن ذلك مازحات. وكن يطردن الأولاد الكبار من الحمام. أخذتني أمي مرة واحدة فقط إلى حمام النساء. وبما أنه لم يكن هنالك أماكن خاصة بالنساء للتسلية واللهو. فقد كن يولين أهمية كبيرة لجو الحمام وعالمه الخاص.

بدأت الاستعدادات قبل أيام. للذهاب إلى الحمام. عشر نساء أو أكثر. كل واحدة تحضر شيئاً. المحاشي الكاذبة. والكفتات الجافة. والبيض المسلوق. والمخللات. والحلوى. كن يضعنها في سلة كبيرة ويخفينها ويضعنها تحت شراشفهن. ليسترهن وبما أن حجمه كبير لم يستطعن إخفاءه عن أعين الفضوليين. نساء زنجيات جلسن أمام باب الحمام. يبعن حلوى السمسم المحشي.

ـ حلوى السمسم؟.... يا الله

ـ لقد حشيت حديثاً

النساء الخارجات من الحمام يُعرفن من نظافة وجوههن وحمرة خدودهن. وخاصة إذا مررن أمام المقهى. ترى الرجال المضجعين على الحصر يعلقون. مدللتي خرجت من الحمام تقبيلها بحاجة إلى قلب قوي.

كانت أمي عندما تسير في الشارع تنزل حجابها على وجهها ومع

هذا. كان أبي الغيور لا يريدها أن تذهب إلى الحمام وكنا نعرف ذلك من خلال تصرفاته وعصبيته وشجاره معها.

المرة الوحيدة التي ذهبت فيها مع أمي إلى الحمام. رأيت النساء عاريات. ما من واحدة تستر نفسها عن الأخرى.

كنت ولداً جاسوساً. نظرت إليهن بدقة متناهية. وقد لاحظت أمي ذلك فلم تأخذني معها ثانية إلى الحمام. أذكر أنها كانت تردد كلمة العيب للمرأة التي إلى جانبها. على عدم تستر النساء أمام بعضهن.

لا تخرج صوت التنكات واي واي

أوع يسمعنا الجيران واي واي

كانوا يقولون إن هذه الأغنية. ممنوعة لأنها أغنية معيبة. كنت لا أفهم ما فيها من عيب ولم أسأل عن مواطن العيب فيها.

ولما تطورت هذه الفكرة في عقلي أدركت موطن العيب وفق تخيلاتي الصبيانية الشخصية. وخلُصتُ إلى أنّ: الجار الزاني يريد الدخول إلى غرفة جارته وعليه أن يمر فوق بعض الأخشاب التي تحدث أصواتاً. هذه الأغنية تنبه الرجل كي يتحرك ببطء. حتى لا ينتقل صدى الأصوات إلى صفائح التنك. وتحدث صوتاً قوياً وينكشف أمره.

بعد ذلك فهمت أن تعليقي وتفسيري هذا كان في غير محله والحقيقة كانت كما يلي:

عندما يجامع الرجل زوجته بعد منتصف الليل أو قريب الفجر. ينهضان لغسل الجنابة. يضعان الصفيحة فوق النار وبما أن البيوت متشابكة مع بعضها وكذلك المنازل. إذا سعل الإنسان. يسمع جاره. وإذا أحدثت الصفيحة قرقعة. يعرف الآخرون معنى هذه القرقعة. والإنسان المسلم لا يخرج من بيته خطوة واحدة وهو جنب فذلك حرام وذنب كبير.

لا تخرج صوت التنكات واي واي
أوع يسمعنا الجيران واي واي

كلما تغيرت ظروف الحياة. تضيع الأغنيات وتفقد معناها. فعندما بدأت حياة العمارات. نسي الناس هذه الأغنية. ونسوا عيبها.

من أين جئنا؟.

اكثر ما كان يغضب أمي. هو: إطالة ذقن أبي ولبسه الجبة. ووضع العمامة على رأسه. أمي هي التي خاطت جبة أبي. وكانت تكره تعامل أبي مع ما يسمى علم الغيب. محاكاة الغائب. معرفة السارق. تداوي الأمراض.

كتابة الحجاب للمحبين. دعوة الجن والتحدث معهم. معرفة مكان تواجد الكنز. والمعلم الحقيقي لهذا العلم هو الشيخ الأفندي. ولكن يده اليمنى كان العم غالب هو الذي يكتب كل شيء. حتى أنه كان يكتب الديوان لأنه خطاط. وعمله هذا كان مقابل سكنه في غرفة صغيرة في التكة. ووجبة من الطعام. أما أبي فقد أخذ علم الغيب منذ وقت طويل عن العم غالب. يشرح العم غالب طريقة دعوة الجن في دفتر بقي معي حتى اليوم فيقول:

قبل كل شيء وجود البخور

ز نقطة. ز نقطة. ز نقطة. إحياق. إحياق. إحياق.

بالإنجيل وما يتلى في الإنجيل وبالزبور وبالتوراة.

هذه الكلمات تكتب على كف الطفل. نكسفونا أنكا أتيكا. يضعها على جبهة الطفل. ويضع في الطاسة سبع قطرات من زيت الزيتون.

ولتوزيع الجن يقرأ: إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها. وإذا ما تعكر الماء. وتأخر المجيء. يقرأ:

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من وضع يده على بطن امرأة

حامل وقال: باسم الله الأحد الصمد. لم يلد. ولم يولد سميت ما في بطني حمد. باسم محمد صلى الله عليه وسلم. تحقق الآن. بإذن الله. تتحول النطفة إلى ولد ذكر.

لماذا لم يتذكر أحد. أن محمداً لم يكن عنده ولد ذكر. (مات قاسم بن محمد الوحيد وعمره سنة ونصف). (لماذا لم يقرأ محمد هذا الدعاء واضعاً يده على بطن زوجته).

لقد وصلنا إلى ما نحن فيه. من تلك الأماكن. لا تحسبوا أني لوحدي. جئت هكذا. الجميع. حتى الرؤساء. حتى المسؤولين الكبار وصلوا من تلك النطفة. كل أمة نتاج لتراكماتها الاجتماعية. وتراكماتنا الاجتماعية نابعة من عاداتنا وسلوكياتنا الرجعية بالرغم من هزعتها القوية في حرب الاستقلال لم تمنعها من العودة بعد فترة قصيرة. لتسبح في بحر الرجعية. وهذا نابع من أن العادات الرجعية غنية ومتجذرة فيها بشكل اعتيادي. وأسباب ذلك كثيرة الفكر الجامد والعقل المتحجر.

صفعة أبي

المرة الوحيدة التي يضربني فيها أبي. كانت عبارة عن صفعة.

أبي يساوم كثيراً. وأنا أضيق ذرعاً بعادته هذه. اخجل كثيراً من طريقة مساومته. تحسبه يتقاتل حتى ولو من اجل باقة من البقدونس. في السوق. كنا نزور البائعين واحداً واحداً. ونحن نساوم. وكانت المساومة تدوم طويلاً. يبدأ بالمساومة. دون أن يسأل عن قيمة البضاعة التي يريد شراءها. يجب أن يكسر السعر. مهما زاد عدد القروش أو نقص لا يعطي سوى أقل من نصف سعرها. وكان أبي يقول للبائع بين حين وآخر: مال البعض ودعاء البعض الآخر. وكنت أقف محتاراً وهو يقول هذه الكلمات للباعة المسيحيين. وربما هذا ناتج عن كثرة التكرار والعادة.

أوصته أمي أن يبتاع لها بكرة خيطان ماركة السلسلة. كنا في

محمود باشا وقد أمسكني أبي بيدي. دخلنا جميع المتاجر. وفي كل متجر يساوم من أجل ثلاث بكرات من الخيطان. لم يخفض أحد من الباعة السعر أقل من ستين بارة. في البدء يطلبون قرشين. ويتوقفون عند الستين بارة. لأن أبي كان يقول لهم سأشتري ثلاث بكرات دفعة واحدة.

نحن في طلعة محمود باشا. حيث ترى بعد كل خطوة متجراً. يقف أبي أمام كل بائع. وتستمر المساومة ساعات طويلة. لقد بلغنا نهاية شارع محمود باشا. فوقف أبي يساوم بشدة أمام آخر بائع خيوط وجده هناك. والبائع لم يخفض السعر عن ستين بارة مطلقاً. وأبي يقول:

ـ البائعون في أول الشارع أعطوني بخمسين بارة ولم أشتر. أعطيتهم أربعين بارة. هيا أعطني بخمسين بارة لأشتريها منك. والحقيقة لم أشأ أن أكذب أبي وخاصة أمام البائع اليهودي. وظننت أن أبي قد أخطأ حقيقة. فقلت:

ـ لا يا أبي أولئك الباعة. كانوا يقولون: ستون بارة

لم أنه كلماتي حتى كانت الصفعة تنهال بقوة على وجهي. كيف فعلها أبي؟. لم يكن يغضب مني. كيف ضربني؟. جراء ردة فعل غاضبة تنهال الصفعة على وجهي. الأولاد لا يبكون أمام الغرباء. ولا يحق لأي إنسان أن يرى عيون الأطفال تدمع. كنت في حالة مزرية. وأبي اكثر مني. دفع عن كل بكرة ستين بارة للبائع وأمسكني من يدي ومشينا.

قالب الطربوش

العيد قادم. الأطفال في الحي وفي كل بيت تغمرهم الفرحة يجهزون أنفسهم للعيد. فتاة تخيط لنفسها ثوباً جميلاً من الحرير الوردي. وأخرى ابتاعوا لها حذاء جميلاً. لماعاً. ترى صورتك فيه لشفافيته وبريقه من الأعلى.

أحد الأولاد اشترى جزمة جلدية جميلة. أسفلها من الجلد الأسود وعلى جانبيها مجموعة من الأزرار تحل شريطها وتربطه بكل راحة.

والطفل يعلق الأزرار بالشناكل المقابلة بسهولة فقلت عندما أكبر سأشتري جزمة مثلها. وليس واحدة. بل مجموعة كبيرة من الجزامات.

لم يشتروا لي شيئاً على العيد ومع هذا كنت متضامناً مع الأطفال أشاركهم فرحتهم لأن العيد قادم. تأملّت أمي كثيراً لأنها لم تشتر لي شيئاً. وكان الحزن مخيماً على وجهها. كنت أقدر موقفها آنذاك. كنا في يوم الوقفة أو يوم عرفة. أعطتني أمي إما أربعين بارة أو مائة بارة لم أعد أذكر. وقالت لي:

ـ هيا اذهب يا بني وأصلح وضع طربوشك.

قررت أن أكوي طربوشي. استعداداً للعيد. فرحة عارمة تداعب أعماقي أكاد أطير من هولها. ذهبت مسرعاً إلى محل كي الطرابيش.

ولأول مرة أذهب وحيداً إلى هناك. أظن أنني كبرت. وأصبحت رجلاً. محل كي الطرابيش يقع على الطريق الطويلة مقابل الثكنة البحرية (الثكنة). أدخل المكان حيث كان داخله مهيباً. أقول:

ـ يا عماه أريد أن أكوي طربوشي.

الرجال الذين لا نعرفهم يعتبرون أعماماً لنا. صاحب المحل واقف. يلف جسده بمئزر. وأمامه مجموعة من القوالب المعدنية الصفراء. يأخذ طربوشي المتهدل. ويضع جرعة ما في فمه وينفخها على الطربوش. ينزع شرابته من أصلها.

آه لو كانت شرابة طربوشي من الإبرشيم. فالشرابة الإبرشيميَّة السوداء تلمع فوق حمرة الطربوش لمعاناً جميلاً. لن يكون لطربوشي شرابة من هذا النوع أبداً.

بعد أن رش الرجل الماء على طربوشي. وضعه على قالب خشبي يشبه

(الأسطوانة). وأطبق عليه القالب المعدني الأصفر. (الأنثى) ربما أن القالب المعدني حار جداً. تصاعدت الأبخرة من طربوشي المبلل. ثم امسك القالب بيديه الاثنتين وقلَّبه. بعد فترة قصيرة صار الطربوش مكوياً كأنه جديد.

وضع الرجل الشرابة مكانها وأعطاني طربوشي. وكان هنالك مشترون آخرون ينتظرون الطربوش الخارج من القالب ساخناً. مثل الخبز الخارج لتوه من الفرن. لا تزال الأبخرة تتصاعد. ورائحة خاصة تفوح منه اختلطت فيها رائحة السمن والعرق والأوساخ والتراب والمطر والحريق.

عندما أضع هذا الطربوش الساخن على رأسي أشعر وكأن بقية ثيابي أصبحت جديدة. وباختصار كانت هذه عيديتي. طربوشي مكوي. له شرابة عادية من الخيوط.

عندما ذهبت إلى البيت. أخذت أمي الطربوش ووضعته فوق العنبر كي لا يتغير شكله. لأن كل عيدية لا تلبس إلا صباح العيد.

سيعود أبي إلى المنزل في تلك الليلة متأخراً. مع أنه كان في الأيام السابقة يصل البيت مع آذان المغرب. بعد سنوات سأفهم. لماذا كان يتأخر في تلك الليلة. وسببه. الخجل. الخجل من النفس ومن أهل البيت. لأنه لم يشتر لولده أو لزوجته عيدية. وسيتحول هذا الخجل إلى غضب. وقد يتشاجر مع أمي لسبب تافه.

أمي تغسلني وسط (جاط) داخل الغرفة. يجب أن يغتسل الأولاد ليلة العيد. يجب أن تغمرهم فرحة العيد مع النظافة. تمددني على فراشي. تقبلني. اشترت لي عيدية عبارة عن جورب رخيص. أسود طويل. وضعته تحت وسادتي. الأمر هكذا عند الأولاد. ينامون بعد الحمام وقد وضعوا ثيابهم الجديدة تحت وسادتهم.

أمي ليست راضية لأنها لم تشتر لي عيدية. ولهذا ستجلس أمام

ماكنة خياطها وستخيط شيئاً ما من ثياب أبي القديمة على ضوء السراج (البسبوس) الأعمى. وستسهر حتى الصباح لتنجز ذلك.

عندما عاد أبي إلى البيت كنت نائماً. استفقت على صراخ مزق سكون الليل. كان يصرخ في وجه أمي. لتترك الخياطة وتنام. أما أمي فصارت تبكي دون أن تتلفظ بأي جواب. وأنا داخل الفراش أتظاهر بالنوم وبأنني لا أسمع شيئاً.

سينام أبي. وسأغفو ثانية. وستخيط أمي العيدية حتى الصباح. استيقظ أبي باكراً. وذهب إلى الجامع. لأداء صلاة العيد. أيقظتني أمي من النوم. قبل أن يعود أبي من الصلاة. وألبستني العيدية التي جهزتها لي بأية وسيلة كانت. ولبست هي جلبابها العادي ووضعت إبريق الشاي فوق الموقد. تجهز مائدة الإفطار.

عاد أبي من صلاة العيد وجلس على عرشه المتواضع. في البداية قبلت أمي يده. وقبلها من خدها. ثلاثتنا نسينا شجار الأمس. وقفت وقبلت يد أبي وهو الآخر قبّلني. وأحسست بكثافة شاربه وقسوته على خدي.

انتهت طقوس المعايدة. جلسنا على مائدة الإفطار. أطلق أبي بسملة وهو يشمّر قطعة القماش عن ركبتيه.

نور الصباح السماوي تسلّل إلى غرفتنا وأضاءها مجتازاً مربعات الشباك المعدنية. تطلعت إلى وجه أمي التي تملأ كؤوسنا بالشاي: فرأيته ذابلاً أصفر اللون من قلة النوم. جفنا عينيها منتفخان من كثرة البكاء. وعيناها محمرتان ولكنها كعادتها بعد قليل ستضحك لجاراتها عندما يأتين إلى معايدتنا.

بللت خبزتي بكأس الشاي. وأكلتها. لقد لانت وأصبحت. طرية لذيذة. بعد ان كانت قاسية ويابسة. السفرة مكونة من الخبز والشاي

فقط. وبعض الأحيان تزينها بضع حبات من الزيتون. صبيحة الأعياد كلها تقريباً أمضيها على هذا المنوال. أم تخيط لابنها الثياب من الألبسة القديمة حتى الصباح. وأب قاس ظاهراً ويخفي في داخله قلباً حنوناً طيباً إلى أبعد الحدود. الأم تبكي الدم بدل الدموع. ولكنها لا تشكو همها لأحد.

في العيد تزور الحلويات كل بيت. لكنها قاطعت بيتنا سامحها الله اللهم إلا إذا تكرم علينا ضيف ما بشيء منها في بعض الأعياد. ليس لأجلنا ولكن من أجل الضيوف الذين سيأتون لمعايدتنا.

لحسنا كثيراً من الحبر

ينتقل الأطفال في العيد. من باب إلى باب. يقبلون أيدي الرجال والنساء. الأعمام والخالات. والكبار ممن تقبل أيديهم يعطون العيدية للأطفال. بعضهم يعطون المناديل بدلاً من النقود. عيون الأطفال محدقة في أيدي الكبار منتظرة ما سوف تجود به. لا يجلسون أبداً. وما أن يأخذوا النقود حتى يسرعوا نحو الخارج... حيث لا يراهم أحد ويلقون نظرة على النقود التي أخذوها وبذلك يرضون فضولهم. فالكبار الذين خبروا ذلك. يعطون المال بعد فتح الباب مباشرة.

يتباهى الأطفال فيما بينهم بالنقود التي جمعوها. كل منهم يفصح للآخر عما معه من النقود. متفاخرين بأنفسهم. أطفال كثيرون يقبلون أيدي من لا يعرفونهم. أو يقفون أمام الأبواب. ليقبلوا الأيدي ويأخذوا النقود. هذه العادة. انتزعت مني. نهائياً. منعوها عني. لا تقبيل للأيدي من أجل خرجية العيد. كنت أقبّل فقط أيدي الذين يأتون لزيارتنا.

كنت أرفض تناول النقود المقدمة لي. الرجل الذي يمد لي يده ـ ليعطيني النقود. يخجل. يظل واقفاً. لأنني لا أتناولها. كان يلح علي

كي آخذها وكنت أخجل منهم كأنني مذنب. بعضهم يحاول وضع النقود في جيبي. فأبتعد عنه قبل أن يفعل ذلك. أحياناً وفي مثل هذه الأحوال كان أبي يتدخل. كي لا يخذل الرجل.

ـ خذ ولك ابني. خذ.

كنت آخذ وفي الوقت نفسه أغضب من أبي. قاتل الله الفقر الذي يزرع الجوع في عيون بعض الناس بينما الشبع يملأ عيون الموسرين.

في نهاية الطريق الطويل. وقريباً من الميناء. دكان (وحيد). ووحيد هذا هو الإنسان الوحيد الذي كان يبيع الكتب والقرطاسية في تلك المنطقة من قاسم باشا. الجميع يعرفون اسمه. المتجر يقع قبل دكان كي الطرابيش بعدة أمكنة. كان المحل منخفضاً عن مستوى الطريق ينزل إليه بدرجتين أو ثلاث.

كان الدكان مملوءاً بالكتب والقرطاسية وأشياء أخرى كثيرة. عندما أمر من أمامه. أقف وألقي نظرة فاحصة على محتويات الواجهة. من كتب ودفاتر وجداول وأوراق عادية وأوراق الأشغال الملونة.

وغيره من الأشياء. فأشعر بسعادة غامرة. أشتهي كل ما عرض في الواجهة. أذهب خصيصاً إلى هناك. فقط لأمتع نظري برؤية دكان وحيد ومحتوياته.

هذه كانت تسليتي الكبرى، كم تمنيت لو أني املك المال وأدخل هذا المكان وأشتري منه ما أريد. رغبتي الكبيرة أن أشتري حبراً. علب الحبر هذه بحجم الأصبع الصغير هرمية الشكل مدببة. في طرفها خيط صغير. تسحبه فتسيل نقاط من الدهان الأسود تمتزج بالماء الفاتر. وتتحول إلى حبر للاستعمال. أكثر ما كان يراود طفولتي هي مادة الحبر والرغبة في أن أمتلك منه شيئاً.

كان أبي يصنع الحبر من شحّار المدخنة. كي لا يدفع مالاً. كانت

هذه المادة جيدة الاستعمال إلى حد ما. ولكن حبراً آخر كان يصنعه أبي. لم يكن جيداً. يرشح على الورق. ولا يخرج عنه. أما الحبر الثاني كان اقتصادياً وجيد الاستعمال. عندما تكتب كلمة بالخطأ وتلحسه بلسانك. تزول الكلمة. وقد جاءت المقولة (كم لحسنا نقاطاً من الحبر بمعنى: نحن نكتب كثيراً ونتعلم جيداً).

أحد الضيوف أعطاني نقوداً بعد أن قبّلت يده عندما زارنا بيتنا في أحد أيام العيد. بداية رفضت أخذ النقود منه. أصر الرجل. تراجعت إلى زاوية البيت قال أبي يومها:

- خذ ولك ابني. هذا عملك ليس بغريب. أخذت النقود. وانزويت خجلاً لا أنظر إلى أحد. لم أبقَ عندهم.

خرجت من الغرفة ببطئ. ومباشرة إلى محل وحيد. كنت ألبس الثياب الجديدة التي خاطتها لي أمي من بقايا ثياب أبي.

وضعت النقود في جيب البنطال. وأسرعت نحو دكان وحيد.

- أريد حبراً يا عماه.

أعطاني. أدخلت يدي في جيب البنطال. فلا أثر للنقود. بحثت عنها. آه. جيب البطال مثقوب. مسكينة أمي. ربما لم تر هذا الثقب عندما خاطت لي البنطال وربما لم تجد الوقت الكافي لإصلاحه. تركت المحبرة بهدوء فوق الطاولة. وخرجت. ناداني وحيد.

- لم تعطني ثمن الحبر أيها الصغير.

- لم آخذ الحبر حتى أدفع لك ثمنه يا عماه.

تمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني لشدة خجلي. عدت بنفس الطريق التي سلكتها عليّ أجد النقود التي فقدتها. سرت وعيناي محدقتان في الأرض. بحثاً عن النقود. ولكن لا أثر ولا خبر. رجعت دون نقود ودون حبر.

جارة واحدة كنت أذهب لتقبيل يدها في العيد. هي المرأة العجوز التي أهدتني تمثالاً خشبياً لجمل صغير في حفل ختاني. كنت أدخل بيتها بكل حرية. لا خجل ولا وجل. لأنها. لا تضع في كفي بضعة قروش بعد أن أقبل يدها.

ذات مرة ذهبت لزيارة تلك الخالة العزيزة. فوجدت في بيتها شاباً طويل القامة. عريض المنكبين. كان غريباً عن دنيانا. وعن عالمنا. بحركاته ولباسه. وتصرفاته وحديثه. بكل ما فيه. كان يرتدي سترة بنية اللون وبنطالاً على شكل الغولف. وجورباً من الصوف السميك. مخططاً بألوان شتى. يطأ الأرض بقوة بحذائه الذي لم أر مثله عرضاً وطولاً وشكلاً. كنت أشعر أن الغرفة الصغيرة التي نجلس فيها تكاد لا تسعه.

بعض الناس أشبههم بمن أعرفهم تمر السنون وأتعرف إلى القنصل الألماني في «آياز باشا». عندها أتذكر هذا الشاب الذي رأيته في الحي الشعبي في قاسم باشا. والذي يوحي لك بالأمن والثقة وهو يطأ الأرض بقوة.

كان الشاب غريباً عن عالنا كلياً. لو خرج إلى الزقاق. لتجمع الأطفال من حوله وسخروا منه ومن لباسه وحركاته. عرفت بعد ذلك أن الشاب هو ابن الخالة العزيزة. وأنه كان يدرس علم النفس. وعاد إلى الوطن بعد أن نال ماجستير في أمريكا. كلمة بسيكولوج. سمعتها لأول مرة آنذاك. ولا أعتقد أن في استانبول كلها اكثر من ألف شخص قد سمعوا بهذه الكلمة. طلبت منه أمه أن يتحدث معي. كولد صغير. لأول. رجل على مستوى عال من الثقافة والعلم. يوليني أهمية. كنا نتحدث الند للند. أما الآخرون فكانوا يتحدثون معي بشكل آخر. كأنني

مخلوق عجيب قد كبر ثم عاد وصغر.

كان سعيداً بحديثي معه. ولهذا كنت أحاول جاهداً فهم كلماته. ولكنني لم أفهم شيئاً. أناقشه. وربما كنت أقول له كلمات طفولية بعيدة عن المنطق. ومع هذا كان يستمع إليّ بجدية ودون سخرية. ويعتبرني طفلاً صغيراً. يجيب على أسئلتي كلها. أسأله دون توقف عن معنى بسيكولوج. وماذا تنفع. وماذا سيفعل بها.

لم تكن أسئلتي عبثاً. من يتعلم. يجب أن يقدم شيئاً ما. أن يأتي بالمال مثل المعلم والطبيب والمهندس. والوزير والمحامي. ولكن هذه بسيكولوج ماذا تنفع؟. هل تأتي بالمال؟. لم يرد على أسئلتي بأجوبة قاطعة وصريحة. وما كان يقوله. لم أفهم منه شيئاً.

ولأول مرة أيضاً سمعت كلمة «هوكي» منه. قال: أن هنالك لعبة في أمريكا اسمها هوكي. وأنه كان يلعب هذه اللعبة وشرح لي بالتفصيل كيفية لعبها. لكن عقلي كان متعلقاً بالسيكولوج فقط. وماذا تنفع؟.

ـ حسن. ماذا نفعل بهذا السيكولوج. وماهيته. وكيف تستعمله؟.

قال: انظر. الآن. أنت قمت بحركة بسيطة. وضعت يدك على رأسك. وحككته. وقمت بهذه الحركة عدة مرات خلال وقت قصير. البسيكولوج ترمي إلى فهم وإيضاح. لماذا تضع يدك على رأسك وتحكه بين وقت وآخر. لكن فضولاً كبيراً حرك تفكيري وعقلي فقلت: لماذا وضعت يدي على رأسي؟. نعم. لماذا قمت بهذه الحركة؟. بالنسبة لي لا يوجد أي سبب. تحركت يدي ذاتياً وقامت بهذه الحركة عفوياً ليس إلا. كنت أسأله على الدوام حول هذا الموضوع. ولكنه لا يجيب وأخشى أن أكون قد وضعته في خانة اليَكْ. هذا الشاب الذي درس في أمريكا. يقول أشياء كثيرة. يريد إيضاح نقطة ما. وأنا أسأله نفس السؤال على الدوام.

ـ لماذا حركت يدي إلى رأسي؟.

كنت انتظر منه جواباً قطعياً. لهذه الحركة عدة أسباب منها: ربما أكون قد أحسست بالملل من حديثه وكلماته. ولهذا السبب انتقل إلى شرح رياضة الهوكي. كي يبعد الملل عني. وعن عمد صرت أحرك يدي وأضعها فوق رأسي. أصبحت كمذنب قبض عليّ أثناء ارتكابي الجريمة. أحسست أن النار قد اشتعلت في وجهي. كيف عرف ذلك؟.

خجلت لذلك كثيراً. قلت: لا. ليس كما تدعي. أنا لم انزعج منك مطلقاً.

منزل الدراجاتي المرح

أعرف دكاناً لتصليح الدراجات قريباً من المشفى البحري. أمامه مجموعات كبيرة من الدراجات المخصصة للأجرة. صاحبه يسكن في حارتنا. ولا أذكر ما هي الوسيلة أو العلاقة التي كانت تربطنا. ما أذكره أنني كنت في منزل هذا الرجل في إحدى الليالي. ومع هذا لا أتذكر أحداً من أهل البيت الآن. منزل كبير مكون من طابقين أو ثلاثة. نجلس على رواق عريض. نصفه محاط بالشرفة الداخلية. ودرج يصعد إلى الطابق الأعلى. المنزل مزدحم جداً. أناس كثيرون. رجال ونساء وشيوخ وأطفال.

جلسوا حتى درجات السلم. الواضح أن الجيران أيضاً قد حضروا وتحوّل المنزل إلى ما يشبه المسرح تقريباً. صاحب المنزل الشاب يقدم عروضاً من الألعاب. لم أعد أذكر منها شيئاً. يقدم عروضاً مسلية من التقليد واللطائف والطرائف والسخرية. الجميع يضحكون بقهقهات عالية. بعضهم يسقط على الأرض من كثرة الضحك. كان هذا غريباً عليّ. وخاصة مثل هذا الضحك. الدموع تنهمر من عيوني لكثرة ما ضحكت: غداً الجمعة. يجب أن يكون يوم العطلة الأسبوعية. حتى بقي

هؤلاء الناس يضحكون ويتسلون إلى وقت متأخر من الليل. أضحك وأراقب الضاحكين وأقول في أعماقي: يجب أن يكون البيت هكذا. مزدحماً. تدعو الجيران وتتسلى كما يفعل هذا العم. يضحك الجميع ويقهقهون.

لا أستطيع أن أنسى بيت ذلك الرجل أبداً. وبقيت أتحسر طوال حياتي على بيت يشبه ذاك البيت. كم وددت لو أني أمثلك واحداً مثله. بيت يرقص على إيقاع القهقهات التي في داخله وأعرف أن أمنيتي لن تتحقق بأي شكل من الأشكال. كما أعرف أنني لن أقدر أن أمتلكه مستقبلاً. لأن شروط الحياة القاسية حوّلتني إلى طالب سيذهب إلى الامتحان صباح كل غد مقبل.

أنهض عن طاولة العشاء. لأنتقل إلى طاولة العمل. فإذا تغير هذا الروتين اليومي ولو مرة أشعر بتأنيب الضمير فكأنني اقترفت ذنباً كبيراً.

بيت مصلّح الدراجات المسلي: ظلّ حسرة دائمة في قلبي. وأكلة شهية لا أشبع منها أبداً.

تخبط العربة

ننتقل من منزلنا الكائن فوق نهر الصرف الصحي /المجرور/ إلى بيت آخر في قاسم باشا.

أحياء استانبول الشعبية الفقيرة. المعدمة كثيرة. سكنّا كل حاراتها الفقيرة. وفي غرفة واحدة. أكثر ما يزكي خيالات الطفولة عندي. عربة الحصان، والمتاع المنزلي مكدَّس فوقها وهي تسير على الأرصفة الخربة. وحجارتها المبعثرة هنا وهناك. العربة تسير تنغير منغير (صوت العربة).

العربة الكبيرة التي يجرها حصانان. غالية الأجرة، أغراضنا تستوعبها عربة واحدة يجرها حصان واحد. العربة تسير من الأمام. وأنا أمشي خلفها. كي لا يسقط شيء من أثاثنا. أسلاك معدنية تتدلى بين ثقوب

العربة بسبب الدولاب الذي تفككت أسلاكه. هذه الأصوات ناتجة عن احتكاك الصحون والصفائح. تنكات الماء وأشياء أخرى تصطدم ببعضها. ومنقل الصَّاج. الفرش مشدودة. بدوزان العربة. الصينية الزهرية وبواري الموقد وخشبة المائدة. وماكينة الخياطة التي خلصتها أمي من الحريق كلها موضوعة وسط الفرش.

آمان. انتبهوا جيداً للأصص. كي تبقى الزهرة على حالها. أصيص زهرة العطور فوق كل الأغراض. وهو عبارة عن صفيحة صدئة من صفائح الكونسروة.

أين الأسياخ؟. إذا سال زيت الزيتون. يخرب كل شيء.

أين الخل الموضوع داخل قارورة زجاجية؟. أين وضعتم قارورة الكاز؟. العربة تسير /تنغر منغر/. عندما نزيل أحجار الرصيف من أمام العجلات يزداد صوتها. وصاحب العربة. يثرثر على الدوام: لم نشأ نقل مثل هذه الأمتعة، على غير العربة، إذ لم يقبل أحدٌ نقلها بعشرين قرشاً.

الجرّة. الجرّة. هل ربطموها جيداً. هي بالأصل مكسورة. أجزاؤها مثبتة بعلكة القطران. إياكم أن تنسوا. الكرسي الصغير بقي في المنزل القديم. لا يا روحي. لقد وضعناه داخل تنكة الماء.

العربة تسير تنغر منغر

ما هي الحضارة؟. الحضارة يخلقها البشر. نحن المتنقلون على الدوام.

بدأنا من آسيا الوسطى. هجراتنا دامت ثلاثة قرون بين القارات الثلاث. أراضينا كانت واسعة وبلا حدود. رحيلنا كان عشوائياً. أما الآن. فحشرنا أنفسنا في أرض ضيقة.

لم نستطع الثبات حتى على هذه الأرض الضيقة. ما زلنا نتنقّل. الشعب التركي ما زال يتنقّل داخل أرضه. الحضارة لا تسير جنباً إلى

جنب مع الارتحال والتنقل. يخبئ الإنسان ذكريات طفولته بين جدران البيت الذي عاش فيه.

فوق درجات السلالم ويقول لضيوفه. مثلاً:

- انظروا كيف كنت أتزحلق على الدرابزين وأنا في السادسة من عمري وحصل مرة أن سقطت عنه واصطدم رأسي بهذه القطعة الأخيرة من السلم. ويقول: ألا ترون هذا الباب... و...

- لو لم أتمسك باسوارة البئر. لسقطت إلى قاعه. الإنسان مجموعة ذكريات. والمجتمع كذلك. أين ذكرياتنا: نحن أولاد الفقراء؟.

العربة تسير /تنغر منغر/. وذكرياتي تتهاوى خطوة خطوة. فوق حجارة الأرصفة المبعثرة. وطفولتي تناثرت قطعة قطعة في أحياء استانبول الفقيرة. المعدمة. في كل زقاق قطعة مني هنا كسر وهناك خلع. وأثار الجروح خير شاهد تجزأت يوماً بعد يوم في هذه المدينة. التي تسمى استانبول.

اليوم ننتقل إلى البيت الجديد. وفي كل انتقال تبدأ الشجارات الصاخبة مع بداية دخولنا البيت. أمي واه لقد وقعت إحدى الشوكات. لتذهب شوكتك إلى الجحيم. انظري. الكاز يتدفق من القنينة.

تحت غرفتنا الجديدة في الطابق العلوي. غرفة مظلمة. داكنة. رطبة رائحتها عفنة. تستعمل لصناعة الألبان والأجبان. أرضها من الطين تدخل من الباب. فتستقبلك رائحة اللبنة الحامضة. رائحة الحموضة ممتزجة بالرطوبة. تصعد من السلم. تجد غرفتين. يسكن الأولى والواقعة فوق الزقاق. حليم الأفيوني (من مدينة أفيون) مع زوجته ويعمل بائعاً للحليب واللبن. وفي الثانية نحن. وتقع فوق الحديقة.

يبيع حليم اللبن والحليب في الأحياء حتى الظهر. وبعد الظهر يعبئ اللبن ضمن أكياس بيضاء ليصفيها وتصبح لبنة ثم يختفي.

نستيقظ بعد منتصف الليل على أصوات كثيرة. حليم الأفيوني يضرب زوجته. فتبكي وتصرخ. حياة حليم الأفيوني نظامية. يبيع اللبن حتى الظهر. وبعد الظهر يصنع اللبنة. وعند المساء يشرب الخمر. وبعد منتصف كل ليلة يضرب زوجته.

نظام حياته لا يتغير أبداً. أما شجاره وضربه لزوجته فقد قلّ كثيراً بعد ان بدأ يتعاطى الحشيش. في إحدى الليالي زاد من تعاطيه للشراب والحشيش. ظلّ يضرب زوجته حتى الصباح. ثم بدأ يصرخ:

ـ رائحة الدم. رائحة الدم. أشتم رائحة الدم. وبقي يصرخ هكذا حتى الصباح.

رائحة الدم. مقولة جديدة أسمعها لأول مرة. وهكذا بدأ الحي يتهامس. شاذ جنسياً لقد تعلمت شيئاً جديداً. حليم الأفيوني إنسان شاذ. لم أفهم معنى هذه الجملة. ولكني أحسست انه شيء سيئ.

وما قتل حليم لزوجته إلا من جراء الشذوذ. وما يكاد الصباح ينبلج حتى يصبح حليم محترماً. هادئاً. مغلوباً على أمره. يحب عمله. رجلاً جدياً بكل معنى الكلمة.

وجدناك في الشارع

رمضان. شهر كريم شهر الخير والبركة. فيه ترحل الفاقة عن كل البيوت. الجميع يعيشون حياة لا تشوبها أية شائبة لا فقر ولا عوز.

أمي تعدّ نوعين من حلوى الفاكهة بالجبنة كل مساء. عندما يطلق مدفع الإفطار يأكل أبي لقمتين أو ثلاث. ويشعل سيكارته ويبتلع دخانها بنهم ثم تأتي أنواع الأطعمة تباعاً. الحساء، ثم الأطعمة الأخرى. تحضِّر أمي شراب السحور من مربى الخوخ وشراب آخر. تضعه في ماء فاتر ضمن طاسة نحاسية مبيَّضة. ثم تذهب إلى الجيران. تنشر أمي الفرش على الأرض والأغطية فوقها قبل الذهاب إلى السهرة. كي نجد فرشتنا

جاهزة للنوم بعد رجوعنا. ذهبنا بسهرة إلى بيت أحد أصدقاء أبي.

كانوا يسكنون في طابق مؤلف من ثلاث غرف. إذن هم أغنياء بعض الشيء. يذهب أبي وصديقه إلى الجامع لصلاة التراويح.

في البيت فتاة شابة. في سن الزواج. أحبتني كثيراً.

يعودان من صلاة التراويح. ونرجع نحن إلى منزلنا. فأغفو في الطريق. لكن شيئاً كان يعجبني كثيراً وأفرح عندما أقوم بتطبيقه:

ما أن يفتح أبي باب الغرفة. وقبل أن تشعل. أمي المصباح. كنت أرتمي بسرعة فوق الفراش الممدود. فينتابني شعور لذيذ جراء هذه اللعبة. في إحدى الليالي عدنا إلى المنزل ألقيت بنفسي على الأرض منذ اجتيازي عتبة الباب. ولكن ليس على فراشي. بل فوق الأخشاب. خجلت كثيراً من تصرفي هذا إذ لم تكن أمي قد مدت الفرش قبل خروجها من البيت لملمت نفسي عن الأرض. مع ضحكات أمي وقهقهات أبي. وبدأت أنا الآخر بالضحك.

جميعنا نضحك. هذه الضحكات غريبة عن منزلنا ونادرة الحدوث. السعادة لا تمر بهذا البيت الفقير إلا نادراً وكذلك الضحكات.

نتمدد على فرشنا. أبي وأمي لا يتوقفان عن المزاح. قالت أمي:

ـ وجدناك في الشارع وأتينا بك إلى هنا. كنت طفلاً صغيراً ملقى هناك ترتجف من شدة البرد الذي وصل حتى عظامك. أشفقنا عليك وأتينا بك إلى هنا. لم أصدق. لا أريد أن أصدق ولكن الشكوك ساورتني ووصلت إلى أعماقي. هل وجدوني حقيقة في الشارع. ألست ابن هذه الأم؟.

أحاول جاهداً أن لا أصدقهما. أقول هذا مزاح. صوتي يتهدج وشفتاي ترتجفان. وغطت عينيَّ غشاوة مخيفة. تقول أمي بإصرار. أنت لست ابننا الأصيل. إذا لم تصدق اسأل أباك. أبي يقول الحقيقة. نعم لأنه

لا يحب المزاح والسخرية. ولأنه إنسان جدي. هل صحيح ما تقوله أمي يا أبي. ألست ابنكما. ألم تقل لك أمك. وجدناك في الشارع وأتينا بك إلى هنا.

يجب أن أصدق الآن. كوني ابن الشارع. هل يعقل أن يصير أبي وأمي غريبين عني في لحظة فرح نادرة.

شعرت على الفور أن شيئاً يضغط على حلقي يكاد يخنقني آه لو أني أستطيع الذهاب إلى المرحاض. المرحاض الملاصق للغرفة على اليسار. مكان بكائي وتمردي على نفسي. في المرحاض أبكي سراً. أبكي. وأبكي إلى ماشاء الله. ولكي أخفي بكائي أفتح الصنبور الصدئ وأغسل وجهي جيداً. ولكن لن أستطيع الذهاب إلى المرحاض قبل أن أبكي. سأفرج عن نفسي وأتناسى. سيريان بكائي. يضحكان. أحاول الضحك معهما. لم أستطع أن أتمالك نفسي. فأجهشت بالبكاء. شدتني أمي إلى صدرها. وطوّقتني بذراعيها. عانقتني بقوة. وقالت:

ـ لقد صدّقت على الفور أيها الولد المجنون.!.!.

الدموع تتهادى في عينيها أيضاً. لا تزال تضحك بعينيها الرطبتين. المبللتين. تريد أن تضحكني. ربما تذكرت طفولتها. لكنها الطفولة التي عاشتها نتيجة الأبوين. كنت بين ذراعيها. المكان الأكثر أماناً وحناناً وطمأنينة في العالم. في هذه المرة يحاولان أن أصدقهما على أنهما أبواي الحقيقان. ولكن الشك لم يفارقني.

غفوت في حضن أمي. بعد ذلك وضعتني على الفراش. اللاشعور ينشط أثناء النوم (أو العقل الباطن). يعمل دون توقف.

أسمع همسات النساء وهن تتحدثن: عندما يموت الإنسان يزداد طوله. يكون طويلاً جداً. وأن الروح تفارق الجسد بدءاً من الأرجل.

اللاشعور يعمل بشكل محير. طول أمي يزداد قليلاً قليلاً. فأستيقظ.

فراشي على مقربة من قدميها. أجلس وأنظر إلى أمي، حقيقة أمي قد طالت. تنام بطولها وعرضها. طولها يصل بين الجدارين. حتى أطول من كل الممرات. أرفع اللحاف وألمس قدميها. باردتان جداً.

- أمي ي ي .

- ماذا هناك؟. ماذا حصل؟.

- لا شيء.

- هل رأيت حلماً؟. هل خفت؟.

- لا شيء.

أغطي رأسي باللحاف واستسلم للنوم من جديد.

نحن الآن في الجنة

تأتي ابنة الجيران. ابنة صديق أبي. الفتاة الناضجة. والتي ستصبح عروساً. تأخذني كل يوم إلى بيتها في النهار. تضع على رأسها منديلاً (غطاء رأس). العائلة جاءت من القرية. الفتاة يجب أن تكون حافظة للقرآن. فتأتي بي من أجل هذا إلى بيتها.

أحفظها السور القرآنية.

تعمد الفتاة على إخراج أمها من المنزل. بأي وسيلة كانت. تجد سبباً كي نظل وحدنا. ثم تحملني وتضعني فوق الأريكة (الصوفة).

على طرفها مرآة مستديرة وسط أشكال من الزينة. تقرأ الفتاة الآيات وهي مستلقية. وتضع الغطاء فوقنا. طلب أبي مني أن اعلمها. دعاء الصلاة.

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على رسولنا محمد وعلى آله وأصحابه.

كانت الفتاة تدعكني. تمسك بيدي وتمررها على جسدها. ومن جهة أخرى تكرر الحمد لله رب العالمين.

كانت تقول لي: نحن الآن في الجنة. الجنة هكذا. نحن في الجنة.

كانت الأريكة تهتز ونهتز معها. على إيقاع حركة الفتاة التي تدغدغ جسدها بأناملي.

ـ انظر إننا نطير. ما أجمل ذلك. نحن في الجنة.

عقلي الصغير لم يستوعب الحركات التي كانت تقوم بها. أحس أن أشياء معيبة تدور من حولنا. ولكن لا أفقه شيئاً.

ومن خجلي الشديد. لم أقل شيئاً لأمي.

كانت الفتاة تقول على الدوام:

ـ نحن الآن في الجنة!. بعد كل خروج لنا من الجنة. كانت الفتاة تستغفر ربها وتقول:

ـ كيف يكون دعاء الاستغفار. لنحفظه. الدعاء نطلقه بالعربية. لتجديد الإيمان وتنظيفه ثم بالتركية. الفتاة تسوي الأريكة. وأنا أقرأ الدعاء. وهي تكرر من خلفي.

ـ أستغفر الله. يا ربي إذا صدر عن يدي ورجلي ولساني وعيني وآذاني وعن جميع أعضائي. عن قصد أو غير قصد. كلمة كفر أو عصيان. أتوب عنها كلها وأعود إليك وقررت أن لا أقوم بها مرة ثانية.

بما أن جنة الفتاة لم تعجبني. وربما لخوفي من أن تُسمع حركاتنا من قبل الآخرين. رفضت الذهاب معها إلى بيتها. مع أن أبي كان يصرّ إصراراً شديداً. كي أكون شيخها ومعلمها. وأمي أيضاً كانت تريد ذلك.

كانت الفتاة ستصبح حافظة. لا أدري ماذا حصل لها. هل صارت حافظة؟. لم أفهم حتى الآن. لماذا لم أذهب مع الفتاة. مع الإصرار الشديد من قبل والدي ومنها.

بقلاوة

لم توافق أمي على صيامي. لصغر سني. لكن أبي كان يريد أن أصوم اليوم الأول من رمضان واليوم الأخير منه. شخصياً كنت أصوم رمضان كله دون أن أفطر يوماً واحداً. الاستيقاظ في السحور يصعب علي كثيراً. ومع هذا كانا يوقظانني بقوة. كي أتناول بضع لقيمات من طعام السحور. كوني أصوم حقيقة. طعام السحور مكون على الدوام من الطبيخ ومرق بعض المربيات.

في إحدى الليالي. رفضت القيام والاستيقاظ قلت:

ـ لن أقوم.

قال أبي:

ـ انهض عندنا بقلاوة.

لكن أبي قال: عندنا بقلة.... أنا فهمت بقلاوة من تأثير النوم.

نهضت من الفراش بسرعة. الطعام عبارة عن بطيخ وبقلة باللبن. ومرقة المربى.

ـ أين البقلاوة؟.

ـ أي بقلاوة تقصد؟.

الحصبة

كان أبي يخرج للنزهة بين الحين والآخر. ومعناها بالنسبة له أن لا تعرف أمي مكان ذهابه أبداً. يغيب لشهور طويلة. وغيابه هذا لم يكن بسبب تهربه من المسؤولية. بالعكس بل من إحساسه الشديد بالحمل الذي كان يتحمله. كان يخرج يفتش عن كنز. سيجد كنزاً داخل الأرض. وسيغتني مباشرة. ويقدم لنا الرفاه والسعادة الحقيقية دون عمل أو تعب. ودون أن يؤذي أحداً. الطريقة الوحيدة للحصول على المال أن يكون بالحلال ودون أن ينقص شيئاً من أخلاقه. هذه الحال بقيت معه

حتى وفاته. وتحولت إلى ما يشبه المرض النفسي.

واليوم خرج أيضاً. للبحث عن الكنز. وذهب إلى مكان لا نعرفه.

وقلنا كما في كل مرة. سيعود خلال أسبوع. أو عشرة أيام على الأكثر.

سيعود بعد أن يستخرج الكنز من الأرض، ولكن ها قد مرت شهور طويلة ولم يعد. وعلى الأغلب كانت أمي قد وقعت في ضائقة مالية شديدة.

ذهبنا لبضعة أيام إلى بيت عمي الكبير شعبان في حي (باباك). كانت أمي تقول له الأخ الأفندي. مثل أبي لأنه يكبرها سناً. وعمي شعبان مدين لنا بمبلغ صغير عداك عن الأشياء الأخرى الكثيرة. ولهذا السبب كان بمقدورنا أن نظل عنده في المنزل ضيوفاً بضعة أيام. وخاصة أننا شخصان. ولا نحمله فوق طاقته عبئاً إضافياً. لا نطالبه بالدين. وطلب الدين بين الأخ وأخيه غير وارد أبداً.

في اليوم الثاني. مرضت في بيت عمي. كان البيت مطلاً على النهر.

مبنياً فوق تلة صغيرة. ارتفعت حرارتي وظهرت بقع حمراء في كل مكان من جسدي. لقد أصبت بالحصبة. آمان يا ربي الصبي يجب أن لا يتعرض للبرد. الهواء كالزمهرير. نحن في الشتاء أسمع عويل العاصفة من المكان الذي كنت نائماً فيه. طلب عمي منا العودة إلى بيتنا. عمي الحقيقي يطلب منا ذلك.

خرجنا من البيت. ذكريات تلك اللحظة. متقطعة الأوصال. انتظرنا الترمواي في المحطة. وقد لفتني أمي بحرام صوفي ووضعتني في حضنها. حبات الثلج تتساقط على وجهي. بين حين وآخر. وكذلك دموع أمي.

وحل المبيّض

تظهر في وجهي أحياناً بثور حرورية ويقال أنه عندما يرى الطفل حلماً مخيفاً. تظهر هذه الحبات على وجهه وخاصة على أطراف شفتيه. أطفال آخرون يصابون بهذا المرض أيضاً. ولكن القروح عندي متكررة باستمرار. فعندما يحتقن فيها المصل. تترطب. فأبدأ بالحك. وهكذا تنتقل العدوى من منطقة إلى أخرى في وجهي قالت أمي:

- إياك والحك يا بني.

لا أستطيع التحمل. أبدأ بالحك حتى تنسلخ قشرة القروح. وقالوا: دواء واحد فعال لهذه الحالة المرضية معروف بين الأوساط الشعبية اسمه وحل المبيّض. فتعطيني أمي وعاءً وتقول:

- اذهب وأحضر بعض الوحل من عند المبيّض.

المبيضون كثر في استانبول. قصدت دكان أحدهم: هل تعطيني قليلاً من الوحل يا عماه؟.

اعتاد المبيض على هذا الطلب. يقصده كل يوم أكثر من خمسة أطفال يطلبون منه الوحل. كان المبيض داخل الحفرة مشمراً عن ساقيه. ينظف الأواني النحاسية.

الوحل بلون الرماد. مدَّ يده وأخذ حفنة من الوحل. ووضعها في الوعاء الذي أحمله. دهنت أمي جروح وجهي بالوحي وبعد فترة تجف القروح. وتكون قشرة. وأشفى. ولكن القروح الحرورية تعود إلى وجهي بعد وقت قصير.

عندما كنت أهز غطاء مائدة الطعام

لم يكن لي أصدقاء طفولة. لا ألعاب ولا لعب. دائماً أجالس الكبار ومع الكبار، وسبب حدوث تلك الحادثة لي. كوني أحنّ بحسرة شديدة إلى طفولتي.

من واجباتي المنزلية. أن انظف غطاء الطاولة. رفعت أمي الطعام حملت الغطاء وطويته وهبطت الدرج. فتحت باب الزقاق. لأنفض الغطاء. وأعود أدراجي. ولكنني لم أستطع تحريك قطعة القماش تلك. بقيت واقفاً كالصنم على عتبة الباب. أطفال كثيرون من أترابي يلعبون هناك... يصرخون. ويتدافعون إنهم أطفال حارتنا. ولكني لا أعرف واحداً منهم. لأنني لا اخرج أبداً خارج هذا الباب. وقفت مدهوشاً والغطاء القماشي في يدي أراقب حركاتهم ولعبهم. من يدري كم بقيت هناك. بعد فترة وجدت نفسي بينهم. وكأن يداً سحرية شدتني من مكاني. لا أدري كيف تركت الغطاء القماشي على العتبة وكيف ذهبت إليهم. وكيف صاحبتهم وتعرفت إليهم وصرت صديقاً لهم. اعتقد أن ذلك اليوم هو أسعد يوم في حياتي الطفولية.

جميعهم يلبسون البنطال والحذاء إلا أنا. كنت ألبس جلابية وصندلاً. نسيت كل شيء دفعة واحدة. أبي وأمي والمنزل وقطعة القماش. وكأنني جئت إلى هذا العالم في تلك اللحظة. لعبنا «الكوكا». واللعبة عبارة عن علبة معدنية من علب الكونسروة توضع داخل دائرة مرسومة. وتبدأ الحجارة بالانهيار فوقها. لعبنا الطميمة. ذهبنا إلى أزقة أخرى بعيدة. لعبنا «بير دير بير» فوق العرصات الفارغة «لعبنا البندا» لم تكن دفاتر السجائر آنذاك تباع من قبل الدولة. بل كانت تباع حرة بأنواعها وأشكالها المختلفة. أغلفة بعضها كانت جميلة. وقيمة.

كان الأطفال يلعبون القمار بها. لست أدري كيف اشتركت معهم في هذه اللعبة. وربحت أغلبها وأجودها على الإطلاق ماركة «كبار علي». وبعدها لعبنا «الزيب زيب» وأصبح الكل في جيب سترتي. ما كنت أفكر بشيء غير اللعب. من حارة إلى حارة. حتى الأصحاب يتغيرون. ومن صاحب إلى آخر. من يشعر بالجوع يذهب إلى بيته.

يدخل آخر. ونلعب. أنا شخصياً لم أشعر بالجوع كنت سعيداً إلى حد كبير.

صرخ مجموعة من الأولاد وعلى إيقاع واحد:

- المتزوج إلى بيته. والقروي إلى قريته ومن ليس عنده بيت فليدخل في جحر الفأر.

عندما قالوا ذلك. وعيت قليلاً. عاد إليّ رشدي. إذن لقد حل المساء. كل ذهب إلى بيته. وبقيت وحيداً أحمل في يدي بضع أغلفة من دفاتر السجائر. وفي جيبي بعض البلورات الكروية. نظرت إلى ما حولي. فوجدتني في ساحة مسجد. ولا أعلم كيف جئت إلى هنا. كان الظلام قد خيم في الخارج. والخوف تسرب إلى أعماقي.

ماذا حصل لغطاء الطاولة يا ترى؟. لو حمله أحدهم. وأخذه؟.

اجتزت كثيراً من الأزقة حتى وصلت المنزل. طرقت الباب الخارجي بهلع وخوف. فتحت أمي الباب. كانت عيناها قد احمرتا وانتفختا من كثرة البكاء. لم تسألني شيئاً. ولم تقل أي شيء. كنت خائفاً مما في جيبي. يعني من أغلفة دفاتر السجائر والبلورات. عندما عرفت أنني أنقذت نفسي من القتل والضرب. خبأتها كلها في زاوية. بلمح البصر عرّتني من ثيابي. وغسلتني وسط الجاط (الطشت). دون أن تكلمني ولو كلمة واحدة؟. سمعت سعال أبي أولاً ثم صوته. في الأسفل:

- هانم.

- هووو

- هل جاء الولد؟.

- نعم منذ وقت طويل. بعد خروجك من المنزل.

كان أبي يبحث عني طوال النهار. تركتني أمي وسط الطشت

وخرجت تستقبله. تهامسا بعض الشيء. ثم عادت. جففت جسمي وألبستني. كانا يتصرفان وكأن شيئاً لم يكن. قال أبي.

ـ هيا جهِّز السفرة يا ولدي.

عندما تأخرت بالجواب. قالت أمي.

ـ أين كنت اليوم يا بني ؟.عندما تأخرت.

ـ هو سيقول لنا أين كان.

قلت: كنت في الزقاق.

ـ ماذا فعلت؟.

ـ لعبت.

ـ نظرت إلى الأزقة. ولم أشاهدك: أكيد أنت جائع.

في اليوم التالي وجد أبي الأغلفة وكرات الزجاج. وقال لي:

ـ اسمع يا بني. لن تلعب بالكرة بعد اليوم لن تلعب بالكرات. يقولون: أن اليزيديين. قطعوا رأس سيدنا علي ولعبوا برأسه مثل الكرة ورموه بين بعضهم. وعنها أخذوا لعبة كرة القدم. وقطعوا أصابعه ولعبوا لعبة «ميلا». لعبة كرة القدم ولعبة ميلا محرمتان. والإنسان يذنب عندما يلعب بها. شوها اللعب يعني اجلس واحفظ دروسك: وراجع السور التي نسيتها.

التعرّي بأربعين بارة

عند حليم بائع اللبن والحليب. صانع يكبرني بأربعة أو خمسة أعوام. ناداني أحد الأيام من أسفل الدرج. نزلت بسرعة. كان لتوّه قد أنزل أكياس اللبن عن كتفه... يتنفس بصعوبة بالغة. صدره يعلو ويهبط. الواضح أنه جاء مسرعاً. قال لي هامساً:

ـ هناك امرأة تخلع ثيابها. انظر. انظر.

ـ كيف تخلع يعني؟.

- وكيف سيكون يعني. تخلع ثيابها خلعاً عادياً. فتبدو عارية تماماً كما ولدتها أمها.

- روح وللك عمي.

- والله وبالله. لتزل عيناي أمامي إذا كنت اكذب. تخلع ثيابها وسط الشارع وترقص.

- طيب لماذا؟.

- من يدفع لها أربعين بارة. تخلع ثيابها وتبدأ بالرقص.

كان الصانع يقول ذلك وهو في شوق وهيجان شديدين:

لم أشعر بأيٍّ شيء أبداً. ولكن الفضول استحوذ عليّ. امرأة في استانبول تعرض نفسها وتخلع ثيابها. قبل ثلاثين عاماً. من استعمال كلمة Striptease الإنكليزية الأمريكية، وقبل استعمالها هناك تقوم امرأة بعرض نفسها وبأربعين بارة فقط. دفعني فضولي إلى معرفة ذلك.

ماذا سنرى يا ترى إذا خلعت المرأة ثيابها؟. لنترك المرأة العارية.

إن رؤية امرأة بمايوه. في ذلك الوقت أشد دهشة وحيرة من رؤية مخلوق قادم من المريخ. بعد ثلاثة أو أربعة أعوام من ذلك التاريخ ستأتي الروسيات إلى استانبول وسوف ينزلن البحر فرادى في /فلوريا/ وسيعمد الرجال. على مراقبتهن. من خلف المروج والأعشاب. مراقبة الروسيات اللواتي يلبسن المايو.

قال صانع حليم:

- هيا لنذهب.

- لا أملك أربعين بارة. هل تملكها أنت؟.

ـ أنا أيضاً مفلس. ولكن أصحاب الدكاكين هناك يدفعون المال والمرأة تخلع ثيابها. وعندها نشاهدها نحن.

سرنا في الطريق. وأنا أفكر. كيف سيكون موقفنا هناك. وموقفي أنا بالذات. موقف يُعدُّ بالنسبة لي من أشد الأحداث مَضْحكةً في هذا العالم. ولدان صغيران أحدهما في السابعة من عمره ينتعل صندلاً ممزقاً. وجلابية ممزقة مهترئة. والثاني في الثانية عشرة من عمره. قروي بسيط. ينتعل في رجليه حذاءً بلاستيكياً تفوح منه حموضة اللبن والعرق. يجريان في الشارع مسرعين كي يريا امرأة عارية.

كنا نركض. وبين فترة وأخرى يقول الصانع: هيا أسرع. آمان فالمرأة أوشكت أن تذهب. ولن نستطيع رؤيتها. الطريق وعرة جداً. قدماي تصطدمان بالأحجار. أتألم. أقع على وجهي بين حين وآخر. آمان. عجّل. لنصل إلى هناك. كنا نركض من قاسم باشا نحو شيش خانة إلى ناحية البنوك. ننحدر نحو الأسفل. والعرق يسيل غزيراً من أجسادنا. نتنفس بصعوبة بالغة. ثم نتحول إلى طريق صاعدة. نحو اليمين. إلى شارع يمر تحت النفق. باتجاه البحر. قال صانع حليم:

ـ كانت هنا.

ذهب وسأل أحدهم:

ـ هل رأيت هنا امرأة تخلع ثيابها يا عماه. أين هي الآن؟.

ابتعدت عنه من خجلي. كي لا يعرف الرجل أنني معه، اقترب مني قائلاً: يقول إنها ذهبت بهذا الاتجاه. هيا لنذهب نحن أيضاً.

ـ لا. لن أذهب.

أحسست بندم شديد. ابتعدنا كثيراً عن البيت. بدأ الخوف أيضاً

يتسلل إلى أعماقي. لربما سمعت أمي؟. لم أبتعد طوال حياتي عن البيت هكذا دون أن أكون برفقة أبي أو أمي: أعود إلى البيت مسرعاً. ويذهب صانع حليم خلف المرأة. أفكر بالمرأة العارية أثناء عودتي إلى البيت. وأقول:

هي أولاً مجنونة. ثانياً: عجوز شمطاء. ثالثاً: فقيرة معدمة. أتخيلها أمام ناظري. إني أراها. عندها. يزداد ندمي وخجلي. عجوز وفقيرة ومجنونة أيضاً. هل ينظر الإنسان إلى امرأة بهذه الأوصاف. إذن كيف يجب أن تكون؟. الجواب لا يدخل رأسي. ولكنه يأتي ذاتياً: يجب أن تكون شابة وغنية وعاقلة. همست في أذن الصانع. بعد عودته من هناك.

ـ هل رأيتها؟.

ـ رأيتها. كانت ستخلع ثيابها. لكن الشرطة جاءت وأخذتها.

يا حسن. يا حسين

في بعض أيام الأسبوع كنا نذهب إلى التكات الأخرى أيضاً. نأكل الطبيخ باللحم والعاشوراء ونشرب الحساء. كل طريقة لها يوم خاص لإقامة الذكر. ولا زلت أتذكر ذهابنا إلى التكات الأخرى. في قاسم باشا ومولانا كابي. والنقشبندية والرفاعية والقادرية. وتكات لطرق أخرى كثيرة. في إحدى الليالي ذهبنا إلى تكة في (أوسكيدار)، وبقينا حتى الفجر نقوم بذكر الله. وأعتقد أن هذه التكة تابعة أو خاصة بوالد معلمي في الأدب وصديقي (سعد الدين نزهة الدين).

وفي ليلة أخرى ذهبت مع أبي والعم غالب إلى تكة في (سوتاجا)، وهي ميناء على الخليج أما التكة التي قصدناها، فتقع على الطرف الشرقي من البوغاز من جهة الأناضول.

وهي من أكثر التكات ازدحاماً. كان الدراويش قد أقاموا حفلات الذكر حتى الصباح وهم ينشدون الإلهيات من يونس وغيره من

العظماء. الازدحام وصل حتى الحديقة، أما أنا فقد نمت تحت شجرة كبيرة. ودثرني أبي بعباءته. وعدنا من هناك صبيحة اليوم التالي.

في ليلة العاشر من محرم. ذهبنا إلى مكان واسع جداً داخل أحد الخانات الواقعة في حي البيلزيد. كان الإيرانيون يقيمون طقوس شهر محرم. إنه شيء مخيف. بدأوا بالذكر كما نفعل نحن في تكتنا. ثم هاجوا وماجوا. خلعوا ألبستهم من الصرة وما فوق. وبقوا نصف عراة. كانوا يحملون سلاسل غليظة في أيديهم. على أطراف بعضها كرات حديدية. عليها طبلات مسامير مدببة. وقد أقاموا حلقة دائرية واسعة. ثم بدأوا يضربون أجسادهم بهذه السلاسل، مرة يضربون كتفهم الأيمن ومرة الأيسر. المسامير المدببة تجرح أجسادهم ويصرخون على إيقاع حركة أيديهم.

ـ يا حسن. يا حسين. يا حسن. يا حسين؟.

كانت كلمة الحسين تخرج من أعماق أعماقهم مع صوت «ها». بداية بدأ العرق يتصبب من أجسادهم. ثم صارت الدماء تنزف وتسيل كحبّات صغيرة. من ظهورهم وأكتافهم. نزيف الدم ازداد لشدة هرجهم ومرجهم وانفعالهم. وصراخهم. يا حسن. يا حسين. وصارت السلاسل تنهال على أكتافهم وظهورهم بسرعة أكبر. والدماء تنزف من بعضهم بشكل غير معقول. حتى أنها وصلت إلى وجوه الحاضرين. جلست فوق سجادة بين أبي والعم غالب. لقد اعتراني خوف شديد.

بعضهم سقط على الأرض وتدحرج. من جراء غزارة النزيف ومع هذا لم يتوقفوا عن ضرب أنفسهم وهم على الأرض.

يا ترى ألا يشعرون بالألم؟. أنا متأكدٌ أنهم كانوا يتألمون. لأنهم كانوا قد بدأوا بالبكاء. ربما من الألم بسبب تذكرهم سيدنا الحسن والحسين. كيف قتلا وكيف استشهدا.

همست في أذن العم غالب:

ـ سيموتون.

قال العم غالب: الذين يموتون في هذا السبيل. شهداء. يذهبون إلى الجنة.

كانوا يقعون على الأرض مغمياً عليهم.

ما هذا الاحتفال الديني المخيف؟. لماذا يجلدون أنفسهم؟. هل لأنهم لم يستطيعوا حماية الحسن والحسين. إنها جلدة الحِداد. دام هذا الشيء حتى الصباح. وأذكر أننا أكلنا ملء صحن من العاشوراء.

هناك طرق وزوايا وتكات كثيرة. ومتنوعة ومع هذا لم أشاهد أية صدامات أو شجارات بين الحاضرين. الجميع يدعمون بعضهم لأنهم كلهم ضد سياسة الدولة.

جيش غازي باشا قادم

ألبسوني جلبابي الأبيض، وشدوا وسطي بنطاق أسود. ووضعوا العرقية على رأسي. وفي يدي مسبحة. صرت درويشاً صغيراً من دراويش الرفاعية. أما أبي فقد لبس جبته وعمامته الكبيرة. وأمسكني من يدي. وبدأنا السير. ذهبنا إلى التكة الواقعة في جوروكلوك. دراويش التكة كلهم مجتمعون هناك. لماذا؟. لاستقبال جيوش غازي باشا القادمة من حرب الاستقلال هذا الذي. سيهدم تكاتهم على رؤوسهم. بعد عام من الآن.

وقف الدراويش أمام التكة بشكل نظامي. بعضهم يحملون الأجراس والبعض الآخر يحملون الدفوف. كنت أقف خلف الباب. عندما كان ابن الشيخ البكر يخرج. سمعت زوجة أبيه الملقبة /شافر/. تصرخ بأعلى صوتها.

ـ يا أسدي. يا قبضايي.

صوتها ما زال يرن في أذني.

حقيقة. كان ابن الشيخ الأفندي. وسيماً جداً. فيه كل مواصفات جمال الرجال. سيذهب مع المريدين لاستقبال جيش غازي باشا «مصطفى كمال آتاتورك». الذي سيعمد بعد عدة أيام للقضاء على جماعة القوى الانضباطية المتعاونة مع الملكية من قبل الجماعات الوطنية. وسيهرب ابن الشيخ ويختبئ في مكان سري. وبعدها. سيهرب إلى أوروبة وينقذ نفسه من الإعدام والسجن. وسيشتهر في فرنسا عندما يقدم الألعاب التي كان يمارسها في التكة. من النوم على السيف وإدخال الشيش في الخد. وقلي البيض في فمه. إلى ما هنالك من ألعاب أخرى. حتى أنه سيشتهر بالعرافة وقراءة الكف. وسيجذب الجميلات الفرنسيات الشقراوات إليه. وبعد سنين عديدة سيعود إلى تركيا. وسوف تكتب الجرائد والصحف التركية عن لقاءات مصورة أجريت معه. وسيشي الجميع به أنه كان سابقاً ـ تابعاً للإنكليز والملكية وأنه كان يتقاضى كل يوم ليرة كونه منتسب إلى جماعة القوى الانضباطية. وسيعود بعد فترة إلى أوروبا ليكمل مغامراته. وسيختفي كلياً هناك.

اصطف الدراويش على الطريق. واحداً بعد الآخر. الشيخ الأفندي في المقدمة. انطلق الجميع وهم ينشدون الأناشيد الوطنية والدينية يقرعون الأجراس. وينقرون الدفوف. نحن الآن في الطريق. نسير بنظام في باي أوغلو وجسر غلطة. إلى شيش خانة إلى آمين إنو. وكما تخرج في هذه الأيام المدارس والحرفيون والعمال والنقابات في الاحتفالات. كانت الطرق الصوفية تخرج آنذاك في الأعياد القومية والوطنية والدينية.

كل طريقة لها لون خاص. تستطيع أن تميز الطريقة من لون عمامتها. عمائم من ألوان متعددة. الأحمر والأخضر والأبيض والأسود.

حقل من العمائم يسير. تجمع دراويش التكات والطرق في ساحة السلطان أحمد. أمام السبيل التابع لأحمد الثالث. ووقف الدراويش جماعات جماعات. دراويش كل طريقة أو تكة. في المكان المخصص لهم، الدراويش المنهكون من السير والتعب. واقفون وهم نيام. يسندون رؤوسهم على صدورهم مسترخين.

رفعت باشا كان أول قائد يدخل استانبول مع جنوده. أتذكر دخوله ممتطياً حصاناً أبيضاً. ماراً من جسر غلطة. أمام جنوده. كنا نسير نحو (أمين أينو) وكانوا قادمين نحو قرة كوي. تقابلنا فوق الجسر. جموع غفيرة. جماهير من الأطفال والرجال. يحملون الأعلام الورقية. يصفقون ويصفقون.

يبتسم رفعت باشا وهو على ظهر حصانه الأبيض. نحو اليسار يفعل شيئاً آخر. دهشت وتعجبت من حركاته. كان يجيء ويسلم على الجماهير المحتشدة. المصفقة. إحدى يديه ممسكة بمقود الحصان والأخرى تنتقل على الدوام بين شفتيه والجماهير.

جنرال. صغير. وسيم إلى حد ما، وكأنه قادم من إحدى صالات الرقص. وليس من الحرب. أتخيله على الشكل التالي عوضاً عن رائحة النار والبارود والدخان تفوح منه رائحة اللوسيون والكريم والسوار دوباري (عطر فرنسي شهير).

بقيت صورة رفعت باشا الملونة المحفورة على الحجر وهو على ظهر حصانه الأبيض معلقة على جدران المقاهي والصالات والدكاكين سنوات طويلة.

عند المساء عدنا من نفس الشوارع إلى منازلنا. كان مصباح الكيروسين ذو النمرة الخامسة قد اشتعل. أما في الخارج فكانت الاحتفالات قد بدأت على أضواء المصابيح والألعاب النارية.

مرة أخرى. تسير العربة ذات الحصان الواحد «تنغْر منغر» تقلنا إلى بيت جديد في «جراح باشا». لم أعلم سبب تنقلنا الدائم. ربما يكون إيجار هذه الغرفة أقل من السابقة بأربعين قرشاً. صاحبة الدار أرملة زنجية. وربما لم تتزوج أبداً. لها جناح خاص في الطابق الأرضي. بيتها جميل ونظيف. وفي الطابق الثاني غرفتان.

إحداهما نسكنها نحن. وفي الثانية: عائلة حسين النجار. زوجته تسمى «نوبر» وابنه «جواد» وابنته «جميلة». يقولون:

إن نوبر هانم كانت ابنة بالتبني. ولكنها سيدة بيت محترمة. عندما تخرج إلى السوق. تضع «الغطاء على» رأسها. كباقي السيدات الأخريات. في تلك الأيام كان النساء يستعملن الدبابيس الكبيرة. يثبتن بها الملاءة والحجاب. والخالة نوبر هانم تضع دبوساً ذا رأس أسود. تثبت به ملاءتها وكما هي العادة لدى كل النساء آنذاك تشد محفظة أو كيساً أو شنتة من القماش الأبيض. على خصرها. كانت النساء لا تحملن الحقائب التي نراها الآن. كل امرأة تعلق كيساً أبيض تضع فيه حوائجها. أما الخالة نوبر. فكانت تعلق الكيس تحت الشرشف الأسود.

فقط النساء القاطنات في ساحل باي أوغلو كن يحملن الحقائب الجلدية العادية التي نعرفها. تلك المنطقة تسمى «تانغو». وكان أبناء بيئتنا ينظرون إلى أولئك النسوة بازدراء شديد. زوج الخالة نوبر عاطل عن العمل. ولهذا. فالخلافات والمشاجرات لا تتوقف في ذلك البيت. كانت السيدة نوبر تذهب إلى العائلة التي تبنتها. الغنية. لتطلب منهم عملاً لزوجها. تأخذ أمي معها. وأنا معهن. وتذهب إلى العمارة الكبيرة الكائنة في حي باباك.

كانت الحافلة منقسمة إلى نصفين بستارة حمراء. الأمامية. مخصصة

لجلوس النساء. والخلفية للرجال. قاطع التذاكر ينتقل من طرف إلى آخر بعد أن يرفع الستارة. إذا صعد رجل وزوجته الحافلة سيجلس هو في طرف وزوجته في الطرف الآخر. بعض النساء لا يعرفن المواقف. ينزل الأزواج الجالسون في الخلف. وتنزل زوجاتهم من خلفهم وهنا تبدأ المشاحنات والمشاجرات - أزواج يغارون على زوجاتهم فيتشاجرون.

يصعب علي كثيراً أن أشرح لأولادي هذه المواقف المعيبة. وكأن الأمر الذي أقصه. ماثل أمامنا لكنه جرى قبل قرنين من الآن. والحقيقة. لا أحكي سوى ما قيل قبل أربعين عاماً فقط. نسلك طريقاً صاعدة فيها أشجار كثيفة من الصنوبر. فنصل منزلاً محاطاً بالأشجار. كم من بيوت جميلة في هذا العالم البيت الذي وصلناه الآن نصعده بسلم خشبي. موشى برسوم بديعة؟.

أفتح باب غرفة. هي ي ي ي ي. غرفة مليئة بالكتب.

شيئان اثنان جذبا انتباهي في ذلك القصر. نافذة - زجاجية. ذات ألوان رائعة. الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق. قطعة زجاجية حمراء وأخرى صفراء وأخرى خضراء. وهكذا. يدخل الضوء من النافذة فتنعكس الألوان على وجوه الناس والمقاعد والطاولات. أمد يدي تحت الأنوار الملونة. فتبدو كأنها اصطبغت بألوان عدة.

والشيء والثاني الذي لم أنساه أبداً. الكرسي الهزاز. المصنوع من الخيزران، أجلس عليه. أهتز دون توقف نحو الخلف. ومهما أسرعت بالاهتزاز لا ينقلب أبداً. أدرت وجهي صوب أمي. فرأيتها تحدق فيَّ بشكل مثير. تعض شفتها السفلى بأسنانها. معناه تنهرني. معناه أنني أقوم بعمل معيب. أنزل عن الكرسي الهزاز. أجلس بأدب وهدوء في زاوية ما. عند المساء نعود من القصر. تشرح نوبر هانم لأمي:

عندما دخلن بيتهم كنت في السابعة من عمري. وفي السابعة عشرة

زوجوني من هذا الرجل. إذن عملت عندهم عشر سنوات. إذا قلنا عشر ليرات في الشهر فكم يكون المبلغ؟. أكثر من ألف ليرة. فلو أعطوني مئتي ليرة لرضيت، لو كنا نملك خمسين ليرة فقط، لكانت كافية كرأسمال لزوجي. أمي هادئة. صامتة. هي الأخرى تفكر ببعض الأشياء على الأقل بالنسبة لها.

ندخل إلى بيتنا في (جراح باشا) أولاً من باب الحديقة. ثم من باب الزقاق في الأسفل. الأرض حجرية. وصاحبة البيت الزنجية الأرملة تسكن مقابل الباب. حديقة صاحبة البيت من الخلف. ملك لهم. فيها شجرة «جانرك». تعطينا حصتنا من ثمارها. امرأة وحيدة. لا تتحدث مع أحد. تناديني إلى غرفتها. تحدثني. أشياء من هنا وهناك. وفي كل مرة تعطيني حفنة من الخوخ وعندها مجموعة من القطط. تتحدث معها.

في حديقتنا شجرة تسمى الخطمية. أزهارها بيضاء تجمع أمي أزهارها وتنشفها وتستعملها. كدواء للسعلة. وجد حسين أفندي النجار عملاً إما في «آدي بازاري» أو أسكي شهر. أخذ متاعه وسافر إلى عمله. ذهب ولم يرجع. لا خبرا ولا مال. جاء ولدها جواد مرة إلى البيت منفعلاً وهو يقول:

ـ أمي أعطني نقوداً لأشتري جريدة.

جريدة؟!. هل جنّ هذا الغلام؟. الصحف لا تدخل منازلنا. أبداً. أبداً. جواد الذي يكبرني بستة أو سبعة أعوام. يقول: أمي. لقد صدرت الصحف هذا اليوم ملونة. رأيتها. بالله عليك لنشتر واحدة. ماذا يحصل يعني؟.

تعطيه النقود. يسرع جواد ويشتري الجريدة ويعود على الأغلب، كانت جريدة «المسار». الجريدة لم تكن ملونة بل صدر اسمها باللون

الأحمر فقط. وكانت صورة الغلاف بالأحمر والأسود. الآن أتذكرها تماماً. كانت ذلك يوم إعلان الجمهورية. إذن كنت آنذاك في الثامنة من عمري. السيدة نوبر في ضائقة مالية شديدة جداً. تعاني الأمرين هي وأولادها. طعام الغداء كان سلطة الخيار. مزينة بالنعنع والبقدونس. تضع الزيتون وفوقهما الفلفل الأحمر والملح وقليل جداً من فتات الخبز. وكثيراً ما كانت هذه المائدة توحي لي أنها مائدة إنسان غني.

كنا نذهب مع أمي إلى البراري. إلى الأماكن المحترقة في استانبول. نبحث عن الأعشاب المتنوعة. بعضها نقليه وبعضها للسلطة. ـ الهندباء. والخبيزة وأعشاب أخرى كثيرة حتى أنهم كانوا يطهون نبتة القريص. كنا نقشر جذوع نبتة «شوك الجمل» ونأكلها. باعت السيدة نوبر قرطها واشترت بثمنه طاولة لابنها ليبيع عليها ابنها. جواد يضع فوق رأسه مخدة من شعر الماعز. كي تُثبَّت عليها طاولة الكعك. يستيقظ مع الفجر ويذهب إلى الفرن يشتري منه حاجته وما يكاد النهار ينتصف حتى يكون قد باع كل ما معه ويعود إلى البيت وجيوب صدارته الزرقاء مملوءة بالنقود. صاروا سعداء في حياتهم.

ـ لو أني أبيع الكعك أيضاً يا أمي.

قالت:

ـ أنت ما زلت صغيراً يا بني. هل تستطيع أن تحمل الطاولة فوق رأسك. جواد رجل كبير. وبخاصة أبي لم يوافق أبداً أن أبيع الكعك. سيعمل مني رجل دين كبير «عالماً». هل من المعقول أن يبيع العالم الديني الكبير كعكاً؟.

خرجنا من البيت مع جواد. كان الفجر قد بزغ. واشترينا الكعك سوياً من الفرن. ينزل طاولته عن رأسه ويضعها فوق قاعدة ذات ثلاثة أرجل. في مكان مزدحم وربما أمام معمل. الجو مائل للبرودة. برودة الصباح.

يصرخ جواد:

ـ كعك تازة. يا الله يا كعك. مقرقش يا كعك. وأنا أصرخ مثله:

ـ كعك تازة. كعك مقرقش. الكعك الصباحي. المشترون كثر. جيبه يمتلئ بالنقود الصغيرة. نبيع الكعك كله. ونعود إلى البيت.

ولكن. أخلاق جواد ساءت كثيراً. أمه تشكو منه عل الدوام. قال لي جواد في أحد الأيام

ـ سأعطيك سيجارة. هل تدخنها؟.

قلت: لا أدخن.

قال: اشرب. اشرب إنه لذيذ جداً.

قلت: لا أشرب.

ـ إذن خذها وضعها في جيبك. اشربها عندما تشتهيها. وجهي لين جداً. منذ نعومة أظفاري. لا أخجل أحداً. أخذت السيجارة لا لأشربها فقط من ضعف موقفي وليونة وجهي. كي لا يكون رفضها عيباً. وضعتها في جيبي. نسيت وجودها معي. خرجت إلى الحديقة ألعب فوق شجرة الخطمية. ذهب جواد وقال لأمي. إنني أدخن السجائر وأنها موجودة في جيبي. عند المساء قالت:

ـ هل تدخن السجائر؟.

قلت بكل صدق:

ـ لا. لا. لا.

ـ تعالَ لأفتش جيوبك.

ـ فتشي.

لقد نسيت تلك السيجارة التي أعطاني إياها جواد صبيحة ذلك اليوم. أخرجت أمي السيجارة التي تناثر تبغها في جيبي وذبلت.

ـ ما هذه؟. قلت وأنا لا أريد أن أقحم جواداً في الموضوع:
ـ آ. آ. تلك؟. كنا نلعب في الشارع. أعطاني إياها طفل لا يملك جيباً. فقال: دعها معك. حتى أطلبها منك. وأنا نسيتها في جيبي.
ـ لا أريد أن أرى مثل هذا الشيء في جيبك ثانية.

مقابلنا عمارة وأسفلنا سفالة

يقع المنزل الذي نسكنه في «جرَّاح باشا» على زقاق مغلق. أو في دخلة تشبه الزقاق، مقابله عمارة كبيرة واقعة ضمن حديقة واسعة محاطة بجدران عالية من كل الجهات لا أدري إن كان شيء مخبأ خلف الجدران. وداخل العمارة.

كان فضولي يكبر يوماً بعد يوم. أناس كثيرون في العمارة. هل هم بشر يأكلون مثلنا؟. ويشربون وينامون ويتحركون مثلنا؟. لا. لا. ليسوا مثلنا. وربما نحن لا نستطيع أن نكون مثلهم. يا ترى كيف يضحكون؟. وكيف يغضبون؟.

النوافذ في الطوابق العليا مكشوفة لنا ـ كانت الأضواء ترشح من بين الستائر في الليل. أمي على الشرفة. ومصباحنا هناك أيضاً. غرفتنا مظلمة، أسند خدي إلى نافذة غرفتنا المظلمة وأراقب الأضواء المنبعثة من نوافذ العمارة الكبيرة. أضواء لا تشبه ضوء مصباحنا الاقتصادي ذي النمرة الخمسة. أنظر على الدوام. وأحلم. خيالات كثيرة تروح وتجيء خلف الستائر. الخيالات تلعب معها خيالات أيدٍ. وسواعد. ورؤوس كأنها ظلال. هذه الظلال لا تشبه ظلالنا مطلقاً.

رجل كبير عاجز. مشلول وزوجته يسكنان في غرفة تحت غرفتنا تماماً. على طرف الحديقة. يقال: إن الرجل كان متسولاً. وعندما صار عاجزاً ترك صنعته. واضطرت المرأة أن تتعاطى مهنة زوجها. تخرج منذ الصباح الباكر وتعود. عندما يخيم الظلام، الرجل العاجز المشلول. يئن

على الدوام. نسمع كل الأحاديث الجارية تحتنا، لأن أرضية الغرفة عبارة عن خشب مصفف.

الرجل العاجز يئن قليلاً في النهار، ويزيد من قوة أنينه وتألمه عندما تعود زوجته في المساء، ربما كان يبول تحته. أو يعمل ما هو أكبر. يزيد من أنينه كي لا تغضب منه زوجته. أو توبخه ومع هذا كانت زوجته تغضب وما أن تطأ قدمها باب الغرفة حتى يبدأ صراخها يعلو.

ـ تفوه ه ه عليك. الله لا يعطيك العافية. هل فعلتها ثانية؟. منذ الصباح الباكر وأنا أتسول وعندما أعود إلى المنزل عليّ أن أنظف تختك من البراز والبول؟. مت كي أتخلص منك وأرتاح. كان الرجل العاجز يجيبها بأنينه المتزايد فقط.

الرجل الذي تحتنا يئن على الدوام وأنا أراقب الأضواء المنبعثة من النوافذ العالية دون توقف. الرجل يئن وأنا أنظر. كانت الخيالات تجيء وتروح، تتلاعب بين الستائر والنوافذ وظلالهم لا تشبه ظلالنا أبداً. يا ترى. ساكنو العمارة. كيف يأكلون وكيف يشربون الماء. وكيف ينامون، وكيف يتبولون؟.

الرجل الذي في الأسفل يئن على الدوام. يا ترى هل هنالك إنسان عجوز. في هذه العمارة؟. هل يشيخون هم أيضاً؟. هل هناك عاجز مشلول أيضاً؟. وهل يئنون؟. وكيف يئنون؟. أبي وأمي في الشرفة. يقول أبي هامساً. ولكن أسمعهما:

ـ يا هانم. م. م. م.

ـ هووو

ـ أسمع آذان العشاء. ابسطي سجادة الصلاة. تدخل أمي الغرفة توجه السجادة باتجاه القبلة. يقف أبي ليصلي العشاء داخل الغرفة المظلمة. بين وقت وآخر أسمع كلامه:

ـ سمع الله لمن حمده.
الرجل يئن في الأسفل.
ـ الله أكبر
الرجل يئن دون توقف. دون قطع أو وصل. أنين متواصل.
ينهي أبي صلاته:
ـ السلام عليكم ورحمة الله.

أرفع الستارة. لأن أمي تدخل المصباح إلى الغرفة. أبي يقرأ دعاء الصلاة. يسبح ويحمّد ويكبّر. تقف أمي لتصلي صلاة العشاء. عندما يصلي الرجال يرفعون أيديهم نحو الأعلى ويلامسون أسفل آذانهم. وهم يكبرون. أما النساء فيرفعن أيديهن محاذاة صدورهن ويكبّرن. أمي تفعل ذلك. أفكر لماذا يفعلون هكذا؟. لماذا أمر الله بهذا العمل أو هذه الحركة؟. أفكر. وأفكر. الرجل العاجز يئن. حبات مسبحة أبي ينقر بعضها البعض بأصوات مألوفة. «بت. بت». الرجل يئن. وأنا أفكر يا ترى هل الناس في العمارة. يا ترى؟. يئنون.

تعدُّ أمي فراشنا بعد أن ترفع السجادة عن الأرض. ننام. ثم تطفئ المصباح «بوف» يسألني أبي:
ـ هل جمعت شيئاً من عشبة الطيّون.
ـ جمعت يا أبي.
أجابته أمي: نشرتها على أطراف الفراش.

ونبتة الطّيون عبارة عن نبتة تنبت في الأزقة. على أطراف الجدران. في الأماكن الظليلة. أوراقها من الأسفل لزجة. جمع هذه الأعشاب من مهماتي النهارية. تنشر أمي هذه الأعشاب حول الفراش، كي تحمينا من البق ومن سوس الخشب. فإن تحركت هذه الحشرات ليلاً باتجاهنا تتعثر بنبتة الطيون وتلتصق بها. وعندما نستيقظ نرى حشرتين منها أو ثلاث

عالقة لم تمت. عندها تجمع أمي الأعشاب مع الحشرات وتضعها في تنكة مملوءة بالماء.

ولكن هذه الحشرات. ذكية وماكرة، فعندما يعلق الفوج الأول منها على الأعشاب تعود الأفواج الأخرى إلى أماكنها. أو أماكن أخرى.

تتسلق الجدران. وعندما تصل فوقنا تماماً، تلقي بنفسها علينا وبذلك تكون قد عبرت حاجز العشبة اللاصقة. ووصلت إلينا. لهذه الحشرات قائد محنك. نحن الآن نيام مسترخون. يا ترى هل نام سكان العمارة؟.

وكذلك حشرة نخر الخشب. في الليل يمتزج الشخير بأنين الرجل. كأن نرجيلة تشتعل هيريل. هيريل. الشخير أسوأ من الأنين. يسعل حتى انقطاع نفسه. يسعل على الدوام. صدره يجرش. يئن. ثم «..» يصدر أصواتاً أخرى قوية. أصواتاً طويلة كأن قنبلة قد انفجرت.

وساكنو العمارة. ماذا يفعلون؟.

أغفو. أستيقظ عندما يشعل المصباح. أبي وأمي يستيقظان يتألمان من لدغ الحشرات. إنها حشرة سوس الخشب (البق) يشعلان المصباح. يجمعان الحشرات عن لحافي وفرشتي ووسادتي. يرميانها على نار المصباح.

تقول أمي: واه. واه. لقد امتصت دم ولدي. الحشرات. كبرت. انتفخت من كثرة امتصاص الدماء. تتحرك. تحاول الهرب بكل الاتجاهات. الجائعات تسرعن أكثر. الحشرات المرمية داخل المصباح تنتفخ من الحرارة ثم تنفجر وتحترق. نسمي حركة الفتيل. النازلة والصاعدة. ماكينة. مهمة جداً. الماكينة الوحيدة التي تعرفها نحن.

ـ آه لقد سحقتها.

ـ يا لها من رائحة كريهة. حول فتيل المصباح مئات الحشرات الميتة. يفرغانه ويعودان لملئه بهذه الحشرات مرة أخرى. أنا في نصف إغفاءة.

ـ واه. كم لدغوا ولدي.

صدر الرجل العاجز. يشخر. يئن. يشخر دون توقف يسعل حتى تنقطع أنفاسه.

أطفال العمارة المقابلة

أطفال العمارة المقابلة. كثيرون. فتيان وفتيات. نسمع قهقهاتهم. فوق زقاقنا على شكل أمواج. آتية من خلف الجدران. ومن فوق هذه الجدران تطل أغصان الأشجار. أشجار التوت والخوخ والإجاص. يتشاجر أطفال حينا. الحفاة. العراة. المعدمون من أجل ثمرة تسقط فيما بينهم. اللعب ممنوع عليّ. وخاصة مع أطفال الأزقة. منعاً باتاً.

أخرج من البيت، أبتعد عنه كثيراً. وكثيراً جداً، لا لكي ألعب ولا من أجل عمل أريد القيام به. أرى نفسي رجلاً كبيراً، ولهذا لا أشتهي الدخول بين الأطفال الذين يلعبون في الأزقة المغبرّة الكائنة بين جدار العمارة وحديقة منزلنا. مجرد التفكير باللعب كان عبثاً عندي. أراقب الأطفال وهم يتسلقون الجدار ويقطفون الثمار. ينحني أكبرهم سناً وجسداً قرب الجدار. يصعد طفل آخر على ظهره. والطفل الثالث يتعلق بكتف الثاني والرابع على كتف الثالث. وهكذا. حتى تصل يد الطفل الأعلى إلى الغصن ثم الثمرة.

ـ إنها مليئة بالثمار.

ـ هُزَّها. هُزَّها.

الطفل الأعلى يهز الغصن. فتتساقط حبات التوت الناضجة. وتختفي وسط التراب الناعم. يصرخ الطفل الذي يهز الغصن من الأعلى للآخرين الذين يتسابقون من أجل التقاط حبات التوت: لا تنسوا. حصتنا. ها. يتهاوى البرج المكون من ثلاثة أو أربعة أطفال. يسقطون فوق الثمار. ثمار التوت والخوخ الملطخة بالتراب.

أنظر إليهم من النافذة. لا أشتهي لعبهم ولا تصرفاتهم. ماذا يعني هذا اللعب. قهقهات أطفال العمارة تجتاز أسوارها إلى الخارج. كما تنهمر الثمار من الأغصان المدلاة فوق الجدران. كذلك أطفال العمارة يتدافعون إلى الخارج وخاصة في المساء. يلعبون في تلك الساحة المغبرّة. خمسة أو ستة أطفال. بنون وبنات. يلعبون ضمن مجموعة مستقلة.

الأطفال الآخرون يلعبون أيضاً. هنا وهناك. لا يختلطون معهم. لا يشاركون أحداً. كالزيت والماء. الفوارق الاجتماعية موجودة حتى في الطفولة. كأن حاجزاً سرياً. يفصل بين مجموعتين لا تتعدى المسافة بينهما عشر خطوات. أطفال العمارة لا يكترثون. ولا يرون. لا يهتمون بأطفال الحارة الذين يتدافقون فيما بينهم. وكأنهم غير موجودين أبداً. حتى أنهم لا يرفعون رؤوسهم للنظر إليهم. أما أطفال الحي. فغير ذلك.

عندما يخرج أطفال العمارة. ويجتمعون أمام باب الحديقة. ويتسابقون في عرض أنفسهم للقادمين الجدد. يقومون بأشياء غريبة وعجيبة. لا أدري كيف أشرح لكم ذلك. يتغيرون. ينسلخون عن جلدهم. يقدمون العروض المتنوعة. ليجذبوا انتباه أطفال الحي. يجرون يقفزون فوق بعضهم يتدحرجون فوق التراب. وبين الحين والآخر يرمقهم أطفال العمارة بطرف أعينهم. يا ترى هل يهتمون بما يفعلون؟. أما أطفال الحي فكأنهم ليسوا هنا.

أنظر من النافذة. لست مع أطفال الحي ولا مع الآخرين. أنا في الوسط. طبعاً لست مع أطفال الحي أبداً، لأنهم يتملقون لأطفال العمارة. إنهم أطفال قذرون. أطفال العمارة شيء آخر. وجوههم بيضاء. نظيفة ونضرة. وثيابهم كذلك. مشيتهم مختلفة. ضحكاتهم مميزة. أنا لست مع هؤلاء ولا مع أولئك

كنا نأتي بالماء من النبع القريب جداً، وفي أكثر الأحيان كان السقا

يجلب لنا ماء الشرب والغسل والتغسيل. صرتُ أجلب الماء مرة في اليوم. كي لا يأتينا السقا بالكثير. ويأخذ منا نقوداً أكثر. وكانت أمي ترسلني لجلب الماء في المساء على الدوام. عندما يكون أطفال العمارة يلعبون في الحي.

لم أعد ألبس الجلابية. أصبحت ألبس البنطال القصير. أخذ الصفيحة وأخرج وأمي تصرخ من خلفي: إياك أن تملأها. ضع فيها أقل من النصف.

أخرج إلى الزقاق من باب الحديقة. الأطفال يلعبون. كل مجموعة في طرف. أطفال العمارة من ناحية، وأولاد الحي من ناحية أخرى. وأنا. لست لا مع هؤلاء ولا مع أولئك. أخجل من نفسي. لأنني أنقل الماء بصفيحة التنك لا أطفال العمارة ينقلون الماء مثلي ولا أطفال الحي. الطرفان لا يهتمان ببعضهما. ولكنهما يهتمان بي. الطرفان تشرئب أعناقهم ويتطلعون صوبي وأنا أحمل الصفيحة. لست طفلاً مثلهم. بل رجل. طويل عريض. ولكنني صغير في نظرهم. أصغر من الصفيحة التي في يدي. أضيع خلفها وأتوه. أنزوي في اللاوجود.

أمام باب منزلنا. ساحة ترابية. وإن اتجهت شمالاً تجد منزلين على مستوى واحد. وعندما تتجه نحو اليمين، ستجد منزل الخالة رشيدة في الزاوية. زوجها اسماعيل أفندي يملك محلاً لبيع الحلاوة في «آف سراي». تعتبر هذه العائلة أغنى عائلة في حيِّنا. أليس هذا واضحاً من منزلهم. تصعد إلى الباب المطل على الزقاق عبر ثلاث درجات. الخالة رشيدة عندها ولد يسمى صائم. ربما في الخامسة عشر من عمره.

عندما تنحرف من منزل الخالة رشيدة نحو اليمين، تخرج إلى الشارع الكبير. هناك نبع الماء. أملأ الصفيحة بالماء وأعود أدراجي بسرعة البرق. أطفال حينا الفقراء لا ينظرون إلى أطفال العمارة مباشرة. وعندما يرونني

أحمل الصفيحة وجسمي مائل صوبها لثقلها. يسخرون مني. يرمونني بالحجارة والكلام البذيء. أطفال العمارة كذلك. لا ينظرون إلى أطفال الحي. بل ينظرون إلي. يسخرون مني ويضحكون عليّ. وأنا لست منهم ولا مع الآخرين. أطفال العمارة يضحكون وأطفال الحي يسخرون. آه لو أصل إلى المنزل.

أركض. الصفيحة تثقل أكثر على كتفي. أضعها على الأرض. وأحملها بيدي الأخرى. فتنهال علي الضحكات والكلمات اللاذعة، يسخرون مني، يشتمونني ومع كل هذا ما كنت أتمنى مطلقاً أن تسمع أمي بذلك.

تعليم المشاجرة

فتاة من أطفال العمارة. أصبحت عدوة لي لسبب لا أعرفه. فتاة طويلة القامة. بدينة قليلاً. أعمر مني بكثير. عندما تراني خارجاً من البيت، حاملاً الصفيحة. تأتي من خلفي وتنتظرني أمام منزل الخالة رشيدة. تقطع عليّ الطريق. أثناء عودتي بصفيحة الماء. وتبدأ بضربي. وأصبح هذا التصرف عادة عندها في كل مساء تضربني وتضربني. أهرب منها. غير أني أعتبر الهرب نوعاً من العيب ولكنني لا أستطيع ضربها لأنها أكبر مني وكيف أضربها. وهي ترتدي جلباباً رائعاً. نظيفاً. وجميلاً. شعرها منسّق وبديع، كل شيء فيها حرير بحرير. حذاؤها. لمّاع. مدهش. كيف أضرب فتاة مثلها؟.

لا أستطيع حتى أن أرفع يدي عليها. تضربني على الدوام. وأنا أنظر في وجهها وصورتها. لا هذه الصورة الجميلة. لا يحق لي إهانتها ولن أضرب هذا الوجه الجميل. النظيف. لا أستطيع هذا. لا أستطيع أن أضربها بأي شكل من الأشكال، ولكني أقول لها وكأنني أصنع مزحة يقوم بها أحد الأطفال:

ـ لا تضربيني. بربك لا تفعلي هذا.

أضع صفيحة الماء بيني وبينها، كي لا تضربني. في إحدى الأمسيات قطعت عليّ الطريق وبدأت تضربني. وأنا أقول لها كما في كل مرة: لا تفعلي هذا. بالله عليك لا تضربيني. وإذا بباب الخالة رشيدة يفتح.

وخرج السيد صائم. عندما رأيته خجلت. خجلت كثيراً. لأنه شاهدها وهي تضربني. السيد صائم شاب كبير. دفعها. هربت الفتاة ثم قال لي:

ـ عيب عليك أن تضربك فتاة.

قلت: لا. لا. لا تضربني.

ـ وماذا تفعل إذن؟. كل مساء أراك من خلف الشريط. الفتاة تضربك على الدوام وأنت لا تقول لها سوى: لا تفعلي ذلك. لا تفعلي ذلك.

قلت بعصبية: إنها لا تضربني ولا أي شيء.

ـ ولك حبيبي تضربك وتعتبره مثل العسل. على قلبك هكذا دونما تعليق. هذا غير صحيح. الذي يُضرب مرة يبكي. أنا لم أبكِ أبداً.

ـ عيب. عيب. الرجال لا يسمحون للنساء بإهانتهم. لماذا لا تضربها أيضاً؟. هل تحمل في يديك إجاصاً؟.

ـ ولكنها أكبر مني.

ـ لتكن كذلك. الرجل لا تضربه فتاة. مهما كان صغيراً. هل فهمت؟. انظر ماذا ستفعل بها.

أول درس في العراك آخذه من السيد صائم. الذي مات بسبب مرض السل وهو في العشرين من عمره.

ـ يجب أن لا تتسبب في مشاجرة لشيء تافه. ولكن إذا كان المسبب للمشاجرة شخص آخر. عليك أن تبادر أنت بالضربة الأولى، حتى ولو

كان الذي أمامك أكبر منك. مبادرتك بالضربة الأولى. معناها أنك أنت الرابح. فعندما توجه إليه الضربة الأولى. لن تعطيه فرصة ليضربك. ستظل تضربه وتضربه حتى تنقطع أنفاسه تاك. تاك. تاك. أما إذا وجدت نفسك في موقف ضعيف. لا تستطيع ضربه. كما هي هذه الفتاة التي تكبرك كثيراً. اضرب ركبتيها بطرف قدمك الأمامي.

خجلت منه كثيراً ومما يقوله؟. أمسكت الصفيحة من قبضتها الخشبية وركضت. وكانت المياه المتطايرة من الصفيحة تبلل جسدي كله.

اختفت الفتاة يومين أو ثلاثة. ولم تعد تقطع عليّ الطريق ولكنها كانت ترمقني بنظراتها الساحرة خلافاً عن كل أولاد الحي. أما أطفال الحي. فظلوا يسخرون مني. في إحدى الأمسيات ظهرت أمامي مرة أخرى. وبدأت تضربني تركت الصفيحة من يدي، وقلت:

- لا تضربي.

تضربني.

- أقول لك لا تضربي.

تضربني

توجهت بنظري نحو منزل الخالة رشيدة وبالتحديد القفص. لأرى إن كان السيد صائم يراقبني أم لا.

قلت لها: ولكن. انظري لا تضربي.

تضربني.

- انتبهي سيخرب كل شيء.

تضربني.

الفتاة ما زالت حتى الآن أمامي. كأنني أراها تلبس بابوجاً أسود في زر واحد، وجورباً أبيضاً. كيف أضرب فتاة تلبس مثل هذه الألبسة الجميلة؟. تنورتها بلون السماء. لا أقوى على ضربها. تحضن شعرها

شكلة بيضاء رائعة. لا أستطيع أن أصيبها بأذى. وجهها نظيف جداً ومغسول لا أستطيع أن أمد يدي عليها.

ـ انتبهي لا علاقة لي بعد الآن ها. سأضربك. وتعود تضربني.

ـ انظري. أنا الآخر سأضربك. ها.

في هذه المرة لم تضربني. ولكنها ضحكت. عند ذلك غضبت كثيراً. ضربت التنكة التي بيني وبينها بطرف قدمي. لا أستطيع أن أضربها هي. ولا أستطيع أن أفعل غير ذلك. تطايرت المياه على جسدها إثر الضربة، عندها صرخت مولولة:

ـ ما. ماما.

مشاجرتي الأولى تبدأ

عندما سمع أطفال العمارة صوت الفتاة، أسرعوا نحونا. ومن الخلف جاء أطفال الحي مباشرة. وحاصروني من كل الجهات. في الوسط أنا والصفيحة، وعن اليمين أطفال الحي. وعن اليسار أطفال العمارة. تطلعت بإمعان إلى نوافذ منزل الخالة رشيدة. غير عابئ بشيء أبداً. وليس لي من خلاص، حتى ولو جاء السيد صائم وخلصني. اقترب مني صبي من أطفال العمارة. أكبرهم عمراً وجسداً وقال:

ـ (عيب عليك ولك). لماذا ضربت الفتاة؟.

ـ أنا لم أضربها.

تمسكت بقبضة الصفيحة الخشبية، وكأنها شيئاً لم يحدث أبداً. كنت سأحملها وأنسل من بينهم.

ضرب الصبي الصفيحة وهجم عليّ كأنه ديك وقال:

ـ إذا كنت رجلاً. اضربني.

بدأ أطفال الحي يرمون الحجارة على صفيحة الماء.

الصفيحة ما زالت في يدي. يدي اليمنى. ماذا قال لي السيد صائم:

لا تتسبب في إحداث الشجار. ولكن إذا أراد أحد أن يبدأها، بادر أنت بالضربة الأولى. حتى ولو كان أكبر منك. الصفيحة في يدي اليمنى. أقيس وجه الصبي بنظراتي. لا أحد يفتح فمه أبداً. لا أطفال الحي. ولا أطفال العمارة. ضيّقوا عليّ الحصار أكثر.

وما إن وضعت التنكة على الأرض، حتى أنزلت لكمة قوية على وجه الصبي.

(آه.)

وضع يديه الاثنتين على وجهه. لقد قال السيد صائم. إذا ضربت الضربة الأولى. لا تتوقف. استمر باللكمات الأخرى «بات بات بات» نعم. بات. بات. عرف الصبي أنه لن يتخلص من يدي. حاول الدفاع عن نفسه. تدحرجنا على الأرض. بدأ أطفال العمارة يولولون ويصرخون. الصبي تحتي. لم يعد له أي وجود. عيب على الإنسان أن يضرب هذا الكيس الفارغ. وقفت على رجلي. أمسكت بقبضة الصفيحة ومشيت. ابتعد الجميع عني وأفسحوا لي المجال دون أية معارضة. أطفال العمارة، مع أطفال الحي، يأخذون الصبي المضروب.

وأنا وحيد. وحيد. حتى ولو أكلت قتلة، وحيد. حتى ولو قتلت، وحيد.

عندما دخلت البيت وجدت أن القيامة قد قامت. لقد رأت أمي كل شيء من النافذة عندما سمعت صراخ الأطفال. وصارت تقول: ما بدي شوفك تفعل هذا ثانية. هل أنت طفل شارع حتى تتشاجر مع هذا وذاك. هل ستوقعني بمصيبة أنا بغنى عنها مع نساء الحي اللواتي لا أعرفهن. وضعت صفيحة الماء على الشرفة. وأسرعت إلى المرحاض. أبكي من جهة، ومن جهة أخرى أقول في نفسي. موجهاً كلامي إلى أمي:

ماذا أفعل يعني. أنا لم أفعل شيئاً. يا أمي. أمي تصرخ في الخارج:
هل ستجلب لرأسي مصيبة مع نساء العالم. (لا أريد رؤيتك ثانية تفعل هكذا). بكيت حتى الشبع. وغسلت وجهي جيداً ونشفته. ودخلت الغرفة وتربعت على الأرض. وبدأت أقرأ القرآن وأنا أهز رأسي نحو الأمام ونحو الخلف. في تلك الليلة سمعت أبي يقول لأمي، وهما ينظفان الأرض والفرش من حشرة الخشب (البق):

ـ حالة الرجل سيئة هذه الليلة، حتى أنَّ أنينه مختلف. أسمع أنين الرجل وحشرجته. وأنا مغمض العينين. نصف إغفاءة. فتقول أمي:

ـ ولك حبيبي. إنه كما في كل ليلة.

يقول أبي:

ـ لا. لا. هذه المرة مختلف. هذه الليلة. أصعب من سابقاتها عليه. حضرت وفاة أشخاص كثيرين في المنفى. أعرف ذلك جيداً. مات لنا أصدقاء كثر. وفي الحرب أيضاً. أعرف. الرجل الذي سيموت يئن بشكل مختلف. هذا أنين الموت. أعرفه. الحشرات تدخل من هنا وهناك لأنك لا تضعين أعشاب الطيون جيداً.

ـ كيف أضعها. يعني لقد أحضر الولد حزمة كبيرة منها وأنا نشرتها كما ترى في كل الأطراف.

جاء الصباح. لا أنين ولا حشرجة ولا سعال من الطابق الأسفل. ولن يكون بعد الآن، لأن العجوز العاجز قد مات. أبي يقرأ القرآن بعد صلاة الفجر على روح الفقيد. المتسول العاجز. الفقراء. يلقون الراحة والسهولة مرة واحدة. بعد موتهم. ترفع جنازاتهم مباشرة. مرّ ذلك اليوم هكذا.

عند المساء طلبت أمي. أن أجلب لها الماء من الصنبور. خرجت إلى الزقاق والصفيحة في يدي. أطفال العمارة يلعبون في مكانهم. وأطفال الحي كذلك يجرون هنا وهناك. لا ينظر إليّ أحد منهم. لا يسمعوني

الكلام ولا يسخرون مني. وأنا لا أنظر إليهم أبداً. ولكنني كنت أحس أنهم ينظرون إليّ بطرف عيونهم. لن يستطيعوا أن يسخروا مني بعد الآن.

الصفيحة الفارغة في يدي. أذهب إلى صنبور الماء وأنا أهزها. أصبحت كبيراً. وكبيراً جداً. والصفيحة التي في يدي تصغر وتصغر. هاأنذا أكبر وأكبر. والتنكة تصغر. صارت كحبة الحمص. هل رآني السيد صائم. كيف أكيل اللكمات للصبي؟. لم يرني. لو رأى ذلك. لهبّ إلى مساعدتي. رأيته بعد عدة أيام. لم يتطرق إلى الموضوع أبداً. لم أستطع التحمل أكثر: يا سيد صائم. هل تعرف أنني ضربت؟. لم أضرب الفتاة بل الصبي. الذي يكبرها كثيراً.

قال السيد صائم:

- راقبتك من داخل القفص. مرحى لك. يجب أن تكون هكذا.

أحسست بالغضب لكلماته هذه.

حياتي. أمضيتها هكذا. بقي الذين علموني الشجار، الذين حصروا عقلي وفكري في هذا الاتجاه. كانوا في الخلف. يراقبونني عندما أدخل في حرب أو معركة أو صراع. حتى أن البعض منهم لم يراقبني.

هذه الطلعة ستذلل بالسياط

الدروس التي كان يعطينها العم غالب لم تكن يومية. لأن المسافة طويلة ومكان وجوده، بعيد ويصعب على طفل في الثامنة من عمره الذهاب كل يوم من جرّاح باشا حتى قاسم باشا ثم يعود.

لم تشأ أمي إرسالي. وأبي يخشى أن أنسى كل ما تعلمته. ولذلك صرت أذهب في الأسبوع، يومين أو ثلاثة. أخرج من البيت بعد تناول طعام الإفطار. أمر أمام مشفى حسكي إلى آف سراي. ومن هناك إلى سراج خانة باشي. ومنه إلى جسر أوكاباني. وبعد اجتياز الجسر. أصل

إلى الطريق الصاعدة الموصلة إلى شيش خانة. كانت هذه الطريق تسمى /طلعة الميت/. أبقى هناك طويلاً. وما كان يؤخرني هو الخيول التي تجر العربات المحملة. بالأحمال الثقيلة.

على الناحية اليسرى من هذه الطريق القاسية. جدار عال. تابع لمخزن الأسلحة. كنت أجلس القرفصاء في ظل الجدار وأرقب الأحصنة التي تحاول الصعود في تلك الطريق. ربما أبقى ساعة أو ساعتين في بعض الأحيان. مرّ أربعون عاماً وأكثر على تلك الحادثة. واليوم أرى الشبه الكبير بين حياتي التي أعيشها وعشتها وبين عذاب ومرارة الأحصنة التي كانت تتسلق تلك الطريق القاسية: وكأنني أراقب نفسي وما عانيته قبل واحد وأربعين عاماً. بين حين وآخر أحس بثقل تحمل المسؤولية. وما أعانيه من هذا الحمل. في حياتي الحاضرة ـ أتذكر تلك الأحصنة التي تصعد الطريق تجرّ خلفها عربة ثقيلة الحمل. ستصعد شاءت أم أبت. تحت وقع ضربات السياط على رأسها.

كانت العربات الوسيلة الوحيدة لنقل البضائع والأحمال الأخرى. إلى جانب الحمالين آنذاك. لا شاحنات ولا بيك آبات صغيرة. عربات يجرها حصانان أو حصان واحد. كانت العربات تملأ عن آخرها وكثيراً ما يكون وزنها أكبر من طاقة الحصان أو الحصانين. كانت الطريق قاسية جداً. ومفروشة بأحجار الأرصفة. وأقسى من الآن. لم أرَ حصاناً يجر عربة يقوى على صعودها دفعة واحدة.

يبدأ العربجي التلويح بالسياط في وجه الأحصنة، وهي تجتاز جسر «أونكاباني» ينهال عليها ضرباً كي تزيد من اندفاعها قبل بدء الطلعة. وكانوا يظنون أن الحصان لو انطلق بسرعة معقولة. لاجتاز الطلعة. دون توقف. ولكن ما من حصان يقوى على صعودها دفعة واحدة. فتنهال السياط على ظهره دون رحمة ولا شفقة. صاحب العربة يفعل ذلك،

شفقة على حصانه كي لا يسقط في منتصفها ويأكل سياطاً أكثر.

تحتار الأحصنة من هذا الانقلاب الحاصل. ومن هذه السياط التي تلسع ظهورها فجأة. تجري وتجري. ولا يتوقف العربجي عن إثارتها كي تسرع. فيمسك برسن حصانه من جهة. ويجري معه بوجهه يميناً وشمالاً لأنه يستحيل عليه أن يصعد بخط مستقيم، يجري ويتصبب العرق من العربجي الذي يحاول قدر جهده تخليص نفسه وحصانه من وطأة هذه الطلعة القاسية. فتسقط قطرات العرق فوق حجارة الطريق ويمضي لا ينوي على شيء. وكلما اصطدمت نضوة الحصان بحجر صواني تخرج شرارات نارية. صغيرة. أما ضرب السياط والصراخ والتوسل. والجري مع الأحصنة وسحبها. لم يقدم ولم يؤخر في الأمر شيئاً. فالخيول الشابة القوية. تنقطع أنفاسها قبل منتصف الطلعة. وتتوقف. فيضع العربجي، خلف العجلة، خشبة أو إطاراً يحملها معه على الدوام. حتى لا تتراجع العربة نحو الخلف.

دائماً هنالك أكثر من خمس عربات واقفة في منتصف تلك الطلعة. العربجي يحب خيوله. يجري من جديد ويصرخ هيا. ملوِّحاً بسوطه. كان الزبد يملأ أفواه الخيول المسكينة وعيونها تكاد تخرج من محاجرها. وعضلاتها. مشدودة وأعصابها متوترة تسمع زفيرها من بعيد.

سائقو العربات يساعدون بعضهم. فبينما تتوقف عربة وترتاح خيولها يجتمع السائقون ويدفعون عربة أخرى. ثلاثة أو أربعة سائقين يدفعون من الخلف وصاحب العربة يجر الحصان من مقوده. وأصوات السياط لا تتوقف.

يسير الحصان صاعداً عشرة أمتار تقريباً. يتوقف. تزل قدمه. يهوي على الأرض. رأيت الكثير من سائقي العربات جالسين قرب خيولهم الممددة على الأرض وقد كسرت أرجلها يبكون ويبكون. سياطهم ملقاة

جانباً. يعانقون أحصنتهم التي لم تعد تنفع لشيء. عندما يسقط الحصان على الأرض. هناك يكون الهم الكبير على السائق، تخليصه من أحزمته «قشاط» حيث يظل الحصان معلقاً وتنقطع أنفاسه ويموت مختنقاً. وإذا لم يقوَ على فك الأحزمة بسهولة يقطعها بسكين.

أنظر إلى العربات وسائقيها وأنا منزو في ظل الجدار. السائقون يبذلون المستحيل. من شد ودفع وضرب وصراخ. إذا لم ينهض الحصان على قدميه. يفرغون حمولة العربة. فتنهض الأحصنة. وتسحب العربة الفارغة إلى نهاية الطريق وهناك يعيد السائق حمولته قطعة قطعة حتى مكان وجود العربة. ويضعها فيها ثانية.

كثيراً ما تجد أحصنة ماكرة في العربات ذات الحصانين. حيث يلقي أحدهما الثقل على الآخر وقد تكون أنثاه. فالسائقون يغضبون من هذه الأحصنة الماكرة الذكية، وتنهال سياطهم على ظهورها. وهناك أحصنة غيورة تحمل. وتسير. ولا تحاول الإفلات من الحمل. ولكنها تقع. تهوي على الأرض من كثرة ما تجهد نفسها.

وعلى امتداد الطريق لا أتوقف في أي مكان. ولكن عندما أصل إلى هذه المنطقة. أقف ساعات طوال أراقب الخيول المسكينة وسائقيها المساكين. كثيراً ما كنت أبكي وأبكي تلك الخيول التعيسة المكسورة. المسكينة التي لا تقوى على الحراك.

بعد مرور إحدى وأربعون سنة على تلك الأحداث. عندما تشد الحياة بخناقها على عنقي. وعندما يطبق على صدري من تحمل المسؤولية الملقاة على رأسي. أتخيل تلك الأحصنة المسكينة. وهي تحاول اجتياز تلك الطلعة القاسية. جارة الأحمال الثقيلة. أعرف أنني أراقب نفسي بعد واحد وأربعين عاماً. وأعرف أن هذه الطريق الحياتية القاسية لا بد من صعودها. تحت وقع سياط من نوع آخر وأحزمة أشد وأقسى وحمل أثقل

يجب إيصاله إلى مكانه وما من أمل آخر. الأهم من كل شيء. أن يحس الإنسان بالسعادة وهو يئن تحت حمله الثقيل. وإيجاد الطرق السوية. كي يأخذ نصيبه من السعادة ويشعر بلذة الحياة التي لا بد أن يحياها. هذه الطريق الصاعدة القاسية لا بد من اجتيازها شئنا أم أبينا. لأن الحرية لا تأتي إلا من خلال المسؤولية الملقاة على عاتقنا.

وليس الخلاص والانهزام.

الأيام الأخيرة للتكة

لقد مللت من الدروس. العربية. والهندسية والحساب والتجويد. مللتها كلها. أكثر وقتي يضيع سدى في تلك الطريق الصاعدة وأنا أراقب الخيول المنهكة. كنت أجد العم غالب في غرفته الصغيرة الكائنة في الطابق الأرضي من التكة الواقعة في «غوروكلوك». فآخذ ساعة أو ساعتين من الدرس وأعود إلى البيت. الدروس لم تكن مشجعة لا طعم ولا رائحة. والعم غالب متعب ويبدو أنه قد ملّ حتى من نفسه. يسألني ويتغيب أكثر من نصف ساعة ليعود حتى أجيبه. منهمك في أشغاله الخاصة. بعد أن يسألني، أنا الآخر كنت أسرح مع أفكاري الخاصة. أحلم. أبني لنفسي الخيالات. أجثو أمام العم غالب على ركبتي. لكن خيالاتي كانت تقودني إلى البعيد البعيد وساعات الدروس تمضي على هذا المنوال.

ماذا حصل بعد ذلك. لست أدري. لا أستطيع التذكر. ربما حدث ذلك خلال الفترة التي أغلق فيها مصطفى كمال الزوايا والتكات. التكات بعد الآن لن تفتح. مغلقة. لا حلقات ذكر ولا سواها. لا أكل ولا شرب ولا اجتماعات. كأن أبواب السماء قد أغلقت. فالضائقة المالية ألقت بثقلها على العم غالب أكثر من الأول.

كان الشيخ أفندي إنساناً. عريض المنكبين طويل القامة. غلبَ الشيب

في ذقنه على السواد. وقد وصلت حتى صرته. رموشه مكحلة دون كحلة. عيناه غائرتان. يشع البريق منهما. حاجباه كثيفتان. كنت أراه مثل العمالقة. وجهه يبدو بشوشاً دون أن يضحك. طيب القلب. رقيقه. يتحدث عن نفسه فيقول أنه. عندما كان صغيراً بمثل سني. لم يكن يحب الحساب أبداً ولا يعرف عنه شيئاً. رؤى لنا شيئاً عن حياته المتعلقة بموضوع الحساب والهندسة. فقال حدث أن أرسله والده يوماً إلى البقال ليشتري علبة تبغ. وأعطاه قطعة معدنية واحدة. وبعد أن أعطاه البقال علبة التبغ أرجع له باقي الحساب. حفنة من النقود الصغيرة «الفراطة». وحسب قوله: إنه احتار في أمر البقال. أعطاه قطعة واحدة فأعاد له مجموعة كبيرة من النقود. إلى جانب علبة التبغ.

فأسرع إلى أبيه وقال له: إنني خدعت البقال يا أبي.

كانت التكة قد أُجّرت. غرفة إثر غرفة. حتى الغرف الصغيرة قد أُجّرت وتهافت الناس جميعهم، وكأن أهل حي. بأكمله قد جاءوا إلى التكة واستقروا فيها. كل الأمكنة مزدحمة. وبما أن اليهود أيضاً كانوا من بين المستأجرين. فكان صخب عشرة أشخاص يضاهي ضجيج عشرين شخصاً. مشاحنات تهدر وضجيج وصراخ. وأصوات كثيرة.

البريق الذي كان في عيني الشيخ انطفأ. وصوته صار ناعماً. وقصر طوله. وضاق كتفاه وصغرا. أين ذلك الشيخ الأفندي الذي خرج معنا لاستقبال جنود مصطفى كمال. وعلى رأسهم رفعت باشا. وأين الشيخ الأفندي الآن بعد أن أغلق مصطفى كمال التكات والزوايا.

كان للشيخ الأفندي زوجتان. إحداها الأم «شافر» والأخرى الأم «وسيلة». عندما كنت أقرأ. حياة السلاطين العثمانيين وسلطة زوجاتهم، يتبادر إلى ذهني على الفور الأم شافر. حقيقة هي التي كانت تسيطر على التكة. وتعد بمثابة العمود الفقري لها. كان كل شيء في يدها.

السلطة. والمال. هي التي تأخذ الهدايا القادمة إلى التكة وهي من يقبض الأموال مقابل الدروس، وفك الطلاسم وكتابة الحجابات، وهي التي كانت تحسب وتدقق، مصاريف التكة، وكانت تذهب إلى السوق. وتدخل المطبخ.

وتتدخل في كل الأعمال، الكل يخشونها. ولم يكن العم غالب يحبها أبداً.

أما الأم وسيلة فقد كانت امرأة صامتة. هادئة. بسيطة. تبقى في الظل على الدوام. لا يراها أحد. وبما أن المسؤولية الكبيرة وقعت على عاتق الأم شافر أيضاً بعد إغلاق التكة فقد أدى ذلك إلى انهيارها تماماً. وبما أنهم أصبحوا في ضائقة مالية شديدة. وهذا يعني أنهم لا يملكون المال. ذهبنا مرة مع الأم شافر إلى سوق قاسم باشا. جالت وعلى مدى ساعات طويلة، كي تشتري زنبيلاً للمأكولات. وبعد مساومات كثيرة ومثيرة اشترت كيلو غراماً واحداً من سقطات اللحوم من قصاب متجول. وبالمختصر. كانت الحياة قد تغيرت في التكة إلى أبعد الحدود. وانهارت الأم شافر واحدودب ظهرها.

غالب العامل

الجميع يكرهون مصطفى كمال. يتحدثون عنه سلباً. هذه الأحاديث تجري في منازلنا. يقولون: إن أصله يهودي. من يهود الدونما. أعور لا يرى في إحدى عينيه إذا نظرتم إلى صوره ترون العدسات على عينيه ويعمل جاهداً على محاربة الإسلام والقضاء عليه بكل السبل والوسائل.

كان أبي لا يذكر اسم مصطفى كمال ولا اسم غازي. لأنه كان ملكياً مع عبد الحميد إلى أبعد الحدود. كان يقول عنه كمال الأعور.

لم يكن وحده يحمل هذه المشاعر والأحاسيس.

الجميع أعداؤه بشكل أو بآخر. أبي والعم غالب لم يتفقا يوماً ولم

يتفاهما في موضوع مصطفى كمال. بقي العم غالب يؤيد مصطفى كمال. ويقف إلى صفه. حتى بعد أن وقع في ضائقة مالية شديدة بسبب إغلاق التكات.

كان على الدوام في صف الانقلابيين. ويأمل أن يجد وظيفة ما في هذه المرحلة. كان ينتظر. يجب أن يجدوا له عملاً أو وظيفة. أمله هذا لم يكن من أجل مصلحة شخصية بحتة. بل من أجل أن تكون منه فائدة. يقدمها للانقلابيين. ولكن كل آماله ضاعت سدى. سمعنا أن العم غالب قد اضطر أن يعمل عاملاً عادياً في أحد المصانع الكائنة في منطقة «الجبالي». زارنا، بعد أيام من بدء عمله في المصنع. كان يلبس طربوشاً قذراً مقولباً. تغطيه بقع الزيت والشحم. لم يكن يلبس العباءة والجبة وإنما يلبس قميصاً بدون ياقة وسترة قديمة جيوبها محشوة بالكتب والدفاتر، وبنطالاً من الكتان.

إحدى ساقيه ممزقة عند الركبة. ينتعل حذاءً من البلاستيك، لكنه من النوع الذي يصنع منه «اللاصق». لقد تغير كثيراً وبدا متعباً جداً. لم يبقَ في ذاكرتي سوى مقاطع صغيرة من حديثه الذي رواه لنا آنذاك: أنهم (أي أصحاب) المعمل يستخدمونه في نقل الأخشاب. وأن عاملين أو ثلاثة يحملون الأخشاب وينقلونها من مكان إلى آخر.

وبما أن العم غالب طويل القامة، كان من الصعب جداً أن يجدوا له عاملاً يوازيه بالطول. وهذا يعني أن أكثرية وزن الحمل يقع على كتفه.

كان العم غالب يتذمر وينقد بقوله: أن العمال لا يعرفون طريقة نقل الأخشاب على الأكتاف وقال إنه لو نظم العامل الأمامي والخلفي خطواتهما. لخفّ عليهما نقل الخشب وسهل. كان يتعب كثيراً. يعود من المصنع سيراً على قدميه حتى غرفته في التكة. وينام فور وصوله. يتضايق كثيراً من قلة النظافة إذا لم يتيسر له الاستحمام كل يوم. فالقمل

قد فتح ملجأ آمناً في جسمه وثيابه، لأنه لا يملك سوى لباساً واحداً. وكل العاملين في المصنع مثله، ينهشهم القمل.

يتقاضى في اليوم - الواحد - خمسة وثلاثين قرشاً. ويعمل عشر ساعات متواصلة.

الاستيقاظ الباكر والسير على الأقدام حتى المصنع يصعبان عليه كثيراً، إذ لم يكن يحبُّ الاستيقاظ باكراً. كان العم غالب قد جاوز الخمسين من عمره آنذاك. أما بالنسبة للطعام. كان يأكل البلّوط يومياً على الغداء. يحشو السمكة بالبصل والبندورة ويضعها في الفرن. وكان يقص لنا قصة العام «طعام الغداء» بفرح وسرور، حيث يكلفه سبعة قروش ونصف. يفسر لنا فوائد السمك، وما فيه من غذاء. فوسفور وبروتين وغيره. على الإفطار لم يكن يتناول شيئاً سوى كأس من الشاي. وعلبة التنباك. وينهي كل يوم مطالعة كتاب.

أعطته أمي طقماً من ألبسة والدي النظيفة. وأعطاه أبي أجرة الحمام. ذهبنا معاً إلى الحمام. غير معقول أبداً. نعم لا يعقل. ولكنه حصل بعد أن خرجنا من الحمام جئنا إلى غرفة التعرية. مدّ يده إلى جيبه. كان المال الذي أعطاه له أبي غير موجودٍ، يعني مسروقاً. لم يتركوا له قرشاً واحداً. المبلغ المسروق كان خمسين قرشاً أو ليرة. كيف سنخرج من الحمام؟. صرخ العم غالب في وجه العمال. ولكن. لم ينفع صراخه وعويله.

جاء كصرخة في وادٍ.

قال له الحماماتي:

- لو تركتم أموالكم في الأمانات.

خمسون قرشاً. يا حسرة. هل يستحق أن نتركه أمانة. خمسون قرشاً فقط. ما عدت أذكر كيف خرجنا من الحمام.

وضعت أمي ثياب العم غالب القذرة المقملة. في تنكة ماء وغلتها جيداً. كي تقتل الطفيليات. ثم غسلتها ونشفتها. وخاطت الأماكن الممزقة ورقعتها. وكوت بنطاله. عندما استيقظت صبيحة اليوم التالي، كان العم غالب قد غادر بيتنا باكراً مع خيوط الفجر الأولى.

الولد لا ينسى ما حفظه

توقفت عن تلقي الدروس لأن ما يفكر فيه والدي غير ما أفكر فيه. ويقول بين حين وآخر:

ـ آمان. أتمنى أن لا ينسى الولد ما حفظه.

يعني أن لا أنسى القرآن الذي حفظته ولا يذهب تعبي سدى.

ـ آمان أن لا ينسى الولد ما حفظه.

وحقيقة لقد نسيت بعض السور التي كنت أحفظها بسرعة. حفظتها بصعوبة بالغة. دون إرادة مني. ولا محبة. وبالقهر بعض الأحيان. فإن لم أكرر قراءتها دائماً. كنت أنساها على الفور. العلوم الأخرى لا تهم أبي كثيراً حتى ولو نسيتها كلها. أما القرآن. يجب أن يحفظ بشكل جيد. كان يطلب مني مراجعة جزء أو اثنين من القرآن ـ قبل خروجه من البيت صباح كل يوم. أما أنا فلم أكن أقرأ شيئاً من الجزء المطلوب. عندما يصل إلى البيت. كان يقول:

ـ هيا اقرأ لنر.

يجب أن أقرأ غيباً. يجلس أبي على الشرفة. وأنا داخل الغرفة.

أقرأ بصوت عال. وهو يسمع قراءتي من مكانه. لا أقرأ غيباً. بل من القرآن الذي أحمله في يدي.

دخلت أمي مرة إلى الغرفة لقضاء حاجة. لما رأت القرآن في يدي. قالت لأبي ضاحكة: ولك رجّال. الولد لا يقرأ غيباً.

قال أبي:

ـ (شو ولك مرا) تظنينني لا أفهم. إنه يقرأ غيباً. نعم غيباً. كررت أمي ثانية.

ـ والله ولك رجّال يقرأ من القرآن.

قال أبي بفظاظة من مكان جلوسه في الشرفة.

ـ لا. لا يا هانم. الولد يقرأ القرآن غيباً. واضح من قراءته.

لم أفهم آنذاك لماذا قال أبي تلك الكلمات. ظننت أنني خدعته ولكن بعد مرور وقت طويل. تأكدت أنه كان يعرف أنني لا أقرأ القرآن غيباً. لأنه هو الآخر يحمل قرآناً في يده. وكي لا يكسفني. كان يتجنب دخول الغرفة. كان أبي يمنحني الثقة في كل عمل أقوم به وفي كل تصرف حياله أو حيال غيره. واعتقد أن هذا الأسلوب في التعامل يتغير. تبعاً للولد الذي أمامك. ثقته بي. كان يعطيني دروساً في المعاملة فيؤثر علي تأثيراً إيجابياً. بعد تلك الحادثة لم أغشه مرة. ولم أقرأ القرآن كالسابق وأقول له: أنا أقرأ غيباً. دائماً أسمع كلامه وأحفظ الجزء الذي يطلبه مني. وأتلوه غيباً أمامه. ولم يحاول مرة دخول الغرفة. كي يرى هل أقرأه حاضراً أم غيباً.

أمي عشرة بارا

كانت استانبول في ذلك الوقت تتلقى الحياة والبهجة من عدة أشخاص. هؤلاء الأشخاص. كانوا يزرعون البهجة والحياة في استانبول كلها.

منهم: السيد حسن ذو الرأس الكبير

ومجنون سالم يسمى أمي عشرة أمي عشرة كان شاباً. الجميع ينادونه أمي عشرة لأنه كان يطلب عشر بارات. ويسكن منطقة جراح باشا ولهذا كنت أراه بين حين وآخر. وكما يقولون: أنه لا يأخذ أكثر من عشر بارات. ويرفض إن أعطوه أكثر. حتى ولو كان ليرة ذهبية فيأخذها

ويرمي بها إلى الأرض. لا يأخذ سوى عشر بارات.

كانوا يعتبرون هذا المجنون شخصية مقدسة. وكما يقولون: أنه من أولياء الله الصالحين.

كانت أمي والسيدة نوبر وإحدى جاراتنا جالسات على الشرفة. السيدة الضيفة عندها طفل صغير عمره أقل من عام وهنالك نوعان للبسكويت. الأول بعشر بارات والثاني بعشرين. الطفل لا يأكل البسكويت الرخيص كما تقول المرأة. أرشدتني إلى المكان الذي سأشتري منه في جرّاح باشا صخرة كبيرة عندما تمر من هناك وتدخل الحي. تجد بائع سكريات مقابل الصيدلية. وتشتري البسكويت منه، وكانت تنبهني على الدوام:

ـ آمان. بالله عليك يا بني لا تشتر من النوع الرخيص (أبو العشر بارات) فابني لن يأكلها وإلا سيرميها من فمه. خرجت إلى الشارع. مررت أمام الصخرة الكبيرة. وبينما كنت اتجه عند الزاوية الشمالية وإذا بي وجهاً لوجه مع المجنون أمي عشر باا. كان يصرخ على الدوام. وأنا احمل في يدي ثمن البسكويت. قالت شو؟. الطفل يرمي البسكويت الرخيص من فمه. روح ولك روحي. كيف لطفل صغير لم يتعد عمره العام أن يعرف نوع البسكويت. بالتأكيد لن يعرف لأنني شخصياً لا أميز بينهما. وأنا الشاب الكبير فكم بالحري طفل في عامه الأول.

المجنون يصرخ. حان وقت التجربة. يقولون أنه: لا يأخذ أكثر من عشر بارات. حتى ولو أعطيته ذهباً. لنر سأعطيه أربعين بارة. ماذا سيفعل؟. وكيف سيتصرف؟. أشتري للطفل البسكويت الرخيص بالعشر بارات.

ـ أمي عشر بارا... أمي عشر بارا... أمي عشر بارا.

قدمت له الأربعين بارة /قرش نكلة/. فهل يعقل ان لا ياخذه. أخذها

ورماها في جيبه. وقفت أنظر إليه محملقاً. قال (شو): لا يأخذ إلا عشر بارات. حتى ولو أعطيته ذهباً؟. دخلت دكان السكائر واشتريت بسكويتاً من النوع الرخيص. كي أعوض المبلغ الذي أعطيته لـ /أمي عشر بارا/. واشتريت عدة قطع أخرى زيادة من ذلك البسكويت. حتى صارت تسقط من جيبي. فأكلت منها قطعتين أو ثلاث.

وصلت المنزل. كنت أتطلع بفضول. لأرى ما سيحصل الآن؟. كان خوفي أن تكتشف المرأة خداعي وتعرف البسكويت. ألن يعرف الطفل نوع البسكويت الذي أحضرته. لكن العلامة مسجلة عليه وقلت خيراً أن المرأة أمية لا تعرف القراءة والكتابة. أعطت الطفل البسكويت الأول. وضعه في فمه وقرضه وهرسه. ثم رماه. وهكذا فعل بالثاني والثالث.

عندها قالت المرأة:

ـ ألم أقل لك يا بني. هذا الصغير يعرف البسكويت (أبو العشر بارات). لا يأكله. يرميه من فمه. كما ترى. انظر إنه يرميه. لقد اشتريت من البسكويت (أبو العشر بارات). نظرت إلى الطفل بدهشة. بدهشة وغضب. إنه كالمعجزة. كيف لطفل في عامه الأول أن يعرف نوع البسكويت؟.

تفضلوا على المائدة يا شباب

ثانية نحن في شهر رمضان. جاء العم غالب ليفطر عندنا. في كل مرة أراه. أجده. قد ذبل وعجز وضعف. صعب عليه أن يعتاد على العمل في المصنع. وعلى الحمل بالذات. وخاصة في رمضان. وهو صائم. كان الهزال قد أصابه وظلّ يشكو من أنانية الآخرين. ويقص لنا حكاية هذا الموضوع وطرائفه اللطيفة والجميلة. سنوات كثيرة مرت ولم أنساها.إنها لطيفة رائعة. تشرح. مغزى التضامن والتعاون بين الناس.

قال: كان أحد الشيوخ في السفر. مشى طويلاً فأحس بالتعب.

وانتهى زاده. وشعر بجوع شديد. والمكان منعزل. لا قرية. ولا مزرعة ولا بيت. بعد مسير مضن. وصل مدينة. عندما اجتاز مدخلها. طرق أول باب صادفه. وهذا ما يجب أن يحصل. فظهر أن المكان تكة بكتاشيه (البكتاشية هي العلوية التي تعيش في المدينة).

وكان الوقت. وقت طعام. مائدة كبيرة. مصفوفة على الأرض. تحلّق حولها أربعون درويشاً بكتاشياً. يأكلون.

قال لهم الشيخ:

- السلام عليكم. ودخل. فقال له بابا بالبكتاشية.

- وعليكم السلام. تفضلوا لنتناول الحساء أيها الشباب.

صاحبنا شيخ. هل يقف صاحبنا الشيخ مكتوف اليدين أمام هذه المائدة؟.

قال بسم الله. وجلس. كل درويش بكتاشي يمسك في يده ملعقة خشبية طول الواحدة. ذراعان. وأعطوه بالمقابل ملعقة خشبية بنفس الطول.

- تفضلوا يا شباب.

لكن الشيخ المسكين. لم يستطع وضع الملعقة في فمه بعد أن ملأها بالحساء.

فإما أن يغرزها في عينه. أو في عين الشخص المقابل. حاول تغيير الإمساك بالملعقة فلم يصب. والبكتاشيون يشربون الحساء على الدوام. آمان يا ربي سيبقى الشيخ جائعاً. هل يعقل أن تكون الملعقة طويلة بهذا الشكل. توقف ستفقأ عين الرجال. اسحب القبضة.

بعد فترة من الوقت قال بابا البكتاشية للشيخ مبتسماً:

- يا شباب. انظروا إلينا وتعلَّموا. انظروا كيف نأكل نحن؟. وخذوا عبرة منا. صنعت مقابض هذه الملاعق طويلة. كي لا يغذي الإنسان

نفسه فقط. بل يغذي الآخرين أيضاً. أنا أملأ هذه الملعقة بالحساء. وأضعها في فم الشخص الذي يقابلني. وبالعكس. وبهذا. يكون شبعي مرتبطاً بشبع الشخص الذي أمامي. بقدر ما أقدم للآخرين. يقدمون لي بقدر ما قدمت لهم. أما إذا فعل الكل مثلك. فالبعض يشبع. ويظل البعض جائعاً في نهاية المطاف. هذه اللطيفة البكتاشية. ربما غير موجودة. وربما صاغها العم غالب من عنده. ولكنني بقيت متأثراً بها إلى أبعد الحدود. لم أستطع نسيانها. وكلما أرى شخصاً. أنانياً. لا يفكر إلا بنفسه. أتذكر هذه اللطيفة البكتاشية.

الأنانيون والانتهازيون يبقون جائعين مهما أكلوا ومهما جمعوا.

الملعقة الخشبية

عندما نجلس على مائدة الإفطار في رمضان. نلاحظ نقص الملعقة الخشبية عندما يكون العم غالب موجوداً معنا لأنه يقول: إن ارتشاف الحساء بالملعقة الخشبية سنة نبوية شريفة. و أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يشرب الحساء بالملعقة الخشبية. وهل كان هنالك ملعقة سواها في ذلك الوقت؟. إن وجدت.

أعطاني أبي نقوداً وطلب مني الذهاب فوراً إلى البقال وأشتري ملعقة خشبية. قصدت جميع الدكاكين الموجودة في «حسكي». وهي أقرب نقطة إلينا. فلم أحظ بملعقة واحدة. في أي من المحال التي دخلتها.

وكانت العادة عندنا: إذا طلب شيء في المنزل وخرجت لإحضاره. فلا رجوع إلى البيت قبل أن تجد الشيء المطلوب: هكذا هي العادة. كان أبي يغضب كثيراً إذا رجعت خاوي الوفاض فارغ اليدين. يقول: أنت تنبل لا تعرف كيف تدبر رأسك.

فتش. اسع حتى تجد المطلوب.

ذهبت إلى /آق سراي/. ثم إلى سوق البازار وبدأت بالبحث عن

ملعقة خشبية لدى الباعة كلهم. كنت صائماً. فصعب عليّ الأمر كثيراً.

كيف يرسلني والدي لشراء ملعقة خشبية وأنا صائم؟. وخاصة وقت الإفطار. ربما من الجوع وربما من التعب. كنت أشعر أنهم ظلموني كثيراً.

وجدت ملعقة خشبية في دكان قديم. اشتريتها. وفيما أنا اخرج من الدكان. انطلق صوت مدفع الإفطار. وأضيئت القناديل على شرفات جامع «والدة». ويطلق مدفع الإفطار وأنا أدور بين الأزقة صائماً؟!.

كنت أصعد طريق آق سراي محاذاة المخفر من جهة ومن جهة أخرى أبكي بشكل لا إرادي. وبعمق. مسحت الدموع عن عيني ودخلت المنزل. كانوا على المائدة. وقد أفطروا. كما يقولون: فأبي لم يكن يعرف أنني كنت صائماً في ذلك اليوم.

حزن كثيراً. وكثيراً جداً. عندما عرف ذلك. وقال: واه يا ضنايا. واه يا ضنايا. لماذا لم تقل انك صائم؟. هل يعقل أن أقول له ذلك؟.

موقف أبي. المحزن أفرحني كثيراً. ذهب حزني وغضبي على الفور. إذن كان لا يعرف أنني كنت صائماً!.!. و إلا لما أرسلني؟. غير معقول.

فرحت كثيراً لحزنه الشديد هذا. صلوا صلاة المغرب. بعدها. تحدثوا عن مصطفى كمال أيضاً. أبي لم يفهم لماذا كان العم غالب يدافع عنه. أي مصطفى كمال. يتناقشان ويتنافسان. العم غالب يقول: «المدنية المعاصرة» «الإحساس بالغربة». أبي لا يفهم هذه الكلمات. يغضب من العم غالب كثيراً. كيف لعالم متبحر مثل العم غالب أو غالب العامل أو العامل غالب ان يكتب أناشيد وطنية من أجل الشباب. ويلحنها بنفسه.

شيء عيب

هل من ولد لم يفعل ذلك الشيء العيب يا ترى؟.

طُرد العم غالب من عمله في المصنع الكائن في منطقة «الجبالى». مع

عمال آخرين. فعدت مرة ثانية إلى الدروس في جوروكلوك: زودتني أمي بطعام الغداء وأعطاني أبي نقوداً لأشتري شيئاً ما أشتهيه. هذه العملية المزدوجة أعجبتني كثيراً. والدي يفكر بي وأمي أيضاً. إنه لشيء رائع. لأول مرة سأشتري شيئاً من الخارج وأشبع بطني.

إنه شيء مهم بالنسبة لي. ودليل على أني كبرت ووعيت. في ذلك اليوم انتظرت طويلاً. لأجوع بما فيه الكفاية. حتى أشتري شيئاً وأحبه. ولهذا لم أذهب إلى الدروس حتى الظهر. حان وقت الغداء. وخوَت معدتي. وبدأت أدور مفتشاً أو باحثاً عن مكان أتناول فيه طعام الغداء.

هنالك مستودعات للحطب مقابل ميناء السفن في قاسم باشا. وعلى جانبي هذه المستودعات مجموعة من المطاعم الرخيصة. دخلت إحداها. هذه أول مرة أدخل فيها مطعماً لوحدي. المشترون جلهم من الحمالين والصيادين. كانت رائحة الطعام تأتيني ممزوجة برائحة الحموضة. رائحة عرق المشترين الجالسين داخل المطعم. حموضة ورطوبة وبخار. ولكني شخصياً سعيد.

ـ أحضر لي فاصولياء يابسة!. آمان يا ربي كم هي لذيذة هذه الفاصولياء؟. ثم احضر طبقاً آخر من الطبيخ مع الفاصولياء.

أكلت رغيفاً من الخبز مع الفاصولياء والطبيخ. وأشبعت بطني على اكمل وجه. قررت يومها أن لا أذهب إلى الدرس عند العم غالب وسأقول لأهلي عند المساء.

ـ ذهبت ولكني لم أجد العم غالب هناك.

كيف سيعرفون بوجود أو عدم وجود العم غالب. لأنه لا يتردد إلى منزلنا كثيراً في هذه الأيام. هذا اليوم السعيد لن أجعله يضيع مني سدى. سأكمل سعادتي على أكمل وجه. آمان يا ربي. ألم شديد في أمعائي.

مغص يفسد عليّ سعادتي. عرفت أن الفاصولياء والبرغل طُهيا بزيت فاسد. أفتش هنا وهناك.

ولا أستطيع أن أسأل أحداً من خجلي: هل من مرحاض في هذه الأنحاء؟.

أسرعت نحو أحد المستودعات علني أجد مكاناً خالياً من البشر. يا ليتني لم آكل تلك الفاصولياء. الناس موجودون في كل مكان. إنهم كثيرون.

وحصل ما حصل. السعادة التي قدمها طبق الفاصولياء. خرجت من أنفي.

لم أدر كيف وصلت البيت. من قاسم باشا حتى جراح باشا. ذهبت ولكنني لم أجد العم غالب.

ـ إذن لماذا جئت متأخراً؟.

ـ انتظرت عله يأتي.

كل الأولاد عندهم عيب كهذا أما أنا فقد كررت هذا العيب مرات عدة.

هي التي أعماقها قذرة

جاء العم غالب إلى منزلنا وكان مريضاً جداً يكاد يحترق من شدة الحرارة. عندما يحل ضيفاً عندنا. تبسط له أمي الفراش على الشرفة. وبما انه مريض فقد طهت له حساء من الأرز والبندورة. نام العم غالب في الفراش على الشرفة. وجارتنا السيدة نوبر كانت تسكن الغرفة الملاصقة لغرفتنا. ويبدو انه لم يرق لها نوم العم غالب في الشرفة هكذا. الحق معها. ليس مقبولاً أن ينام رجل وسط الشرفة. وخاصة أن العم. طويل القامة. قدماه تخرجان من تحت اللحاف.

والحقيقة هي: أن السيدة نوبر كانت تشمئز من العم غالب. من قدميه

وأظافره الطويلة غير المقلَّمة. وكان على من يريد دخول المرحاض أن يمر قرب فراش العم غالب. ويتحاشى أن لا يطأه بقدميه. ويبدو أن العم غالب سمع ما قالت السيدة نوبر عنه. انه قذر. وأنها تشعر بالاشمئزاز منه. غضب كثيراً. وغضبه ناجم عن صدق كلامها. لأن القذارة كانت هي العلة التي لا يستطيع العم غالب أن يتخلص منها إذ لم يكن ليستطيع تنظيف نفسه وسط شروط الحياة القاسية. وجاء كلامها صفعة مؤلمة له.

ـ هي قذرة. القذارة في أعماقها. لا ترى غير النظافة الخارجية ولا يهمها نظافة القلوب والنفوس.

كنت أعرف يقيناً أن العم غالب لم يكن يؤمن بكلماته هذه.

الإجازة ـ الشهادة

كان للعم غالب حياة أخرى غير التي كنا نعيشها. أي كان رجعياً بكل معنى الكلمة. فمثلاً. بعد أن تم إغلاق التكات وخاصة تكة «جوروكلوك». نال أبي شهادة من شيخ التكة تخوِّله فتح تكة باسمه وان يصير شيخاً.

كان العم غالب هو من كتب الشهادة بخطه الجميل. العم غالب الذي يتمتع بمهارات متنوعة. كان يصنع الأوراق اللمّاعة الجميلة.

يضع في زلال البيض مادة أخرى. ويفرشها فوق الأوراق السميكة ويصقلها. فتخرج أوراقاً لماعة جميلة. ويقال أن الكتب القديمة المكتوبة بخط اليد كلها من هذه الأوراق. وكان العم غالب يجيد كتابة مختلف أنواع الخطوط الرقعي ـ والثلث ـ والكوفي ـ والأنواع الأخرى. وكانت مهارته تظهر في خط الرقعة. ولقد كتب الشهادة لأبي بهذا الخط.

في الاحتفال الذي أقمناه بمناسبة نوال أبي هذه الشهادة. في غرفتنا الوحيدة في جراح باشا. أكلنا المزيد من اللحم. ولم يبق في ذاكرتي

سوى طعم تلك اللحوم المتنوعة حتى الأدعية لم أعد أتذكرها. وصنعوا ملفافاً من التنك. ووضعوا الشهادة ضمنه. لن تنفع تلك الإجازة شيئاً على الإطلاق. ولكنها أعطت أبي الثقة الزائدة بنفسه.

الفراق الأول عن استانبول

بعد زمن طويل عرفت لماذا ركبنا تلك الباخرة الصغيرة من رصيف «السركجي» للسفر إلى «تكير ضاغ». كان العم غالب يبحث عن عمل صغير يكسب عيشه منه. ويريد أن يحضر أمه العجوز إلى غرفته. للاعتناء بها. امرأة وحيدة. هرمه. لم يرها منذ زمن بعيد. ولم يستطع إلى ذلك سبيلاً. لأنه عاجز عن تأمين حياة مستقرة آمنة له ولها. هناك سنحل ضيوفاً على شيخ تكة. أغلقت تكته في «تكير ضاغ».

ويستطيع إيجاد عمل للعم غالب. هكذا قالوا له:

المسافة بين استانبول وتكبر ضاغ قصيرة. ولكنها بالنسبة لي طويلة جداً. حسبتها أطول مسافة في العالم. وأننا سافرنا إلى أبعد نقطة في هذه الدنيا. بقينا على سطح الباخرة. كي لا ندفع أجرة زائدة. سطح السفينة مزدحم بالمسافرين. بينهم عائلات من الغجر أو النَوَر. رجال ونساء. وقطيع كبير من الأولاد.

كنا نتجول بينهم. بدأ موظف السفينة بطلب التذاكر والتأكد منها.

لست أدري لماذا غضب موظف السفينة من الغجر. ربما لم يقطع أحدهم تذكرة. أو لم يدفعوا أجرة كيس كبير. انتهرهم بشكل غير معقول. كفَّرهم وسبَّهم وشتمهم. لم يترك كلمة بذيئة إلا وقالها في وجوههم. وحاول أن يرمي الكيس إلى البحر. فالغجر لا يملكون المال ليدفعوا الأجرة... اقتربت إحدى النساء من الموظف ترجوه. قائلة يا أخي: ولم تكد تتلفظ بكلمة أخي حتى انتهرها وصرخ في وجهها:

ـ اسكتي أيتها الغجرية القذرة. من أين صرت أخاك؟. وتقولين أخي

دون خجل ولا وجل ولك هل أنا غجري مثلك. ابتعدي عني. ولا تقولي أخي.

سكتت الغجرية غضباً عنها. ولكنها ظلت تنظر في وجهه لفترة طويلة. هنالك غضب أعمى. حقد لا يوصف ملأ صدري وهزّ أعماقي. غضب لا أقوى على وصفه. ولكن ماذا بوسعي أن أفعل؟. فعندما أرى الظلم يحيق بالبشر. أتمنى لو أني أكبر وأكبر وأصبح رجلاً كبيراً. وسأكون رجلاً عظيماً. لأرفع هذا الظلم عن كاهل الناس. الظالمون كثيرون وشرهم مستطير ولهذا السبب يجب أن أصبح رجلاً مهماً جداً لأرفع الظلم والاستبداد عن كاهل البشر.

حسن. وأين الله؟. أليس هو الذي خلق الغجر مثلنا؟. لماذا خلقهم هكذا. لماذا خلقهم غجراً؟. حتى نسخر منهم. حتى نراهم صغاراً في أعيننا. حتى نحتقرهم ونضع القيود في رقابهم. هؤلاء الغجر لم يريدوا أن يخلقوا غجراً بالتأكيد.

فكرت: هل يؤمن الغجر بالله؟. بالله الذي خلقهم غجراً «نوراً» قرباطاً ارتفعت الأمواج في الليل. أصابني دوار البحر. وخرج كل شيء من معدتي. ولم أع إلا وأنا في مكتب في «تكير ضاغ». هنا مكتب الشيخ الذي ذهبنا إلى ضيافته. يعمل الشيخ مدّعياً. عنده طفل يكبرني بعام واحد. نجلس سوية في مكتب الإدعاء طوال النهار. لأن الشيخ كان يذهب إلى المحاكم:

عند الظهر يأخذنا أنا والعم غالب إلى أحد المطاعم. ويقدم لنا الكباب. التكة التي كنا نقصدها ليلاً. قسمان: الحرملك والسلاملك. نستلقي على فرش نظيفة جميلة.

الشيخ الأفندي ومن معه يحترمون العم غالب احتراماً شديداً. يتناقشون طوال الليل.

أما أنا فأنام في غرفة لوحدي. والمصباح مضاء فوق رأسي. أضع كفي قبالته فيجتاز النور لحم أصابعي المتراصة قرب بعضها. فتبدو لي حمرة تجتاز لحم أصابعي وكفي وأحسب لونها تحول من أبيض إلى لون زهري من نوع خاص. لون يدي المضاءة. والمصطبغة بالحمرة أعجبني كثيراً وصرت أكرر هذه اللعبة كل ليلة. حتى أغفو. وكانت سني آنذاك تسمح لي بممارسة هذه اللعبة.

في كثير من الأحيان. كنت معتاداً على اللهو بأشياء أخرى غير الألعاب. لأنني لم أملك سابقاً أياً منها. وما كنت ألهو به هو: الألوان. والأنوار والأخيلة. والبقع. أتطلع إلى البقع المتناثرة على جدران الغرفة الرطبة، فأشبّه كل بقعة منها بشيء ما. كما كانت تسليني أحياناً. أخشاب أرضية غرفة منزلنا التي تآكلت من كثرة الغسل والمسح. فخرجت أليافها من داخلها.

ثم السُحُب. والخيالات. والأضواء: الأنوار المتسربة عبر رموشي عندما أطبق جفني. تسليني كثيراً. إنها أحب الألعاب إلى قلبي. أتلاعب بالنور المتسرب إلى عيني بالقدر الذي أريد. وأخلق. عالماً. فيه مئات النجوم ومئات الفراشات ومئات من الخيالات التي حدّ لها. كانت أنوار المصباح الصفراء تتحول إلى حشرات مضيئة، لمّاعة.

جراء الألعاب التي مارستها بها في الغرفة التي نمت فيها في تكير ضاع. مشاهدتي للحمرة التي كانت تتسرب من خلال لحمي وبشرتي. هذه اللعبة. أقامت التكة وأقعدتها. في إحدى الليالي. ذهبت إلى المرحاض بل أن أنام. وبما أن المكان مظلم. حملت معي المصباح ووضعته قرب الصنبور. وصرت أبلل أصبعي بالمياه النازل من الصنبور. وأمسحه بزجاج اللمبة العالي الحرارة فيخرج في كل مرة. صوت جيظ. هذه اللعبة أعجبتني كثيراً. حيرتني. أبلل اصبعي. أكثر وأكثر. وهكذا

دواليك. وأخيراً سمعت صوت انفجار قوي «جات». لقد انفجر المصباح وانطفأ. وخيّم ظلام دامس ولف السواد المكان حملته ومشيت متلمساً الجدار بيدي. على الدرج اصطدمت بشيء ما وتدحرجت على الأرض. أنا في طرف والمصباح في الطرف الآخر. هرع الناس من كل صوب. وحدثت ضجة وجلبه قوية في التكة.

كان الشيخ الأفندي يكتب الرسائل إلى أصدقائه في أنقرة لإيجاد عمل للعم غالب. عدنا إلى استانبول. كيف، بأي طريق وبأية وسيلة لم أعد أذكر. بعد وصولنا تبيّن لنا أن السيدة نوبر قد انتقلت من الغرفة الملاصقة لغرفتنا بعد أن عرفوا عنوان النجار حسين أفندي. جمعوا أمتعتهم. هي وابنها جواد وابنتها جميلة وسافروا قاصدين مكان إقامته. ربما سافروا إلى مدينة «أسكي شهر». وأصبحت غرفتهم شاغرة. معروضة للإيجار. ولكن لا وجود لمستأجر فبدأنا باستعمالها إلى جانب غرفتنا.

لا أب ولا أم ولا أخ ولا أخت

أمي مريضة. مريضة على الدوام. لا أعرف عدد المرات التي قضتها في المشفى. كانت تقصد المشافي لإجراء بعض الفحوصات. بين وقت وآخر وكثيراً ما قصدت الأطباء. وما من أحد يعرف مرضها.

في النهار تجلس فوق الأريكة. إما لتخيط شيئاً ما. أو ترقع شيئاً آخر.

أضع رأسي على ركبتها وأستلقي قربها. فتداعب شعر رأسي بأناملها وتمسح وجهي بكفها. وتبدأ بالغناء. عندما تبدأ أمي بالغناء. يفرحني رنين صوتها وتنتابني مشاعر وأحاسيس شتى تتغلغل في أعماقي حتى ولو كانت أغانيها مرحة وأكثر ما كانت تغني «على ربوع بساتين غازي».

عندما ينزل من الدرج. تنغز منغز

وهناك أغنية تغنيها من أعماقها:

بشيكداش مقابل الأوسكيدار لا أب لي ولا أم ولا أخ.

لم أذكر أن أمي عاشت وحيدة في ذلك الوقت. ولكن هذه الأغنية بحد ذاتها ترمز إلى الوحدة. فتنشدها خصيصاً لي هذا ما كنت أشعر به. لم أستطيع أن أتمالك نفسي. فتنهمر الدموع من عيني. في كل مرة تبدأ أمي بهذه الأغنية. أبكي وأبكي دون أن تشعر أمي بشيء.

فريدون أفندي الدم الذي يتقطر من قلمه

اسمه ليس فريدون. أنا الذي حولته إلى ذلك.

صورته الآن أمامي عند كتابتي لهذه السطور. يضع على رأسه طربوشاً من ماركة العزيزية. أسفله عريض وأعلاه ضيق. يرتدي سترة كحلية. من طراز قديم. لا زالوا يستعملونها. تحت السترة يتدلى مريول عجيب. يلبس قميصاً مخططاً متعدد الألوان. ويضع تحت ياقة قميصه لفحة جمعها بإبرة على الصدر بين الياقتين. «أنا شخصياً كنت قد استعملت هذا الطراز من الإبر لجمع اللفحة». وجه مميز بيضوي. شاربه منمّق جميل. في الخامسة والعشرين أو الثلاثين من عمره. وحسب ما كنت أراه يعد رجلاً وسيماً. لكن أنفه الكبير الذي يشبه الباذنجانة لا يظهر في الصورة. لأنها أخذت جبهوياً. شيء آخر لا يظهر في صورة فريدون أفندي. التأتأة. كان يحارب نفسه عندما يريد النطق بكلمة واحدة. أنفه الباذنجاني المحمر يلوح ذات اليمين وذات الشمال لكثرة ما كان يهز رأسه حتى تخرج الكلمة من فيه.

وإذا انتقلنا إلى زوجته. فهي جميلة لا يضاهيها أي جمال. وكما قيل قديماً جمالها فريد من نوعه. جرعة ماء عذب. والذي أدهشني كيف أن رجلاً مثل فريدون أفندي ذي الأنف الباذنجاني الكبير. والحبسة في اللسان يتزوج مثل هذا الملاك. من ملكة جمال بحق. كثير من الفتيات والسيدات الجميلات وقعن في شرك الأغنياء أو المسؤولين الكبار أو أولادهم. ويقولون عنهن جرت لهن حادثة. مما اضطر هذه السيدة أو

تلك أن تتزوج من أول رجل يطلب يدها. كي تحمي شرفها أو تستر نفسها مما لحق بها. وهؤلاء النسوة يُعتبرن. ناقصات. ومذنبات في نظر المجتمع.

ولكي يمسحن هذه الصورة. يصبحن زوجات مطيعات إلى أبعد الحدود. قصة واقعية أعرفها جيداً وحادثة حقيقية جرت مع زوجة فريدون أفندي ذي الأنف الكبير. هذه المرأة كانت تحب زوجها كثيراً وكثيراً جداً. تغار عليه من كل النساء. وإليكم مدى غيرتها. كان فريدون أفندي يعمل قاطعاً للتذاكر في الترمواي. تصوروا أنها كانت تغار عليه من راكبات الترمواي. وكانت تحكي عن غيرتها هذه لأمي.

ـ ولك أختي الترمواي. محشوكة حتى دينها. الرجال في طرف والنساء في الطرف الثاني. الرجال من الخلف وزوجاتهم من الأمام. ينتقل رافعاً الستارة من الأمام إلى الخلف ومن الخلف إلى الأمام. طول النهار هكذا. لا يترك النساء أبداً. والله أعلم إنه يلمس أيديهن وسواعدهن. وربما يقرصهن بطرف أصابعه. هذا ليس بسهل ولك إختي من الصباح حتى المساء بين النساء. وخاصة بين الزحمة والعجقة. إنه رجل. ولابد أن تستيقظ شهوته. وربما يأخذ ويعطي الرسائل على أنه يعطي ويأخذ التذاكر.

كانتا تتحدثا بأشياء أخرى كثيرة. كنت أستمع إليهن بكل ما أملك. من مكر وخبث الأولاد. أتظاهر وكأنني ألهو بشيء. ولكني أنصت إلى حديثهن جيداً. والكلمات الهامسة التي لا أسمعها. أعمل فراغات بين الكلمات الأخرى التي فهمتها وسمعتها وأملأها. وأتوصل إلى نتيجة الحديث من خلال عملية ذهنية بحتة. وكانت أمي تحاول جاهدة أن تزرع في نفسها الثقة والاطمئنان وتهدئها.

من يدري كم يعاني الرجل المسكين من عمله؟. وخاصة في هذا الجو

الحار. أترين، ليس سهلاً أن يؤمن الرجل لقمة عيشه؟.

بدأت هذه المرأة الجميلة تخجل من تصرفاتها وغيرتها غير المقنعة. والتي صرحتها وكشفتها لأمي. وبدأت تقول: أن عمل قطع التذاكر عمل لا يناسب مكانهما الاجتماعي. وأنها تخجل من هذا العمل الذي يقوم به زوجها الأفندي والذي لا يناسب مقامه أبداً.

في هذه المرة قالت لها أمي.

ـ هل من السهولة أن يجد الإنسان عملاً غير هذا العمل؟.

ـ آ آ. شو هالحكي ولك أختي. يقولون: إن الدم يتقطر من قلمه.

وأن خطه جميل. هكذا قال عنه الموظفون. ألا يصلح أن يكون كاتباً في دائرة حكومية؟. ولكنه لا يهوى سوى العمل في الترمواي. إنه مهووس بالنساء.

ومعنى: الدم يتقطر من قلمه: أن خطه جميل جداً. وحقيقة كان الدم يتقطر من قلم فريدون أفندي. وعرفت هذا الشيء. عندما أهداني صورته وكتب خلفها بعض الكلمات الجميلة وبخط جميل جداً. هذه هدية مني لنصرت أفندي. (٦/٥) كانون الثاني (٣٤١) مصطفى فريدون.

زوجته الجميلة تؤكد عليه دائماً كي يعمل كاتباً في إحدى الدوائر الحكومية. وتبقى مصرة على ذلك دون أن تقول شيئاً آخر. وأخرجته من عمله بإصرارها هذا. ولكن ليس سهلاً أن يصبح الإنسان موظفاً في دوائر الدولة آنذاك؟.

وأن يجد وظيفة حكومية فهذا من رابع المستحيلات. هذه المرة. كانت زوجته الجميلة تقول:

ـ يقطر الدم من قلمه. خطه جميل. ليذهب إلى ساحة الجامع الجديد. أو إلى باحة المحكمة. ويعمل كاتب عرض حال.

فريدون أفندي هذا الغريب الشخصية. عنده مهارات وهوايات كثيرة

في مجالات شتى ومحيّرة حقاً. منها. جمع العجلات. فعائلته تسكن في بيت خشبي قديم وواسع. قرب نبع هورهور في أق سراي. عائلة كبيرة جداً. كان الطابق الأرضي الحجري مليئاً بالعجلات من جميع الأشكال والأحجام. مئات منها للدراجات الهوائية وأعداد كبيرة من السيارات بأنواعها. الجديدة منها والمستعملة والكبيرة والصغيرة. حتى صار بيته بحق معرضاً غنياً بمختلف أنواع العجلات.

ومن هوايات فريدون أفندي أيضاً صنع الدراجات الهوائية «البيسيكليت» التي كانوا يسمونها آنذاك في استانبول «فالاسبيت». وكانت نادرةفي تلك الأيام. كان فريدون أفندي يمضي نهاره كله داخل معرضه هذا. وينجز كل يوم دراجة. من الخردة الموجودة لديه من قطع الحديد الصدئة والسلاسل القديمة والبواري والعجلات. وأتذكر أنه صنع دراجة هوائية عملاقة ذات ثلاث عجلات. لقد صنع دراجة بدولابين وبعد ذلك طورها إلى ثلاثة. عجلتها الأمامية كبيرة جداً والخلفية صغيرة جداً. وإما بالعكس. ولم يتوقف عند عمله هذا بل كان يلبس زياً رياضياً أو زي متسابق ويتجوَّل به في شوارع استانبول.

والناس يرقبونه بحيرة ودهشة.

زوجته الجميلة. وأقرباؤه. يعتبرونه مختل العقل. مجنوناً ولكن لا يؤذي أحداً. مجنون. لذيذ. هارب من نفسه. عدوّ نفسه فقط. أما أنا فكان اعتقادي أنه سبق جيله بخمسين عاماً ولو أنه ولد في هذا العصر لصار صاحب مصنع للدراجات أو متسابقاً مشهوراً. لم تستطع زوجته الجميلة العيش وسط تلك العائلة الكبيرة والمزدحمة.

انتقلا إلى بيت ضيق جداً. ولم يحضر معه من معرض العجلات سوى دراجتين فقط.

عندما ضاقت الدنيا بهما. مادياً ظهرت هواية أخرى عند فريدون

أفندي. وهي أنه أصبح اسكافياً من الدرجة الأولى. ففتح محل أحذية في نهاية الطريق من مخفر أق سراي القديمة إلى سمطايا. المشتري الأول كان أبي. وجذب إلى دكانه كل معارفه تقريباً.

بدا أن عمل فريدون أفندي يتحسن باستمرار. ويربح المال الوفير. لكن زوجته الجميلة ترى أن هذه المهنة أيضاً. لا تتناسب مع مقامها الاجتماعي. تريد أن تجعل من زوجها كاتباً. وكانت تصرُّ على ذلك.

بما أن قلمه يتقطر دماً. وخطه كالإنجي في جماله. فلماذا لا يصبح كاتباً في إحدى الدوائر الحكومية. كانت تلك الفترة. صعبة جداً. فالمثقفون والمتعلمون لا يستطيعون أن يجدوا عملاً في الدوائر الحكومية. لأن طلاب الوظيفة كثيرون جداً.

وبالرغم من ذلك ظلت مصرة على إغلاق المحل. وجعلت من زوجها كاتباً حقيقياً. ولكن أين؟.

وفي أي مكان؟. هنالك مكان في البوغاز يسمى «بوياجي كوي». يقع على سفوح قرية «أمير قان». حيث يوجد نبع ماء عذب يبعد عن تلك المنطقة كثيراً. يسمى «قانلي قواق» الحور المدمي. قربه غرفة حجرية صغيرة مبنية فوقه أمامها شجرة صفصاف كبيرة. أغصانها مدلاة لجميع الاتجاهات. كان فريدون أفندي يجلس على كرسي خشبي صغير. وفي يده ورقة وقلم. كان الناس يقصدون النبع ليأخذوا ماء بالصفائح والجرات والعربات. ومهمة فريدون أفندي تسجيل عدد عبوات الماء المأخوذة. ووضع الأختام على المملوءة وعلى مسؤوليته أيضاً.

بيتهم في «بوياجي كوي» بعيد جداً عن مصدر الماء في «قانلي قواق». ولا أحد يعلم إن كان فريدون أفندي يعود إلى منزله مساءً م أنه يبقى هناك في غرفته الحجرية الصغيرة للإشراف على تعبئة الماء العذب. ما أعرفه هو أن زوجته الجميلة كانت تحمل الطعام كل يوم. قاطعة

البراري والهضاب والوديان حتى تصل إلى مكان زوجها.

عرفت ذلك كله. عندما حللنا أنا وأمي ضيوفاً في منزلها. وبما أن المسافة بيننا وبينهم طويلة جداً. كنا ننام عندهم. كانا في عوز شديد. ولكن زوجها صار كاتباً. وهذا هو الأهم بالنسبة لها. وكل وصايا أمي ذهبت سدى. بعد مدة. ذهبنا لضيافتهما في منزلهما للمرة الثانية. كنا سننام هناك. وأبي يعلم بذلك.

بعد تناولنا طعام الغداء. بدأت ألهو ببعض الألعاب في زاوية الغرفة.

وبدأت زوجة الكاتب تهمس في أذن أمي بعض الأحاديث وأصخت إليهما جيداً موحياً بأنني غير مبال بهن. وكأنني أعيش في عالم آخر. أقنعتهما بحركاتي وتصرفاتي أنني لا أسمعهن ولا أبالي إلا بلعبي وهواياتي. وبدأت المرأة الجميلة تقص على أمي «حكايتها قائلة أنها» ذات يوم حملت الطعام لزوجها عند الظهر وسارت بين الأودية والهضاب والتلال. تنتعل حذاء جديداً ناعماً وجورباً رفيعاً. وفجأة اعترض طريقها رجلان ممن كانوا يتزودون بالماء من «قانلي قواق» أماكن وعرة. لا يعيش فيها سوى الشياطين تكاد تقفر من الناس. إذا صرخت لن يسمعها أحد. حملاها وألقيا بها في زاوية ميتة. وحصل ما كان متوقعاً أن يحصل.

المرأة جميلة لكنها في موقف صعب ـ تريد أن تعترف بسرها لأحد ما.

أمي رائعة جميلة. حساسة. رقيقة. في كل حالاتها. غير أني ما عرفتها قاسية إلى هذه الدرجة ولم أر فيها هذه القسوة أبداً. قالت لها ببرودة الثلج. هذا جميل!. تريدين أن تصبحي زوجة كاتب. وها قد صرت. كانت المرأة تهمس على الدوام وتقول شيئاً ما لأمي. وما كاد ينقضي وقت قصير حتى قالت لي أمي:

ـ هيا جهز نفسك. سنذهب من هنا

قالت المرأة الجميلة:

ـ آه لن أترككما تذهبان. وخاصة في هذه الساعة.

لكن أمي لبست غطاءها ووقفت:

قلت لأمي كي لا تلحظ أنني سمعت كلامهن. فسألتها.

ـ أمي لماذا لا تريدين البقاء هنا.

ـ أبوك ينتظرنا.

ـ أبي يعلم أننا هنا يا أمي. سينتظرنا غداً صباحاً.

ـ هيا أسرع. لنصل إلى السفينة.

عدنا إلى البيت في وقت متأخر من الليل. هذه المرة بدأ أبي يسأل أمي. لماذا جئتما. لماذا لم تمضيا ليلتكما هناك، ولماذا. ولماذا. تمتمت أمي بضع كلمات إلا أن أبي لم يصدقها.

ـ ولك روحي ذهبتما كي تظلا هناك.

ـ ذهبنا.

ـ قلنا أنكما ستعودان غداً.

ـ نعم.

ـ ماذا حصل؟. هل حدث شيء غير عادي اضطركما على العودة.

تحملت غضب أبي ولم تبح بسر زوجة الكاتب الجميلة. وأنا أيضاً لم أفصح عن هذا السر لأحد أبداً.

فقط. اكشف عنه لكم الآن. كي أوضح لكم لماذا كانت النساء ترغبن في أن يكون أزواجهن كتاباً.

لم نر بعدها فريدون أفندي المسكين ثانية.

تانغو تانغو

لا أعرف تماماً. كيف جاءت تلك المرأة. ولماذا إلى منزلنا. كانت آية في الجمال.

ومتبرجة إلى أقصى درجة. ولماذا تبيت بعض الليالي عندنا. مرتدية أبهى حللها تفرش لها أمي فراشاً في الغرفة الملاصقة لغرفتنا.

ترتسم على وجهها كآبة عميقة. تشبه كآبة عناقيد العنب في نهاية الموسم. امرأة شابة ناعمة رقيقة. أحبت أحد فناني «دار البادايي». وكانت مغرمة به حتى الجنون. تتحدث عنه على الدوام. أذهلني جمالها الصارخ: عجبت لموقف ذلك الفنان الذي لا يبادلها الحب. ولا يعطيها أية بادرة أمل كما أذكر. وما عرفته أن ذاك الفنان الشاب كان ممثلاً مشهوراً وأنه مات في ريعان شبابه ومتزوجاً من ممثلة مشهورة مثله.

تغيرت أزياء الثياب فجأة بين عامي (١٩٢٣ ـ ١٩٢٥). كان الشباب والمثقفون يحملون في أيديهم (بستوناً) رفيعاً وينتعلون أحذية شبيهة بالأحذية النسائية «الاسكربينات». المدببة الأطراف. وسراويل سيقانها قصيرة وضيقة. بين الحذاء وطرف البنطال يحب أن تظهر الجوارب. أكمام السترة قصيرة. في جيب الصدر منديل على شكل وردة يضعون على رقابهم لفحة حريرية أو ربطة عنق. أطراف اللفحة طويلة قليلاً تحركها الريح كيفما شاءت وتثبت الربطة بياقة القميص إما بإبرة من الماس والذهب أو التقليد. ويضعون على رؤوسهم طربوشاً طويلاً يضيق نحو الأعلى على شكل هرم.

هذه كانت سيماء الشباب والمثقفين. أما أطفال الشوارع فكانوا يسخرون منهم. يتعقبونهم. صارخين «مونشير. مون شير» يا عزيزي. لأن أولئك الرجال يخاطبون بعضهم بـ «مون شير». حيث تحولت الكلمة العثمانية «ميريم» تحت تأثير اللغة الفرنسية إلى «مون شير». وكان الأطفال يصرخون خلفهم قائلين. زوووب. زوبه. (يعني عديم الرجولة أو المائع).

هؤلاء الرجال. كانوا لا يظهرون في الشوارع إلا لماماً. هذه التقليعة

عند الرجال. قابلها ما يشبهها عند النساء أسموها /تانغو/. السيدة التي أتت إلى بيتنا هي من طاقم التانغو. وعندما كانت تسير عبر الأزقة كان الأطفال يجرون خلفها صارخين بإيقاع واحد:

ـ تانغو. تانغو.

لكن السيدة لم تعر أي اهتمام لصراخ الأطفال ولا لسخريتهم. لأنها اعتادت على ذلك. تسير في سبيلها دون أن تنظر إلى الخلف.

كانت تضع غطاءً. ولكنه لا يشبه غطاء أمي. لونه فاتح. يلمع على الوجهين مثل لون الورد الذابل. فوقه تفريعة. من نفس القماش ولكن بلون أغمق. طرزت عليه أزهار /نافرة/. كان الغطاء قصيراً إلى حد ما أما بالنسبة لذاك الوقت فيعتبر قصيراً جداً. أطرافه التي كانت تعد قصيرة. تطال تحت الركبة بشبر تقريباً. نسيت اسم تلك السيدة.

كانت تحبني كثيراً وأنا كنت أحبها. كان عالمها غريباً. لا تشبه دنيانا أبداً.

هذه الغرابة هي التي جذبتني إليها. ذات يوم بعد أن تناولنا طعام الغداء أكلنا البطيخ. ولكن بكمية كبيرة. ما كنت أعرف أن بطيخاً من نوع خاص. موجود. له رائحة ولكن بدون حلاوة غير أن أمي نثرت فوقه السكر الناعم. الجميع تركوا المائدة.

وبقيت وحدي أتابع أكل البطيخ. في نهاية المطاف تحركت أنا أيضاً. لأن بطني قد انتفخ تماماً. غسلت يدي في صنبور المرحاض. لا أحد في الشرفة. نهار صيفي حار. وخاصة عند الظهر. الحرارة كانت مرتفعة جداً. فتحت باب الغرفة التي خلت جراء انتقال السيدة نوبر. وجمدت في مكاني عندما شاهدت السيدة الجميلة قد خلعت سترتها الداخلية. وانحنت نحو الأرض. أنها تفعل شيئاً بيديها. فجمدت كالصنم في مكاني. لم تشعر بدخولي. ولم أستطيع العودة ثانية كي لا تسمع وقع

خطواتي وزقزقة الباب وما سيكون موقفها مني وأنا أراقبها سراً؟. وقفتي هذه ومشاهدتي لم تدم نصف دقيقة. احتارت السيدة الشابة عندما التفتت نحو الخلف ورأتني. جمعت نفسها على الفور.

واحمّر وجهها وقالت:

ـ هنالك برغوث دخل ثيابي. كنت أبحث عنه.

نعم كانت تبحث عن برغوث. خرجت من الغرفة. وكأنني قمت بعمل شنيع لم أستطع التحدث معها بحرية تامة لفترة طويلة لأن ريح المراهقة بدأت تهب في أعماقي رويداً رويداً.

مشفى حسكي النسائي

كانت أمي نائمة في المشفى. للمرة الرابعة أو السادسة لست أدري وفوق باب المشفى الحديدي الكبير علّقت لوحة عريضة. كتب عليها بحروف عربية كبيرة /مشفى حسكي النسائي/. يوم واحد في الأسبوع يسمحون فيه بزيارة المرضى.

أما أنا فكانوا يسمحون لي بالدخول يومياً. ولا زلت حتى الآن أجهل السبب هل لأنني صغير. لا يحفل البوابون بي. أم معرفة الأطباء والممرضات لي وتعودهم عليّ. أو ربما كنت أنسل كالخيال من بينهم وأدخل. لست أدري.

اختل نظام بيتنا وانقلب رأساً على عقب بسبب وجود أمي في المشفى. أبي يخرج كل يوم منذ الصباح ولا يعود إلا في المساء. نسيت كيف كنت أقضي وقتي حتى الظهر. لا درس ولا مرس ولا أي شيء على الإطلاق. أعيش حراً طريقاً. وكانت جارتنا الزنجية زكية. تسكن بيتاً خشبياً على بعد زقاقين من بيتنا. البيت ملك لها. وعندما أفكر ملياً. اتذكر أن الزنجيات كنّ كثيرات في استانبول يومذاك. كلهن. رائعات الخَلْق والخُلق. طيبات. كريمات. فيهن صفات إنسانية رائعة. بيتها مكّون من طابقين.

بيت خشبي قديم. لم أر في حياتي كلها منزلاً جميلاً. مرتباً. نظيفاً. مثل منزل الخالة زكية.زوجها إنسان مسن جداً يعمل بائعاً للسلال. أو حمّالاً للبضاعة في سلة على ظهره. كان يضع سلته الكبيرة فوق جرن الماء الكبير قرب الصنبور ويجلس على حافة الجرن، ينتظر المشترين.

ضعيف البنية. ومسن جداً. عندما كنت أمر من أمامه وهو جالس على الحجر. أتجاهله وكأنني لا أراه. وهو كذلك. وربما كان يفعل الشيء نفسه مع كل معارف الخالة زكية. عند المساء. يضع سلته في زاوية المقهى ويعود إلى منزله. تعمد الخالة زكية على غسله وتنظيفه وتلبسه البيجامة التي كانت آنذاك من الثياب العصرية عند العائلات الفقيرة. حتى الأغنياء ما كانوا يلبسونها إلا لماماً. في المساء نحل أنا وأبي ضيوفاً على بيت الخالة زكية. والجيران الآخرون كانوا يأتون لزيارتها. فتبدو على زوجها الضعيف المسن، العامل. الحمّال. علائم جديدة. شخصية وقورة معتبرة. وكأنه موظف. متقاعد من دائرة حكومية. يحبني. ويمسد شعري. يحاور جيرانه في أمور كثيرة. ولكن عندما تشرق الشمس. تعود إليه شخصيته التي أعرفها فوق حجرة الجرن. وأتظاهر. كأنني لا أعرفه أبداً. وعندما تأتي الخالة زكية مع زوجها لزيارتنا يبدو لنا زوجها في حلّة رائعة. ثيابه نظيفة مكوية. خلافاً لما كنا نسمعه أن الرجل كان يمد يديه ويتسول. لأنه كبر. ولا يستطيع الحمل.

اعتبر الخالة زكية العربية معجزة بكل معنى الكلمة. نجاحها في إدارة بيتها الجميل. بالرغم من حالتها المادية السيئة. كان منزلها جميلاً رائعاً. نوافذه النظيفة وزجاجها البراق. والستائر والأغطية.

ومع مرور الأيام ظهرت فتاة صغيرة في الثالثة أو الرابعة من عمرها. لم نعرف أصلها ولا فصلها. ولم نسألها. كانت الخالة زكية تعتني بها وكان لهذه الطفلة أم. تأتي لزيارة الخالة زكية ليلة في الأسبوع. تحب

ابنتها. تجلب معها هدايا كثيرة. ثم تختفي. أين كانت تذهب؟. ومن هي؟. فقط كنا نعرف أنها تعطي بعض المال للخالة زكية لأنها تعتني بابنتها.

الجميع أخفوا عني. سر الأم. ومكان عملها. ونوعيته. وأخيراً عرفت من خلال الأحاديث الجانبية والهمسات. أن المرأة كانت تعمل خادمة في منزل سيء جداً. يعني في بيت للدعارة. وربما في منزل للمواعيد. وتأكدت أنها كانت تعمل خادمة وليس غير ذلك. لأنها قبيحة. تربح أموالاً كثيرة. وتعطي الكثير منها للخالة زكية لأنها تعتني بابنتها.

بيغ PIC

الكلمة تحتمل عدة معان: القذر ـ السيئ ـ الولد الذي لا يُعَرفُ أبوه أو البندوق ـ ابن زنى. كثيراً ما كنت أسمع الأطفال ينادون بعضهم. بكلمة PIC بيغ. ابن القذر. وكذلك بعض النسوة يقلن للأطفال الأشقياء بيغ دون أن أعرف معنى هذه الكلمة. وأول ولد PIC رأيته في منزل الخالة زكية تلك الفتاة الصغيرة ـ وعرفت بعد ذلك من خلال الهمسات أن كل طفل لا يعرف أبوه يقال له: بيغ «PIC». ولما عرفت معنى تلك الكلمة. بدأ يتشكل لدي إحساس بالاشمئزاز. كنت أشمئز من كل شيء أو مكان تلمسه تلك الفتاة الصغيرة حتى الماء لم أعد أشربه في بيت الخالة زكية. لأن تلك الفتاة قد لمست الإبريق. وبدأت أشعر أن هذه الصفات «البندقة ـ الزنا ـ أو مجهول الأب» مرض معد أو جرح ملتهب كله قيح ودم. وهكذا بدأت أبتعد عن بيت الخالة زكية.

الولد البيغ الثاني الذي رأيته. كان يسكن حينا. وكانوا يطلقون عليه أيضاً البيغ «أو السيئ السمعة». ولكن شيئاً لم أفهمه تماماً. لماذا ينعتونه بتلك الصفة. وله أب؟. وكانا أخوين اثنين يقولون عن أحدهما بيجاً مستثنين الثاني. بعدها عرفت بنتيجة القيل والقال:

لم يكن الرجل والده الحقيقي. والده الحقيقي شخص آخر. هكذا كانوا يقولون: وأن والده معروف وحي. ولذلك ينعتونه بهذه الصفة. بقيت مدة طويلة. أرى هؤلاء السيئي السمعة. دون البشر ونوعاً آخر مختلفاً عن الناس. ورافقني هذا الاعتقاد حتى كبرت وصرت شاباً. أبناء الزنا لا يكونون ذوي طبائع حسنة ولا يعملون، منحرفون وشاذون طوال حياتهم أنذال. خبثاء. ماكرون. أذكياء. هكذا كانوا يقولون عنهم.

دون أن يوضح لنا أحد شيئاً عن ماهيتهم ولكن أهم ما تعلمناه. هو ما عرفناه دون كلام. صرت أبحث عن أوجه الشبه بين الولد البيغ في حيِّنا وبين الفتاة الصغيرة التي لا تفارق أبداً منزل الخالة زكية. مرت أعوام. ولم أستطع التخلص من هذا الاعتقاد. فعندما أرى أطفالاً. صغار الوجوه والعينين. ثاقبي النظرة مثل الجان كنت احسبهم أطفالاً سيئي السمعة.

عرب

كما قلت آنفاً. كانت الزنجيات كثيرات يومذاك في استانبول. وربما أسرتنا كانت تعرف أكثرهن. زنجية أخرى اسمها الخالة فاطمة. كانت تعيش في غرفة لوحدها. تصنع حلاوة (السمسمية). وتبيعها أمام حمامات النساء.

ولمست من عطف ورعاية وطيبة هاتين المرأتين الشيء الكثير وبخاصة عندما كانت أمي تنام في المشفى. جاءت الخالة زكية مع تلك الفتاة إلى بيتنا. كنت وحيداً كنست غرفتنا ونظفتها على أكمل وجه. أحداث كثيرة صغيرة لا أهمية لها. نعايشها في طفولتنا. إلا أننا لا نستطيع أن نمسحها من ذاكرتنا. ولا نقدر أن ننساها.

كان عندنا قطة سوداء. ويومها كل القطط السوداء تسمى /عرب/ بشكل عام. ونحن أيضاً كنا نسمي قطتنا بعرب. كانت الخالة زكية

تقشر الخيار في الشرفة. دخلت القطة في تلك اللحظة من نافذة الشرفة وانتقلت إلى مكان آخر.

بدأت أنادي القطة السوداء لأداعبها.

ـ عرب. عرب. عرب.

جمدت الخالة زكية في مكانها. في إحدى يديها السكين وفي الأخرى الخيار. ونظرت إلي ببرود وقالت:

ـ عيب مناداة القطة بكلمة عرب. وأنا موجودة هنا. أنا لست غريبة عنكم. أنا خالتك. وإياك أن تنادي القطة بهذا الاسم أمام امرأة عربية أخرى فسيأخذ على خاطرها وتغضب منك.

وعادت ثانية إلى تقشير الخيار. أما أنا فذبت خجلاً.

نعم هذه حادثة لا أهمية لها. ولكن تلك الأحداث الصغيرة التي لا أهمية لها. تترك فينا آثاراً كبيرة. أصبحت حذراً عندما أتحدث مع الأشخاص الذين تعرفت عليهم حديثاً. كي لا تصدر عني كلمة ما. تزعج الآخرين. عندما أتحدث مع أناس مرهفي الإحساس والمشاعر. أتذكر كلمات الخالة زكية فوراً. وأتحفظ كي لا تصدر عني أية بادرة تؤذي مشاعرهم. وأعيش أثناء حديثي مع من تعرفت عليه حديثاً. وكأن الخالة زكية جالسة تقشر الخيار أمامي وأنا أنادي القطة. عرب. عرب.

تقول الخالة زكية: يا ضناي عيب على الإنسان أن يسمي القطة عرباً وهو جالس مع امرأة عربية. لقد عشت هذا الموقف ورسخ في ذاكرتي. وأصبح وجهي يطفح دماً وناراً عندما أتذكره وأبدأ بغربلة الكلمات التي ستصدر مني تباعاً. ربما هذا نوع من الاضطراب النفسي والشخصي ولكنه يقود الإنسان إلى محاكمة نفسه دائماً ويعرف معنى ما يقول.

جهزت الخالة زكية سلطة الخيار ووضعت فوقها زيتوناً. ثم صبت

كمية من الخل وشيئاً من زيت الزيتون. وأنزلت باقة النعناع اليابس المعلقة على الجدار وفركتها فوق الوعاء. ثم رشت بودرة النعناع فوقها. ثم وضعت الفلفل الأسود والملح وحركتهم. مزيج الملح والفلفل الأسود والنعناع اليابس. أدام لذيذ شهي مع الخبز الطازج.

وبدأنا تناول الطعام أكلت من مزيج الملح والفلفل الأسود والنعناع اليابس. لأنه وضع أمامي في صحن خاص. ولكني لم آخذ لقمة واحدة من السلطة. لأن تلك الفتاة الصغيرة. كانت تبلل خبزتها بماء السلطة. أي أن يديها تلمسان السلطة. عندما خرجت أمي من المشفى. لم آكل أيضاً بذلك الصحن. وعندما سألتني أمي وبإصرار عن السبب بُحتُ لها بالحقيقة.

ـ لقد أكلت من ذلك الصحن يا أماه. دهشت أمي لتصرفي في بداية الأمر. وحملقت في وجهي لفترة وجيزة. وسألتني عن معنى كلمة «PIC ـ بيغ» فلم أجبها. ولكني كنت أؤكد لها معرفتي لمعنى الكلمة من خلال سكوتي. وعرفت من تصرفات أمي أنني تعلمت شيئاً ما كان عليّ أن أعرفه وأتعلمه. عندما عرفت سبب عدم أكلي من ذلك الصحن وعدم لمسي له قالت:

ـ التي تقول عنها بيغا. أليست من خلق الله؟. ما ذنبها إذا صارت هكذا؟. الذنب ليس ذنبها هل صارت كذلك بإرادتها. بطلبها؟. بماذا يختلفون عني وعنك. أحذرك فإنني لن أسمع منك كلاماً كهذا بعد اليوم.

بعدها فكرت. وفكرت. لليال طوال: هل صارت تلك الفتاة بيغا بإرادتها؟.

هذا السؤال ظل يدور في رأسي: ما ذنبها إذا صارت كذلك؟.

أمي كانت محقة. نعم محقة. ومع هذا لم آكل في ذلك الصحن.

أطعمة الغداء في المشفى

هجر النظام بيتنا بسبب وجود أمي في المشفى وكنت أسهم بنصيب وافر من الفوضى التي لفت منزلنا. تركت شعر رأسي يطول. لأكثر من ثلاثة سنتمترات. أبلله. وأسرحه. أحاول تصفيفه وتسريحه ولكنه لا يطاوعني أبداً. لا يتصفف. أضغط عليه بالمشط ثم بيدي. ولكن مستحيل. فما أن أرفع يدي. أراه قد وقف مثل شعر كبابة الشوك.

أجهز نفسي قبل ظهر كل يوم لزيارة أمي وبدأت أهتم بنفسي وثيابي وهيئتي وقيافتي. لأنني كنت أريد أن لا يراني المرضى والممرضات في مهجع أمي. دون قيافة ونظافة حتى لا يشفقن عليّ. ولكي لا يساورني أي شك من هذا القبيل استعد قبل ساعة من خروجي. أغسل وجهي ورقبتي جيداً. أضع المرآة الصغيرة المكسورة والتي لا تملك سواها. على إطار نافذة الشرفة. وأحاول تمشيط شعري وتصفيفه على أكمل وجه. ثم أخرج من البيت.

فوق الباب الحديدي لوحة كبيرة. مكتوب عليها مشفى حسكي للنساء وعلى الباب مجموعة من الخادمات والممرضات بزيهن الأبيض. أجتاز حديقة المشفى المزهرة. وأدخل الغرفة التي تستلقي فيها أمي.

البياض يغطي كل شيء هناك وكذلك النظافة. ورائحة المشفى المألوفة. تعجبني كثيراً. لست أدري لماذا كنت أحس بالراحة عندما كنت أشتمها. كنت أشعر أن البياض والنظافة وتلك الرائحة شيئان متلازمان مع أن أمي كانت تكره تلك الرائحة كثيراً وأغلب الظن لأنها بقيت في المشفى كثيراً. وبما أنها دخلت وخرجت لمرات عديدة. بدأت تشمئز منها. كنت أجهل أسباب كرهها. جو المشفى الهادي والنظيف الذي يعجبني كثيراً. لماذا كانت أمي تكره هذا المكان. الأرض نظيفة ولماعة. لو لم آخذ حذري أثناء مشيتي فوقها لزلت قدمي وسقطت.

المهجع الذي تنام فيه أمي. طويل خاص بالنساء والمريضات يتمددن على صفين من الأسرة أمي تنام على الأول من اليسار. شعرها الكستنائي منثور على الوسادة. عيناها البنيتان الغامقتان تلمعان. خداها ورديان. بدا الجفاف على شفتيها. وكأنها لم تذق طعم الماء منذ وقت طويل.

تجلس في سريرها. تعانقني. تقبلني. اجلس أنا على حافة السرير.

لقد ألفت هذا الجو. ولذا أبقى طبيعياً في كل حركاتي وتصرفاتي.

كنت احسب أن كل الأمهات ينمن في المشفى بين حين وآخر. لم يخالجني أي شعور بالشفقة أو الحنين تجاهها. الأمر طبيعي بالنسبة لي. لا هم ولا غم ولا خوف من أي شيء. تقول لي مبتسمة:

ـ كيف حالك يا ولدي؟.

ـ أنا بخير.

عندما أصل إلى المشفى أجد المريضات قد تناولن طعام الغداء. وكالعادة تبقي لي أمي شيئاً من طعامها. تفتح باب الخزانة المعدنية المدهونة بالأبيض. وتخرج الطعام من هناك. صحن من الكفتة الباردة. وصحن من الطبيخ عليه قطعة لحم كبيرة. جمد الشحم على أطرافها. وزبدية من اللبن. وقطعة خبز.

تساءلت كثيراً هل كانت أمي تخبئ لي هذا الطعام. لأنها لا تستطيع الأكل بسبب انعدام الشهية؟. أم أنها لا تستطيع تناول الطعام إلا معي؟. لم أفكر بكل هذا. انحني وأبدأ الطعام على الفور. آكل ولكن مع شيء من الخجل والسرية. الجميع يرونني هناك وأنا أتناول الطعام وكنت أغادر بسرعة بعد انتهائي منه. كانت أمي تحبني كثيراً وتقبلني وتعانقني.

أخرج من المشفى دون حزن أو ألم. ما كنت أفهم أن هنالك سبباً للحزن والقلق. في اليوم التالي. أكرر نفس العمل. أغسل وجهي وأصفف شعري وأنا أنظر إلى تلك المرآة الصغيرة المحطمة الموضوعة على

إطار نافذة الشرفة. ثم أذهب إلى المشفى وأتناول طعام الغداء وأعود ثانية. أما أبي فلم يكن يذهب لزيارتها سوى مرة في الأسبوع.

بزور الزيتون دليل الذنب

كان الأطباء يجهلون سبب مرض أمي. هزال دائم. متعبة. ضعيفة. لا يفارقها الألم مطلقاً. سيظل مرض أمي مجهولاً. غير معروف لسنين طويلة لكنهم في النهاية سيكتشفون هذا المرض. مرض السل. بعد معاناتها من أمراض متنوعة. ستواجه السل أيضاً. أعطوها أدوية كثيرة. قبل اكتشاف مرضها الحقيقي. أخضعوها لحمية شديدة. يجب أن تمتنع كلياً عن الملح. هذه الحمية. دون الملح. دامت فترة طويلة. تعبت كثيراً. يئست لم تعد تعبأ بأي نصيحة تأتيها من الأطباء. بعد أن كانت تتبع جميع نصائحهم وارشاداتهم بدقة. في إحدى المرات طلبت من أبي بضع حبات من الزيتون. هل اشتهت الملح يا ترى؟. ولكن الزيتون مالح وممنوع عليها.

رفض أبي طلبها. إلا أنها أصرت وبعناد.

كانت ضغوطات أبي وتأثيراته المباشرة وغير المباشرة على أمي قد خفّت كثيراً أو انعدمت تقريباً. ربما بسبب مرضها الدائم وربما جرّاء الثقة التي أولته إياها في مرحلة زواجهما الأولى. وبحسب ما فهمت من أبي. أنه بدأ يحس بندم شديد بسبب ظلمه لها. وكان يعرف هذا جيداً.

وبقي حتى وفاته يرزح تحت وطأة هذا الندم.

أبي كان يحبها كثيراً. ولكن ليس الحب العذري الذي نعرفه من خلال قصص روميو وجولييت ومجنون ليلى حبه كان هادئاً ولا يظهره للآخرين حتى ولا لحبيبته. ضمنياً كنت انتقد بعض طبائع أبي. لأنها لم تعجبني أبداً ولكني مستقبلاً وجدت أن تلك الطباع المتجذرة في أبي. قد انتقلت إلي.

غير أن شيئاً واحداً. اعتقدته هو قدرتي على محاكمة نفسي وتوجيهها وانتقادها عكس أبي تماماً. أنا أيضاً مثله من حيث المشاعر والأحاسيس فلا أظهرهما لأحد ولا أرغب في التعبير عنهما. وهكذا يبقى حبي في داخلي. فكرت بوضعي هذا كثيراً. لماذا أضغط على نفسي؟. وأخيراً توصلت إلى نتيجة انه مهما قلدن الغرب. ومهما كان تأثيره علينا. نبقى. رجالاً أناضوليين. نحب زوجاتنا كثيراً. دون أن نشعرهن بهذا الحب. هذه ميزة خاصة في معادلة الحب الموجودة عندنا. عيب على الرجل أن يظهر حبه وهيامه لزوجته أو حبيبته. فمثلاً. نرى الجنود الذين يخدمون الوطن. عندما يبعثون برسائلهم إلى أهلهم وذويهم. لا يذكرون زوجاتهم فيها. ولا يخصونهن حتى بمجرد السلام والتحية.

ولا بكتابة أسمائهن. بل يقولون: أسلم على طرف الهانم.

وعندما يذكرون إلى جهة الهانم تحمر وجوههم خجلاً. وهذا يعني إلى زوجتي.

كانت ضغوطات أمي تزداد يوماً بعد يوم. أما أبي فلم يشأ أن يتخلى عن حقوقه في الطبع والتطبع. أحضر أبي معه في زيارته الأخيرة. ودون رغبة منه كمية من الزيتون حملها معه داخل كيس صغير. وكان إدخال الزيتون سراً صعب جداً.

فرحت أمي كثيراً وكأنها تلقت هدية كبيرة. لو رآها الممرضات لأخذنها من يدها ولكنها خبأت الزيتون تحت السرير. عندما أتذكر الآن تصرف أمي آنذاك. أشعر بالدهشة والحيرة. كيف تخلت عن طبعها القويم. وضربت كل القيود عرض الحائط. كيف تطلب حبات الزيتون ولماذا تخبئها تحت السرير. كل هذه التصرفات ما كانت تليق لها.

في زيارتنا التالية مع أبي. سألته وقد ارتسمت على محياها ابتسامة خجولة:

ـ هل القطة تأكل الزيتون؟.

قال لها أبي: لا.

ـ كيف لا. هنا قطة كبيرة. تأكل الزيتون مثل البشر. وتلقى بزورها على الأرض.

قالت أمي ذلك مبتسمة قال شو: وضعت الزيتون تحت السرير وانتظرت. لتأكله عندما ينام الجميع. وفيما هي في حالة الانتظار هذه. أغفت قليلاً. ولما استيقظت في وقت متأخر من الليل. وجدت الأرض ملأى ببزور الزيتون لقد جاءت القطة الكبيرة وثقبت الكيس من أسفله وأكلت حبات الزيتون كلها تقريباً.

أمي!!!!.

ـ ولك اسكت لقد تهزأت. قالت ذلك وضحكت: لأول مرة في حياتي أرى قطة تأكل الزيتون. قامت. وجمعت البزور عن الأرض ووضعتها جانباً. عندما تكبر ستكون طبيباً أليس كذلك؟.

يوم خرجت أمي من المشفى. جمع أبي أمتعتها وألبستها وسبقنا إلى المنزل. مشينا معاً. وصعدنا طريق الحسكي. وبما أنها كانت خالية من البشر تماماً. رفعت الحجاب عن وجهها إلى ما فوق الغطاء. مسكينة ضعيفة. قواها منهارة. تمشي قليلاً وترتاح. أدخلت يدها تحت إبطي ومشت. فرحت كثيراً. وقالت: ابني كبر وصار رجلاً. أمه تمسكه من يده. نتحدث. بكلمات جميلة لا معنى لها. لم أعد أتذكر. ولكن ما لا أستطيع أن أنساه. ما قالته: ابني سيدرس وسيصبح رجلاً عظيماً «طيب». عندما تكبر ماذا تتوقع أن تصبح؟. لم يسألني أحد هذا السؤال من قبل.

ـ قولي أنت. ماذا تريدين أن أكون يا أمي؟.

ـ كن طبيباً. عندما تكبر وتصبح طبيباً. تعتني بي وتداويني. انظر الأطباء إنهم لا يعرفون مرضي. عندما تصبح طبيباً. تعالجني وتعتني بصحتي.

أليس كذلك؟.

ـ طبعاً.

ـ هل سأرى تلك الأيام؟.

كأنها كانت تقول هذه الكلمات لنفسها. وليس لي. أرخت حجابها على الفور. لم أعد أرى وجهها لكثافته. ولكني أحسست أنها تبكي دون أن تشعرني بذلك. وبين وقت وآخر. كانت تدخل منديلها تحت الحجاب وتمسح الدموع عن عينيها، يدها تحت إبطي، ولكي تتمكن من ذراعي أحنت ظهرها قليلاً. كنا نصعد الطريق القاسية رويداً رويداً.

ـ سأكون طبيباً. وعندها سأعتني بك وأعالجك يا أمي. وسأجعل صحتك على ما يرام. سأصبح طبيباً بالتأكيد. تدخل أمي منديلها تحت الحجاب من جديد، وتمسح دموعها.

الفتاة ذات النمش

ذات يوم رأيت دجاجة مذعورة. تركض هنا وهناك في الساحة الصغيرة. أمام باب حديقتنا. ما أعرفه أنه لا يوجد دجاج في حينا ولا في شارعنا.

واضح أنها دجاجة غريبة ضلت طريقها وجاءت إلى هنا. تركت باب الحديقة مفتوحاً. وعملت المستحيل حتى أدخلتها الحديقة. ربما هذا خبث مني. كنت أريد امتلاكها. بعد أن أدخلتها. قلت لأمي: لقد وجدت دجاجة في الطريق. سألتني: لمن هي؟. ليس لها صاحب. هل يعقل هذا الكلام. لا يمكن إلاّ أن يكون لها مالك.

أحببت كثيراً أن يكون عندي دجاجة. أصرت أمي على أن أخرجها من الحديقة وأطردها من المنطقة. وأنا أقسم لها أن الدجاجة لا صاحب لها. كنت أفتت الخبز الذي أحضرته من الدولاب المعدني. وأرميه أمام الدجاجة. التي بدأت تأكله وهي خائفة مذعورة. وجدت علبة معدنية صغيرة ملأتها بالماء. ووضعتها على الأرض. كنت أطير من الفرح عندما أرى الدجاجة تشرب منها وترفع رأسها نحو الأعلى. لونها رمادي عليه بقع بيضاء. انتقيت لها اسماً على الفور: الفتاة المنمشة.

ـ أمي الفتاة المنمشة تأكل الخبز. أمي الفتاة المنمشة تشرب الماء. أمي الفتاة المنمشة تهرب مني. تعودت عليّ. وفي كل مرة. تصر أمي وبعناد أن أدعها وأخلي سبيلها.

أنا متأكد بان الدجاجة لأحد الجيران. ولكني لم أشأ معرفة ذلك. وتملكني خوف من أعماقي إن ظهر صاحبها؟.

عند المساء. صعدت الفتاة المنمشة إلى غصن الشجرة ووضعت رأسها تحت جناحها ونامت.

جاء أبي حاملاً صرته. وقد وضع الخبز داخلها. قلت له خائفاً. لقد وجدت دجاجة في الطريق. لم يعارضني. إنه. يفهمني. عكس أمي. التي مازالت تصر على تركها وإبعادها. لا، هذا حرام. ستضيع في الطرقات. ليس لها صاحب. هل هذا الكلام معقول؟. هل هي قطة شارع حتى تكون بلا صاحب؟. هيا اتركها اذهب وضعها في الزقاق. وانتبه، ولكن ماذا يحدث لو امسكها أحد وذبحها؟. الفتاة المنمشة دخلت أحلامي. عشت معها طوال الليل.

جاءت الخالة رشيدة إلى منزلنا صباح اليوم التالي. والدة السيد صائم. زوجة اسماعيل أفندي «القسطموني» (من مدينة قسطمون ـ شمال غرب تركيا. مدينة صغيرة جميلة). والذي يمتلك دكاناً في أق سراي. يبيع فيه

الحلويات. اسماعيل أفندي رموشه متجهة نحو الخارج ولهذا ترى عينيه محمرتين على الدوام. لا يعرف الشتم والسب والكفر لأنها ذنوب إذا غضب من أحد يقول له: «الله». أي عبد الله. ولهذا السبب صاروا ينادونه: عبد الله اسماعيل أفندي فمع دخول الخالة رشيدة من الباب. تعرفت على دجاجتها. كنت أعرف سلفاً ماذا سيحدث. وحصل ما كنت أخشاه. لقد بقيت الخالة رشيدة تبحث عن دجاجتها طول نهار الأمس. كنت حزيناً جداً وبدا ذلك جلياً على وجهي. حيث قالت:

- (روح ولك ابني). وهبتك إياها.

ساعتها شعرت كأنها أعطتني بيتاً. أو شيئاً أهم من البيت. أعطتني الدنيا كلها.

ذهب أبي واشترى لي دجاجة أخرى تكون صديقة للفتاة المنمشة. ومنذ ذلك الحين لم ينقطع الدجاج من بيتنا أبداً. لا أحب الآلة. ولا يمكن أن أحبها. لا نستطيع أن نعرِّف أو نعرف يقيناً ماهية المجتمعات المتخلفة. فتلك المجتمعات لن تحب المكننة حتى ولو أصبحت تقدمية إلى أبعد الحدود نحن أطفال ذلك المجتمع لم نتمكن من امتلاك الألعاب مطلقاً. ولا أن نكون على وفاق تام مع الآلة.

لقد أحببت الحيوانات كثيراً جميع أنواع الحيوانات. مع مرور الأيام سيزداد عداد الدجاجات عندي. وبعد سنوات وعندما سننتقل إلى «هيبلي آدا». سنبيع البيض الطازج ونربح أموالاً. وسنشتري نعاجاً بتلك الأموال سيزداد قطيع الغنم عندنا. وأصبح راعياً للقطيع وعندما أصبح في المرحلة الثانوية. سيكون أبي قد تمكن من شراء بيت بعد أن يبيع القطيع.

وهذه هي الزيادة «البحبوحة»

ذكريات كثيرة. لا تُمحى ولا تُنسى تبقى عالقة في أذهان أترابي أبناء جيلي عن أماكن الأعياد في استانبول. في كل حي ساحة كبيرة وأماكن

مخصصة لألعاب الأطفال في العيد. أكبرها وأشهرها.

ساحة «جينجي».

ساحة في حي جراح باشا أصغر كثيراً من الساحة الموجودة في قاسم باشا. وتصبح هذه الساحات في الأعياد. أماكن خاصة. للقلابات للدواليب الدوارة. الأراجيح العادية. والزورقية. وبائعي الحلويات والسكريات وخيام المسرح. والجمباز. ورمي الأهداف. والبائعين الآخرين. عندما قصدت تلك الساحة في أحد الأعياد. حسبتني سأضيع وسط الزحام الشديد. وصدق ظني. نسيت الزمان والمكان حتى أني نسيت نفسي. يفترض أن أكون قد قبضت مبلغاً كبيراً (على العيد) في ذلك اليوم. لأنني كنت أشتري وآكل ما أراه وما أشتهيه. أصبحت صديقاً لأحد الأطفال.

هو الآخر كان لديه المال. دخلنا خيمة المسرح. وركبنا الأرجوحة. لقد قمت بكل ما كنت أنتقد الأطفال عندما يقومون به.

كان ذلك الطفل يغني أغنية بأعلى صوته. وأنا أعيد من بعده. أطير من الفرح أغني صارخاً: حتى ولو أنشدتها بمفردي.

عالم المئذنة

حواجبها أقلام ربانية.. فإذا قلنا لك: أنت جميلة.. لم نقل لك: أحرقي العالم.

ركبنا الأرجوحة بآخر ما تبقي لديَّ. هزّ الأرجوحاتي الأرجوحة. وزدنا من سرعتها ونحن نعيد ونكرر هذه الرباعية الغنائية.

عندما ضغط الأرجوحاتي بقدميه على ذراع حديدي ارتفعت خشبة من تحت الأرجوحة وكانت كلما اصطدمت بها. تخفف من سرعتها وصاحب الأرجوحة يصرخ.

ـ احترقت. احترقت ت ت ت. احترقت ت ت.

يعني أن دورنا قد انتهى وأن النقود التي أعطيناها له قد احترقت أيضاً.

عندما صرخ الأرجوحاتي بـ احترقت. غضب الأطفال وصاحوا: لا لم ينته الوقت فعاد الأرجوحاتي وهزّ الأرجوحة ثانية وهو يقول.

ـ وهذه هي البحبوحة. وهذه هي البحبوحة. وتأرجحنا عدة مرات مجاناً بحبوحة.

نقودي انتهت. وذهب صديقي. وحل المساء. لا زالت: أصوات الأراجيح تتعالى وسط صخب ساحة العيد. ـ احترقت ها. احترقت.ت ت. وهذه هي البحبوحة. وهذه هي البحبوحة. بعد الخمسين من عمري. تذكرت الأراجيح وأصوات أصحابها. هذه هي البحبوحة. مات كثير من أصدقائي وأترابي ورفاقي. بعد موت كل صديق أو عزيز عليّ أشعر وكأني أسمع صوت الأرجوحاتي وهو يصيح:

ـ احترقت. احترقت. احترقت ت ت.

ولكني ما زلت أعيش. تهزني أرجوحة الدنيا. ويعاودني صوت ذاك الأرجوحاتي:

ـ وهذه هي البحبوحة. وهذه هي البحبوحة.!.

عندما يموت أحد أصدقائي اعتبر ما تبقى من عمري على هذه الأرض بحبوحة. وإلا لكانت الديدان قد أتت على كل شيء. ـ وهذه هي البحبوحة. وهذه هي البحبوحة. وأمرّ بساحة العيد في جرّاح باشا وأنا أردد تلك الأغنية عالم المئذنة.

الخمسة معاً أحياناً يذكرون السيد نهاد عندما يتحدثون في بيتنا ومن مجرى الحديث عرفت أن السيد نهاد هذا يسكن في «هيبلي آدا». وأنه مدين لأبي. ويعمل موظفاً كبيراً في جمارك استانبول.

يلحّ أبي على أمي كي تذهب إلى «هيبلي آدا» وتطالب زوجته بالدين

لكن أمي ترفض. لست أدري لماذا؟. بعدها فهمت أن رفض أمي مردّه خشيتها من زيارة السيد نهاد وعائلته إلى بيتنا المتواضع. لأن أحوالنا قد ساءت كثيراً بعد الحريق الذي التهمه في «يني جشة». فهو موظف كبير في الجمارك وأحواله على ما يرام.

كانت أمي تقول:

ـ لماذا انتقيتني لمطالبته. أنت من أعطاه المال. فاذهب أنت وطالبه بنفسك. لأنك لم تترك أحداً في هذا العالم إلا وأعطيته. تقرض كل من يطلب منك. رفض أبي أيضاً الذهاب شخصياً أما أنا فكنت أعرف سبب هذا الرفض.

لأن أبي سريع الغضب ويخشى أن يرفض السيد نهاد رد المبلغ فيحدث ما لا تحمد عقباه.

قالت أمي:

ـ السند معك. قدمه للمحكمة واسترجع مالك. مرت سنوات عديدة. أمي تملك صندوقاً. تضع فيه كل ثمين غال يخصها. انتظر دائماً فتح الصندوق. لقد أصبح الصندوق مهترئاً لكثرة النقل والتنقل ومن حي إلى حي في استانبول. عندما تفتح الصندوق يصدر عنه صوت صرير. وبعد أن تفتحه كلياً ترى داخله حافلاً بكل جديد. دنيا تعج بالألوان والروائح. بقج كبياض الثلج. غصن من زهرة «لافنتا» ذو رائحة رائعة. رائحة. أمي. وطفولتي. ألواح صابون عطرة تفوح من الصرير. والأغطية المزركشة. والأحذية القماشية الجميلة. فتحت أمي الصندوق. فانطلق صوت الصرير. ÇİN. وأخرجت من أسفله مجموعة كبيرة من الأوراق. كلها سندات سطرها أبي على من أعطاهم قروضاً.

جلسا يحسبان مقدار المبالغ التي يريدانها من الآخرين. مبلغ كبير

جداً. وكلها مدونة بالليرة الذهبية. يحسبان ويحسبان. يقولان: لو جمعنا هذا الدين لاشترينا به بيتاً صغيراً. وتخلصنا من الإيجار والاستئجار.

مازلت أحتفظ ببعض تلك السندات لديّ، بعضها كتب عليه البستاني في مدرسة البحرية الرقيب عزيز وبعضها البستاني عبد العزيز أفندي وبعضها موظف المستودع وبعضها موظف الإعاشة.

بعد مضي عدة سنوات وعندما جاءت عناصر الأمن وفتشوا منزلي اخذوا معهم كل تلك السندات التي كنت أحتفظ بها.

كانت أمي تخرج تلك السندات الكثيرة من الصندوق لكن أبي ظلّ مصراً على سند السيد نهاد. لأن أمي هي من سيذهب إلى «هيبلي آدا» ويطالب زوجته بالدين. واستمرت في القول:

ـ أعطه للمحكمة.

ـ ولكنه لم يرجع لك حقك حتى ولو بعد سنوات طويلة.

فيجيبها أبي:

ـ هذا حقنا ومنذ أعوام وعليه إعادة هذا الحق ولو بعد سنين طويلة.

ـ هذا غير ممكن. حقنا قديم والسند كذلك. وإذا ما أنكر حقنا في المحكمة؟.

ـ هنالك السند.

ـ حتى ولو كان. ينكر.

ـ تطلب منه القسم.

ـ يقسم على الكذب أيضاً. ألا تعرفين إن السيد نهاد يشرب العرق. ومن يشربه يفعل كل السيئات. أتريدين أن أجعله يحلف اليمين الكاذب. وهو صديق لنا منذ زمن بعيد. اذهبي. وقولي لزوجته. فإن أعطانا مالنا كان به. وإذا تمنّع؟. ماذا نفعل يعني؟.

أمي لن تذهب. أبداً لأن «هيبلي آدا» هذا، هو المكان الذي تزوجت فيه وولدتني هناك وصديقاتها كثيرات. ولم تذهب إلى هناك منذ انتقالنا، ولأنها لا تملك ثياباً تليق بها. وتخشى أن يراها معارفها. وأنا أيضاً ليس عندي ثياب. وأمي فيما مضى كانت تملك طوقاً ذهبياً يزين عنقها. إلا أن والدي أعطاه لصاحبه محمد أفندي تاجر الفحم. فإن ما ذهبت أمي دون هذا الطوق ستعرف زوجة السيد نهاد أننا أصبحنا فقراء معدمين.

الذهاب من «جراح باشا» إلى «هيبلي آدا» آنذاك كان أصعب من السفر من استانبول إلى باريس الآن. أو في هذا الزمن. نزولاً عند إصرار والدي الشديد. ذهبت مع أمي إلى «هيبلي آدا» وبقينا ضيوفاً في بيت السيد نهاد أكثر من خمسة عشرة يوماً.

ما أجمل تلك الأوزات

أجمل أيام طفولتي قضيتها في منزل السيد نهاد في «هيبلي آدا». منزل خشبي مكون من طابقين. يتربع على سفح أعلى تلة في الجزيرة. الحديقة خلف المنزل مسيجة بسياج متين. في هذا العالم أماكن جميلة كثيرة لا أعرف عنها شيئاً. لا أحد يتدخل في شؤوني. ألعب منذ الصباح حتى المساء. زوجة السيد امرأة طيبة جداً. تحب الضيوف كثيراً. والسيد نهاد شخصية لا يشبه أحداً من الرجال لا من جيراننا ولا في أي مكان. سيد بكل معنى الكلمة.

يذهب إلى عمله صباح كل يوم ويعود عند المساء.أحسست بالفخر والاعتزاز من أعماقي كون أبي له صديق مثله. الرجل يضع على رقبته لفحة. هذا مهم جداً. أول مرة أرى فيها شخصاً من معارفنا يضع لفحة ويرتدي بنطالاً مكوياً على الدوام. حذاؤه نظيف ولمّاع. يجب أن يكون السيد نهاد رجلاً عظيماً ومهماً جداً. عندما أفكر بمقارنته مع العم غالب

أتساءل يا ترى أيهما أكثر خبرة وأوسع علماً ومعرفة؟. يجب أن يكون السيد نهاد متعلماً اكثر لأنهم جعلوا منه موظفاً. نعم. إن السيد نهاد يشرب العرق مساء كل يوم. عنده ابن. شاب وسيم اسمه «كهرمان».

تذهب أمي كل يوم لزيارة معارفها القدامى في الجزيرة. كلهم يحبونها ومتلهفون لرؤيتها. على التلة وإلى اليمين من منزل السيد نهاد. أرض فسيحة رحبة. تغطيها المروج. أمام هذه الفسحة منزل خشبي من طابق واحد. يقع فوق الحي السكني. أشارت أمي إلى ذلك البيت وقالت:

ـ في هذا المنزل ولدت أنت يا بني.

السيد نهاد يملك سرباً من الأوز. الفتاة المّنمشة بقيت في البيت. صرت صديقاً للأوزات، تحبني كثيراً. إذا خرجت من البيت تتبعني. حيثما أذهب وتعود معي. عندما يرسلونني إلى السوق لشراء بعض الحاجيات تذهب معي. أما إلى الميناء. فأبعدها كي لا تتبعني.

ـ كيش. كيش.

الأوزات الكبيرة. البدينة. تفتح أجنحتها دفعة واحدة وتطير. أبقى جامداً في مكاني. محتاراً. مدهوشاً وهي تطير فوق رأسي. أكثر من خمس عشرة أوزّة. طارت الأولى. فتبعتها الأخريات. اختفت الأوزات عن ناظري. ضاعت: ظننت أنها ستذهب إلى الصخور المقابلة البعيدة. مشيت على موازاة الرصيف. لأشتري شيئاً من البقال. وإذ بي أرى الأوزات هناك. عندما رأتني. صرخت دفعة واحدة وتحركت صوبي بفرح.

الجميع ينظرون مدهوشين: ظنوا أني اشتريت خبزاً. صعدت. تلك الطريق القاسية. والأوزات من خلفي حتى وصلنا البيت. وهكذا اعتادت الأوزات الذهاب معي إلى السوق أو إلى أي مكان أقصده وطوال فترة

وجودي في منزل السيد نهاد. كن يترقبن فرصة خروجي.

عند نزولي من التلة. تفتح الأوزات أجنحتها وتطير على الفور. وتجدني إما أمام دكان البقال أو على رصيف الميناء أو أمام النبع الكبير. أو في السوق. ثم نتجه معاً صاعدين التلة. أنا من الأمام وهن من خلفي.

أحب الحيوانات كثيراً. لا أحب المكننة. نحن أبناء امبراطورية عملاقة. متخلفة. نعم. أحب الحيوانات كثيراً، وأعرف أسباب كرهي للمكننة. أعرف ذلك من خلال تفكيري. ما أحببت الماكنات طوال حياتي. لأنه لا تربطني بها أية رابطة وجدانية أو تاريخية أو ذهنية خيالية. ظلت ذكريات عابرة. وبقيت غريباً عنها. سأدخل الجامعة فرع الهندسة الميكانيكية. سأتعلم المقاومات. في المختبرات وسأتعلم طريقة تطبيقها. وسأنال في الامتحانات علامات جيدة وعالية. ومع هذا لن أحب المكننة. لأنها لم تدخل أعماقي مطلقاً أنا أحب الحيوانات فقط.

نعود إلى منزلنا في «جرّاح باشا»... منزلنا عبارة عن عالم من الحطام. أقدم العلف للفتاة المنمشة فوراً. السيد نهاد لم يف دينه. زوجته اشتكت لأمي. أنهم في ضائقة شديدة. إنهم لا يملكون المال ليسددوا ما عليهم.

ذهبت عدة مرات مع أبي. إلى الدائرة التي يعمل بها السيد نهاد. ترفع وأصبح مديراً. ومع ذلك لم يرجع لنا مالنا. غضب والدي كثيراً. الاثنان يقولان. لا نملك مالاً. أبي والسيد نهاد. بعد ذلك يشكو أبي السيد نهاد للمحكمة. يربح الدعوى. السيد نهاد مديون لأبي بموجب السند بثمانية وأربعين ليرة ذهبية. ولكن المحكمة لم تحكم سوى بدفع ثمانية وأربعين ليرة ورقية. لم يستطيع والدي فهم هذا القرار. فيقول:

ـ ولكني أعطيته ثمانية وأربعين قطعة ذهبية. فيجيبون:

ـ أنت أعطيت الذهب خلال حكم الإدارة القديمة. زمن السلطنة. نحن الآن في عصر الجمهورية. الليرات الذهبية تحولت إلى ليرات نقدية

ورقية. بدل الذهب الذي أخذه منك سيعطيك ثمانية وأربعين ليرة ورقية.

ـ ولكن بهذا المبلغ لا أستطيع شراء أربع قطع من الذهب الآن. أعطيته ذهباً وهذا هو السند. وهكذا مسجل فيه.

ـ لقد تغير النظام. قديماً كانت هنالك ليرة ذهبية. أما اليوم فلا يوجد. لأن الأوراق النقدية حلت مكان الليرات الذهبية. لقد حدث انقلاب ونحن اليوم في عهد الجمهورية.

لم يدرك أبي هذا التغيير الحاصل أبداً. لأنه لا يريد إلا أن يكون عدواً لدوداً للجمهورية ولمصطفى كمال. وفي كل مرة يذكر أفندينا السلطان عبد الحميد سيدعو من أجله قائلاً: ليهنأ في أحضان الأنوار الإلهية. ليكن مثواه الجنة. غضب أبي كثيراً من الظلم الذي أُلحق به. لم يأخذ المبلغ الورقي من السيد نهاد. ولكن غضبه الأشد كان منصباً على نفسه. لماذا قدّم صديقه للمحكمة. بعد مرور كل هذه السنين. وفقد صديقاً عزيزاً. فالسيد نهاد كان طيباً مع أبي. في كل لقاء بينهما. كان دائماً يعتذر من أبي ويرجوه. وأنه لا يعيد دينه لأنه لا يملك المال.

أما أبي فكان يعتقد أن السيد نهاد كان مسرفاً ولذلك لم يستطع توفير المال. فإن كان لا يملك المال. لماذا يتسمم بالعرق كل مساء؟.

تمر الأعوام تباعاً. وتخرج ابن السيد نهاد من إحدى الكليات الحربية. وانتحر بسبب حب لا نتيجة منه. وعندما سمع أبي بهذا الخبر المفجع حزن كثيراً وقال: هيواه. لا يقول أي واه. بل كان يقول: هيوااه.

ـ هيوااه. ابني كهرمان. واه يا ضنايا.

تلا أبي القرآن على روح كهرمان. الذي ترعرع بين يديه. وبعد فترة بلغه نبأ وفاة صديقه السيد نهاد. وأصيب بتأنيب الضمير لأنه شكا صديقه للمحكمة من أجل ثمانية وأربعين ليرة. وشعر بألم كبير في أعماقه.

ـ ليتني ما شكوته للمحكمة. هيواه. راح نهاد. سنوات طويلة من الصداقة والحقوق. لماذا أحلته للقضاء؟. كيف فعلت هذا؟. لو كان يملك المال لوفى ديونه بكل تأكيد. ولكنه كان يشرب العرق.

ليشرب السم الهاري. واه يا سيد نهاد هيوااه. ليغفر الله جميع ذنوبك.

أنا سآخذ هذه الفتاة

ألا تتذكرون محمد أفندي الكومجي من «كماه». صاحب دكان الفحم في «يني شهر» هذه المنطقة تقع بين «باي اوغلو وقاسم باشا». كان يحترم أبي كثيراً. يلبس لباساً كحلياً على الدوام. أما يوم الجمعة «يوم العطلة». فيلبس أجمل حلّة تزين أصابعه خواتم ذهبية. إذا رآه أحد. لا يمكن أن يقول عنه كومجياً أو «فحامّاً». مظهره الخارجي يوحي بأنه تاجر غني. وكان يكسب أموالاً لا بأس بها. يرسل إلينا فحم الحطب على عربته. دون أن يأخذ ثمنه. وعندما كان والدي يحاول إعطاءه المال. يقول:

ـ آمان. أيها الشيخ الأفندي. رجاءً. أي مال تريده أن تعطيه في دعاؤك لي يكفيني. كانت هذه الكلمات. تسر أبي كثيراً. وتشرح صدره.

عمل محمد أفندي الكومجي ممتاز. وربحه لا بأس به. ولكن ماذا جرى له حتى احتاج إلى بعض المال. هل يقرضه أبي بعض النقود يا ترى؟.

طبعاً سيعطيه. ولماذا لا يعطيه؟. قال: إن محمد أفندي مضطر إلى دفع مبلغ من المال لصاحب مستودع الحطب. قبل بدء موسم الشتاء. كي يشتري منه الحطب بسعر الجملة. هاي. هاي يا محمد أفندي.

أما أبي فيأبى أن يظهر أمام الآخرين أنه لا يملك شيئاً من النقود.

بالرغم من أنه مفلس لا يملك ما نشتري به لنسد رمقنا. وهكذا أخذ عقد أمي «الخمسة معاً» إلى الصراف. ودفع ثمنه قرضاً لمحمد أفندي (لم يكن ذلك العقد المسمى «الخمسة معاً» زينة نساء الريف فقط. بل ونساء المدينة أيضاً. نساء مدنيات كثيرات. يتدلى من أعناقهن الخمسة معاً). مسكينة أمي لم تضع ذلك العقد على عنقها أبداً. خبأته في صندوقها.

ولم تتزين مطلقاً، لا بالحلق ولا بالخاتم ولا بالإسوارة. ولا بأية حلية أخرى. لقد أعطاها أبي ذلك العقد عندما رأى وجهها لأول مرة قبل زواجهما. وكما هو معروف. هذه القطع الذهبية التي تتزين بها النساء. تشبه الكنز الذي يطمره القروي تحت التراب. إنه ضمان فردي محقق عند انعدام وجود ضمان اجتماعي متكامل. كانت النسوة يخبئن الذهب لضمان إنقاذ العائلة من ضائقة كبيرة. أعرف نساء كثيرات قضين نحبهنَّ ولم يتصرفن بذهبهن. انتظاراً ليوم أسود قادم. أو مرض مفاجئ، وخوفاً من مستقبل مجهول. لم تشأ أمي إعطاء عقدها لمحمد أفندي الكومجي. لكن أبي قال لها:

ـ نشتري مثله ثانية.

لم تشأ أمي إعطاء العقد. لأن الذي ستشتريه مستقبلاً. لن يكون كهذا الذي في يدها. ومؤخراً. فهمت ما كانت تقصده. إنه ذكرى رائعة من يوم زواجها. لا يقاس بمال الدنيا كلها. تعتبره بمثابة ذكرى سعادتها. التي لم تدم سوى يومين أو ثلاثة فقط. كانت أمي امرأة حساسة شفافة. هذا العقد زين جيدها وهي في الثالثة عشر من عمرها. كعروس والرابعة عشرة كأم.

فتاة. لم تعرف اللعب ولا العرائس ولا الدمى. هذا العقد بالنسبة لها كان أداة لعب وهي في الثالثة عشرة من عمرها. وحباته الذهبية ومخمَّساته الصفراء. تعتبر أملاً لسعادتها المستقبلية. ولكن دموع الحزن

انهمرت. وجرفت معها تلك الآمال التي كانت تبنيها. ومحت سطور الضمان والأمان التي عوّلت عليها. طبعاً حصل ما أراده أبي. ما معنى الأب: الرجل الذي تنفذ أوامره دون تردد أو تذمر.

اقترح محمد أفندي إعطاء فائدة عن دينه. شو هالفائدة ولك روحي.

هل يعقل هذا الكلام؟. غير ممكن. إذن لنكتب سنداً. أبي الذي يعرف ماهية السندات وعدم أهميتها: لم يأخذ منه حتى السند. ولكن الدنيا فيها موت. وحياة. لا يا روحي لا نريد سند. هل يعقل أن يكون بيننا سند. من أين اخترعت هذه الأشياء؟. مرت الأيام والسنون. واشترى أبي لأمي عقداً الخمسة معاً.

بعد أن وقعت فريسة للسل. لكن هذا العقد ليس كالذي أعطاه للفحام. عقود الدنيا كلها. ما كانت تساوي ذلك العقد الذي أعطاها معه فرحة الثالثة عشرة من عمرها وسعادتها وآمالها.

من وقت إلى آخر. كان أبي يأخذني من يدي ونذهب إلى دكان محمد أفندي الكومرجي في «يني شهير». كان المحل واقعاً وسط طريق صاعدة قاسية. الفحم مكدس تكديساً رائعاً أمام الدكان. ومن الجانب الآخر رُتِّب الحطب بشكل نظامي أيضاً. وعندما يأتي أحدهم لشراء الفحم. كان الصانع. يحمل الرفش ويملأ الكيس من كومة الفحم الموجودة داخل الدكان... هذا العمل يحتاج مهارة خاصة. لأن الفحم المسحوق غير الجيد. سيكون في الأسفل. ويضع فوقه بعض عيدان الفحم الجيد أما إذا جاءه مشترٍ دائم. يضع الفحم في الغربال. يفرز الناعم عن الفحم. ويعطيه فحماً جيداً.

سمعته مرة يقول لأبي: هل تعلم بأن بائعي الفحم واللحم يربحون أموالاً طائلة. ولكنهم لا يفلحون أبداً. هذه الكلمات التي قالها لأبي. لم أستطع نسيانها طوال حياتي. وبدأ محمد أفندي يشرح سبب ذلك.

لأنهم كانوا سبب آهة الفقراء والمحتاجين. يربحون بالحرام من الفقراء الذين يلسع الصقيع أجسادهم في الشتاء ولا يشترون الفحم إلا بعد ألف آهة وألف ويل.

ومع الأيام سمعت الكثيرين يقولون مال الحرام لا يثمر... ولكنني رأيت أن أكثر الأغنياء مالاً هم الذين أكلوا حقوق الآخرين. في تلك الأيام لم يكن سوى متجر أو اثنان لبائعي الفحم في كل حي من أحياء استانبول. كمحلات البقالة في هذه الأيام. كان تجار الفحم يربحون أموالاً طائلة. يرفعون سعر الحطب والفحم في الشتاء. ويبيعونه مشبعاً بالماء. كنا نجلس أمام الدكان على كراسي صغيرة من القش. ونشرب الشاي.

وذات يوم وفيما كنا جالسين. كانت فتاة يونانية جميلة. تسلك الطريق الصاعدة شعرها الطويل. يصل حتى أسفل ظهرها. تبدو يونانية من شكلها. من ثيابها وقيافتها. وخاصة أن بنات الأتراك وفي هذه السن لا يمكن أن يخرجن هكذا بل عليهن أن يغطين رؤوسهن على أكمل وجه. ويلبسن الغطاء ويضعن الحجاب منذ بلوغهن الحادية عشرة من عمرهن.

بينما كان طرفي محدقاً بالفتاة اليونانية. طولها وقامتها وشعرها. كأن أبي ومحمد أفندي ورجل آخر يتحدثون فيما بينهم. قلت لهم:

ـ سأتزوج واحدة تشبه هذه الفتاة. في بداية الأمر احتاروا فيما قلته. ثم ضحكوا وقال أبي:

ـ حسن يا بني لماذا تريد الزواج من واحدة مثل هذه؟.

فقلت: لأن شعرها طويل وجميل. سأتزوج فتاة لها مثل هذا الشعر. فيضحكون.

ظل أبي يقص هذه الحادثة زماناً طويلاً ويضحك. محمد أفندي الكومجي سدد دينه. محمد أفندي رجل طيب.

شوال مملوء بالأحذية النسائية

يقال إن زوجة محمد أفندي الكومرجي الموجودة في القرية ماتت منذ زمن طويل. وأن له ابنة. سيحضرها إلى استانبول. وسيتزوج. شغله على ما يرام. يربح أموالاً طائلة ولماذا لا يتزوج؟. سيتزوج من امرأة استانبولية جميلة. يسكن في الطابق الأخير من عمارة تطل على طلعة «فندقلي».

منزله كبير وواسع. أثاثه جميل وفرشه ثمين وغرفة نومه مريحة مكتمل العدة والعتاد. نحن لا نملك مثل هذا الأثاث في منزلنا. ولكني أشعر بأنني أتذكر ذلك السرير الجميل الرمادي. في منزلنا الذي هربنا منه عندما أتى عليه الحريق. أتذكر ذلك كالحلم إلى جانب بعض الأثاث الجميل. كالكراسي والكنبات وغيرها.

يأتي محمد أفندي بابنته المسماة «نابية» إلى استانبول. وتتولى أمي العناية بلباسها ومظهرها الخارجي. حتى يليق باستانبول. وتليق بزوجة أبيها. فتاة فضولية. شعرها يغطي جبهتها وفوق حاجبيها حيث لا يوجد فراغ بينهما. ثقبت أمي أذنيها ووضعت خيطاً فيهما حتى عندما يتعافى الجرح تضع لها قرطين ذهبيين.

تعرَّفت أمي على امرأة لمحمد أفندي كي يتزوجها. امرأة جميلة. قداً وشكلاً إلا أنها متزمتة بعض الشيء. اتفقا على الزواج. اشترى لها محمد أفندي ثياباً وبعض الحاجيات. فيما كانت المرأة عندنا في البيت. دخل رجل حاملاً كيساً كبيراً مملوءاً بالأحذية النسائية أرسله محمد أفندي.

وأرسل معه خبراً مفاده: أن تنتقي منها امرأته ما تشاء. من جميع أنواع الأحذية النسائية. عالية الكعبين ومدببة الأطراف. ذات زر وبدون أزرار. مربوطة من الطرفين. خفيفة وثقيلة. عالية وقصيرة من جميع الأنواع والأشكال والألوان. ولكنها كلها «ستوك». من طراز قديم.

أين وجد كل هذه البضاعة ومن أين جمعها؟.

تغير شكل المرأة عندما رأت هذه الأحذية القديمة. صحيح أنها متزمتة لكنها مغناج ومدللة. وستتزوج من رجل قليل الذوق؟. كادت أن ترفض هذا الزواج لولا تدخل أمي حيث قالت لها:

ـ محمد أفندي ليس رجلاً قليل الذوق. ربما أرسلها لك كي يجربك أو يمتحنك. ليرى هل سيعجبك ما أعجبه؟. طباع الرجال غير طباعنا. إذا اشتروا شيئاً يجب أن تعجب به زوجاتهم أيضاً. وهو لم يشتر هذه الأحذية لأنه أحبها أو أعجبته ولذا يجب أن تبقي طبيعية. وكأنك لم تغضبي وأن الأمر بالنسبة لك عادي جداً.

مضت أيام وحللنا عليهم ضيوفاً. لننام عندهم. تناولنا الطعام وجلسنا على الكراسي حول المائدة. هذه العادة غير موجودة عندنا في المنزل.

أمضينا ليلتنا وفي الصباح علمت بما حصل في الليل عندهم.

يقولون: إنني استيقظت في الليل. أريد التبول. وصرت أذهب من هنا إلى هناك أبحث عن المرحاض. فلا أجده. أفتح باب غرفة نومهما. وأدخل. يستيقظ محمد أفندي من نومه ويسألني:

ـ ماذا هناك يا نصرت؟.

طبعاً أنا قلت له: أريد التبول.

ثم أخرج من الغرفة وادخل الصالون لم يرشدني أحد إلى المرحاض. وأبول فوق السجادة الزهرية وأنام في مكاني ثانية. كنت في السادسة أو السابعة من عمري آنذاك.

الأموال. ستذهب. راحت

مرة أخرى يطلب محمد أفندي الكومرجي قرضاً من والدي. في هذه المرة طلب مبلغاً كبير.

تجارة محمد على ما يرام. فتح متجراً ثانياً للفحم على طريق

«بوغازكسن» (قاطع الرقبة) لم يرجع الأموال إلى أبي بأي شكل من الأشكال. وصار يتهرب. اليوم. غداً. بعد غد. فجأة توقفت تجارة محمد أفندي. اعلق متجره الأول في «يني شهير» (المدينة الجديدة) وافترق عن زوجته. لم يتعايشا. وباع أثاث منزله. وقسّم متجره الجديد إلى قسمين استقر هو وابنته نابية في أحد القسمين.

أموالي يا محمد أفندي. ديوني. اليوم. وغداً.

محمد أفندي وابنته يتناولان طعام الغداء في مطعم من الدرجة الثالثة. لقد عرف أبي وأمي سبب إفلاس محمد أفندي. ولماذا لم يستطع أن يركز نفسه اقتصادياً بعض الشيء. هاه. تمام. من يأكل في المطاعم هذه نتيجته. لا يستطيع توفير المال؟. كما أن البركة مفقودة في طعام المطعم.

الإنسان يجب أن يعرف كيف يتدبر أموره. اطبخوا الأكل في بيتكم. تكفيكم ثلاثة أيام. على الإنسان أن يأكل من نوع واحد. المطاعم تفلس الإنسان. حتى المليونير لا يتحمل مصاريفها. عرف والديّ سبب خراب بيت محمد أفندي. وأشارا عليه بما هو خير له.

أين مالي يا محمد أفندي؟. ديني دين يا سيدي الشيخ. اليوم أو غداً سيدي الشيخ. يمرض محمد أفندي فجأة. يلزم الفراش. ينام في تلك الغرفة الصغيرة في دكان الفحم. مرة أخرى يعطيه أبي مالاً. يحسن إليه عندما يذهب لزيارته. يعطيه مبلغاً صغيراً. الدفع هذه المرة ليس ديناً. بل هبة. محمد أفندي في المشفى. محمد أفندي يموت. ذهب المال؟. حلال عليه. كان رجلاً طيباً. معرفتنا قديمة.

تبقى ابنته بعض الوقت في الدكان. تبيع الفحم. يمر عليها أبي. بين وقت وآخر ويعطيها مبالغ صغيرة. على الإنسان أن يعرف كيف يتدبر أمره. إذا أحسنت إدارة أمورك. يكبر رأسمالك. لا أدري ماذا حصل

لنابية. ألتفتُ إلى الدكان كلما صعدت أو نزلت من طريق /بوغاز كسن/. وأخيراً فوجئت بأنه لم يعد هنالك دكان للفحم.

بتعرف على أمك

قرب دكان محمد أفندي الكومجي. وسط ساحة البازار قبر لقديس مشهور. تظلله أغصان شجرة كبيرة. تضاء شموع النذور فوقه ليلاً.

ولسبب ما يحاول أحدهم قطع الشجرة. اترك الآن والدي يروي لكم هذه الحكاية.

جاء الرجل ليقطع الشجرة. قلت له: لا تقطعها ولك ابني. قال: وإن قطعتها ماذا سيكون؟. عندما تقطعها تعرف ماذا سيحل بك. أقول لك لا تقطعها. أولياء الله يغضبون منك. وتوقع نفسك في مصيبة. أنت في غنى عنها. أنا لا أعتقد بهذه الخزعبلات. إنهم سفسطائيون ليس إلا.

- هل قلت: سفسطائيون؟. أليس كذلك سترى عندما يكون السيف قد سبق العزل. أقول لك لا تقطع شجرة السيد القديس.

يقال أن الرجل يعمل حلوانياً. قال لأبي: اذهب من هنا أيها المتعصب قال له أبي: إذن هكذا. طيب.. ثلاث ليال متتالية يتراءى فيها القديس للرجل في منامه. يقول له في كل مرة: لا تقطع شجرتي يا بني مازحاً. ساخراً. وفي أحد الأيام حمل البلطة وتسلّق الشجرة. ليقطع الأغصان أولاً. ثم الجذع وما أن رفع البلطة نحو الأعلى. حتى وجد نفسه ملقياً على الأرض. وينقلونه إلى المشفى. رجل آخر يحاول قطع الشجرة. يأتيه القديس في المنام ويقول له أيضاً: لا تقطع شجرتي وإلا أتعرف على أمك.

هذه الحكاية يقصها أبي ويقول:

- كيف سيقطعون الشجرة؟. ليحاولوا كي نرى. أولياء الله سيتعرفون على أمهاتهم.

الطلب الأخير لأبي

حفظ الأوراق المطبوعة والمكتوبة وتصنيفها عادة تعودتها منذ طفولتي. وكم من ورقة صغيرة لا نعطيها أهمية في الوقت الحاضر. نراها فيما بعد وثيقة تحمل في مضمونها كثيراً من المعلومات ذات الأهمية البالغة. عملية مسك الملفات هذه وتصنيفها وتصفيفها عادت عليّ بالمزيد من المنفعة.

ولكن ما العمل. لم أستطع أن أحيا حياة نظامية ولم أستفد شيئاً من مسك الملفات أو بناء المكتبات. بسبب الأحوال السياسية القاهرة. حيث مداهمات الشرطة إلى بيتي لم تنقطع. وكل ما بنيته ونظمته ذهب في مهب الريح. كلها ضاعت. وتوزعت حاولت إعادة بناء كل ماخربوه وبعناد. ولم يبق معي سوى بعض المعلومات التي استخدمتها في كتابة قصة حياتي وهي على شكل وثائق.

الآن أمامي وثيقة تظهر وتثبت. أن أبي بلغ الأربعين من عمره عندما كنا نسكن في جرّاح باشا. كان الجميع يتحدثون في تلك الأيام عن آخر دعوة لأبي من شعبة التجنيد العسكرية. وضرورة مراجعته الشعبة لإثبات تجاوزه الأربعين من عمره. وبذلك ينهي مطالبته بإثبات وجوده وإيقاف دعوته. إلى الخدمة الاحتياطية إذا دعت الضرورة. هذه الأحاديث استمرت في بيتنا أياماً طوالاً.

عندما بلغ أبي الأربعين من عمره. كنت في السابعة من عمري. وبما أن والدي كان يطلق لحيته. كان مظهره الخارجي. يوحي بأنه أكبر من عمره الحقيقي. ويبدو سعيداً بهذا الشيء. يحب أن يراه الناس رجلاً وقوراً ويحظى بالاحترام والتقدير من معارفه. الذين يحسبونه في الخمسين. وكانت أمي آنذاك في العشرين من عمرها.

وكثيراً ما كانوا يسألونه أهي ابنتك؟. أما أمي فكانت تغضب عندما

يسألونها عن زوجها أي عن أبي قائلين: هل هذا والدك؟.. ولهذا كانت تطلب من أبي أن يحلق ذقنه. قال أبي بعد أن أصبحت أباً لولدين. وهو الذي يحب أن يظهر نفسه كبيراً: كنت أقول: لو جاءني ولد. لن أراه في كبره. ها قد وُلدتَ أنتَ وأنا في الثانية والثلاثين من عمري. ولم يكن لدي أمل في أن أراك شاباً. الآن. رأيت حتى أحفادي.

أفندينا حضرة إبش

عندما تخرج من جراح باشا وتسير باتجاه «حكيم أوغلو» و«علي باشا». تجد على يمين الطريق دكان حلاّج. الخالة فاطمة. زوجة الحلاّج. تزورنا بين حين وآخر. جاءت هذه المرأة. في إحدى ليالي الصيف. وربما في إحدى ليالي رمضان وأخذتني إلى أحد المسارح المتجولة التي كانت تعرض داخل خيم أو شوادر عادية. لا أدري هل كان المسرح قريباً من منزلنا. أم في مكان بعيد، ولكنني وجدت نفسي داخل خيمة بين جمع غفير من المشاهدين. يطلقون القهقهات العالية المدوية.

وكانت هذه أول مسرحية أشاهدها. أحد مشاهدها ما يزال ماثلاً أمام ناظري. أستطيع استرجاع مشاهد المسرحية متى أريد. وما أن اغمض عيني. حتى أراها وكأنني في الثامنة من عمري.

أرى المشاهدين داخل الخيمة يضحكون. وتتحول ضحكاتهم إلى قهقهات عالية. وأتذكر عندما بدأ عرض ذلك المشهد كيف سقط بعض المشاهدين على الأرض من كثرة الضحك. كانوا يتدحرجون. هنا وهناك. وبعضهم. تسيل الدموع من عيونهم. وبعض النسوة يصرخن آي والله سيغمى عليّ. تلك المشاهد لا تحكى كي لا تفقد كثيراً من سحرها وجمالها. ومع هذا يجب أن أرويها لكم.

عائلة غنية كبيرة. في المنزل أب مسن. وخادم مشهور في مسرحنا كثيراً. يسمى «إبش». عندما يلبس الأب أو يضع على ظهره فروة قديمة.

يتحول إلى شخص قاس. عنيد. جبار. كلمته لا تتكرر. يهدد العائلة بأكملها يقرأ على أرواحهم. يجعلهم يتصرفون تصرفات لا مبالية. عشوائية لا طعم لها ولا رائحة. عندما يضع الأب الفروة على ظهره. تعمى قلوب العائلة.

يرتجفون هلعاً. لا يعرفون ماذا يصنعون. وكأن الأب قد تحول إلى معبود عندهم. حتى الكلمات التي لا معنى لها يتلقونها كأوامر منه. لا يستطيعون رفع رؤوسهم. للنظر إلى وجهه. ويظنون أنهم ينظرون إلى عينيه. تضربه الشياطين والجن. أما هو. فيعطيهم أوامر لا معنى لها ويجعلهم يقومون بأعمال بدائية كما هي الحال لدى القبائل البدائية الأولى.

عندما ينزع الأب الفروة عن ظهره. يتغير فجأة. ويتحول إلى شخصية ضعيفة. هادئة. عكس الشخصية الأولى.

لسبب ما. يستطيع الخادم «إبش» أن يضع الفروة على ظهره.

هذه المرة. تبدأ العائلة الخوف من إبش وإطاعة أوامره. عندما يفهم إبش. أن قوة الشخصية سببها الفروة. يبدأ بإذلالهم وسحقهم كما يريد. يعطيهم أوامر لا تطبق. يجعلهم يتصرفون بكل ما هو بدائي لا معنى له. يفرض سيطرته على الأب الديكتاتور. القوي. فيجعله يندم على اليوم الذي جاء فيه إلى الحياة. يجعله يدب على أربع ويسير مثل الحصان. فيركب على ظهره. أفكر الآن ملياً. وأفهم عن يقين أن تلك المسرحية. كانت تصور لنا شكلاً من أشكال الديكتاتورية. بعد خمس أو ست سنوات من مشاهداتي هذه المسرحية قلت أنني سأكتب مسرحية تشبهها. عندما أصبح في الصف السادس.

بعد عدة سنوات. في (٢٤) أيار من عام (١٩٧١). عندما كنت في سجن «مالتبة» العسكري. لسبب لا أذكره. ممنوعاً من التحدث مع أحد

وحيداً في الزنزانة. أغمض عيوني. أرى نفسي أسير مع الخالة فاطمة زوجة الحلاج. ندخل المسرح المتجول. أشاهده ما جرى. كما قيل قبل خمسين عاماً. ذلك المشهد. المتكرر. الخادم إبش يلبس الفروة ويتحول إلى مصنع للقوة والجبروت يتصرف بالعائلة كيفما يريد. كنت أسترجع ذلك في ذاكرتي أقول في نفسي: أستطيع أن أكتب مسرحية حول هذا الموضوع.

وبالفعل فقد كتبت مسرحيتي المسماة أفندينا حضرة إبش. ولكن الموضوع لم ينته هنا. فقد احتلت المسرحية موقعاً هاماً في حياتي المسرحية. إذا ما تيسر لي الوقت المناسب. سأكتب في هذا المجال حتماً.

أمي أيضاً تقرض المال

كانت أمي تغضب من أبي وتنتقده لأنه يقرض المال إلى كل من يطلب منه. ثم لا يستطيع استعادة الأموال التي يعطيها. ويقع فريسة تحت براثن الضائقة المالية. ثم يعيد الكرة ثانية. ويعطي. ويعطي. مصاريف المنزل كانت دائماً مع أمي. تحتفظ بها في مكان أمين. يأخذ منها مبلغاً صغيراً يكفي نفقاته الشخصية. الأموال فعلاً كانت مع أمي. ولكن أبي كان على علم بكل قرش يدخل أو يخرج من المبلغ الأصلي.

كانت الخالة فاطمة قد افترقت عن زوجها الحلاّج. ووقعت في ضائقة شديدة. صارت تبكي وهي تقص لأمي ما جرى لها مع زوجها وكيف أصبحت على هذه الحال. يا ترى هل تستطيع أمي إقراضها مبلغ خمس ليرات؟. فالخالة تبحث عن عمل. وعندما تجده. ستعمل جاهدة كي تعيد ما اقترضته من أمي لدى أول مرتب تستلمه.

كانت عاجزة عن دفع بدل إيجار المنزل. وصاحب البيت سيطردها شر طردة.

احتارت أمي فيما ستفعله. وهي ترى دموع الخالة فاطمة تسيل على

خديها تمنت لو أعطتها خمس ليرات. لكن أبي يعرف بكل قرش يزيد أو ينقص من المبلغ الأصلي. وماذا سيكون موقفها لو حاول أبي عدّ المبلغ قبل استرجاعه من الخالة فاطمة؟. أمي التي تغضب من أبي وتنتقده لأنه يقرض الناس. لم تستطع تحمل دموع الخالة فاطمة فأعطتها خمس ليرات.

عملت الخالة فاطمة فترة من الزمن طاهية في إحدى البيوتات في حي «قاضي كوي».

كانت تبات ليلتها في البيت الذي تعمل فيه. ولا تعود إلى منزلها في جرّاح باشا. مرّ شهران أو ثلاثة وهي على هذه الحالة. الخالة فاطمة لم ترجع المبلغ الذي اقترضته من أمي. وكانت أمي تغوص في بحار الخوف والانفعال ماذا لو حاول أبي عدّ المبلغ الذي كانت تحتفظ به. لقد كان يعطيها عشرين أو ثلاثين ليرة «من عمله تلك الأيام». بعد أن يعدها في يدها كي تحتفظ بها في صندوقها.

في إحدى الأمسيات. حصل ما كانت أمي تخشاه. عندما قال لها أبي:

ـ خذي هذا المبلغ يا هانم. فوراً تحولت حمرة وجه أمي. فامتقع واستحال إلى بياض كلسي.

أنا الوحيد من عرف سبب خوفها. لأن أبي سيقول لها كما في كل مرة.

ـ هاتي ما معك يا امرأة لنر كم بلغ رصيدنا.

لا. لا. أبي لم يقل شيئاً. وضعت أمي الطعام فوراً. في اليوم التالي بحثت عن عنوان المنزل الذي تعمل فيه الخالة فاطمة. إلا أن الذهاب إلى هناك وحيدة محرم عليها. خوفاً من أبي. وذهابها معي. أيضاً غير ممكن. لأن المنزل لم يكن منزلاً خاصاً للخالة فاطمة. لم تشأ الذهاب إلى ذلك

البيت. لأنه بيت غريب. ثم أنها لا تقوم بأي عمل سراً عن أبي. كخروجها إلى السوق دون إذن مسبق منه. ولأي سبب كان. وهكذا لم تجد سواي من يقوم بهذه المهمة بدلاً عنها. أخذت العنوان وخرجت.

كان البيت مكوناً من ثلاثة طوابق. بيت خشبي. يقع على الطريق النازلة المسماة «بقلة تارلسي» (حقل البقيلة) في «قاضي كوي». إلى يسار الطريق. لقد بقي هذا البيت صامداً. حتى وقت قريب من أيامنا. ثم هدم وأقيمت مكانه عمارة كبيرة. لأول مرة في حياتي أذهب إلى «قاضي كوي».

وخاصة وحدي. لا أتذكر كيف وصلت إلى ذلك البيت. ولكني أتذكره بكل تفصيلاته.

طرقت الباب فخرجت امرأة. نظرت في وجهي باستهزاء وقالت ماذا تريد؟.

ـ أريد التحدث مع الخالة فاطمة.

أدخلتني إلى البيت. أتذكر أنني جلست على كرسي من الخيزران. جاءت الخالة فاطمة وهي تمسح يديها بمريولها. كانت حزينة. تعمل بثلاث ليرات شهرياً. راحت لتطلب المال من سيدة المنزل فلم تعطها. قالت إنها ستأخذ أجرتها الشهرية بعد ثلاثة أو أربعة أيام. وعندها ستخرج من هذا المنزل مستأذنة وستدفع المال لأمي. بعد عدة أيام. جاءت الخالة فاطمة. دفعت قسماً من دينها. وسددت الباقي بعد ذلك.

لحم الخنزير

مرة أخرى عربة يجرها حصان واحد. «تنفر منفر» تتحرك العربة من بيتنا في جراح باشا وتسير أمامنا. تنعز. منعز. وأنا أسير خلفها أراقب الأمتعة التي تحملها. أراقب كل حركة من حركات العربة والأثاث. كي لا يسقط شيء عنها وينكسر. هذه هي الخزانة الخشبية ذات الشريط

المعدني الممزّق والصدئ. مربوطة في أعلى العربة. وبوري المنقل. مربوط من أحد أطرافه يتدلى على جانب العربة. لو وضع وسط الأغراض لسحق تماماً. أسمع صوت الطست المعدني يجعجع بين حين وآخر.

نمر أمام مشفى حسكي النسائي وها أنا أترك ذكرياتي هنا وأغادر هذه المنطقة. هنالك شارع في هذه المنطقة. الشارع الذي أحببته كثيراً خلافاً لشوارع استانبول كلها. بيوت خشبية اصطفت على جانبي الشارع. كلها ذات ثلاثة طوابق.

مطروشة. مدهونة بشكل جيد. بدت لي جميلة!.!. عندما أكبر سأقطن في منزل مثلها. من يدري. كيف هي من الداخل. على جانبي الشارع وبين الدور. أشجار كثيفة. كنت عندما أبقى دون عمل. أسير وسط هذا الشارع الجميل لأمتع نظري. وأشرح صدري. أمر وقت الهاجرة عندما تشتد الحرارة. ذاك الشارع يشبه إلى حدٍّ بعيد اللوحات الزيتية للفنان «مونتي». تداخلت الأنوار والألوان مع بعضها. أضاعت الأشكال حدودها ضمن اهتزازات لا مبالية. أوراق الأشجار تلمع لمعاناً رائعاً. ومضيت تاركاً خلفي أحب الشوارع إلى قلبي في استانبول كلها.

العربة تسير تنغز منغز. نجتاز سوق آق سراي. منزلنا الجديد يقع بين «العلالي ويني كابي». في الطابق الرابع أو الخامس من إحدى البنايات. لكنه ضيق وصغير. خارجه بدون طلاء. الأحجار الصغيرة تظهر هنا وهناك.

وصوت جرس الكنيسة التي تبعد عنا مسافة قصيرة نسمعه كلّ صباح ومساء. وقريباً من الكنيسة نبع ماء. سأنقل منه الماء إلى المنزل لأنه لا يوجد ماء في المنزل. الدرج قاس جداً والمنزل ضيق جداً وعلينا أن ننقل أغراضنا. فوقنا طابق آخر، تسكنه عائلة يونانية. وعندما أذكر كلمة يوناني. أرى نفسي غريباً. عجيباً. السلوك الأجنبي أثر فينا كثيراً.

الطابق كله لنا. ولكنه عبارة عن غرفة واحدة. وشرفة صغيرة ومطبخ صغير ومرحاض إلى جانبه. عندما تنظر إليه من الخارج. تشعر كأننا نسكن بيتاً حقيقياً. أو بيتاً يشبه البيت الحقيقي. هكذا قلت في نفسي. وأحسست بفرح عظيم لأننا سنسمع أصوات الأجراس ولأن أسرة يونانية تجاورنا. لم نتحدث معهم أبداً.

كانوا يطبخون طعاماً في الطابق الأعلى. وربما كانوا يقلون البصل في الطنجرة. حتى انتشرت رائحة الطعام نحو الأسفل. سأروي دون مقدمات:

- إنهم يطبخون لحم الخنزير.

ما هو الخنزير؟. حتى ذلك الوقت لم اعرف ما هو الخنزير ولا كيف شكله لأنني لم أره. لم آكل لحم الخنزير أبداً. ولم أر أحداً يأكله أمامي. ولا أعلم لماذا رائحة البصل المقلي ولدت لديّ شعوراً داخلياً انهم يطبخون لحم الخنزير. أحسست بالاشمئزاز. حيث بقيت يومين متتاليين لا آكل حتى من الطعام الذي تطبخه أمي. وكلما جلست إلى المائدة. كانت تلك الرائحة. رائحة البصل المقلي. الذي ظننته رائحة قلي لحم الخنزير. تشعرني بالغثيان فأترك المائدة واخرج. فقالت أمي.

- هل أنت مجنون يا بني. من أين جاء لحم الخنزير إلى منزلنا. لقد طبخت الطعام بيدي. لا أستطيع يا أمي. لا أقدر. إنه خارج عن إرادتي آكل الزيتون والبندورة وأشبع بطني. أمي تغضب وتصرخ في وجهي. هل شممت رائحة لحم الخنزير سابقاً حتى تعرفها الآن. المرأة لم تكن تطبخه بل كانت تقلي البصل.

حتى الآن. لا أستطيع أن آكل لحم الخنزير أبداً. لحم البقر المعلب الذي أعرف انه خال من لحم الخنزير. أسمح لأولادي بذلك. أما لي أنا فلا. بعض العادات التي نعتادها عبارة عن هراء وعبث في عبث. من

يدري كم مرة سمعت من أبي أشياء مقرفة عن هذا الحيوان الذي كان يسميه «بالخنزير» (أي كان يذكره بالعربية بالتركية يسمونه دوموز) وأصبحت اشعر بالاشمئزاز حتى من ذكر اسمه.

صانع القهواتي

العمل الثاني الذي مارسته بعد عملي هو تعليم اللغة العربية لإمام أحد المساجد في قاسم باشا. وهو صانع في أحد المقاهي. ومع الأسف الشديد. لم أقبض شيئاً من المال مقابل هذا العمل. كان القهواتي من معارف أبي. ولا أدري أين التقيا وكيف تعارفا. والحقيقة لم أكن أرى فيه صديقاً من مستوى أبي.

هنالك خان كبير وعريض يقع بين كراج الترامواي وسوق بازار أق سراي. يتكون من طابقين. داخله وخارجه غير مطليين بالطين. كان عبارة عن كومة من الأحجار صفت فوق بعضها. بواب الخان. يعمل قهواتياً في الطابق الأرضي. ويفترض أن يكون قد جاء حديثاً من قريته. ويسكن مع عائلته المكونة من زوجة وولد صغير في إحدى غرف الخان. ويبدو أن أبي قد احب هذا الرجل. أو أن الرجل استطاع أن يحبب نفسه لأبي. حيث أقرضه مبلغاً من المال. ولعدم ثقته بالرجل حرَّر عليه سنداً.

لا أدري ما الدافع حتى بدأت أعمل صانعاً لهذا القهواتي بعد كثرة ترددي على المقهى. انحصر عملي في نقل القهوة والشاي إلى الحرفيين الموجودين في البازار وفي غرف الخان وأعتقد إنني بدأت هذا العمل طوعياً. وأعجبني كثيراً. ربما لعدم وجود حاكم فوق رأسي أو لشعوري بأنني أستطيع أن أكون نافعاً وناجحاً في هذه المهنة.كنت أتناول طعام الغداء مع الرجل في المقهى. طعامنا دائماً مكون. من الخبز والبندورة والعنب والجبنة. وكان أبي يتردد على المقهى بين الحين والحين. يراني احمل الصينية. أروح هنا وأذهب هناك حاملاً الشاي والقهوة للزبائن.

وكانت حركاتي هذه تعجبه كثيراً. كان سيخلق مني. إماماً أو شيخاً أو رجل دين أو عالماً. وكان الأجدر به أن لا يتركني اعمل في هذه المهنة. ولكنني لم أفهم لماذا تركني.

عملي هذا لم يدم سوى فترة قصيرة فأمي لم تكن راضية وكذلك دبّ الخلاف بين أبي وذلك الرجل الذي أنكر ديْنه. الدعوى الثانية التي أقامها أبي أمام المحكمة بعد السيد نهاد الجمركجي. كانت ضد هذا الرجل القهواتي. والعم غالب هو من كتب المعروض للمحكمة. ذهبنا إلى المحكمة أنا وأبي والعم غالب في اليوم الذي ستصدر فيه المحكمة حكمها. كانت تقع خلف حديقة الفاتح.

لقد أقام القهواتي وكيلاً عنه في الدعوى. لأن عدد المحامين كان قليلاً جداً في استانبول. وكان الوكلاء يدخلون بدلاً عنهم وعن أصحاب الدعاوي وكان وكيل القهواتي. شيخاً بعمامة. يملك دكاناً في آق سراي. الدكان بحد ذاته غريب من نوعه ومدهش لا أستطيع أن أنساه أبداً. الواجهة تغوص في بحر من الغبار والقذارة. وكأنه لم ينظف منذ أعوام. حتى العناكب حاكت شباكها بشكل كثيف. البضاعة الموجودة في الواجهة. فقدت ألوانها الأصلية. ولم تمسسها يد البشر وبقيت معرضة لأشعة الشمس وحرارتها منذ زمن بعيد.

قبل أن يصبح هذا الشيخ وكيلاً للمدعى عليه. كنت أمر أمام دكانه. أقف طويلاً وانظر إليه فقد جذب انتباهي كثيراً حيث كنت أحاول جاهداً أن أشاهد ما في داخله عبر الزجاج الذي عليه الأوساخ والغبار هذا المكان يثير فضولي. ألم يكنس أبداً يا ترى؟. ما رأيته عبر الزجاج أشبه بركام أختلط فيه كل شيء. أوراق كثيرة مكدسة فوق بعضها. وأوراق أخرى قديمة أفقدها الزمن ألوانها. حبال. وأختام وأقمشة بيضاء. وبكرات خياطة متنوعة. أوراق الكربون وخيوط القنب. وأقلام قصبية.

ومحابر زجاجية وأقمشة عادية جداً. ومزهريات، وأنواع كثيرة من الإبر. وملاعق خشبية. وطاسات. وزجاجات فارغة ودمى ومنبهات صوتية وإطارات.

ويبدو أن هذا الدكان موجود مذ أن خلق الله الأرض. وأن آدم عليه السلام. قد اشترى شيئاً منه. وبعد ذلك لم يدخله إنسان ولم يشتر أحد منه شيئاً. وأمعنت نظري داخل المتجر عبر الزجاج المغبر والباب الهرم. لأرى شخصية البائع. وصورة صاحبه.

أنفه أفطس بشكل ملفت للنظر. وثقبا انفه مفتوحان نحو الخارج كأنف الشانبانزي. شعرات ذقنه مبعثرة. تستطيع أن تعدها شعرة. شعرة. عيناه صغيرتان وكأنهما مطمورتان داخل حفرتيهما أو غائرتان في نفق. طربوش ذو عمامة بيضاء. وعلى جسمه جبة سوداء استحال لونها إلى الأخضر الغامق لكثرة تعرضها للشمس. متجر غريب ورجل أعجب وأغرب. كلما مررت من هناك أقف مطولاً وأنظر بخوف داخل ذلك الدكان.

عندما ذهبنا إلى المحكمة في «فاتح» رأيت ذلك الرجل ذا الأنف الأفطس وقد صار وكيلاً للمدعى عليه. للقهواتي الذي أقرضه أبي مالاً. إنها الجلسة الأخيرة وقف الشيخ أمام القاضي. وتحدث. وتحدث. ثم أعلن القاضي قراره. لقد خسر أبي الدعوة. ولم يستفد شيئاً من سنده.

كان القهواتي يقول: أنه أعطى أبي مقابل دينه حطباً. نعم لقد أعطاه. ولكن ليس حطباً. إنها مجرد قطع خشبية صغيرة. جميعها من الميناء وأرسلها إلى بيتنا بعربة. أبي لا ينكر ذلك. ولكن ملء عربة يدوية صغيرة لا تعوض عن المبلغ الذي أعطاه أبي له. لو أن أبي أنكر ذلك لربح الدعوى فوراً.

عند خروجنا من المحكمة امسك أبي بالشيخ من ياقة جبته وقال له: وكيل المدعى عليه أليس كذلك وهزه هزاً قوياً ثم أردف.

ـ ألا تخجل من جبتك وعمامتك وتكذب؟. هكذا صرخ في وجهه وظل يهزه. حتى فرقوا بينهما أفلتوا الشيخ من يدي أبي بصعوبة. عدت مع أمي وأبي والعم غالب. إلى بيتنا سيراً على الأقدام. كان العم غالب يقص شيئاً ما لأبي. يتوقف برهة ويتحدث. ثم يمشي بضع خطوات ويتوقف. يقطع حديثه ويمشي. وإذا تحدث وقف. أنا الآخر كنت أتوقف معهما رغماً عني. غضبت كثيراً من العم غالب. ألا يستطيع التحدث وهو يمشي؟.

حتى صرنا نمشي خمس خطوات ونتوقف. يحكي قليلاً. ثم نمشي. ثم نتوقف وهكذا.

ضياع المبلغ لأبي لا يعني شيئاً ولا يهمه أبداً. ولكن ما لم يكن يستطيع هضمه. هو كذب ونفاق الشيخ أبو العمة والجبة. ودفاعه عن شخص كذاب أمام المحكمة. لم يستطع أبي أن يقنع نفسه. أن المسلمين والأئمة والشيوخ. لهم علاقة. بتدني الأخلاق والكذب والمواقف السلبية الأخرى. قناعته بقيت كما هي: أن هؤلاء الناس لا يفعلون إلا ما يأمرهم به الشرع. عندما يسمع بهذه السلوكيات. يحتار وتنتابه الدهشة. وكأنه يراها لأول مرة. وبالرغم من تصرف الشيخ ظلّ اعتقاده ثابتاً لا تشوبه أية شائبة.

بعد عامين من هذه الحادثة. دخلت المدرسة. كان معلمنا السيد زكائي. يعطينا درساً في النظافة والنظام. وما يعود علينا بالنفع. وأشار في معرض حديثه إلى ذلك الدكان القذر المغبر في أق سراي: قال: اذهبوا وألقوا نظرة على ذلك الدكان. ترون التراب والغبار والقذارة. والصدأ. ويجلس داخل تلك القذارة رجل له عمامة. من غير المعقول أن يشتري

أحد شيئاً من ذلك الدكان. أظن أن هذا الشيخ قد تجذر في أرضه وأصبح جزءاً من الدكان القذر بسبب جلوسه المتواصل فيه.

وتوسع في الحديث عن سوء سلوكه. فأحسست ببعض الراحة. وكأنني انتقمت منه. لما فعله في المحكمة من نفاق وشهادة زور.

دكان الساحر

تعرفت إلى ساحر يعد من مخلفات الروائي «حسين رحمي» الذين كان يتحدث عنهم كثيراً في رواياته فقد كان القانون لا يمنع بعض عروض السحر والسحرة آنذاك. وكان أحد السحرة يقيم في دكان بين أق سراي وطلعة «هور هور». مقابل نبع الماء وإلى ناحية اليمين قليلاً. وكانت واجهة الدكان كبيرة وعريضة. أشبه بمحلات البقالة والقرطاسية والكتب وغيرها. دكان عاديّ جداً. على واجهته أدعية مكتوبة على أوراق الصقت على الزجاج. إلى جانب الرسوم والطلاصم والحجابات الجاهزة. صاحب الدكان يرتدي ثياباً تعتبر جميلة بالمقارنة مع تلك الأيام. أطلق لحيته. ولكنه لا يضع عمامة على رأسه. وقد عمل أبي مع هذا الرجل لفترة من الزمن. ولهذا الرجل ولد يكبرني بثلاثة أعوام. يمضي في الدكان اكثر الأوقات. أنا الآخر بدأت أتردد عليه. ولد طيب. وجهه شاحب كالأزهار الذابلة يعرف أشياء كثيرة لا اعرفها أنا. على الواجهة الزجاجية أسدلت ستارة. وكان من الصعب على الإنسان رؤية ما في الداخل. كان داخله يثير فضولي أكثر من خارجه.

أدعية كثيرة. كتابات أخرى مختلطة. لوحات. ورسومات. معلقة هنا وهناك على الجدران. في داخله أريكة وأمام الأريكة خزانة صغيرة تستخدم كطاولة للكتابة. فوق الخزانة أشياء كثيرة. أقلام قصبية. محابر عادية. ومحابر حمراء وأوراق. ومصاحف وأدعية. كتب رملية وكتب طلاسم. وأشياء كثيرة لم أعرف مجالات استعمالها.

أعجبني الدكان كثيراً. وأحببت الصبي. كنت أتعلم منه أشياء لا أعرفها.

أبي دائماً يحدث العم الغالب بالحسنى عن هذا الرجل فقد أعجبه كثيراً. أما العم غالب. فلم يكن محباً ولا معجباً به. فالرجل بالنسبة له. نصّاب. وجاهل. بعد فترة. قطع أبي أيضاً كل علاقاته معه لأنه استخدم الأدعية لأمور ضارة ووقع تحت تأثير الأرواح الشريرة.

كان أبي مقتنعاً أن الأدعية تسكن الآلام المادية والمعنوية للإنسان. أناس كثيرون يعتقدون ذلك في وقتنا الحاضر. إلا أن استانبول آنذاك. كانت تؤمن بالساحر من السبعة إلى السبعين. حتى المثقفون وأصحاب المناصب العالية. كانوا يعتقدون بقوة أدعيته. أما أبي فقد بقي مرتبطاً باعتقاده هذا حتى نفسه الأخير وهو أن كل عمل خيّر يكون بالدعاء. وأنه سيأتي يوم. سترتفع فيه راية الإسلام عالياً. وسينتصر المسلمون في كل مكان. وسيهدي الله الكفار إلى طريق الحق والخير والهداية. وإما سيقضى عليهم.

تين العصفور في قبة الحمام

لم نطل السكن في بيتنا الموجود في «لنغا». مرة أخرى. العربة ذات الحصان الواحد. تنعز منعز. وأنا أسير من خلفها. الخزانة المعدنية ذات الشريط المهترئ. الصدئ. المكسورة. تتدلى من العربة. في أسفل العربة كيس مملوء بالأغراض المتنوعة. وفوقه صفَّت الفرش.

مرة أخرى نتنقل داخل المدينة.

بدلات إيجار البيوت ترتفع يوماً بعد يوم. ومدخول أبي عكسها تماماً. ولكن على الإنسان ان يتحكم في إدارة شؤونه ويعيش دون أن يستدين و أن يمد رجليه بقدر بساطه و يعمل جاهداً أن لا يحتاج الآخرين هذه المرة ننتقل إلى مكان بعيد جداً بين «يني كابي والعلالي».

إلى بيت يقع على أرض مستوية. له حديقة واسعة عزلوها عن المنزل بحاجز خشبي وصفائح من التنك. حديقة جميلة؟. جميلة جداً. واسعة. مليئة بالأشجار المثمرة.

يقال: إنه كانت هناك عمارة كبيرة داخل هذه الحديقة. التهمتها النيران. أكثر من نصف منازل استانبول التهمتها النيران. بدءاً من الأعالي وصولاً إلى كموسكا والفاتح حتى شهرمين ولا تجد في هذه الأماكن سوى بيتاً صغيراً كل مئتي أو ثلاثمائة متر.

يقال: إن العمارة التي كانت داخل الحديقة قد احترقت ومات صاحبها. وبقيت زوجته مالكة لثلاثة منازل ذات طابق واحد. وربما بنيت هذه البيوت مكان العمارة بعد ذلك. تسكن هي في أحدها وإلى اليسار غرفة يسكن فيها مجموعة من الفتيات الشابات. ثم جئنا نحن كمستأجرين للغرفة الثالثة.

صاحبة البيت امرأة. لذيذة. بشوشة. باسمة الوجه. جسدها جميل وقامتها هيفاء. تعيش حياتها كما تشتهي وترغب. لا يهمها القال والقيل. الناس يتحدثون عنها. ذَنْبها أنها تحب رجلاً منحته قلبها وتعيش معه دون عقد زواج. لها ولد من زوجها الأول. يقولون: إنه تطوع في سلاح البحرية جندياً. ولها ولدان صغيران لا أحد يعرف أباهما الحقيقي سوى أمهما. تعيش من أجور البيتين.

وبراحة تامة. ابنها الكبير متلاف يكلفها الكثير. وهي تحبه كثيراً.

بيتنا مريح. بارد. واسع. في الحديقة أشجار كثيرة. منها التين والتوت. كل صباح تقطف أمي سلة من التين. حباتها حلوة. يسيل العسل منها. وباردة مثل البوظ لأنها ارتوت من ندى الصباح. جميع أنواع التين. الأسود البرغلي. والتين المسمى «لوب». وتين السلطان سليم وأنواع أخرى كثيرة.

طعامنا الصباحي أصبح من التين فقط. وما يزيد وهو كثير تجففه. فترى كثيراً من الأطباق والصواني ملأى بالتين والتوت. توصي أمي قبل موتها: أن يزرعوا على أحد أطراف قبرها شجرة تين وعلى الطرف الآخر. شجرة توت. حتى تأتي العصافير وتأكل منهما.

كانت تحب التين والتوت كثيراً.

أغصان التين المليئة بالثمار تتدلى هنا وهناك أستطيع قطافها متى شئت أما الأغصان العالية. فكان قطافها. يحتاج إلى عصاً طويلة رأسها معكوف. نمده. ونقطف ثمرة التين بحركة خفيفة.

أشجار كثيرة من التين. ولكن عيني لا تفارقا تلك الشجرة الصغيرة المتاخمة لحمام النساء في الجانب الآخر من حديقتنا. هذه الشجرة صغيرة وثمارها صغيرة أيضاً. يصعب قشرها. رقيقة إلى حد كبير. تتساقط على الأرض، أجمعها وآكلها. كنت أحبها كثيراً. كنا نسميها تين العصفور. في الحديقة سلم خشبي ملقى على الأرض. ذات يوم أسندت السلم إلى جدار الحمام وصعدت فوق الحائط. هاهي ثمار تين العصفور أمامي. حاولت الإمساك بالغصن للوصول إليها ولكن عبثاً لم أتمكن منها. أمي تصرخ من الأسفل.

ـ انزل بسرعة. انزل.

لم تكن أمي تضربني ومع هذا كنت أخاف منها كثيراً. لم أجد سبباً لخوفي هذا. عندما رأيتها في الأسفل. خفت كثيراً.

ـ أقول لك انزل من هناك بسرعة. لا أريد رؤيتك ثانية تصعد إلى هناك.

هل أصعد ثانية؟. أعوذ بالله. لن أعيد الكرة. ولكن كيف سأنزل إلى الأسفل؟. أمي تنتظرني. لا. لا. أستطيع النزول. أخذت أمي السلم المسنود إلى الجدار. وأدخلته إلى البيت؟. كي تزرع الخوف في قلبي

وأكف عن الصعود إلى سطح الحمام ثانية.

عندما دخلت أمي المنزل: ألقيت بنفسي من فوق الجدار. وليكن ما يكون أسرعت أمي لنجدتي. كنت ملقى على الأرض. ـ واه. يا ضنايا. أنت مجنون ولك ابني؟. كيف قفزت من هناك؟.

هل حصل لك شيء؟.

ـ إهيه. لا أشعر بأي شيء.

وهكذا تخلصت من التوبيخ .

كيف قفزت عن ذلك الجدار؟. بعد سنوات قصدت المكان خصيصاً ونظرت إلى السطح الذي قفزت عنه. أحسست بخوف شديد وأنا انظر إلى ذلك الجدار العالي: كان ارتفاعه يعادل ارتفاع طابقين.

رسالة الحب الأولى

إلى اليسار من باب الحديقة. منزل تسكنه فتاتان مع والدتهن. ويزورهن فتيات أخريات كثيرات. يتحول المنزل إلى قفص للفتيات. تتطاير ضحكاتهن وقهقهاتهن. من الأبواب والنوافذ. ينبض بالحياة. نشيطات مليئات بالحركة. فقرهن باد من ثيابهن. ولكنهن. نظيفات. لا ينقصهن شيء. لا يشبهن عاهرات الشوارع. إنهن فتيات منزل ليس إلا. ثيابهن عبارة عن جلابيات. مزركشة بالأزهار ـ توحي ألوانها ببعض سمات الشوارع والعهر. فيها فجوات تكشف عن أجزاء من أجسامهن حتى كلامهن يخرج دونما تحفظ. ودون لف أو دوران. يعلكن على الدوام. فيخرجن أصواتاً مألوفة. ويصنعن من العلك بالونات ويفجرنها.

لا وجود للذكر بينهن. أعتقد أن الفتيات عاملات. يدعونني إلى بيتهن بين وقت وآخر.

ـ يقولون إنك تعرف القراءة والكتابة؟.

ـ نعم.

- هل تحسن كتابة الرسائل؟.

- أكتب.

يحترْنَ في أمري. يبغين قول شيء ما، ولكن لا تخرج الكلمات من أفواههن. لسبب أجهله. تتجرأ إحداهن وتقول. بعد أن نفد صبرها.

- هل تكتب لنا رسالة؟.

- أكتب. يفرحن بشكل غير عادي.

- ولكن الكلمات التي ستكتبها لن تقولها لأحد.

- لن أقولها.

- وعد.

- وعد.

- احلف.

- والله. يعمي عيني الاثنتين إذا قلت شيئاً لأحد.

يقبلنني من الفرح. يرقصن.

يرسلن واحدة منهن إلى البقال:

- اذهبي وأحضري ورقة ومظروفاً من عند البقال.

تتحول الفتاة إلى طائر وتتطير. بعد قليل تعود حاملة دزينة من الأوراق الملونة. ودزينة مغلفات.

آخذ القلم.

- كيف سنبدأ الآن؟.

يسألنني. يعرفن بداية الرسالة ولكنهن يخجلن مني.

زوج إحداهن في الجيش. والأخريات مخطوبات أيضاً. وبعد رفع الكلفة فيما بيننا. انقشعت غيوم الخجل. روحي حياتي.

أنت روح روحي. حبيبي عيني الاثنتين. يا وحيدي.

يا حياتي. الرسائل تبدأ بهذه الكلمات. يضحكن ويضحكن.

ـ هل ترسم عصفوراً في أعلى الصفحة؟.
ـ أرسم
ـ لتكن حمامة.
ـ تكرمي.
تحمل بمنقارها ظرف رسالة. أليس كذلك؟.
ـ تكرمي.
ـ ارسم قلباً على رسالتي.ليكن هكذا.
ـ معقول.
الدم ينزف من القلب الذي يشبه «أصَّ الكبة» (ورق اللعب).
يعطرن داخل الرسالة. ويضعن بضع شعرات من شعرهن. أو بعض الأزهار. ويشعلن زوايا ورقة الرسالة بنار السيجارة. وتأتي الأجوبة على رسائلهن. كتبت بخط غير واضح. أقرأها بصعوبة بالغة. أكثر الأجوبة تبدأ: يا ملاكي.
فتيات المدن الكبيرة وشبابها وخاصة أبناء الساحل. يكونون هكذا. عكس أولاد القرى والأناضول بشكل عام. عندنا لايستطيعون حتى إرسال سلام إلى زوجاتهم وخطيباتهم آنذاك. إياك أن تقول لأحد ها.
ـ لا لن أقول.
منذ ذلك اليوم وحتى الآن. لم أتفوه بكلمة واحدة.
الرسائل التي كتبتها للفتيات جلبت لي الحظ. لأنني فيما بعد كتبت رسائل كثيرة إلى حبيبات أصدقائي.

كيسه من المخمل «قديفة»

أمام منزلنا ساحة. الساحة متاخمة لتلة صغيرة خضراء. فوق التلة مسجد صغير مهدم. مخرب. جدرانه محروقة. أحجار القبة والمئذنة. متناثرة هنا وهناك. لأول مرة ألعب في هذا الزقاق المسدود أسفل التلة.

وبما أنني لم أعتد اللعب. أشعر ببعض الخجل من نفسي ومن الآخرين. ولا أشارك الأولاد هرجهم ومرجهم. وكأنه أمر معيب.

مقابل باب الحديقة. بيت صغير. يصعد إليه بثلاث درجات من المرمر. يسكنه أمام جامع. كان الأئمة آنذاك. يجمعون أطراف جبتهم ويثبتونها تحت نطاقهم ويشبكون أيديهم خلف ظهورهم ويسيرون وربما يفعلون ذلك. كي لا تعوقهم الجبة أثناء السير. أولا تلتف حول سيقانهم.

كان الأولاد يسيرون فيما مضى خلف الكهنة ويصرخون:

ـ أيها الخوري الأفندي. اجمع جبتك. ثم بدأوا بعد ذلك بترديد هذا الكلام. خلف الأئمة. أما أولاد حارتنا فصاروا يركضون خلف إمام الحي ويرددون على إيقاع واحد.

ـ أيها الشيخ الأفندي. اجمع جبتك!. وكذلك الأولاد الكبار. صاروا يسخرون من الأئمة قائلين لهم:

ـ أبجد هوز حطي ي ي ي. الشيخ الأفندي بلع رأسي ي ي ي.

قانون نظام اللباس لم يكن قد صدر بعد قيام الجمهورية. واستمرار سخرية الأطفال وسيرهم وراء الأئمة. ساخرين. مازحين. شلّ تأثيرهم على الناس كباراً وصغاراً. التلة الخضراء. جميلة. رائعة. تكسوها الأعشاب وقد غطتها ببساط سندسي بديع. اللعبة الوحيدة التي شاركت فيها الأطفال. هي التدحرج عن هذه التلة نحو الأسفل. وكانت هنالك أغنية شعبية يرددها الجميع دون استثناء كلماتها على الشكل التالي:

كيسه حيك من مخمل
وصوته من مقهى الجهل
هنالك يتعاطى الميسر
آه يا روحي يا رئتي
أنفاسي لقياكم تأمل

أكثر من ثلاثين طفلاً يستلقون عرضانياً على العشب في أعلى التلة.

ويرددون هذه الأغنية وبإيقاع واحد. وهم يتدحرجون نحو الأسفل.

كنت لا أشاركهم الغناء. ولكنني كنت أترك نفسي أتدحرج معهم نحو أسفل التلة أحب هذه الدحرجة والسقوط الخفيف فيما بعد. هذه هي اللعبة الوحيدة التي لا زالت عالقة في ذهني عن طفولتي.

الجميع يقيسون الأمور هكذا. الطفولة لا حدود لها ولا قانون يقيدها ولا نظام. الأماكن التي لعبنا فيها كنا نراها كبيرة. كبيرة جداً. ولكن عندما كبرنا. تلاشى هذا الكبر وانكمش. وصغر كثيراً وصغر. في طفولتي حسبت تلك التلة الصغيرة أطول من مئذنة الجامع وعندما قصدت ذلك المكان في فتوتي.

وجدت أن التلة لم تكن عمودية بما فيه الكفاية. كانت أشبه بهضبة بسيطة. ذهبت مرات أخرى أيضاً. لأبحث عن طفولتي. فلم أجد أي شيء منها. العمارات ملأت المنطقة.

البعصة الأولى

مرة أخرى أرسلوني إلى قاسم باشا لأتلقى دروساً عند العم غالب ولكن بشكل متقطع.

ملأت أمي سلة كبيرة من التين الناضج بشكل جيد وقالت: خذ هذا التين إلى عمك غالب. بعد أن غطته بأوراق التين الكبيرة.

حملته ومشيت. وصلت كوسكا ومنها إلى المحطة الهوائية التي كانت تبنى حديثاً في العلالي. وهي مناطق تضررت بالحرائق سابقاً. ومنها إلى شيخ زادة باشي.

أنزل من «كمرلردن» نحو طلعة زيرك. ومنها إلى جسر «أونكباني». وهو المكان الذي ألهو فيه كثيراً. الجسر الخشبي القديم. بين الخشبة

والأخرى فراغات تقدر بشبر أو شبرين. حذرتني أمي كثيراً قبل كل خروجي من البيت:

دير بالك على حالك يا ابني. بعدين تزحلق. على الجسر وتقع وتتكسر. آمان يا ابني. كلما مررت فوق الجسر أتذكر طرفة يحكيها أبي على الدوام.

يقال أن رجلاً التقى أحد أصدقائه.

- إلى أين أنت ذاهب؟.

- لأشتري حماراً من سوق الخيل.

- ولك أخي. لا يقولون هكذا.

- ماذا يجب أن أقول؟.

- سأذهب إلى سوق الخيل إنشاء الله وسأشتري من هناك حماراً إنشاء الله.

- اذهب عني واتركني. المال بيدي. شو إنشاء الله ما شاء الله. خلص. يعني سأشتري الحمار وأعود.

ثم افترقا.

تعلق قدم الرجل بين الأخشاب عند مروره فوق الجسر. وتسقط دراهمه في البحر. ولدى عودته في المساء التقى بصديقه مرة أخرى. وبعد التحية والسلام.

- إلى أين؟.

- سأذهب إلى البيت إنشاء الله. وسأعمل وأوفر مالاً إنشاء الله. وسأذهب إلى سوق الخيل إنشاء الله. وسأشتري من هناك حماراً إنشاء الله. وسأعود إلى البيت إنشاء الله.

أمرّ من جسر «أونكباني» وأنا أترنح تحت حملي الثقيل. أنظر إلى السفن المثبتة على حواملها للإصلاح.

أطفال كثيرون من أترابي فوق الجسر. خلعوا ملابسهم. ووضعوا أمتعتهم هنا وهناك وبما أنهم جميعاً حمالون وضعوا سلالهم الكبيرة في أماكن متفرقة. بعضهم بلباسه الداخلي والبعض بجلبابه وآخرون كما خلقتهم أمهاتهم يتسلقون سور الجسر ويلقون بأنفسهم إلى البحر. بعضهم على رجليه.وبعضهم على رأسه - انظر إليهم بحيرة. كلهم بسني. كيف يقفزون من هذا الارتفاع الشاهق؟. أنا شخصياً لم أنزل البحر أبداً حتى الآن. يشتمون بعضهم بألفاظ بذيئة. من الزوجة إلى الأخت. إلى الأم. أخشاهم. أخاف منهم أحذرهم كي لا يشتموني. ومع هذا بدأت اقترب منهم رويداً رويداً. لا أستطيع الإبتعاد عنهم خارج إرادتي ربما هوس اللعب هو الذي يجذبني إليهم. أقف لبرهة أراقبهم عن كثب. ثم أتابع طريقي. لا ألوي على شيء. لقد نسيت الدرس والعم غالب والتين. أصل الطريق الصاعدة المسماة «طلعة الميت».

والتي تصل من جسر «أونكباني إلى شيش فانه». الطريق التي حطمتني نفسياً. أنزوي وداخلي مجروح شفقة على الآخرين: أقرفص في ظل جدار «الترسانة». وأراقب العربات ذات الحصان الواحد والحصانين.

أصوات السياط تتردد تباعاً عبر الهواء. كأنها انعكاسات صوتية مرعبة. يهوون بها على ظهور الخيول المسكينة. أشفق على الخيول وعلى أصحابها (العربجية). يرعبني الشرر المتطاير عند اصطدام نضوة الحصان بأحجار الرصيف الصوانية. أجد في السير إلى الأمام حيث بناء الإطفائية. وبعدها الشعبة العسكرية.

وأثناء عبوري الزقاق الداخلي. رأيت أطفالاً كثيرين يلعبون في ساحة صغيرة. انضممت إليهم. ولكن لماذا فعلت ذلك؟. ولماذا بدأت الحديث معهم؟. لا أدري كيف حصل ذلك؟. وضعت سلّة التين على الأرض.

آه لو يوافقون على أن ألعب معهم. ويضمونني إليهم. لا أستطيع

اللعب مع أطفال حيّنا. هناك أعتبر نفسي رجلاً كبيراً من المعيب أن ألعب معهم. هكذا كان يتراءى لي. أما هنا فأستطيع اللعب مع الأطفال. لا أحد يعرفني. أو يعرف شيئاً عني.

لا يعرفون أنني حافظ للقرآن. ولا أنني أتقن اللغة العربية، والنحو والصرف، والرياضيات. يحسبونني طفلاً عادياً مثلهم. اللعب بين هؤلاء الأطفال الغرباء لا يهمني. لا أعيب نفسي على ذلك. لأنهم لا يعرفونني. أرفع أوراق التين عن وجه الزنبيل وأوزع التين عليهم. لماذا؟. لأنني سأنضم إليهم. وسيسمحون لي باللعب معهم. يلتهم الأطفال التين بشراهة. ولكن الزنبيل مازال مليئاً أحمل الباقي إلى العم غالب. نلعب «الطميمة» و«لبندة». لم أحسن اللعب. الأطفال غير راضين عني.

ماذا أفعل كي أرضى عنهم. ويرضون عني؟. أوزع عليهم التين ـ ثانية وإذا بطفل يقترب مني. لم يذق شيئاً من ثمار التين. يهمس في أذني.

ـ شو أنت مجنون ولك، لماذا تطعمهم التين؟. لا علاقة لك سأعطيهم؟. لن أذهب إلى العم غالب هذا اليوم. ألف وأدور هنا وهناك.

ألعب مع هؤلاء الأطفال. وعندما أعود إلى البيت مساءً. أقول لأمي.

إنني أوصلت التينات إلى العم غالب. من يدري متى سيأتي العم غالب إلى منزلنا؟. ربما أعيش للحظتي. أهم شيء الآن أن ألعب مع هؤلاء الأطفال وأكون صديقاً لهم. يقترب مني ذلك الطفل ثانية ويهمس في أذني:

ـ هؤلاء يقتربون منك من أجل التين؟.

ليكن يا أخي. نلعب ثانية. أوزع عليهم التين للمرة الثالثة. يفرغ السَّلُّ كلياً. عندها بدأ الأطفال يدفعونني يبعدونني عنهم. يحقرونني. لا يلعبون معي. ولا يسمحون لي باللعب معهم بدأت عيناي تبحث عن

الولد الذي كان يرتدي ثياباً نظيفة. فلم أجده. ذهب إلى بيته. تركت السلة الفارغة هناك وقفلت راجعاً.

كان الحظ يواتيني على الدوام في ذلك اليوم «يومي المحظوظ».

فبينما كنت عائداً من طلعة «جوروكلوك» وجدت على الأرض. مجيدية ورقية واحدة. ما هذا؟.

لم أصدق نفسي ولا عيوني. مجيدية واحدة. مبلغ كبير من المال!.!؟. (المجيدية الواحدة تساوي عشرين قرشاً. وكانت الليرة الواحدة آنذاك تساوي خمس مجيديات أي كانت تساوي أجرة عامل في اليوم).

كم كنت محظوظاً في ذلك اليوم. محظوظ جداً جداً. لم تكد الابتسامة تغادر وجهي من شدة الفرح. فرح المجيدية. وإذ بي أجد ورقة أخرى. مكتوب عليها خمس ليرات ولكنها ليست نقوداً. هذا شيء آخر. ورقة مهمة أو قيمة جداً. ما نوع هذه الورقة يا ترى؟. أقرأ ما عليها.

ولكني لا أفهم نوعيتها وماهيتها. يجب أن تكون ورقة تساوي كثيراً من المال.

أنزل من جوروكلوك فأرى أطفالاً يلعبون في الساحة الترابية أمام معمل الطحين. كلهم اكبر مني. أختلط بينهم وكلني ثقة بنفسي. لماذا. لأن جيوبي مليئة بالنقود معي مصاري. الأولاد يحتارون. يندهشون. إنه مبلغ كبير!.!. كنا نلعب وسط بحر كبير من الغبار. نتدحرج. نقع على الأرض. ننهض نتراكض

بائع معجون غجري يمر أمامنا. إنهما اثنان. إحدهما يضع طاولة المعجون فوق رأسه والآخر يعزف على آلة «كلارنيت». دعاية للمعجون الذي يبيعانه.

ـ عماه. أعطنا معجوناً.

يضع الرجل الطاولة على القاعدة. والآخر يعزف «الكلارنيت». ألوان وأشكال متعددة من المعجون. الأبيض والأحمر والأخضر والسماوي والأصفر. معجون من جميع الألوان.

ـ بكم تريد أن تشتري.

ـ بأربعين أو خمسين بارة لكل منا.

يلف البائع المعجون على سيخ حديدي. ويعطي كلاً منا سيخاً فأُعطيه المجيدية. نأكل المعجون نلعقه بشراهة. فتسيل الألوان من الشفاه إلى الذقون. نلحس شفاهنا وذقوننا. نتدحرج على بحر الغبار.

آمان. كم أنا سعيد لقد نسيت الأطفال الآخرين. الذين طردوني من بينهم بعد أن أكلوا ثمار التين كما نسيت العم غالب.

كان هؤلاء الأطفال أسوأ من الآخرين، أصبحوا غير الذين تعرفت عليهم، بعد أن انتهوا من أكل معاجينهم. أصبحوا اكثر فظاظة وحقارة لأنني غريب عنهم وكما يفترق الزيت عن الماء لم أتمكن من الاتفاق معهم.

ـ اذهب من هنا لا نريد رؤية وجهك ثانية.

ـ هيا خذ عربتك!. اذهب. اذهب من هنا خير لك.

أغادر المكان ورأسي مطأطأ إلى الأرض. هذه أول إهانة أتلقاها في حياتي. فرحت من أعماقي لأني لم أظهر لهم تلك الورقة التي كتب عليها خمس ليرات.

أمر أمام دكان الحجارين. أراقب لبعض الوقت عملهم انهم ينحتون أحجار المرمر. بقطع حديدية تشبه القلم. وبالمطرقة. شاهدات للقبور. وهناك أحجار أخرى للمطاحن. ماذا سأفعل بهذه الورقة التي أحملها في جيبي؟. هل آخذها إلى المصرف أم إلى مكان آخر؟. وأين المصرف يا ترى. لا أعرف مكانه؟.

بالقرب من مقهى حسن أفندي الذي كان العم غالب يعطيني فيه الدروس. دكان عطار مقابل الجامع الكبير. كان العطار يبيع الطوابع وأوراق العقود وغيرها. أذهب إلى هناك وأعرض عليه الورقة نعم إنها ورقة عقد ليس إلا.الرجل يقول هكذا. أعطاني خمسة قروش وأخذ الورقة من يدي. مشيت بعض الوقت في الطريق الطويل. عائداً إلى البيت. كل خيالاتي تحطمت حسبت إنني سأصبح غنياً بسبب تلك الورقة.

لا أتذكر الآن. ماذا قلت لأمي. عندما رجعت إلى البيت. حتماً يجب أن أقول: لقد أوصلت سلّة التين للعم غالب ولا أدري هل اكتشفت كذبي أم لا، لأنه لا أبي ولا أمي قالا لي شيئاً.

العمة كللو

قالوا إنَّ لي عمة تسمى: «غولّو». العمة غولّو. هي الأصغر بين أخواتها الخمسة. أبي يكبرها.

سمعنا: أن العمة غولّو قد جاءت إلى استانبول فذهبتُ مع أمي لزيارتها.

منزل صغير من طابق واحد يقع بين «اونكباني» و «يشيل تولومبا». أنظر إليها باستهزاء. إذن هذه المرأة هي أخت والدي كان الوقت صيفاً وكانت ترتدي ثياباً سميكة وكأنها في عز الشتاء. جلابيتها تكنس الأرض حمراء من البازان. عليها رسوم أزهار ملونة. إذن فالجلابية الوردية للعمة وردة (كللو معناها وردة أو ذات الورود).

العمة غولّو. قروية بكل معنى الكلمة. ليست منا. أحسست أننا نتفوّق عليها. نحن متقدمون. عصريون. من استانبول نفسها. وضعت أمي الحنة على يدي عمتي. أمي تعرف أشياء كثيرة. إنها أم رائعة؟. ما أتذكره من بيت عمتي غولّو. هو لعبة الدكانجية.

كنت مغرماً باللعب كثيراً. أذهب إلى بيت العمة كلو. أتسلل رويداً رويداً إلى حديقتها. لأن الحديقة نائية. لا يراني فيها أحد ألعب مع نفسي لعبة البقّال. اللعب أمام الآخرين عيب. أخشى أن يحسبوني طفلاً صغيراً.

أصف قطع البلوك. وأملأ فراغ كل منها تراباً وحصى صغيرة. هذه فاصولياء. وهذا حمص وهذا أرز اعلق بطرفي عصا أوراقاً عادية بخيوط رفيعة. هذا ميزاني. ثم أتحول إلى مشترٍ أطلب من البقال كيلو غراماً من الأرز. وأنتقل إلى الطرف الآخر متحولاً إلى بقال. في هذه المرة. أزن الأرز بالميزان. ثم أعود لأصبح مشترياً آخر. ثم بقالاً. واجعل البقال والمشتري يتساومان أتحدث بصوت مرتفع وبصوت منخفض. أصبح بقالاً متهماً. مذنباً وأستمر باللعب آه لو يراني أبي وأنا ألعب هذه اللعبة يعيب عليَّ كثيراً. يقطب حاجبيه ويقول:

ـ شو ولك ابني أنت ولد صغير. اذهب واقرأ دروسك.

ـ ربما نسيت بعض السور. اختم القرآن ثانية

لقد جعلوني أصدق كلياً أنني لست ولداً صغيراً وأنا ما زلت في التاسعة من عمري ولهذا كنت ألعب لعبة (الدكانجية) في حديقة العمة كللو سراً. وأنا أحس بالذنب. لم تبق العمة غولّو طويلاً في استانبول. عادت إلى قريتها «غولفا» في ناحية شابين قره حصار.

آلام الست زينب

هنالك امرأة نعرفها اسمها السيدة زينب. امرأة نشيطة. مرحة وفي الوقت نفسه متألمة. حزينة. حديثها ممتع. جميلة. بهية الطلعة. تعرف كل شيء. وصوتها رقيق ناعم. بنت استانبول بكل معنى الكلمة. ولكنها وحيدة. لا أهل لها ولا أقارب. يقال أن زوجها الأول كان عربياً. وأنهم زوجوا زينب لذلك العربي وهي في الثالثة عشر من عمرها. وفق عاداتهم

آنذاك لم يبق زوجها معها طويلاً. تركها وغادر البلاد. فالزواج والطلاق كانا عاديين في تلك الأيام. إذا تركها زوجها مدة. تصبح مطلقة حكماً.أما زينب فلم تكن قد تعرفت جيداً إلى ذلك الرجل. ولم تكن قد تذوقت حلاوة الزواج بعد.

عندما تركها زوجها زوجوها لرجل من «اللاظ» يعمل على قارب صيد في الخليج. بعد زواجهما وقع الرجل فريسة لمرض السل. بدأت السيدة زينب تعمل هنا وهناك لتعتني بزوجها.

السيدة زينب ذكية. ماهرة. تعرف كل شيء. ومع هذا فارقها زوجها الثاني إلى دنيا البقاء وهو في ريعان شبابه. زوج عربي. ثم زوج لاظي.

ومن بعدهما زوج كردي. زوجها الأخير هذا كان يبيع العنب كل مساء يضعه في سلة كبيرة يعيشان في غرفة واحدة في «أونكباني». كان زوجها هذا وسيماً وقوياً. يعتني بشاربه الأسود الكثيف. يدببه من طرفيه ويرفعه حتى يكاد يصل إلى عينيه. وعندما يكون بدون عمل لا ينفكُّ عن اللهو بشاربه الست زينب تحب زوجها كثيراً. لأنه وسيم. وشاربه طويل وجميل ويظنون أنهم قتلوا زوجها الأخير هذا بطعنة سكين من خلفه. اغتالوه خلسة. فلو قابلوه وجهاً لوجه لقتلهم جميعاً لكنهم غدروه وطعنوه من ظهره. مرة ثالثة بقيت زينب وحيدة. المرأة لا تستطيع البقاء وحيدة. يجب أن تتزوج. احتارت في أمرها. بكت الخالة زينب على زوجها بكاءً مرّاً فزوّجها والدي من شخص يعرفه، ألبانيٌّ الأصل. تصوروا. عربي ولاظي وكردي وألباني. كان زوجها هذا يسكن في حي «فري كوي». يملك مزرعة كبيرة هناك. فيها بعض أشجار التين.

زوجها الألباني هذا. رجل طيب جداً ولكنه مسن وقبيح المنظر يتحدث التركية بصعوبة، حللنا ضيوفاً على بيت الخالة زينب. في /فري

كوي/. ثلاثة منازل متجاورة. يقطنها ثلاثة إخوة ألبان الاثنان الآخران زوجتاهما ألبانيتان. في المزرعة. وفي البيوت الثلاثة. أطفال كثيرون ألف طفل. عشرة آلاف طفل. لا يحصى عددهم. ونساء ألبانيات كثيرات. مسنات. ألف امرأة. عشرة آلاف. لا أحد يعرف. هل الأطفال اكثر عدداً ام النساء. لا أحد فيهم يعرف التركية. وعلى الخالة زينب أن تعيش مع الجميع وأن تثبت نفسها للجميع. كانت تقول لأمي وهي تبكي كأنني أعيش في بلد آخر. لا أحد يعرف التركية هنا. تقول: إن زوجها طيب جداً وأنه اشترى لها صندوقاً جميلاً. مدهوناً باللون السماوي. وعندها أزهار ومرآة كبيرة. واشترى لها أشياء أخرى كثيرة. كانت أمي تعطيها دروساً في الحياة وكأنها اكبر منها سناً. تضحك الخالة زينب والدموع تسيل من عينيها.

تضحك وهي تبكي. تبكي وهي تضحك وتقول: بعد العربي. لاظي. وبعده كردي وبعده ألباني. تضحك الخالة زينب وتضحك ثم تقول: إنشاء الله هذا يكون الأخير. عندما افترقنا عنهم أهداني زوجها الألباني. دجاجتين بعد موت أمي. ستكون الخالة زينب بالنسبة لي أمّا أخرى. ستعتني بي، وستقدم لي العون والمساعدة. وسيكون لها شأن كبير في مذكراتي هذه.

التعرف إلى شارلو - (شارلي شابلن)

ماتت أمي دون أن تعرف ما هي السينما ولا كيف يكون المسرح. لكنها كانت تتمنى وتريد وتعمل المستحيل كي ترسلني إلى السينما حتى ولو دون إرادة أبي. لأنه كان يكره السينما ويغضب كثيراً عند ذكر اسمها.

كان بيتنا قريباً من حي «شيخ زادة باشي». وأكثر صالات العرض كانت هناك. العروض الصباحية رخيصة جداً أيام الجمعة. لأنه يوم عطلة

أسبوعية. ألبستني أمي أجمل ثيابي. ووضعت ربطة عنق على ياقة قميصي (أول مرة أضع ربطة عنق). عقدتها بيديها.

وحتى الآن أشعر برائحتهما. بحرارتهما. ونعومتهما. النعومة المخملية الرائعة. تعطيني المصروف تقبلني وتقول:

ـ لن تتأخر عليّ. أليس كذلك يا بني؟.

مرة أخرى تصرخ من خلفي:

ـ هل أخذت منديلك معك؟.

ـ أخذته يا أمي.

أسير بروية. بنظام كي لا تنسخ ثيابي وحذائي. هنالك صالة عرض سينمائية في «شيخ زادة باشي». اعتدت الدخول إليها. تقع مقابل السبيل. دائماً كنت أقصد تلك الصالة. أقطع التذكرة. يبقى معي بعض النقود. أشتري فستقاً وحمصاً وشيئاً من هذا القبيل. لأن أمي قالت لي ذلك:

كنت أتباهى بنفسي أيام الجمعة عندما ألبس وأجهز نفسي على أكمل وجه وأذهب إلى السينما. لأن الأطفال الذين في سني ويذهبون إلى المدرسة. يعطلون يوم الجمعة. يذهبون إلى السينما. يلهون هنا وهناك. يلفُّون ويدورون. عندما كنت ألتقيهم في السينما. أحسب نفسي تلميذاً مثلهم ولهذا كنت أفخر بنفسي.

الدخول إلى المدرسة. كان مطلبي الأول والأهم. ورفض أبي أن يسجلني في إحدى المدارس الحكومية. /مدارس الجمهورية الحديثة/ لأنه يعتبرها أعدا أعداء الدين.

رغبتي هذه توافقت مع رغبة أمي التي تريد دائماً أن أنتسب إلى إحدى هذه المدارس. وليس من معرفة خاصة بي.

السينما تعجُّ بالأولاد. يلعبون. يصرخون. يشتمون بعضهم.

يتصارعون. كنت أخاف منهم. أنزوي في إحدى الزوايا. لا أتحدث ولا أرفع صوتي لأن أمي. كانت تحذرني على الدوام:

ـ إياك أن تتحدث مع أحد. وخاصة مع الكبار إياك. آمان ثم إياك.

بعد سنوات طويلة عرفت لماذا كانت أمي تحذرني هكذا. عرفت من هو شارلو في تلك السينما. لأنهم كانوا يعرضون في كل جمعة فيلماً من أفلامه. إلى جانب أفلام كوميدية أخرى، وأفلام قصيرة.

رجال يقعون على الأرض. في أماكن موحلة. ينهضون ويقعون مرة أخرى. رجال حمقى. أغبياء لا يحسنون التصرف. مواقف عكسية مضحكة. الهرب بسرعة الرصاص. المطاردات التي لا طائل لها. لا أحد يعرف. من يطارد من. ومواقف أخرى رائعة. رجال الشاشة يعيشون السرعة في حياتهم أكثر من واقعهم. كانت الأفلام الصامتة آنذاك تقدم الحركات الكوميدية الرائعة دون مساعدة من الكلمات. عندما يبدأ عرض الفيلم الصامت يبدأ أحدهم في إحدى زوايا الصالة العزف على البيانو كي ترافق الفيلم بعض الموسيقى. ولكن القهقهات العالية التي كان المشاهدون يطلقونها تخنق صوت البيانو.

لم يستطع شارلو بكل حركاته الساخرة وقبعته /الميلونية/ وبابوجه العملاق وبستونه المميز المشهور. أن يؤثر عليّ. أو يجعلني أضحك. وأن يقدم لي التسلية التي كنت أتوخاها. إذ لم تستطع أفلامه إدخال البهجة في قلبي. هنا كنت مع أبي قلباً وقالباً وأؤيد كل كلامه وتصرفاته.

وكما كان يقول: السينما ليست إلا نوعاً من أنواع العبث. والمسخرة ومع هذا كنت أضحك وأنا أنظر إلى تلك الأفلام الصامتة. لا جرّاء ما كنت أراه في الفلم. بل للقهقهات التي كانت تتعالى في الصالة. إذ لم تكن الكوميديا سبباً لضحكي. وبما أن كل الناس يضحكون. كنت أرى

أنه يجب أن أضحك. فإذا لم أضحك والناس كلهم يضحكون، أعتبر سلوكي هذا نوعاً من العيب. وهكذا. لا أجد نفسي غارقاً في متاهات الضحك والقهقهات.

بعد أن كبرت توصلت إلى معرفة الاسم الحقيقي لشارلو وهو شارلي شابلن. ثم الكوميدي «لوي». بنظارته الكبيرة المفرغة من الزجاج. والممثل «هارولد لويد». وأحب شخصية سينمائية ساحرة بالنسبة لي، ممثل الأفلام المسماة «الوجه الحجري». رجل من نوع خاص وجهه لا يعبر عن شيء أبداً. لا يضحك. لا يبتسم. وجه جامد بكل معنى الكلمة. صورة صامتة حزينة. ينزل فوق وجهه المتحجر قبعة. وكنا نسميه «مالك» وهو الممثل المشهور «بوستر كياتون» إلى جانب شخصية نسميها «زيغوت». ولا أدري ما هو اسمه الحقيقي.

لم أكن أذهب كل جمعة إلى السينما قصد التسلية، بل لأكون قريباً من التلاميذ. أولاد المدارس ليس إلا.

البحث عن الكنز

أعتقد أن البحث عن الكنوز إدمان مرضي عند الأتراك. لماذا عند الأتراك وفي تركيا بالذات لأنها بلدٌ مبني فوق الأبجديات التاريخية المتلاحقة. وعبر العصور. كانت تركيا ملتقى كل الغزاة والمستعمرين. وساحة لحروب كثيرة كلهم مروا عبر أراضيها. أينما حفرت لديك الأمل. في إيجاد شيء من كنوز المحتلين. وتركيا. بلد الأشقياء والعصابات. ومكان آمن للآخرين. ساقوا خيولهم وفق رغباتهم. ودفنوا أموالهم تحت ترابها. وكانت ساحة واسعة لقطاع الطرق واللصوص والنصابين. دفنوا سرقاتهم في زوايا الكهوف. تركيا كانت بلاد الفوضى وشعبها غير آمن. يخاف المستقبل ولهذا السبب دفنوا أموالهم وكنوزهم وما يملكون في التراب.

هذه الكنوز داعبت أحلام الناس. الفقر والحاجة أثارا حب البحث عن هذه الكنوز. وصار إدماناً لا يمكن التخلص منه.

البحث عن الكنوز في تركيا أصبح أكثر درامية وأكثر وضوحاً ومضحكة من مغامرات البحث والتنقيب عن الذهب في أمريكا. ومع هذا لم يدخل البحث عن الكنوز إلى أدبنا علماً بأننا نستطيع إعطاء الصورة الاجتماعية الحقيقية عندما نبحث عن الإدمان الحقيقي لهذه العملية. كان أبي. باحثاً حقيقياً عن الكنز. مدمناً. متلهفاً. وحده كان يصدق نفسه. لا أنا ولا أمي ولا أختي كنا نعتقد بذلك أو نصدقه مات أبي وانتهى وحافظ على هذا الإدمان حتى نهاية حياته.

الباحث عن الكنز هو الرجل المتفائل الأول والأخير والسعيد في حياته. في كل عودة. فارغ اليدين، وفي كل خسارة يتعرض لها. لا تفقده شيئاً من آماله. تتعالى أصوات سياط الإدمان في رأسه أكثر من الأول.

يبحث عن سبب مقنع لفشله. أبي وجد كنزاً. أخرجه. ولكن صديقه غدر به. احتكر الكنوز لنفسه كما أن الباحثين أيضاً يجدون أسباباً أخرى لفشلهم. ويتذرعون بعدم قدرتهم على فك طلاسم الكنز. صرنا نرى الذهب روث الحمار أو قشور بصل. البحث عن الكنز. عالم رائع من الحكايا. وأبيات ممتعة من الشعر. دنيا جميلة من السخرية والمزاح.

أبي إنسان واقعي كان محبوباً من بيته وعائلته. ومع هذا كان يتركنا بين حين وآخر. ويذهب بعيداً. بعيداً جداً إلى أماكن لا نعرفها. تصلنا أخباره بعد شهور. وفجأة يعود إلى بيته. أعتقد أن إدمان البحث عن الكنز قد استبد بأبي كي يؤمن لعائلته بحبوحة من الحياة المرفهة. وكان يعثر أحياناً على بعض القطع. ما يؤيد صدق أقواله وسبب إدمانه. ولكن هذه القطع تبقى بعيدة عنه.

أعتقد أن أبي قد أضاع على نفسه كنزاً صغيراً بما أنفقه من الوقت والجهد والمال في البحث عن الكنز. مرة أخرى ذهب مع أصدقائه للبحث قاصدين أماكن بعيدة.

وكان مرض أمي قد اشتد. ويضغط عليها باضطراد. يرسل لها من حين لآخر بعض النقود. فنجلس في ذلك البيت أو في الحديقة الواسعة التي تملأها الأشجار الوارفة.

الخانة رقم (٣) في جان قورتاران ـ السليمانية

يعود أبي فجأة. إنه حزين جداً بسبب اشتداد المرض على أمي. ماذا يفعل كي ينقذها منه؟. العمل الذي سيقوم به. هو البحث عن الكنز أليس من أجلها؟. يعمل المستحيل كي يقدم لها الحياة التي تليق بها. وهو يعرف ذلك جيداً.

يقول الأطباء: إنه على أمي أن تسكن في مكان مرتفع. في أجواء نظيفة كثيرة الهواء. منزلنا الذي نعيش فيه. يقع في مكان منخفض وطابق واحد. وطوابقه عالية. مرة أخرى العربة ذات الحصان الواحد. تنغر، منغر.

ننتقل إلى بيتنا الجديد في السليمانية. وهي إحدى التلل السبع من استانبول. بناية تسمى «شيخ الإسلام» خلف جامع السليمانية. تنزل من باب بناية شيخ الإسلام وتتجه يميناً. ترى على الجهة اليسرى مسجداً محروقاً. مع بعض المزارات. إلى جوارها تماماً. تجد الخانة رقم ثلاثة تصعد إليه بعدة درجات. تدخل من باب الزقاق. تستقبلك شرفة في الوسط. وغرفتان إحداهما إلى اليمين والأخرى إلى اليسار. يسكن اليسرى الساعاتي الأحدب مع زوجته وأولاده الصغار. ويسكن اليمنى بائع حلويات من أصل عربي. كانوا يسمون الزنوج آنذاك عرباً. وكي يفرقوا بين العرب الحقيقيين والزنوج. كانوا يقولون بالعربي الأبيض

والعربي الأسود. الساكن في تلك الغرفة. كان من العرب البيض. ويعمل حلوانياً.

من هذه الشرفة الصغيرة يخرج سلّمان. أحدهما ينزل إلى الأسفل والآخر يصعد إلى الطابق الأعلى. الطابق السفلي. رطوبته عالية جداً. مفروشة بالحجر بلاطه كله تكسر وبعضه تحطم. هنالك غرفتان فارغتان، لا أحد يسكنهما. جدرانهما متصدعة لا أثر للطين عليها. حجارتهما مفككة عن بعض. غرفتان خربتان وكذلك النوافذ. العناكب تملأ الغرفتين وإلى جانب العتمة رطوبة عالية. لا أحد يرضى العيش فيهما.

ألم تسمعوا بتلك الحكاية الشهيرة: أن أحد الفقراء دعا ربه ورجاه كي يخلصه من فقره وعجزه وجوعه. فيتشقق الجدار فجأة. ويدخل سيدنا الخضر عليه السلام. ويفرغ أمامه تنكة من الذهب. عندما أتذكر هذه الحكاية والحكايا الأخرى المشابهة أتذكر هذا المكان. كثيراً ما دخلت المكان لوحدي. ظاناً أن الجدار سيتشقق وأسمع صوت الذهب غوروررر. يتناثر أمامي.

نستطيع الخروج إلى الحديقة من خلال عتبة من الحجر للطابق الأرضي. حديقة طويلة. حتماً سيعمل أبي على بناء خم للدجاجات التي نملكها. وسنزيد من عددها هنا. لنصعد الآن إلى الطابق الثالث. ثلاث غرف فوق الشرفة. في اليسرى تسكن السيدة أمينة وابنتها الجميلة وزوجها الذي يعمل بائع عيران في الصيف وبائع مجمدات في الشتاء. وهو من بلاد الروم «روملّي» في الغرفة اليمنى يسكن السكاكيني «صانع السكاكين» مع زوجته. والغرفة الخلفية فوق الحديقة. هي غرفتنا، هذه الغرفة أعجبت أمي كثيراً، لأنها مرتفعة وتهويتها جيدة. أول مرة تسكن في بيت يطل على منظر جميل. عندما تنظر من خلال النافذتين. ترى البعيد والبعيد جداً. أمامنا منظر رائع. بساتين واسعة من الأشجار

المتنوعة. أمي فرحة جداً. تعتقد أن حالتها ستتحسن هنا. غرفة لا أثر للرطوبة فيها.

في الطابق الثاني. وتحت غرفتنا تماماً يسكن الساعاتي الأحدب. إنسان فريد من نوعه عالم. ومتعلم وحرفي. يعرف كل شيء. أعتبره أذكى وأعلم شخص في هذه الدنيا. يحيرني. يدهشني لخصب معلوماته. يعمل حتى أيام الجمعة أي يوم العطلة الأسبوعية. يجلس على السديرة التي في غرفته. أمامه خزانة صغيرة، فوقها مجموعة من الساعات. وقطع الغيار يثبت على إحدى عينيه مكبراً غريب الشكل، يحمل في يده آلة عجيبة أيضاً. يُصلح الساعات المعطلة دون توقف. وفي الوقت نفسه يتحدث. يناقش الجميع، بكلام عذب جميل. رجل باسم على الدوام. تتراءى عيناه خلف عدستي نظارته السميكتين كحبات العدس الصغيرة، أشعر نحوه باحترام يخالطه الخوف. زوجته جميلة وابنه جميل. وهو يعرف أشياء كثيرة وطيّب جداً.

يقول عنه الجيران: إن هذا الأحدب يعتني بزوجته كثيراً. لا يخالفها بشيء ولا ينهرها أبداً. هو الآخر أدهشه علمي ومعلوماتي. يناقشني وكأنني رجل كبير أمامه. كلانا معجب بالآخر.

زاد عدد دجاجاتنا. رَخَم بعضها فوق البيض. وحضنته. صار عندي مجموعة كبيرة من الصيصان والفراريج. أظل مع دجاجاتي منذ الصباح حتى المساء وأعتني بها. أرعاها. ألعب معها كل مساء أحمل كيساً من القماش وأذهب إلى فرن في البازار الصغير. يعطونني. فتات الخبز اليابس، وبقايا الخبز العادي. أعود إلى البيت والكيس مملوء به. نربي دجاجاتنا دون تكلفة. لا نشتري شعيراً ولا ذرة. أبلل الخبز بالماء وأضعه أمام الدجاجات.

كان الساعاتي الأحدب ينزل معي إلى الحديقة صباح كل يوم. كان

يعاين كل دجاجة لوحدها. أي منهن ستبيض وأي منها لن تبيض. كان يعرف ذلك جيداً ويقول:

ـ ستحصل هذا اليوم على ثمان بيضات.

ـ ستحصل هذا اليوم على عشر بيضات.

ويكون تخمينه صحيحاً. كيف يعرف هذا الساعاتي الأحدب. كم تبيض الدجاجات؟. هل هو طبيب مختص بالدجاج؟. إنه يعرف أشياء كثيرة. كثيرة جداً. البيضة الطازجة ضرورية من أجل أمي. تشرب صباح كل يوم بيضة نيئة. لكن دون شهية. وبصعوبة بالغة. ونبيع ما تبقى منها.

أحد الأيام وجدت بيضة زائدة عن العدد الذي قاله الساعاتي الأحدب. بيضة صغيرة. كبيضة الحمام وأسرعت إليه وقلت له:

ـ زاد عدد البيضات بيضة واحدة عن تخمينك.

نظر إلى البيضة ضاحكاً وقال: هذه البيضة باضها الديك. هل يبيض الديك؟.

ـ بعض الديوك تبيض. ولكن نادراً. الديك الذي باض لن يكون ديكاً بعد الآن.

ـ هل يتحول إلى دجاجة؟. لا. لا دجاجة ولا ديك. لا هذا ولا ذاك. يجب ذبحه.

في أحد الأيام صعدت دجاجة فوق الجدار وبدأت تصيح مثل الديك. نعم. صاحت كالديك. أسرعت إلى الساعاتي الأحدب. هل تعلم يا عماه أن إحدى الدجاجات صاحت مثل الديك.

ضحك ثانية وقال: بعد الآن لا تعتبر تلك الدجاجة. دجاجة. لا دجاجة ولا ديك. يجب ذبحها أيضاً.

نذبحها.

تمرض دجاجاتي. عرفها الأحمر يتحول إلى السواد. رؤوسها تنحني.

وبعد يومين أو ثلاثة بدأت تموت اثنتان. اثنتان. ثلاث. ثلاث.

صنع العم الساعاتي دواء للدجاجات المريضة ووضعه في الماء. فتح منقار كل دجاجة بيديه. وسقاها الدواء. فابتعد المرض بعض الشيء عنها. كنت أراقب دخولها إلى المعشة وخروجها. وكيفية تصرفها مع نفسها ومع الأخريات. كيف تنقنق. تخبر الأخريات. أنها قد باضت وانتهت من مهمتها اليومية. أندهش. احتار من تصرفاتها. يا للعجب العُجاب. دخلت إلى القن (الخم) ظهر أحد الأيام لأجمع البيض. كانت إحداها قد ماتت خنقاً وهي أفضل دجاجة عندي. حمل الساعاتي الأحدب الدجاجة الميتة وأخرج البيضة من خلفها. بيضة كبيرة وبيوض أخرى عديدة وضمن أغشية. رقيقة. وقال:

ـ هذه البيوض تؤكل.

ـ ولكن الدجاجة ميتة.

ـ البيضة ليست ميتة. البيوض التي أخرجها من الدجاجة الميتة سقاها لولده نيئة.

كنت أظن الساعاتي الأحدب. ساحراً أو كيميائياً أو عالماً مجهول الهوية.

ربما لا يكترث به أحد بسبب وجود الحدبة في ظهره ولهذا بقي ملقى مهملاً على شاطئ الحياة وحيداً.

الرسالة القادمة إلى أمينة

عندما تنعطف من شارعنا نحو اليسار. تجد منزل أحد المؤذنين لجامع السليمانية على الزاوية تماماً. المؤذن عنده بنتان. الكبرى زينة ومتبرجة إلى أقصى درجة وتعد من بنات «التانغو». ويُعيبها كل أهل حينا لتبرجها الزائد هذا. إنها لا تليق بحيّنا. والأصح أن حيّنا لا يليق بها. كل النساء يتحدثن عنها. بالقال والقيل. يقولون إنها تخرج لوحدها كل يوم من

منزلها. تلف وتدور حتى تصل إلى حي «باي أوغلو».

في أحد الأيام أحضر ساعي البريد رسالة باسم «أمينة هانم».

السيد أمينة زوجة بائع العيران. القاطنة مقابل غرفتنا تماماً. فتحت الرسالة. وجدت داخل المغلف ورقة بيضاء فارغة. تجمعت نساء العمارة حول هذه الورقة الفارغة. ماذا تعني هذه الورقة التي لا كتابة عليها؟.

وليس على الظرف عنوان المرسل. من يستطيع معرفة ماهية الرسالة؟. إن وُجد أحد يعرفها فليس بالتأكيد سوى الساعاتي الأحدب. حمل الرسالة وألقى نظرة عليها وقال لي ضاحكاً: انظر سنقرأ هذه الرسالة الآن.

أخرج النساء من الغرفة. بقينا وحدنا. أشعل مصباح الكيروسين النمرة خمسة. ووضع الورقة الفارغة على فوهة المصباح من الأعلى. عندما ارتفعت حرارة الورقة. بدأت تظهر على الورقة كتابة بنية اللون. وكانت واضحة تماماً. قال لي ضاحكاً للمرة الثانية: اقرأ.

قرأت:

أمنيتي. في الساعة. أنتظرك في المكان كذا.

احترت في أمر هذه الرسالة تماماً. إنها رسالة حب حقيقية.

جارتنا السيدة أمينة. متقدمة في السن وقبيحة المنظر. نحيفة وطويلة.

من يرسل لها رسالة حب بهذا الشكل.

قال الساعاتي الأحدب ضاحكاً:

ـ لقد أحضر ساعي البريد الرسالة بالخطأ. رقم بيتنا ثلاثة، ورقم بيت المؤذن في الشارع الثاني ثلاثة أيضاً. هذه الرسالة مكتوبة إلى أمينة بنت المؤذن.

ـ ما نوعية هذا الحبر الذي لا يقرأ.

ـ لم تكتب بالحبر. بل بماء البصل. الرسالة التي تكتب بماء البصل لا تُقرأ. إلا إذا عرضتها لحرارة الشمس أو إلى النار عندها تظهر تماماً. وربما

عمد الرجل إلى هذه الحيلة كي لا يعرض نفسه للخطر. لربما فتح الرسالة والدها. لن نتحدث عن هذه الرسالة أليس كذلك؟.

ـ حاضر. لن أقول لأحد.

أحرق الساعاتي الأحدب الرسالة بعود الثقاب. وفتح النافذة فوق رأسه ونثر الرماد في الهواء وقال للنساء: ربما جاءت الرسالة بالخطأ. الورقة فارغة لم يكتب عليها أي شيء.

الزوجة الحلوة لبائع الحلو العربي

يسكن بائع الحلويات العربي. في الغرفة الصغيرة. مقابل غرفة العم الساعاتي الأحدب. رجل قبيح المنظر إلى أبعد الحدود. يملك صينية من النحاس وقاعدة من ثلاث قوائم وركيزة. يبيع البقلاوة والحلويات الأخرى فوق هذه الصينية. يخرج من البيت عند انبلاج الفجر ويعود إليه بعد حلول الظلام. يعيش كالغريب داخل هذا البيت. لا يتحدث مع أحد. ولا يراه أحد إلا لماماً. كنت أراه من بعيد يبيع الحلوى في السوق الصغير وفي قلعة الأخشاب «تخته قلعة» وفي «كانتر جيلر».

وكما تقول أمي. وتوصي به. على الإنسان أن لا يشتري شيئاً من أمثال هؤلاء الباعة المتجولين. لأن بضاعتهم تكون قذرة ومليئة بالجراثيم سمعنا أن بائع الحلوى العربي هذا سيتزوج. بدأت النساء القال والقيل.

ـ آمان يا أختي لقد اشترى أمتعة كثيرة لبيته. والله ستفقدين عقلك عند رؤيتها.

أحضر بائع الحلوى العربي زوجته إلى بيته. فتاة يافعة رفيعة. ناعمة. شابة. رائعة الجمال. نساء البيت عرفن خلال فترة قصيرة قصة حياتها. وماهيتها. يقولون: أن شاباً غنياً خدع هذه الفتاة الجميلة ووعدها بالزواج. وبعد أن نال مراده منها تركها في حال سبيلها. الأمر بالنسبة للفتاة كارثة بكل معنى الكلمة. لقد ساءت سمعتها. لا أحد يقترب منها

بعد الآن. ولا تستطيع الزواج. وهنا يلجأ أمثال هذه الفتاة إلى الزواج من أي رجل يقبل الزواج منهن، بالرغم من وضعها السيئ.

كنت أمضي نهاري في بيت بائع الحلوى. أتحدث مع الزوجة الجديدة حديثاً جميلاً شيقاً. لقد بلغت العاشرة من عمري. وبدأت الطفولة ترحل عني رويداً رويداً. وجاءت رياح المراهقة تعصف في جسدي يوماً بعد يوم. الفتاة جميلة لا تليق بزوجها القبيح هذا. كنت أشفق عليها كثيراً.

أشيع إن الحلواني اشترى أغراضاً كثيرة لمنزله. مجموع المشتريات لبيته عبارة عن غرفة صغيرة. ماذا يكون؟. قاعدتان وطاولة ومرآة. هذه الأشياء البسيطة كانوا يقولون عنها: أمتعة كثيرة لأن غالبية الشعب يعجزون عن شراء طاولة فقط.

في غرفة الحلواني لوحات كثيرة. منها قرآنية. الفتاة الجميلة لا تخرج من غرفتها أبداً ولا تتحدث مع أحد. لست أدري لماذا؟. هل لأنها جاءت عروسة ناقصة أم خوفاً من القال والقيل. من يدري؟. تحبس نفسها داخل غرفتها. صديقها الوحيد أنا فتاة حاضرة ومتحضرة. تعرف كل شيء. نظيفة. تضع الزينات من الأوراق العادية. والورود من أوراق الكربون. وتصنع الإطارات للوحات منزلها من الخيوط الحريرية. لا تتوقف أبداً. عمل متواصل.

تمسح غرفتها الصغيرة. تكنسها، تنظفها. وهي سعيدة. لا تشكو من شيء. متعلقة بزوجها كثيراً. لأنه يعتني بها. لا يخالفها. كل ما تقوله يتحول إلى أمر بالنسبة له.

يسكن الغرفة المجاورة لنا «السكاكيني» وزوجته. يصنع السكاكين في دكانه خلف جامع السليمانية. عندما انتقل مع عائلته. استأجرنا تلك الغرفة أيضاً. غرفة كبيرة فارغة. فارهة. أنا وأختي ننام فيها. لا يوجد فيها سوى فراشنا.

بعض التوضيحات حول مذكراتي

يستحيل أن يكتب الإنسان مذكراته وخواطره كما هي. ومن أعماقه. لم أستطع أن أوضح بعض المواضيع أو بعض الأمور كما يجب. بعضها كتبته بشيء من الرمزية والبعض الآخر بنوع من التغطية العقلية. والسبب في ذلك، لا أريد أن أتسبب في إيذاء الآخرين وخاصة من أحبهم. ولكن يجب أن تعرفوا شيئاً. لقد كتبت ما يتعلق بشخصيتي بكل تفاصيلها ودقائقها. ولكن ثمة جوانب أخرى متعلقة بالآخرين. ببعض الأشخاص. يجب أن تظل سراً.

هل رأيت ابن المسلم

هنالك مسجد منهار. خرب، ومزار ملاصقان لبيتنا تماماً. لم يبقَ من المسجد بعد الحريق الذي تعرض له سوى حجارته ومئذنته. والمئذنة على وشك الانهيار. وهنالك شاب صغير يصعد إلى المئذنة في كل وقت من أوقات الصلاة. يؤذن الفجر والعصر والمغرب والعشاء. اسمه فوزي. وبما أنه طالب في الصف التاسع يدرس في مدرسة «داؤود باشا» الإعدادية. لا يستطيع أن يرفع أذان الظهر لوجوده في مدرسته. أما أيام الجمعة. والعطل. فيؤذن الظهر أيضاً. فوزي يخدم المسجد المنهار. يكنسه ينظفه. ويعتني بالحديقة جيداً. فقد حولها إلى ما يشبه الجنة الصغيرة وكأن فوزي قد نذر نفسه للمسجد المنهار. والدي سعيد جداً لأن الأذان المحمدي يرفع قرب منزلنا على الدوام. ويحبُّ فوزي كثيراً ويقول: هل رأيت ابن المسلم. والحق يقال. كان فوزي يحترم الكبار. وأهل الحي كلهم يحبونه ويقدرونه. شاب ذو تربية عالية. صوته جميل. يؤذن ويقرأ القرآن. لم يسمع أحد عنه أنه أساء أو تصرف بما لا يرضي الله والناس.

كان والدي يدعوه لزيارتنا بين وقت وآخر. أخوه الأصغر حمدي يتعلم في ابتدائية السلطان سليم في الصف الثالث. تضاء المصابيح

الكهربائية في المقامات المتاخمة لبيتنا عند المساء فيتحول المكان إلى نهار. فوزي هو الذي يشعلها. وكان والدي يعجب منه ومن ذكائه ويقول:

- هل رأيت ابن المسلم.

في إحدى الأمسيات. كنت مع فوزي في حديقة المسجد. بدأ الظلام يخيم رويداً رويداً. حمل فوزي عصا طويلة. في طرفها معقال. علق سلكاً في طرف المعقال. تسلق الجدار وعلق السلك على الأسلاك الكهربائية المارة من هناك. قلت له: ماذا تفعل يا أخي فوزي؟.

- سترى بعد قليل.

ثم علق السلك الآخر على طرف العصا الطويلة. وضعها على الخط الثاني من الأسلاك. أضيئت المصابيح دفعة واحدة. منظر رائع فوق المقامات المصابيح تتلألأ كالنجوم في كل مكان من القبر. كان فوزي يكرر هذه العملية مساء كل يوم ويرفع الأسلاك بعد أذان الفجر صباح كل يوم. ثم يلف الأسلاك ويضعها في مكان لا يراه أحد. من موظفي البلدية أو جُباة الكهرباء.

كان أبي ينظر من خلال النافذة إلى أضواء المصابيح فوق المقامات وهو يستمع إلى آذان العشاء. ويقول: هل رأيت ابن المسلم.

ما كنت أنتقد فوزي آنذاك لأنه يقوم بسرقة الكهرباء. بالعكس كنت أقدره. كان فوزي يعرف كل شيء. كيف استطاع إضاءة هذه المصابيح بواسطة هذين السلكين.

يقول لي: نحن نتعلم الفيزياء. ونأخذ دروساً عن الكهرباء. أما أنا فبما أنهم لا يرسلونني إلى المدرسة. سأبقى جاهلاً بكل هذه المعارف. مدرسة سلطان سليمان القانوني الابتدائية.

كان أبي سعيداً جداً لسكنانا قريباً من المسجد، نسمع الآذان في كل الأوقات. أما أمي فكانت تنظر عبر النافذة إلى البعيد. لا تتجه أبداً

صوب المقبرة وكانت تقول: أحس بالكآبة عندما أنظر إلى هذه المقبرة وإلى أشجار السرو هذه.

المرض يشتد عليها مع مرور كل يوم وساعة. تذهب إلى المستشفيات. يفحصها الأطباء. ضعيفة. هزيلة. دون شهية. لا تغادر فراشها إلا نادراً. كان والدي يلح عليّ أن أصعد إلى تلك المئذنة نصف المهدمة. وأرفع الأذان. أما أمي فلم تشأ ذلك. لأنها تخشى انهيار المئذنة وأنا فوقها.

صعدت مع الأخ فوزي عدة مرات إلى المئذنة وأذّنت.

كان الأخ فوزي يأتي إلى منزلنا بين وحين وآخر. ويقرأ دروسه عندنا. كنت أنظر إلى كتبه بشهية. يرسم كثيراً. أراقب طريقة رسمه على دفتر الرسم بدهشة وإعجاب. يضع كأساً مملوءاً بالماء أمامه. ويرسمه صورة طبق الأصل. كان يراعي. الظل والخيال والإضاءة بشكل دقيق. وانعكاس الماء على سطح الكأس. بدأت أنا الآخر بالرسم متأثراً به. هذا التأثير لم يفتر عندي حتى بعد مرور عدة سنوات. بل ازداد أضعافاً مضاعفة.

عندما سأدخل المدرسة. سأظل أردد سأكون رساماً. سأكون رساماً مع أنني لم أر في حياتي رساماً واحداً. وحتى العائلة بأكملها. لم يروا ولم يسمعوا بهذا العمل أبداً. بعد سنوات سأكون ضابطاً. وسأذهب إلى كلية الفنون الجميلة. لأتعلم الرسم هناك. كلها من تأثيرات الأخ فوزي.

كان فوزي يسألني أحياناً: لماذا لا تذهب إلى المدرسة؟.

ـ أبي لا يريد.

ـ مدرسة حمدي قريبة من هنا. اذهب أنت أيضاً. أنا تخرجت من تلك المدرسة. وكيف سأذهب؟.

ـ أعلمك. أرشدك إلى الطريق. أنت تعرف أشياء كثيرة. لنكتب

معروضاً نطلب فيه مثولك للامتحان، فتجتاز الامتحان. يعطونك الشهادة. المتخرجون من الصف السادس لا يعرفون القراءة والكتابة مثلك.

أمي تفرح كثيراً. تسأل فوزي: هل يدخلونه الامتحان؟.

ـ نعم يا خاله؟.

ـ هل يعطونه الشهادة الابتدائية؟.

ـ يعطونه يا خالة. وعندما يأخذ شهادته سينتسب إلى مدرستي. مدرسة داؤد باشا الإعدادية.

أنا وأمي فرحنا كثيراً. الآن عطلة. عندما تفتح المدارس أبوابها. ويفتح باب التسجيل، أقدم لك طلباً.

تقع مدرسة سلطان سليمان القانوني الابتدائية خلف جامع السليمانية. في أعلى الطلعة وقبل النزول إلى «تخته قلعة». أذهب إلى هناك سراً. أنظر إلى نوافذ المدرسة من بعيد. أتجول في حديقتها. يا ترى هل سيأتي يوم أدخل فيه من باب هذه المدرسة؟.

أمٌّ في قروجشمة ـ (النبع الجاف)

يعيش فوزي مع أخيه حمدي في منزل خشبي مكون من طابقين. تماماً عند المنعطف بعد منزلنا بقليل. يسمون ذلك البيت، منزل الجدة الهانم. لا تخرج الجدة الهانم وأختها من منزلهن أبداً. امرأتان دون زواج. كلتاهما عانستان ويعتقد أن أزواجهما قد ماتا، وهنّ عمات فوزي وشقيقه حمدي.

فوزي وحمدي لا يذكران أباهما أبداً. لا يتحدثان عنه. لا يفتحان سيرته. جاء الأخوان إلى بيتنا في أحد أيام الجمعة. وقالا إنهما سيذهبان إلى قروجشمة لرؤية والدتهما. وطلبا مني مرافقتهما. قلت لهما: أذهب معكما.

عند الصباح. خرجنا إلى الطريق. لا نملك قرشاً واحداً.

سألتهما: هل المكان بعيد من هنا؟. قال الأخ فوزي: نعود عند الظهر. الأخ فوزي. أثق به. وأقدره وأحترمه.

بدأ حمدي يسرد قصة أمهما. حمدي يكبرني بعامين: قال: إن والدته تسكن في منطقة «قروجشمة» (على الأغلب إنها تزوجت من شخص آخر. كان حمدي يتحاشى ذكر ذلك). وإن أباهما قد مات. وكانت عمتاهما تمانعان في إرسال الولدين إلى أمهما. ولهذا السبب كانا يذهبان سراً إلى هناك.

المسافة بعيدة جداً بين السليمانية وقرو جشمة. نمشي ثم نمشي والطريق لا ينتهي جسر غلطة ـ قرة كوي ـ توب خانة ـ فندقلي ـ أورتا كوي.

نسير ونلعب. نقف ننظر إلى هنا وهناك. نقضي الوقت عبثاً. نالنا التعب. يقول حمدي: في كل مرة نذهب إلى أمي. تعطينا نقوداً. أثناء العودة سيكون معنا نقود وسنركب الترامواي. كنا نحث خطانا بعض الشيء على أمل أن تكون عودتنا بالترامواي:

ـ لا تقل لأحد في الحارة أننا ذهبنا لرؤية أمي. آ.

ـ لن أقول لأحد.

وصلنا قرو جشمة. ولكن كيف وصلناها لا أحد يدري. منهكين تماماً. مقابل مستودع الفحم زقاق صغير. قالا لي في أول الزقاق: انتظرنا هنا. لن نتأخر عليك. سنرجع حالاً.

ودخلا الزقاق الصغير. انتظرت ثم انتظرت. لم يأت أحد. ماذا أفعل الآن يا ترى؟. جلست على أحد حجارة الرصيف. أحسست بالجوع. لقد قال حمدي: أمي تعطينا نقوداً. نشتري الكعك أثناء رجوعنا.

آه لو يعودا. شاهدت صنبور ماء هناك. ذهبت وشربت. أجلس ثم

أقف. تجولت في المكان. ولم يعودا. بعد وقت طويل خرجا من الزقاق. بدأنا السير. لا يتحدثان. وجهاهما مكفهران عليهما آثار الحزن والغضب. عدنا أدراجنا. وصلنا موقف الترامواي ثم تابعنا المسير. وصلنا إلى «أورتا كوي». وما زلنا نسير.

ـ ألن نشتري كعكاً؟.

لم يجب أحد.

ـ ألن نركب الترامواي؟.

ظلا صامتين.

الشقيقان في حال يرثى لها. ألم يجدا أمهما في المنزل يا ترى؟. ألم تعطيهما نقوداً؟. هل حصل شيء مكروه؟. هل يخافان من عمتهما لأنهما تأخرا؟. ماذا سيقولان لهما؟. نعم هنالك حادثة وراء هذا الصمت. ولكنهما لا يقولان شيئاً. مشكلتهما خاصة بهما.

عندما وصلنا إلى «بشيكتاش» عادت الفرحة إلينا ثانية. بدأنا نضحك. قال حمدي:

ـ الحذاء يؤلم قدمي.

أنا الآخر: أتألم من رقعة «الجراب».

الأخ فوزي يزرع فينا القوة والأمل. نسير ثم نجلس قليلاً على الطريق.

ـ يا لله يا أولاد تأخرنا كثيراً.

حمدي ولد كسول. تنبل. قال:

ـ لنقفز إلى الترامواي وعندما يأتي قاطع التذاكر. نقفز ثانية إلى الأرض. في حياتي كلها لم أتعلق بالترامواي.

قال فوزي:

ـ هذا غير ممكن. هيا امشوا.

ـ والله تعبت ولك أخي.

ـ تمالك نفسك.
ـ والله جعت يا أخي.
ـ امش. امش.

نصمت بعض الوقت. لا نتحدث. ثم نجري ونضحك ونلعب.

وصلنا إلى «قرة كوي». طيب ماذا سيحصل الآن؟. المرور فوق الجسر مأجور. يأخذون عشرين بارة عن كل فرد. جسر غلطة وجسر اونكباني. كيف سنجتاز إلى الطرف الآخر ولا نملك قرشاً واحداً ويقف على كل طرف موظفان اثنان. لا يسمحون لأحد بالمرور من هناك. الذين لا يملكون المال. كانوا يهربون إلا أن الموظفين يقبضون عليهم ويعيدونهم إلى الطرف الآخر.

دفع فوزي الحساب أثناء مجيئنا إلى هنا أما الآن من الذي سيدفع.

كانوا يأخذون عملة خاصة للمرور في الجسر يسمونها «جوتون» قيمتها تساوي عشرين بارة. وتستعمل في كل مكان. كنا نملك جوتونا ين. أجرة اثنين فقط.

قال فوزي لحمدي:

ـ هيا اقفز إلى الترامواي لنرَ كيف ستفعل، وعندما تجتاز الجسر تنزل منها.

حمدي الذي كان يشكو طوال الطريق أنا تعبت. خلينا نطلع على الترامواي نتعلق بها. قال: أنا لا أستطيع القفز إلى الترامواي. واقتربنا من موظف الجسر. مشيت في المقدمة وعندما كنت أمر بين الموظفين صرخ فوزي من الخلف:

ـ معي.

ودخل حمدي من بعدي. اجتزنا بأجرة شخصين.

عندما بدأ الظلام يخيم رويداً رويداً. انتابتني موجة من الخوف. ماذا

سأقول لأمي الآن؟. وإذا كان أبي قد وصل إلى البيت ماذا سأفعل.

وصلنا إلى باب شيخ الإسلام وكان الظلام قد عمّ تماماً.

دخلت باب البيت مذعوراً. صعدت السلم بحذر. فتحت باب غرفتنا وإذا بأمي نائمة. قلت وأنا أدخل الغرفة: كنت مع الأخ فوزي وشقيقه يا أمي. لم يكن والدي قد جاء بعد.

الزنجي الشاذ

كتب الأخ فوزي الطلب الذي سيجعلني أدخل الامتحان في مدرسة السلطان سليمان القانوني الابتدائية. أخذت الطلب وأعطيته لمدير المدرسة شخصياً.

كنت في حالة حماس شديد. فطلب مني ست صور شمسية وشهادة التلقيح. لأول مرة في حياتي أتصور. هنالك فتاة جميلة هي شقيقة أمينة ابنة المؤذن وربما بدأت أرى الفتيات كلهن جميلات في تلك السن. كانت تدرس في المدرسة الإعدادية.

هي التي ستأخذني إلى المصور. ألبستني أمي ثيابي الجديدة. ووضعت الشال على عنقي.

خرجنا من البيت. اتجهنا نحو اليمين من «ترياكي حسن باشا». مررنا أمام مكتبة الجامعة حالياً. هنالك مخفر حراسة صغير للبوليس. دائماً فارغة. لا يقف فيها أحد. مررنا أمام مخفر الحراسة، فرأينا زنجياً جالساً داخلها. بشرته سوداء مثل الليل. ضخم الجثة. جلس على الأرض وقد حلَّ أزرار بنطاله كلها.

يده في الأمام. يقوم بشيء ما. ربما كان شيئاً معيباً قليل التربية. يتنفس باستمرار. يقوم بشيء لم أعرفه. عيناه جاحظتان. ربما يكون ثملاً. لا أحد سوانا في هذا والشارع.

هجم. سيهجم. قلبي ينبض بسرعة. لو لم تكن هذه الفتاة معي

لهربت، ولكن الهرب أمام الفتاة عيب. ثم ولو هربت. كان الزنجي سيطاردني.

نمشي بسرعة. بسرعة فائقة.

وصلنا إلى بيازيد. دخلنا وسط الزحمة. فسألتني الفتاة:

ـ ماذا كان يفعل ذلك الرجل؟.

ـ لا أدري. حقيقة ما كنت أعرف.

ـ آ آ آ. هل صحيح أنك لا تعرف. تضحك.

كانت كلمة (الزي) آنذاك مودة. الناس كلهم تلاءموا مع الأزياء. لوحات كثيرة مكتوب عليها /مودا/. أزياء الخياط مودة الحلاق.

ونحن كنا نذهب إلى مودا المصور.

البئر الارتوازي

كنت في حالة انفعال شديد هذا اليوم. سأدخل الامتحان وبنتيجته. سيقررون في أي صف سيضعونني. استيقظت باكراً في ذلك اليوم. استحممت. تقف اللقمات في بلعومي وأنا أفكر. أمي تلبسني. تقبلني. تحبني. تمسد شعر رأسي. وتقول: سأدعو من أجلك يا بني. هيا مع السلامة.

أطفال كثيرون أمام باب مدرسة سلطان سليمان القانوني. كل واحد منهم معه رفيق. إما أبوه أو أمه. كل ولد يمسك بيد أبيه أو أمه. أنا وحيد. غربة قاهرة أطبقت على صدري. أصعد درجات السلم ورأسي يدور جراء اختلاط الأصوات الكثيرة. أطرق باب السيد المدير.

ـ ادخل!.

أقف وجهاً لوجه أمامه. السيد المدير يتضاعف (يتعجرف). يكون خمسة ثم عشرة ثم مئة. السادة المدراء يتجولون هنا وهناك في أرجاء المكتب.

سأقع.

ـ ماذا تريد؟.

ـ جئت من أجل الامتحان يا سيدي. أنتم طلبتم حضوري هذا اليوم.

ـ اذهب وراجع الأستاذ ذكائي.

أخرُجُ. أستاذ ذكائي. أستاذ ذكائي. من هو الأستاذ ذكائي. أين هو الأستاذ ذكائي؟. الأستاذ ذكائي الأستاذ ذكائي. قال أحدهم:

ـ في غرفة المعلمين.

وأخيراً وجدت الأستاذ ذكائي.

ـ لقد أرسلني السيد المدير يا سيدي ـ من أجل الامتحان.

ـ ها. أأنت؟.

طلبي أمامه. ثلاثة معلمين فقط موجودون هناك. أحدهم بعمامة.

يفتح كتاب القراءة:

ـ اقرأ.

اقرأ بسهولة (عزول. عزول). بالنسبة لي سهل جداً. يفتحون صفحة أخرى. أقرأها. يفتحون صفحة من كتاب الصف الخامس. أقرأها أيضاً.

ـ اكتب.

هم يملون وأنا أكتب. وكلما انتهيت يملون علي جملاً أكثر صعوبة. اكتبها أيضاً. أراهم من طرف عيني. يتبادلون النظرات تعبيراً عن إعجابهم وقبولهم. الشيخ أبو العمامة يفتح القرآن أمامي. السورة المفتوحة أحفظها غيباً. أقرأ دون أن أنظر إلى القرآن. يقول الشيخ:

ـ عفارم. عفاااارم.

يفتح صفحة من منتصف القرآن. اقرأها بالتجويد.

ـ أصابته الحيرة.

يمليني أحد المعلمين جملة ويسأل:

ـ أين الفعل في هذه الجملة؟.

أقول له:

ـ فعل.

أقول:

ـ صيغة هذا الفعل كذا.

تعجبوا كثيراً. يسرع أحد المعلمين ويأتي بمعلمين آخرين والمدير. يتهامسون.

المدير يسألني المعلون يسألونني:

ـ إنه يعرف النحو والصرف على أكمل وجه يا سيدي.

ـ فوق العادة.

ـ ليقرأ القرآن واستمع إليه. هل تعرف سورة تبارك؟.

ـ أعرفها يا سيدي.

وأبدأ بالقراءة:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم.

ـ تعرف التجويد أيضاً.

ـ نعم يا سيدي.

ـ هل قرأت سيرة الأنبياء.

ـ نعم يا سيدي.

ـ هيا اشرح لنا غزوة الخندق يا بني.

أشرح لهم.

ـ الله. الله. ما شاء الله.

يتهامسون.

ـ لنسأله في الحساب أيضاً.

يسألونني. لدي كل معرفة. يندهشون. يسألونني أسئلة أصعب.

ـ لنسأله في الهندسة. قاعدة أسطوانة قطرها خمسة سم وارتفاعها عشرة سم. ما هو حجم تلك الأسطوانة.

مر أكثر من أربعين عاماً على هذه الحادثة. لا أتذكر الأسئلة تماماً. ولكن ما يشبه هذه الأسئلة.

يقول أحدهم:

ـ لنمنحه الشهادة.

أقول لهم بغرور:

ـ أعرف اللغة الفرنسية أيضاً يا سيدي.

ـ هل تقول الفرنسية؟.

ـ نعم.

يقول الأستاذ ذكائي:

ـ لنسأله سؤالاً في العلوم الطبيعية.

شو يعني العلوم الطبيعية؟. أنا لم أسمع شيئاً عن هذا. مرّ أربعون عاماً ولكن السؤال بقي في ذاكرتي. لم أستطع أن أنساه أبداً.

ـ هيا اشرح لنا البئر الارتوازي يا بني. ما هو البئر الارتوازي؟.

هل قلت البئر الارتوازي؟. لم أسمع عنه أبداً. اصمت. السؤال الثاني ما زال في عقلي.

ـ ما هو تركيب الهواء؟.

شو معنى تركيب الهواء؟. اسكت.

يسألونني عن الجغرافيا. لا أعرف شيئاً. عن التاريخ. لا أعرف.

يحتارون في أمري. كيف أعرف الأشياء والمعلومات الصعبة ولا أعرف شيئاً من الدروس السهلة جداً. لم يعلمني العم غالب شيئاً عن البئر الارتوازي. ولا عن تركيب الهواء. حتى أعرفها. أوشكت أن أبكي. المدير والمعلمون يحزنون من أجلي كثيراً. أنا في العاشرة من عمري. يجب أن أدخل الصف الثالث. وبالفعل تمّ قبولي في الصف الثالث. شعرت بفرح غامر. انتهى. صرت من تلاميذ المدرسة.

عندما قالت لي أمي ونحن نصعد طلعة الحسكي في أحد الأيام:

- كن طبيباً يا بني. واجعلني أتحسن على يديك. هكذا قالت لي أمي.

سأدرس وأدرس لأصبح طبيباً. وسأجعل صحة أمي على ما يرام.

دخلت ساحة جامع السليمانية. إنها ساحة واسعة.

جلست على الدرجات الخارجية للجامع وبكيت كثيراً من شدة الفرح.

مشاهدة أو مشهد واحد

تعرفون أن الدول الأخرى تحاول وبشتى السبل والوسائل أن تصدر من منتجاتها ومواطنيها وفنانيها، خارج حدودها، كي تحتل مكانها على الخريطة الحضارية للعالم. وتحاول إثبات وجودها للآخرين. وأما نحن؟.

تعمد الحكومات المتعاقبة على تصدير المطربين والمطربات وفناني الأوبرا. الراقصين والراقصات. العازفين على البيانو والكمان والرسامين وعازفي البيانو للكتاب الغرباء. والمسرحيين. وما شابههم. وبهذا كأنهم يريدون أن يقولوا للعالم المتحضر.

- انظروا. نحن أيضاً أمة متحضرة. مغنو الأوبرا عندنا مثل المغنين عندكم وخاصة أنهم يغنون باللغة الأجنبية. ويمثلون الأوبرا أفضل من ممثليكم. هل رأيتهم، يمثلون نصوص شكسبير. إياكم أن تظنوا أننا دولة

أو أمة بدائية. انظروا عندنا موسيقيون أيضاً. مثلكم تماماً. وبعضهم يعزف على البيانو والكمان أفضل منكم. انظروا لوحات رسامينا أيضاً. إياكم، أن تظنوا أننا مجتمع متخلف.

طيب وأدبنا؟. والمسرح التركي والرواية التركية. والقصة القصيرة التركية. والشعر التركي. والسينما التركية؟. أين كل هؤلاء؟. لا يوجد. تعمد الحكومات على إخفائها كلها عن الآخرين. تعتبرها غير موجودة أبداً.

مُغنِّي الأوبرا يستطيع الخروج. الموسيقيون يظهرون للآخرين والرسامون كذلك. لأن كل هؤلاء لا علاقة لهم بالنقد ولا كونهم ضد الحكومة، أو معها ولكن الأدب فن التوضيح والتفهيم.

في عهد /أتاتورك/ كانت هناك محاولات لتصدير الأدب التركي إلى الخارج ليطّلع عليه الغرباء مثلاً. عمدت مديرية النشر والتوزيع التابعة لوزارة الداخلية آنذاك في عام (١٩٣٥) على ترجمة آثار الأدباء المشهورين آنذاك إلى الفرنسية وبعد أن قامت بالترجمة جمعتها في كتاب واحد سمته: «مختارات من الأدب التركي المعاصر»، ووزعته على السفارات الموجودة في أنقرة. وكانت الأسماء في هذا الكتاب على الشكل التالي: أحمد هاشم ـ يحيى كمال ـ ضياء كوك ألب ـ كمال الدين كامي ـ فاروق نافذ ـ ناظم حكمت ـ أحمد قدسي ـ نجيب فاضل ـ بهجت كمال ـ بشار نابي ـ أحمد محب ـ يعقوب قدري ـ عمر سيف الدين ـ رفيق خالد ـ أكا كوندوز ـ رشاد نوري ـ محمود يساري ـ أرتم بيامي صفا ـ فالح رفقي آتاي ـ روشان أشرف ـ وداد نديم ـ جواد قدرت.

بالرغم من أن رفيق خالد كان في المنفى وهو في المائة والخمسين. وناظم حكمت. كان شاعراً شيوعياً. وأكبر معارض للدولة. ولكن تلك

الحكومة كانت واثقة من نفسها. وقد ترجمت أعمالاً أخرى كثيرة إلى كثير من لغات العالم. آنذاك، كي يتعرف العالم على الأدب التركي عن كثب.

أما ما يجري اليوم فهو عكس ما كان يجري آنذاك. والذين لا يتصرفون بعقلانية لا يفهمون معنى ولا دلالة المقولة القائلة صار العالم صغيراً وأترابي الكتاب يعمدون على ترجمة آدابهم دون توقف كي يشعر العالم بهم.

لماذا كتبت؟

هذه المذكرات لم أكتبها لأن لها أهمية كبرى. هناك سببان رئيسيان مهمان لكتابة مذكراتي. أردت أن أقدم شريطاً مسجلاً للمجتمع التركي. بناء على المجريات الحاصلة والدافعة ليومياتي ومذكراتي. وهذه المذكرات تعتبر قطعة رائعة وصورة حية لبنية المجتمع التركي آنذاك. هناك تشابهات كثيرة بين مذكراتي وبين مذكرات الذين جاءوا قبلي بقليل، والذين جاءوا بعدي بقليل. كلنا جئنا من تحت الحصار. الحصار الفكري والاقتصادي حتى وصولنا إلى ما نحن عليه الآن.

ليعلم أولادي وأترابهم. إن آباءهم ليسوا سوى نتاج مغامرات تشبه مغامراتي في كل شيء. ولكن هناك أناس كثيرون. يخجلون من ماضيهم من فقرهم وعجزهم وآلامهم. ويخفون ذلك عن أولادهم وكأنه نوع من النقص. أو نوع من العيب. لي مجموعة من الزملاء هم الآن من أصحاب الملايين كانت أمهاتهم تغسلن الثياب للناس. أيوب. والده ذو دخل محدود. علمه ورعاه حتى أوصله إلى ما هو عليه اليوم. ولكن بعد أن صار مليونيراً. بدأ يكذب على أولاده ويقول لهم: أن جده كان باشا من باشاوات العثمانيين. وأن عائلته غنية جداً.

كثير من الآباء والأمهات. سيجدون ذكرياتهم في مذكراتي هذه.

أعتقد أن فارقاً كبيراً بين أهلي وأهاليهم. يصل إلى مائة أو مئتي عام. الفرق بيني وبين أبي يتجاوز أكثر من ثلاثمائة عام. كان هذا الفرق فراغاً عبثياً بكل معنى الكلمة. أردت أن أوضح هذه النقطة من خلال مذكراتي. يا ترى من أين جئنا.

والهدف الثاني في سرد قصة حياتي هو: هكذا جاء ولكن لن يذهب هكذا. نعم هكذا جاء ولكن لن يذهب هكذا. ولا يستطيع الذهاب.

هكذا جاء ولن يفارقنا.

ليعرف كل الذين يرددون هذه المقولة هكذا جاء وسيفارقنا ليعرفوا جميعاً أن المستعمرين وأصحاب المصالح والمخادعين والمنافقين والمخدوعين. هكذا جاءوا ولكن لن يذهبوا هكذا. أولادنا سيعيشون أفضل منا. لن يذوقوا ما ذقناه. نحن أنقذنا بعض الذين جاءوا من نفس الطريق ووصلوا إلى مستويات مادية عالية من الحالة الاقتصادية.

ـ مستحيل أن يفشل الإنسان ـ إذا كان لديه قابلية التطور وقابلية العمل المتواصل. كذب وافتراء هذا الكلام الذي يقولونه. أين الذين غرقوا وماتوا في ذلك المستنقع الذي خلصنا نحن أنفسنا منه. خلاصنا نوع من المصادفة الخيرة.

سيأتي يوم وستخنق فيه هذه الآلام. وسينزل الجميع إلى ساحة السباق بفرص متكافئة. لن يستطيع أحد أن يقول كما هو الحال الآن.

ـ هذه هي الحرية. هيا اركضوا لنرَ. من الذي سيسبق الآخر.

ولكن أحدنا مغلول القدمين طوال النهار، والآخر يدرب جسمه ونفسه على الجري كل يوم. هذا هراء. هذا غبن. السباق يكون عادلاً عندما يقدمون الفرص المتكافئة للجميع.

محادثة. مصاحبة

قرائي الأصدقاء. ها أنتم عرفتم قصة حياتي حتى العاشرة من عمري.

هناك طريقان اثنتان ستفتحان أمام واحد مثلي، إما أن أغيِّر صفي، أو أترفع إلى الصف الأعلى. وسيكون سعيداً من تقدم له النعم وسيتلاءم. أو أنه سيظل يحارب من أجل الذين سيأتون من بعده. يعني سيكون اشتراكياً. وهذا هو سبب كوني يسارياً واشتراكياً. اشتراكيتي هي نتاج طريق حياتي التي أعيشها. وعندي القناعة المطلقة. أن الشعب لن يحقق النماء والتطور والازدهار إلا عبر الاشتراكية. وقناعتي أيضاً أنه في ظل الاشتراكية وحدها. لن يذوق أولادنا المرارة والآلام التي ذقناها نحن.

من خلال مذكراتي ستفهمون. لماذا صرت كاتباً ساخراً.

في عام (١٩٥٣) نشرت كتاباً بعنوان الباقون في الخلف. سأضع هنا بعض المقاطع من مقدمة ذلك الكتاب.

مضى خمسة عشر عاماً. دخلت الباب العالي بأشعار الحب. وخرجت منه على رأس الطلعة ويداي مكبلتان. مقيدتان. بالأصفاد.

هذا القلم الصغير التافه. صار هدفاً حقيقياً. لكل الرؤساء. لديكتاتوريين. للذين يلحسون القفا. للهدافين الأعمياء.

أعود وانظر إلى الوراء الآن. وأرى نفسي عرضة لما تعرض له ذلك الولد الشقي الذي أدخل إصبعه في خلية «الدبور». وكل ذنبي أنني. أزعجت وضايقت السادة الذين يحسبون أنفسهم سادة النحل العسلي. وليسوا إلا دبابير.

أحبائي القراء. لم يبقَ لي بعد كل هذا الحصار والحروب سوى بضع

حفنات من القهقهات. ولم يأتني ذلك إلا عبر الدموع الغزيرة التي سكبتها.

هكذا أتينا للحياة ولن نغادرها بإرادتنا.

اللحم

اللحم لم يطه في قدرنا مطلقاً. وإذا ما حدث ذلك وتيسر الطعام مع اللحم كانت الاحتفالات تقام والفرح يعم الجميع. لقد أوصى الأطباء أن تأكل أمي المزيد والكثير من اللحم. بعد معاناة صعبة جراء تعرضها لأمراض عديدة. بعد أن تأكدوا أن أمي مصابة بالسل. ويجب أن تتغذى جيداً. كانت عينا أمي. تزدادان سواداً ولمعاناً. أما جلد خديها فقد تحول إلى وردي وكأن شمعة أضيئت. كنت أفهم من خلال وشوشات الجارات. وهن يحاولن إخفاء كل شيء عني. أنه مرض خطير. أو أنه السل. وعرفت أنه. مع تقدم المرض. يبدأ وجه المريض بالتحول إلى بقع بيضاء. ويزداد بريق عينيه. مع أن أمي عندما كانت مريضة قبل إصابتها بالسل. وكان وجهها يذبل كلما ازداد ضعفها.

لا أدري من أين كان اللحم يأتينا مجاناً. ربما من «جمعية مكافحة السل». أو مديرية الصحة أو البلدية لكنني أعلم أن أبي قد حصل على ورقة مختومة من إحدى الدوائر. حيث نأخذ تلك الورقة إلى قصاب في «جمبرلي تاش». ويعطينا كل أسبوع نصف كيلو من اللحم مجاناً.

بعض الأحيان كنت أذهب مع أبي إلى دكان القصاب. الذي يسألنا.

ـ كيف تريدون اللحم؟.

في أكثر الأحيان يقول أبي:

ـ رأس عصفور.

نصف كيلو من اللحم. يعتبر بالنسبة لنا دواء ناجعاً لأمي. وكنت اعلم علم اليقين أن أمي تتعرض لعذاب شديد. لأنها ستأكل اللحم

وحدها وكذلك الدواء. نعم إنه عذاب حقيقي. لأن الصحة التي ستأتيها جراء أكل اللحم. ستفقد مقابلها ضعافاً مضاعفة بسبب الداء الذي ينهش صدرها لأن ما تسمعه شيء وما تعيشه على الواقع شيء آخر. كلما حاولت إطعام اللحم لأولادي أو شجعتهم على تناوله. أتذكر تلك الأيام. أحاول قدر المستطاع أن أبتعد عن البيت عندما يطهون فيه اللحم.

وحقيقة لا أحب أكل اللحم كثيراً. و أبتعد من أجل أمي. لأنها لن تستطيع أن تأكله بمفردها. وستعمد على إعطائي قسماً منه.

القطة الرمادية والمنطقة بالسواد

قطتنا الرمادية المنقطة بالسواد. مات صغارها الذين ولدتهم ولم يبق منهم سوى قطة صغيرة واحدة مكتنزة شحماً ولحماً. القطة تكير لا تسرق شيئاً من طعام المنزل. حتى ولو ظلت جائعة فلا تقترب من الطعام إلا إذا وضعت نصيبها في طبقها المخصص لها. كنا نقول للخالة أمينة.

قطتنا لا تسطو على أي شيء. فالخزانة الخشبية. الشبكية مفتوحة دائماً.

فتجيب يبدو أن المسكينة قد ضُربت كثيراً حتى اعتادت على هذه التربية الحقة. ولكن ابنتها «صارمان». كانت سارقة خلافاً لأمها.

ذات يوم جاءت تكير وفي فمها قطعة كبيرة من اللحم. وبما أن قطعة اللحم كبيرة. كانت تصعد درج البيت بصعوبة بالغة.

كنا نحن الثلاثة أمي وأنا والخالة أمينة ننظر إلى تكير بتعجب. وقفت على الشرفة والقطعة في فمها. تلفتت ما حولها وعندما لم تر أحداً. وضعت اللحم على الأرض وبدأت بالمواء. جاءت صارمان وتعلقت بالقطعة التي أمام أمها. حملت تكير قطعة اللحم بفمها ووضعتها فوق الطبق الذي كانت تأكل منه. قفزت «صارمان» فوق اللحم وبدأت تأكل وفيما كانت صارمان تأكل اللحم. تمددت تكير على الأرض قرب

ابنتها. وبقيت هكذا مدة من الزمن وهي تمسح ووجهها بيديها.

وقفت أمي فجأة ودخلت الغرفة. وعرفت سبب دخولها. قطعة اللحم التي أمامها كانت أكبر من صارمان. فأكلت منها حاجتها. بعد ذلك كانت تكير تأتي إلى البيت حاملة قطعة لحم أو فخذ دجاجة. أو قطعة العظم. وكان اللحم الذي تأتي به تكير اكثر من اللحم الذي نأتي به لأمي. أصبحت تكير سارقة بكل معنى الكلمة. مع أنها ما كانت تقرب أي طعام في منزلنا. تأتي باللحم الطازج تطعمه لصغيرتها. من أين كانت تسرقه. لا أحد يدري. المهم أنها كانت تطعم ابنتها.

كانت أمي تشوي اللحم على المنقل. وبما أن رائحة الشواء تتوزع في أرجاء منزلنا والمنازل المجاورة. كانت أمي تقوم بعملية الشواء عندما لا يكون أحد في المنزل المجاور لأن الرائحة تفتح شهية الإنسان وخاصة عن بعد. علماً بأن أحوال الجيران أسوأ من حالتنا بكثير.

في إحدى الأمسيات شوت أمي اللحم في الطابق العلوي. وأعطتني قطعة منه فقلت لها: لا أريد. وبينما كانت تحاول إطعامي قسراً وإذا بتكير تصعد السلم وفي فمها قطعة كبيرة من اللحم. ونادت ابنتها بموائها المعتاد.

قالت أمي:

ـ افتح النافذة يا بني. صار الدخان كثيفاً في الغرفة. احترقت عيناي قالت ذلك ومسحت عينيها بطرف غطاء رأسها.

جلسنا حول المائدة. نريد تناول طعام الغداء. وكان الوقت ظهراً. فرشنا قطعة القماش ووضعنا الطاولة فوقها وفوق الطاولة وضعنا صينيتنا السماوية المزهرة. جاءت تكير ودخلت بيني وبين أمي وتمددت فوق قماش السفرة. هكذا كانت تتصرف دائماً. بعد قليل جاءت صارمان أيضاً مدت مخلبها فوراً وسحبت قطعة الخبز عن المائدة. وإذا /بتكير/

تلك السارقة المرعبة. تضرب ابنتها ضربات متتالية على رأسها وأدخلتها تحت الطاولة.

وكأنها إنسان يضرب ابنه كي يعلمه ويربيه. نظرنا إليها بحيرة ودهشة. بعد أيام. ضاعت تكير نهائياً. ربما قتلها صاحب البيت الذي اعتادت سرقة اللحم منه. من يدري؟.

زيت سمك مورينا

لا أستطيع أن أنسى تلك الزجاجة التي ألصقت عليها صورة السمك. زجاجة زيت السمك الخاصة بأمي. كانت أمي تضعف وتهزل مع مرور كل يوم وساعة. ويقال أن زيت السمك ضروري جداً لها. عندما كانت تشرب زيت السمك بالملعقة. تبدو شارات الاشمئزاز واضحة على وجهها. كانت تغلق أنفها وباليد الأخرى ترفع ملعقة زيت السمك إلى فمها. رائحة زيت السمك قوية جداً. وأمي لا تحب هذه الرائحة أبداً. تشربه بصعوبة بالغة. وبعد أن تبتلعه تقضم قطعة من السفرجل لأن السفرجل يقضي على رائحة زيت السمك وأنه إذا قطع بالسكين فقد ماءه ولذا كانت أمي تقطع السفرجل بقطعة خشبية مدببة أو بملعقة خشبية.

في البداية تقسم الثمرة إلى نصفين تعطيني النصف وتقضم قسماً من النصف الثاني وتخبئ الباقي لليوم التالي. قال شو: رائحة زيت السمك قوية والسفرجل يقضي عليها. وآخرون قالوا لها: اشربي زيت السمك وخذي بعده ملعقة صغيرة من القهوة المطحونة. بدأت أمي استعمال القهوة. بعد شربها لزيت السمك.

ما وددت أن آكل اللحم الذي كانت أمي تعطيني إياه. غير أني تمنيت لو تسقيني ملعقة من زيت السمك. كنت أشتهيه. لست أدري لماذا؟. ربما لأنها لم تقل لي مرة خذ واشرب أنت أيضاً يا بني. عندما

كانت تبلع زيت السمك مكرهة. كنت أراقبها. انظر إليها جيداً. لا لكي أشرب منه أو لأنني أشتهيه ولكن ربما كنت انتظر منها أن تقول خذ واشرب أنت أيضاً يا بني.

دنيا الحكايات

بما أن أمي كانت تذهب بين الحين والآخر إلى الأطباء والمشافي. صرت أبقى في البيت وحيداً. ممنوع علي الخروج إلى الشارع واللعب مع الأطفال. أما الست أمينة. الساكنة في الغرفة المقابلة لغرفتنا. تناديني. عندما تراني وحيداً. وتحكي لي كثيراً من الحكايات. هذه المرأة النحيلة. الطويلة. تعرف المزيد. وفي كل مرة كانت تحكي لي حكاية جديدة. فأحار لموهبتها هذه. ومما كانت تحكيه لي. حكاية الليلك الأعرج. أحببتها كثيراً وكنت أقول:

ـ بالله عليك يا خالة أمينة احكي لي قصة اللقلق الأعرج.

كل مرة كانت تحكيها بشكل مختلف. وتبقى محافظة على الجوهر تزينها وتضيف إليها في كل مرة أحداثاً أخرى. تُغيِّر في الأحداث بشكل مثير للانتباه. وهذه العملية كانت تعجبني كثيراً.

هذه الأم الحكواتية. أدخلت طفولتي في دنيا الأحلام الساحرة.

عالم تسبح فيه الطيور تحت الماء وتغوص بألوانها وأشكالها المختلفة وتطير فيه الأسماك المخملية بين النجوم. كما قلت أحب قصة إلى قلبي حكاية (اللقلق). لأنها من أوضح الحكايات ولكونها الحكاية الوحيدة التي تنتهي بنهاية سعيدة.

كان (اللقلق). جنية الخير والطيب والإحسان. تظهر للبشر بشكل ليلك أعرج. تقدم السعادة والأمان لكل من يساعدها ويقدم لها العون تحب الكرماء والطيبين وتقدم لهم السعادة على أطباق من ذهب. في كل مرة أستمع فيها إلى مغامرات اللقلق الأعرج. تدمع عيوني وأتمالك نفسي

بصعوبة بالغة. وفي مكان آخر من الحكاية. أبتسم والدموع المترنحة بين جفني تسيل دون إرادتي. في الحكاية عمارات قديمة منهارة. تتهدم الجدران الباقية منها. ويتدفق الذهب بكميات كبيرة أمام الناس الطيبين.

بعد سماعي للحكاية. كنت انزل إلى القبو. ادخل تلك الغرف الرطبة. ذات الجدران المتشققة والشباك العنكبوتي. كنت أقف هناك وأنظر إلى الجدران. وأترقب. تدحرج الذهب عبر ثقوبها الكثيرة. كنت أعرف أن الأحداث الحاصلة في الحكاية. لن تتحقق على الواقع. ومع هذا عشت الأمل الذي أتوخاه والحلم البعيد المنال. لأنه. يجب أن أكون غنياً. يجب أن يكون معي كثير من المال كي أساعد أمي وأنقذها من المرض.

الحكايا التي كانت تحكيها أمي مؤثرة أيضاً. كنت أعرف وأحس.

أن حكايا أمي. حقيقة ومن صميم الواقع. ولكنها كانت توشيها بشيء من الرموز القصصية. كي تعطيها رونقاً. تأكدت أن أمي تحكي لي حياتها وحسرتها وطلباتها. ولكن بشكل رمزي كما قلت. وربما كان يتراءى لي ذلك.

أية حكاية كانت تلك: جنية طيبة. مخلصة. تتحول إلى طائر كبير.

تدخل السجن أو الزنزانة وتنقذ شاباً وسيماً. تحمله على ظهرها وتطير به. ولكن بشرط. في كل مرة يقول فيها الطائر «قاق». يعطيه ماءً وعندما يقول «قوق» يعطيه لحماً. وإلا فسيهوي الشاب عن ظهره بين السحب ويتحطم على الأرض وحدث أن نفذ الماء واللحم من عند الشاب ويجب أن يصل إلى بلاد الأمل. وصار كلما قال الطائر «قاق» يعطيه بدل الماء دماً من دمائه وكلما قال «قوق» يعطيه قطعة من قلبه. وهكذا يكون قد وصل إلى بلاد الأمل وخلص نفسه ولكن بعد أن انتهى دمه وقلبه.

ومن الحكايا التي كانت تحكيها أمي. أن فتاة. عاشت بين أناس كثيرين غاروا منها. فوضعوها في زنزانة منفردة. عمدت هذه الفتاة على جمع بقايا الشمعة التي كانت تشعلها في الزنزانة. وصنعت منها رأس امرأة على شكل هيكل صغير. وأسمتها العمة الشمعة. وربطت برأسها خيطاً. وأمسكت هي بالطرف الثاني للخيط.

كانت الفتاة الوحيدة تتحدث مع العمة الشمعة. تسألها عن كل شيء. فإذا شدّت الخيط. كانت العمة الشمعة تحني رأسها نحو الأمام. وكأنها تقول نعم. وإذا سحبته نحو الخلف ترفع العمة الشمعة رأسها نحو الأعلى وكأنها تقول لا. وهكذا كانت الفتاة الوحيدة تسلي نفسها بانشغالها مع العمة الشمعة.

(مضت الأيام والسنون وعرفت أن هذه الحكاية مأخوذة عن قصة يونانية قديمة «لموتيغين»). وقلت: بعد خمسين عاماً تقريباً. سأصدر كتاباً عنوانه بنفس الاسم: العمة الشمعة وحكاية أخرى مرعبة كانت تحكيها لي أمي: كي تسليني ونحن جالسان في الظلام. ننتظر عودة أبي: ولكنها قبل البدء بالسرد وأثناءه كانت تحذرني قائلة: إياك أن تخاف.

امرأة وأولادها يعيشون في غابة بعيدة. وحيدين. الأولاد يجوعون. ماذا ستقدم الأم لهم: المطر والثلج والعواصف. من أين ستأتي بالطعام. تذهب إلى المقبرة. وتخرج معلاق أحد الموتى. وتطعم أولادها. يقوم الميت من قبره ويأتي إلى الكوخ الذي يعيشون فيه ويصرخ في وجههم أعطوني معلاقي.

هذه القصة. حكيتها لأولادي كثيراً.

حكاية أخرى كانت أمي ترويها. لم أعد أذكر اسمها أثرت فيَّ كثيراً.

فيمضي أربعاً وعشرين في اليوم وسبعة أيام في الأسبوع وثلاثين يوماً

في الشهر باحثاً عن مكان يعيش فيه يحمي نفسه من الموت. بعد سنوات طويلة وجدت نفسي بطل هذه الحكاية. ففي عام (١٩٥٧) كتبت مسرحية بعنوان هل تتعجلون بعض الوقت؟.. متأثراً بهذه الحكاية.

كثيراً ما سألتُ الخالة أمينة: كيف تعرفين كل هذه الحكايات يا خالة أمينة فتقول: ابتدعتها.

عندما سمعت ذلك. ضاعت قيمة الحكايات عندي. وفقَدَت روعتها وأهميتها. غير أن حاسة الإبداع بدأت تنمو لدي وأصبحت أكثر إلحاحاً من ذي قبل. وبدأت أكتب وأبتدع ما يتراءى لي ويتجمع في رأسي. كلها كانت تشبه حكاية اللقلق الأعرج. أم الحكايات «الروملية». وسَّعت أفق خيالي كثيراً. وتعلمت منها السخرية و الاستهزاء. ما زلت أحب السخرية. إنه شيء جميل. ولكنه ليس سهلاً على الإطلاق.

وربما حكايات أمي والخالة أمينة هي التي دفعتني إلى الكتابة. ولأكون كاتباً. من يدري.

من الأناشيد الدينية إلى الأناشيد الوطنية

العام الدراسي الجديد سيبدأ. المدارس ستفتح أبوابها وأنا في حالة غليان شديد غسلتني أمي مساء على أكمل وجه. ومع الصباح الباكر ارتديت أفضل ثيابي. جاء حمدي ابن الجدة الأم. ليأخذني معه إلى المدرسة. عانقتني امي طويلاً وقبلتني. امتلأت عيناها بالدموع. أما أنا فأوشكت أن أطير من شدة الفرح. فرح مشوب بالخوف. وبما أن المدرسة قريبة من منزلنا يمكنني الحضور لتناول طعام الغداء.

ذهبنا إلى المدرسة. أطفال كثيرون جداً. في حياتي كلها لم اختلط بمثل هذه الجمهرة من الأولاد. تركني حمدي وحيداً عندما وجد رفاقه القدامى. بحثت عنه بخوف. لم أجده. باحة المدرسة عبارة عن ساحة مفتوحة لا وجود للجدران، من حولنا ضجة وأنين. غير معهودين فقد

عودت نفسي كي أكون مثل الرجال، أرى نفسي بمستوى المعلمين وليس كهؤلاء التلاميذ.

وفيما أنا على الحال من السكوت المحير والقسري. وإذا بضربتين تنهالان على رأسي. كما لو أنهما بحجر. التفتت نحو الخلف. الأولاد يضحكون. عرفت ماهية هذه الضربة بعد أيام بحيث يطبق الأولاد يدهم اليمنى. ويرفعون الإبهام وينهالون بالأصابع الأربعة على رؤوس الأطفال بشكل عامودي. هذه مزحة.

(ربما كانوا يسمونها. «رمي الماديك»).

عرفت أن أحدهم قد رماني ماديكا. أسرعت من هناك. ودسست نفسي وسط الزحام خرج رجل من باب المدرسة. في عينيه حول خفيف. وقف أمام الباب. السيد كاظم معلم التربية البدنية والموسيقا.

ـ حسب الصفوف. حسب الصفوف كل ينتظم في صفه. التزموا صفوفكم وقفت في أحد الأرثال.

قال السيد كاظم:

ـ سننشد النشيد الوطني.

«النشيد الوطني». لم أسمعه قبل اليوم. هل جئت من الأناشيد الدينية في التكة، إلى الأناشيد الوطنية في المدرسة.

الأطفال الآخرون يعرفون كلمات وأداء النشيد الوطني من السنوات الماضية.

رفع السيد كاظم ذراعيه إلى الهواء. حاملاً عصا في إحدى يديه. بدأ ترديد النشيد الوطني. لا تخف لن تنطفئ هذه الراية البيضاء في آفاقنا.

لم يكن لحن النشيد الوطني آنذاك كاللحن الحالي. كان أكثر ثقلاً.

ردده الجميع دفعة واحدة. أنا الآخر بدأت أحرك شفاهي فهذا من باب اللياقة والأدب وكي لا يقولوا عني غير حافظ للنشيد الوطني.

ـ هيا إلى صفوفكم.

الصف الثالث. فيه ثلاثة أرثال من المقاعد. من الأمام. إلى الخلف. الجلوس حسب الطول. مكاني على المقعد الثاني من رتل الوسط. إلى يساري جلس صبي آخر.

هذه هي الجمهورية

لو سألوني من هو أعظم وأفضل رجل في العالم. أقول فوراً السيد ذكائي.

السيد ذكائي معلم الصف الثالث. معلمنا. لماذا هو رجل عظيم؟. لا أعرف جواب هذا السؤال. ربما لأنه طيب جداً. ويلبس من الثياب أحسنها وأجملها يدخل الصف كل يوم نظيفاً أنيقاً. لم نره ولو مرة واحدة دون حلاقة. لا يلبس قميصاً ملوناً أبدا. ياقته دائماً بيضاء ناصعة كالثلج. ربطة عنقه تحت ياقة قميصه. لا تتحرك من مكانها قيد أنملة. بنطاله مكوي بشكل رائع. حذاؤه لمَّاع. شعره إلى الخلف دائماً. مصفف جيداً ولكنه مدهون بزيت الشعر. أسنانه بيضاء.

حتى ذلك الوقت لم أر رجلاً مثله. بهذه الأناقة واللياقة والنظافة تساءلت كثيراً بيني وبين نفسي: من يدري. كم ليرة يأخذ. ألف ليرة أو مائة ألف ليرة. لأن الإنسان لا يستطيع أن يلبس هكذا ما لم يكن مرتبه ضخماً.

يقول لنا بين الحين والآخر: ليس عيباً أن يلبس الإنسان ثياباً قديمة ومرقعة. ولكن العيب أن تلبسها متسخة قذرة وممزقة. أحببت كلامه هذا كثيراً. لأنه يناسبني. فأنا ألبس الثياب القديمة والمرقعة، ولكنها نظيفة ومرتبة. لم تتركني أمي يوماً واحداً ألبس ثياباً قذرة وكانت كلمة الجمهورية تتردد على لسان كل إنسان. عدما أسمع بكلمة الجمهورية: تنطبع في مخيلتي على الفور شخصية السيد ذكائي.

السيد ذكائي هو الجمهورية بالنسبة لي. لقد تجسدت الجمهورية واتخذت لحماً وعظماً وروحاً وصارت السيد الذكائي. أحب الجمهورية كثيراً. وأحب السيد ذكائي أيضاً. لماذا أحبها، ربما لأن أبي لا يحبها. يحب عبد الحميد. وعندما يذكر اسمه يقول، ليكن مثواه الجنة... والدي الذي لا يحب الجمهورية اشترك في حرب الاستقلال. اشترك في حرب العصابات. ومع هذا كان لا يحبها. وعداؤه لها يزداد يوماً بعد يوم. وربما أحبُّ الجمهورية كثيراً لأن أبي لا يحبها. لا حباً بها على أساس فهم واقعي. فأنا لا أعرف معناها ولا ماهيتها.

ولكن أحب أبي جداً جداً جداً. أحبه اكثر من الدنيا كلها. ماذا يحدث لو كان هو أيضاً يحب الجمهورية مثلنا. وما أعرفه: أنه لولا الجمهورية ما صرت تلميذاً في هذه المدرسة الرسمية إنني أعي هذا الشيء تماماً.

كان السيد ذكائي يتجول في الساحة وفي يده مسطرة. من لم يحفظ درسه، أو كان مشاغباً خالف نظام المدرسة يقول له:

ـ افتح كفك. يضربه على كفه بعرض المسطرة. وأحياناً بحرفها. الضربة تلو الأخرى. حتى يتلوى الولد من الألم ويتكور صارخاً. آي.

وربما أحبُّ السيد ذكائي، لأنه يجول بين التلاميذ والمسطرة في يده أو لأنه لا يضربني أبداً. كل الأولاد يخافونه. خوف فيه احترام فهو لا يعاقب التلاميذ إلا نادراً جداً. عينا السيد ذكائي فيهما مرض خفيف. أجفانه تبدو محمرة كأنها ملتهبة. كم أحب السيد ذكائي هذا. أحب حتى عينيه الحمراوتين اللتين تعطيانه طابعاً خاصاً. بعد أن أكبر وأصبح رجلاً. ربما تصبح عيناي مثل عينيه.

السيد ذكائي. عازب. لا يريد الزواج. وإن رغب ذلك فكل الفتيات

يتمنين الزواج منه. يسكن مع أمه في بيت خشبي من طابقين في منطقة تسمى «كميران» في «بوز دوغان».

أمادن لق لق

التلميذ الجديد في الصف هو أنا. كلهم ترفعوا من الصف الثاني. السيد ذكائي سيجري امتحاناً في القراءة.

ـ افتحوا كتب القراءة.

نفتح .

يشير إلى إحدى الصفحات ويقول لأحدهم: اقرأ. عنوان المقطع الذي سيقرأه آمادن لق لق.

كانت قراءة اللغة التركية القديمة نوعاً من البلاء أو المصيبة. لا يستطيع الولد قراءة العنوان بأي شكل من الأشكال.

ـ اقرأ ولك ابني.

عدم تمكن الطفل من القراءة مردُّه الخجل. كما انه فهم /آمادن/ بغير معناها، وأنها تقرأ على نحو ما فهمها.

ـ اقرأ.

قرأ التلميذ الكلمة كما فهمها. وقال بدل لق لق. ليق. ليق فتعالت الضحكات وعمت أرجاء الصف. لكن نظرة السيد ذكائي القاسية أسكتت الجميع.

أشار إلى تلميذ آخر.

ـ اقرأ

الثاني مثل الأول أيضاً.

كنت أرتجف خوفاً من أن الدور سيأتيني. مع أنني درست شيئاً من العربية والفارسية مع العم غالب. إلا أنني لم أفهم معنى هذه الكلمة ولا كيف تقرأ وفي نهاية المطاف جاء دوري. وهذا ما كنت أخشاه.

ـ اقرأ أنت

قرأت الكلمة بشكل صحيح ومن المرة الأولى. وربما هذا حصيلة ما تعلمته سابقاً.

ـ آمادن لق لق.

ـ عفارم.

وحان وقت تعلم الخط يعني الخط الجميل. لأول مرة أستعمل القلم ذي الرأس الحديدي (الريشة ومسكة الريشة). لأننا كنا نكتب بأقلام الخشب أو القصب. وهذه العملية بالنسبة لي مهمة جداً. وحديثة جداً.

كانت الريشة الحديدية عدة أنواع نمرة ١ ـ ٢ ـ ٣. محفورة على ظهرها. أخذت النمرة الثانية. وكان سعرها عشر بارات. أما القلم فقد كان غليظاً. داخله أنبوب مملوء بماء ملون وضمن الماء سمكة صغيرة. بدأنا نكتب على دفاترنا حرف اللام. على كامل السطر. ل .ل. وبدا خطي جميلاً جداً. نظر السيد ذكائي إلى دفتري ملياً وقال:

ـ عفارم:

كلمة عفارم أو أحسنت. هي التي دفعتني إلى العمل المتواصل طوال حياتي.

طربوش أم قبعة؟

أصبح لبس الطربوش ممنوعاً بعد اليوم. كل الناس سيلبسون القبعة.

هذه المقولة ترددت كثيراً بين الناس فيغضب أبي كثيراً. وكثيراً جداً. لا يترك كلمة بذيئة إلا ويتناول بها مصطفى كمال. بعض الأحيان يقول عنه الأعمى. وبعض الأحيان «بهودي الدونمة». لا يذكر اسمه أبداً. عندما يتحدث عنه ويقول: الأعور.

لأن إحدى عينيه من الزجاج. عندما أمعن النظر في صور مصطفى

كمال المعلقة على جدران الصفوف والمدرسة. تبدو إحدى عينيه حقيقة مختلفة. فيها بعض الحوَل.

وربما لأن إحداهما من الزجاج. فأقول في نفسي: ليكن بعين واحدة لقد حقق انجازات كثيرة ونجح في كل ما قام به. إنه من «سلنيك» من يهود الدونمة.

هذه المقولة لم تعجبني أبداً. لست أدري لماذا. وماذا يحصل إذا كان يهودياً. كان أعداء مصطفى كمال يحاولون وبشتى الوسائل وضع إشارات سوداء على شخصيته واستمروا في مواقفهم هذه سنين عديدة.

صباح أحد الأيام ذهبنا باكراً إلى المدرسة وبرفقتي ما يقارب العشرة أطفال. جلسنا على هضبة صغيرة مقابل الجانب المفتوح من باحة المدرسة. في مكان يطل على الطريق بعض الشيء. نراقب المارة. بعضهم يضع على رأسه قبعة والبعض الآخر طربوشاً. أنواع متعددة من القبعات. وقبعات من القش. ولكن الأكثرية كانوا يلبسون «الكاسكت». من البيز. بأرخص الأسعار.

كان لبس الطربوش قد منع. ومع هذا ظل أشخاص قليلون يلبسونه غريبة وعجيبة فعلاً هذه القبعات التي نراها على رؤوس الرجال. لم نعتد رؤيتها. بعضها يبدو وكأنه له قرنين قرب الأذنين. وهذان القرنان غير منسجمين. لأن الناس ما كانوا قد اعتادوا لبس القبعات كما يجب. بعضها يكون مائلاً. موشكاً على السقوط. تخالها ستطير الآن. أو بعد قليل.

واقية الشمس في جهة وقمتها في جهة أخرى وبعضهم كان ينزلها حتى أسفل الأذنين. ربما خوفاً من أن تطير من الهواء . كان المارة من أمامنا. مثار سخر وضحك. كانت القبعات تخلق منهم شخصيات مناقضة لشخصياتهم الحقيقية. غرباء الهيئة والمنظر بكل معنى الكلمة.

ولكن هل الطربوش مثل القبعة؟. لا. الناس. يعرفون كيف يلبسونه وكيف يتصرفون به. لأنهم اعتادوا لبسه قروناً طويلة. تعلموا صنعه ولبسه وبشكل يليق بهم. فالسيد يلبس طربوشاً خاصاً به والأفندي كذلك. أما الغني فطربوشه مميز. وطربوش الفقير يختلف عن الجميع. أنظر إلى الطربوش، فتعرف ماهية ونوعية الشخص الذي يلبسه.

فوق تلك الهضبة الصغيرة كنا نتحاور ونتناقش حول الطربوش والقبعة. هل الطربوش يليق بالناس أكثر أم القبعة؟. كل منا كان يطرح الفكرة أو الكلمة التي تعلمها من والده أو من منزله وأصبح كل منا محامي دفاع عن والده. كلهم يدافعون عن الطربوش. الطربوش غير شكل. انظر إلى لون الطربوش. ما أجمل لونه الأحمر وما أحلى شرابته.

أنا الوحيد الذي كنت أدافع عن القبعة. ليس حباً بها. أو إعجاباً.

القبعة جعلت من الشخصيات مضحكة في نظرنا. لأننا لم نعتد رؤيتها على رؤوسنا.

أنا سأدافع عن القبعة. طبعاً لأن أبي لا يحبها. أبي يحب الطربوش من الطبيعي جداً أن أكره الطربوش. يقولون: إن مصطفى كمال قد قال: البسوا القبعة. إذن كل العالم ستلبسها. آه من والدي آه. أحبه وأحبه بشكل لا يوصف. آه لو أحب هو الآخر مصطفى كمال.

- القبعة أجمل من الطربوش... أنظر كم تليق بهذا الرجل.

مع أنه أنزلها حتى شحمة أذنيه. وغدا منظره مضحكاً.

قشرة الليمون

مع تطبيق قانون منع لبس الطربوش. كثر صنّاع القبعات بشكل كبير في استانبول. باب جديد للربح. فأول من مارس هذه المهنة اليونانيون والأرمن واليهود. المسلم الذي لبس القبعة مجبراً بقي مدة طويلة خارج

هذه اللعبة ولم يسهم في هذه المهنة. لبس القبعات التي صنعها المسيحيون الأتراك واليهود.

بعد عملية منع الطربوش وانتشار لبس القبعات وصلت الأوامر إلى المدارس: تلاميذ المدارس الابتدائية في استانبول. سيلبسون لباساً موحداً. مكوناً من ثلاث قطع. بنطال قصير، جاكيت سيدارة وتحديداً من القماش الأزرق.

بعد صناعة القبعات. بدأت صناعة اللباس المدرسي في استانبول وانتشرت بشكل واسع ولم يعد خياطو الجملة قادرين على الوفاء بعهودهم لكثرة الطلبات، وهؤلاء جميعاً كانوا من المسيحيين واليهود من رعايا تركيا. بدأ بعض التلاميذ في مدرستنا يطبقون النظام الجديد. لقد أطلقوا على إحدى القطع المسماة السيدارة بقشرة الليمون. وصدر تعميم فحواه: لن يقبل في المدرسة كل تلميذ لا يرتدي اللباس الجديد حتى تاريخ كذا.

كنت ألبس الثياب التي تخيطها لي أمي من بقايا الثياب القديمة.

ومن تاريخه. لم أكن قد لبست قطعة واحدة أو ثوباً واحداً مخاطاً من قبل خياط عادي.

غضب أبي كثيراً من اللباس الجديد وخاصة القبعة المسماة «قشرة الليمون». بحثنا وعلى مدى أيام عن اللباس المحدد عند خياطي الجملة في تختة قلعة «وجاقمقجيلر». كنا نستطيع شراءها رخيصة من بائعي الجملة. ولكن أبي لم يستطع الاتفاق مع الباعة. وكعادته. ولكي يشتري الثياب بثمن بخس كان يقول للباعة:

ـ مصاري البعض ودعاء البعض الآخر. ولكن دعاء المسلم له ذقن. لليهودي والمسيحي. لا يهمهم الدعاء ولا أي شيء.

وفي كل مرة يقول فيها أبي:

ـ مصاري البعض ودعاء البعض الآخر. كان الخياطون الذي يلتقون أبي لأول مرة . يقولون وكأنهم شخص واحد. ـ والله من أجلك يا سيدي نعطيك بهذا الثمن. بأقل من ذلك آخر. أعطيك إياها برأسمالها. في كل مكان ندخله. تتكرر هذه الكلمات.

كنت الوحيد في المدرسة الذي لم يلبس الثياب المدرسية الجديدة. وفي نهاية المطاف وُفِّقنا في شراء تلك الثياب بمساعدة شخص يعرفه أبي وبسعر معقول إلى حد ما.

في محمود باشا دكّان تاجراً يونانياً. يبيع الألبسة القديمة، خرجنا وكأننا اشترينا مزرعة كبيرة. لست أدري لماذا لم أفرح بثيابي الجديدة. وربما من كثرة المساومات التي كان يتبعها أبي أينما ذهب وحيثما حل. واللف والدوران هنا وهناك. كانت عزة نفسي قد تحطمت تماماً.

كانت القبعات «قشور الليمون». تتطاير في الفضاء كأسراب الغربان. وكان الأطفال يلتقطون قبعات بعضهم ويلقونها في الهواء. وجعلوها ملهاة لهم.

عداوة عبد الحميد

كان معلمنا السيد ذكائي يحدثنا عن آخر ملوك العثمانيين الملك وحيد الدين.

وقال أنه فرّ على ظهر باخرة إنكليزية.

دهشت كثيراً لدى سماعي كلمات السيد ذكائي هذا. وبخاصة انه يقولها داخل الصف وأثناء الدروس. وكأن مصطفى كمال قد أنزل عبد الحميد عن عرشه وأقام الجمهورية على جثته. دائماً يتحدثون عن ظلم واستبداد وديكتاتورية عبد الحميد. واعتقدت أن عبد الحميد قد أنزل لتوه عن عرشه لكثرة ما كانوا ينتقدونه مع أن عبد الحميد كان قد أنزل عن عرشه قبل خمسة عشر عاماً او أكثر.

وجاء بعده سلطانان. وكما قلت عندما سمعت كلام السيد ذكائي عن السلطان وحيد الدين وقعت في دهشة شديدة. وقلت إذا كان آخر خليفة هو وحيد الدين. إذن لماذا كانت السهام موجهة دائماً لصدر عبد الحميد. انتقادات الجمهورية. الجمهوريون كلهم. لم يتحدثوا عن وحيد الدين ولا عن غيره. سهامهم كانت موجّهة دائماً إلى صدر عبد الحميد الذي سقط قبل خمسة عشر عاماً.

طرحت هذا السؤال على نفسي. بعد زمن طويل عندما كبرت وأصبحت رجلاً وكان الجواب واضحاً أمامي: لابد لكل ثورة أن تجد لها عدواً قوياً حتى تؤكد قوتها وعظمتها واستمراريتها. فإذا لم تجد الثورة الجديدة من يعادلها. تقع فريسة للضعف والتخبط. وإن وجدت عدواً ضعيفاً. هي الأخرى تقع في الضعف.

لو أن مصطفى كمال اتخذ من وحيد الدين هدفاً معادياً له لظلت الجمهورية ضعيفة كضعف وحيد الدين. ولهذا قرّر مصطفى كمال بانقلابه السياسي الكبير وبعد أن قضى على السلطنة التي دامت قروناً طويلة. أن يأخذ أكبر رمز من رموزها في الفترة الأخيرة وهو عبد الحميد. عدواً رئيسياً. كي يستطيع مناصرة نفسه وثورته وجمهوريته الجديدة. ولم يجد في عدواته لوحيد الدين المنهزم بالأسطول الإنكليزي. أية منفعة له. ولهذا السبب وحده، كانت السهام توجه دائماً للسلطان عبد الحميد. والعداوات البغيضة تنصبُّ دائماً على قوة وجبروت عبد الحميد. ولهذا كنت أظن أن مصطفى كمال قد أقام الجمهورية بعد قضائه على عبد الحميد.

لماذا كانت ثورة (١٩١٧) قوية وجبارة؟. لأنها جاءت مضادة لبرجوازية قوية وغلبتها.

إن الحركات السياسية. التي تأخذ عدداً ضعيفاً لها. حتى ولو سموا

أنفسهم ثوريين، لا يكونون ثوريين حقيقيين. لأن هدفهم وعدوهم ضعيفان وهكذا ينعكس الضعف على الثورة الجديدة نفسها.

بائع البزر

بائعو الكعك والفواكه المجففة وبائعو الحلوى والبزر والفستق وآخرون كثيرون يقفون في حديقة المدرسة. كنت على الدوام أقف بعيداً. لأنني لا أملك النقود كي أقترب وأشتري منهم.

وفيما كنت ماراً ذات يوم من أمام الباعة. ناداني أحدهم باسمي. التفت نحو مصدر الصوت. وإذا برجل يبيع البزر والفستق والحمص وأنواعاً كثيرة من الموالح. وقد وضع بضاعته في علبة معدنية وجلس القرفصاء في ظل جدار. اقتربت قليلاً فعرفته: نعم إنه ابن الشيخ الأصغر. شيخ التكة الموجودة في غوروكلوك. أسرعت نحوه قائلاً:

ـ أخي محي الدين.

كنت أحبه كثيراً. غير أني أحسست بنوع من الغربة... في أعماقي. ابن الشيخ الكبير يتحول إلى بائع بزر عادي. أعطاني كيساً من الموالح أخذته ثم قلت في نفسي إنها المرة الأولى والأخيرة التي آخذ فيها شيئاً من بائعي تلك المدرسة.

كانت تركيا تمر في مرحلة تغيير كبير. أيام غارقة في الفوضى واللامبالاة. قيمنا اهتزت من أساسها. أماكن البشر تغيرت كلياً. البناء المتوازن للمجتمع اختل كلياً. وانعدم التخطيط. وساد الارتجال والفوضى. بعد سنوات رأيت محي الدين هذا في لباسه العسكري البديع. لقد أصبح ضابطاً في قسم اللوازم.

الجاويش كامل

رأيته لأول مرة في منزلنا. عندما كنا نسكن في حي السليمانية.

وهو من الرجال الذين يقال عنهم يستخرج خبزه من الحجر. لا يطلب عملاً من أحد. ولا يبقى عاطلاً. يخلق لنفسه عملاً، ليعيش.

أخبرنا أنه من مدينة قسطمونو، وأنه وحيد، لا أهل له ولا أقارب. وأنه لم يتزوج أبداً. وبما أن والدي كان يدعوه الجاويش كامل. صرنا نخاطبه بهذا الاسم. لا أدري ماذا يوجد بينه وبين والدي. يبدو أن والدي قدم له خدمة كبيرة ولهذا. كان لا يتوانى عن تقديم أية خدمة عندما يطلب منه أبي عملاً ما.

كان يهرع على الفور وينفذ ما يطلب منه على أكمل وجه. ولذلك كان أبي يحبه كثيراً. وإن غاب عنا لفترة، يقلق أبي عليه ويسأل عنه هنا وهناك. عندما تعرفنا إليه. كان يملك حصاناً. ينقل عليه البضائع من ميناء «يميش». وأمثاله من العمال كانوا كثيرين في تلك الأيام. وكان عندما تضيق الدنيا في وجهه أو يغضب من شيء ما. يذهب إلى الغابة البعيدة فيقطع حطباً ويبيعه في السوق. وأكثره كان يحضره من منطقة تسمى «كمر بورغاز» أو (تخوم بورغاز).

الجاويش كامل رجل كبير. عادي. ولكن أبي كان ينهره كولد صغير يقول له: ولك أخي. أثبت على عمل معين. لا تغيره. كل يومين تبدل عملك. هذا لا يجوز. لست شاباً صغير. عليك أن تعتني بصحتك. لا تنفق مالك بدون سبب. أسس لمستقبلك وحسّن من أحوالك وادّخر شيئاً للفقر.

وكان يجيبه:

ـ تكرم يا أفندي بابا.

باع الجاويش كامل حصانه واشترى عربة بأربع عجلات. عربة صغيرة للبيع. كان يحبها ويفتخر بها. يزينها كعربة العروس. عجلاتها من البلاستيك. ومدهونة بألوان متعددة جميلة وفاقعة. يضع في أقسام

العربة المزينة مجموعة كبيرة من الموالح. مثل الفستق والبندق والحمص. الصنوبر. واللوز والزبيب. والجوز وطحين الحمص. والخوخ المجفف والتين المجفف. وثم مرطبانات كثيرة مليئة بالسكريات المتنوعة.

دفع الجاويش كامل عربته الجميلة إلى جمبرلي تاش. وهناك بدأ يجملها بمزيد من الأزهار الاصطناعية والمراوح الورقية الصغيرة. ومجموعة كبيرة من البالونات الملونة. يعلقها هنا وهناك على أطراف العربة. حتى تحولت إلى ما يسمى جنة من الألوان والزينات. كل من يمر بقربها يقف مجبراً ليمتع نظره بهذه العربة التي لم ير قبلها أبداً.

إلى جانب هذا كله. يضيء مجموعة كبيرة من المصابيح. بأشكالها وألوانها المختلفة. وفي أسفل العربة موقد صغير ترتفع مدخنته من وسطها يحرق فيه قطع الحطب والأخشاب. كي تبقى الموالح. ساخنة. طازجة. كانت ضواحي جمبرلي تاش مملوءة بالبيوت القديمة. فيأتي الأهلون ويتحلقون حول العربة كل يوم، ويتحول المكان إلى ما يشبه ساحة العيد. حيث الدعابات والسخريات والأحاديث المتنوعة.

ويأتي والدي ليقول له:

ـ يجب أن تتزوج يا جاويش كامل.

ـ تكرم يا بابا الأفندي.

في أحد الأيام كان والدي يصرخ بشدة في وجه الجاويش كامل ويقول:

ـ ماذا فعلت بالعربة؟.

ـ بعتها يا بابا الأفندي.

ـ وبكم بعتها؟.

ـ لم نتفق أعطيتها هكذا

ـ كيف تعطيها هكذا. ألم تأخذ مالاً؟.

ـ لم آخذ شيئاً.

ـ كيف تقول بعت العربة دون أن تأخذ منه مالاً ولك جحش.

خاف الجاويش كامل من والدي وبدأ يوضح له. الرجل الذي أعطيته العربة أعرج وزوجته مسلولة (مصابة بمرض السل). وعنده طفلان يا بابا أفندي.

ـ وبعدين.

ـ أشفقت عليه وأعطيته العربة. عندما سيعمل ويربح سيعطيني ثمنها تقسيطاً. وبما أنه لا يملك الرأسمال. أعطيته كل موالح والمواد التي عندي.

ـ لقد غشَّك هذا الرجل يا حمار. وضعك على خازوق كبير. يا جاويش كامل.

فكرت طويلاً. لماذا كان الجاويش كامل يتحمل كل هذه النهرات والتوبيخات من أبي؟. ولماذا كان يترك كل أشغاله وأعماله ويأتي سريعاً عندما يطلب خدمة إذ لم يكن له أية مصلحة مع أبي بأي شكل من الأشكال. إذن ما السبب في ذلك؟. أخيراً وجدت تفسيراً مناسباً أو غير مناسب من عندي. كان الجاويش كامل وحيداً. لا أهل له ولا أقارب. ولم ير وجه أبيه ولا أمه. أحس دائماً بألم هذا النقص. ولم يستطع أن يتخلص منه. كان يريد أن يكون له أب. مثل كل الآباء يعطيه النصائح على الدوام. ينهره. يغضب منه. ويصرخ في وجهه. وينحني هو أمام هذا الأب ويخشاه. كل حياته باردة. رطبة. وكان يشعر بالسعادة جراء صراخ أبي في وجهه. وهو الذي يعيش في غرفة مظلمة من غرف الخان.

يجد الشفقة والحنان والحرارة ضمن هذه العائلة الصغيرة. فهو لا يتأفف ولا يتذمر. سعيد بما يصدر عن أبي بسبب أو بدون سبب.

الرجل الأعرج لم يعطه بعد ذلك قرشاً واحداً. ولكن ما أغضب

الجاويش كامل أكثر من المال. هو عدم عناية الرجل بالعربة. فكل الزينات تلفت كلياً ولم يعمل على تجديدها. إذ كان شرطه عليه هو العناية بزينة العربة قبل وبعد كل شيء.

الجاويش كامل يعرف كيف يعيش. كيف يقتنص اللذة من الحياة التي يعيشها. لا يغضب، يبتسم دائماً. حتى أن الابتسامة تبدو جلية في عينيه.

أمضى قسماً من حياته يجمع الورق والزجاج المكسر من هنا وهناك. ثم عمل فحاماً ومقاولاً أثناء بيع الخضار والفواكه في سوق الهال. والأسواق الأخرى. عندما كان يسأم من عمله. يتركه ويعمل بآخر. ومن الأعمال التي أوجدها لنفسه: قبل شرح ماهية العمل يجب أن أتحدث عن إحدى خصوصيات الجاويش كامل طبعاً حسب ما يقوله هو شخصياً. إن الكلاب تحبه كثيراً ولا تهاجمه أبداً. حتى أن أشرس الكلاب وأقواها عندما تراه تقف شاخصة نحوه تهز ذيولها. كان الجاويش كامل يتجول في أحياء الأغنياء منذ الصباح حتى المساء. يرى مجموعة كبيرة من الكلاب الأصيلة. يختار أحدها وخاصة الذي يستظرفه، يحمله ويأتي به إلى غرفته في الخان. بعد عدة أيام يظهر إعلان في الصحف أن ثمة كلباً قد ضاع وأن صاحبه يبحث عنه. فإذا كان الإعلان مطابقاً لمواصفات الكلب الذي عنده. يحمله ويعود به إلى صاحبه.

إعلان الجريدة على الشكل التالي: فقد كلب أصيل اسمه «فيشكمان» في المنطقة الفلانية. على كل من يجده ويأتي به له مكافأة (٥٠٠) ل.

عمل الجاويش كامل في جمع الشحوم. كان يدور بين القصابين ويشتري منهم عظماً بسعر زهيد جداً. يغلي هذه العظام في طنجرة

كبيرة. ويتركها حتى تبرد. فتتجمد الشحوم فوق الطنجرة بارتفاع ثلاثة أصابع ويقول أن هذه الشحوم أنفع واحسن سمن يستعمل في الطعام. ثم جمع بين عملية تذويب الشحم وتربية الكلاب: يقال إن هنالك كلاباً أصيلة كثيرة شاردة في شوارع استانبول. منها المريض والعجوز والقذر ويعتني بها. يبيع الشحوم. ويقدم العظام لكلابه. وبما أنها كثرت وزاد عددها. وأصبحت غرفته لا تتسع لهذه الكلاب الكثيرة. لجأ إلى بناء مهدم من بقايا حريق قديم. في إحدى الزوايا الكائنة بين «تخته قلعة» و«وجاقمقجيلر». أقام هناك. أصلح منها ثلاث أو أربع غرف. ووضع في كل منها عشرة كلاب تقريباً. كان يعتني ويعالج الكلاب المريضة. ويطعمها العظام والنخالة المطبوخة بمرق العظم.

أصبح عنده كلاباً كثيرة ومن مختلف الأنواع. فذاع صيته واشتهر في أنحاء استانبول كلها. كانت النساء الثريات يأتين بسيارتهن الخاصة لشراء الكلاب من عنده.

عاش الجاويش كامل القسم الأخير من حياته مع الكلاب. عشرون عاماً تقريباً ثم مرض ومات.

لم يكتشف موته إلا بعد يومين أو ثلاثة. كان مرمياً بين الكلاب. لم تفعل به شيئاً. لم تمزقه ولم تأكله. ويقال أنهم أخرجوا جسده من بين الكلاب بصعوبة بالغة. لأن الكلاب المتوحشة لم تسمح لأحد بالدخول والاقتراب من جسد الجاويش كامل.

سأكون رساماً

بدأت أشاكس أهلي ودون سابق إنذار قائلاً: سأكون رساماً. في الوقت الذي يجهل فيه كل من في بيتنا ماهية الرسام ولم يسمعوا بهذا العمل أبداً. طلبي لم يعجب أحداً.

لقد تعلمت الرسم من الأخ فوزي الذي كان يذهب إلى المدرسة

الإعدادية في داؤود باشا. وعندما عرضت لوحاتي على السيد ذكائي. أعجبته كثيراً. فقررت أن أصبح رساماً. كان السيد ذكائي يأخذنا إلى ساحة جامع السليمانية عندما يكون الجو صحواً ليعطينا دروس الرسم في الهواء الطلق. رسمت جامع السليمانية مرتين متتاليتين. وكان السيد ذكائي يقول لي: سأضع هذين الرسمين في المعرض السنوي الذي تقيمه المدارس الابتدائية مجتمعة.

مهما حاول الإنسان أن يوجه نفسه ضمن مجتمع فاسد ومتخلف. لن يفلح ولن يحقق ما يصبو إليه بأي شكل من الأشكال. لأنني لم أستطع أن أكون رساماً. ولكن بعد عدة أعوام ذهبت إلى أكاديمية الفنون الجميلة لمدة عامين وتعلمت الرسم. وربما كان هذا نابعاً من الحب الذي غفا في أعماقي ردحاً من الزمن.

زملاء الصف

نسيت الكثير من زملائي الذين عايشتهم في الكلية الحربية العسكرية كلية الفنون التطبيقية. وأصدقاءً آخرين تعرفت إليهم فيما بعد. عندما أقابلهم. إما أن أتعرف عليهم بصعوبة، وإما لا أتذكرهم أبداً. ولكن زملائي الصف الثالث في مدرسة السلطان سليمان القانوني. كأنهم أمام ناظري الآن. فهناك «عرفان القسطمولي» نسبة إلى مدينة «قسطمونو» شمال غرب تركيا على جبال البحر الأسود ـ وهي مدينة صغيرة إلى حد ما. من أعز وأقرب الأصدقاء والزملاء إلى قلبي آنذاك. وكان يحبني ويحترمني كثيراً. وأعتقد أنه لم يكمل تعليمه بعد المرحلة الابتدائية. وهو من كبار موزعي جرائد الباب العالي الآن. بقي فترة يتهرب مني لا يريد أن يعرفني على نفسه أو أن يتعرف علي. ولهذا أحسست ببعض المرارة من تصرفه هذا. فأنا مرتبط بماضي وأحب الأصدقاء القدامى. صديق آخر اسمه مظفر. كان غلاماً بديناً. طرف أنفه المكور أحمر على الدوام.

ولا ينقطع المخاط منه أبداً. يسيل حتى شفته على الدوام. منزلهم مقابل مدرستنا عبارة عن غرفة مدرسة دينية. هو الآخر كنت احبه كثيراً. وقد أخذني مرة إلى منزله وصار ضابطاً وكنت متقدمه بصف أو اثنين. ولم أره بعد الصف الثالث أبداً.

ولكن بعد عدة سنوات، وعندما اتهموني بأنني المدبر والمخطط لعملية أيلول المشؤومة وقبضوا عليّ وألقوا بي في سجن الحربية. عندها رأيت مظفر أمامي وجهاً لوجه. كان عقيداً مديراً للسجن العسكري. لم يعاملني بالحسنى كان يتجاهلني كأني غريب.

دخل صفنا تلميذ. اسمه هادي من مدينة «ملاطية».

عندما بدأنا بتلقي الدروس. كانت لغته التركية ركيكة لا يقوى على التحدث بها إلى نادراً وعشوائياً. سمعنا في أحد الأيام هدير محرك طائرة فوقنا. أسرع هادي نحو النافذة ونظر إلى الخارج وبدأ يصرخ.

ـ تيارة. تيارة. تمر. تمر.

كان الزملاء يسخرون منه كثيراً. ويمزحون معه. صار هادي بعد ذلك طالباً مجتهداً بسبب ذلك المزاح وتأثيره الشديد على شخصيته. ـ تسخرون منه الآن ولكن سترون كيف سيكون أشطر واحد بينكم. أولاد الشرق يكونون أذكياء ويعملون كثيراً.

الإحساس بالإهانة يدفع الإنسان إلى العمل المتواصل ومن ثم الشهرة. هذا ما أعرفه من نفسي وعندي أمثلة كثيرة والعكس صحيح. فعندما يتغلب هذا الإحساس. يسقط الإنسان في هاوية الضياع ولا يستطيع التغلب على أية صعوبة.

من الأصدقاء الذين دامت صداقتي معهم. بعد الصف الثالث وحتى الآن. هو صالح. الذي كان السيد ذكائي يضربه كثيراً. لأنه يتأخر عن دوام المدرسة دائماً.

كان يدخل الصف بعد أن نجلس في مقاعدنا ويأخذ المعلم مكانه على المنصة. ويستعد لإعطاء الدرس. هو الآخر كان «أبو مخطة». كان مخاطه ينزل من أنفه كالخيط ثم يسحبها دفعة واحدة. ينتعل حذاء كبيراً قديماً. مصلحاً. وضعت له أنصاف نعل كثيرة. وربما كان حذاء والده. عندما يمشي يخرج الحذاء من قدمه. ويصدر صوتاً متميزاً فيرررت ـ فيرررت. وصالح هذا طفلٌ باردٌ إلى أبعد الحدود. لم أر مثيلاً لبرودة دمه. درسنا معاً. في المدرسة الحربية العسكرية والثانوية. والكلية الحربية. ومدرسة الفن التطبيقي. عندما كبر صالح أصبح رجلاً عملاقاً. قوي البنية. انطوائياً إلى حد ما. ولكن البشر أشكال وأجناس كل يخفي شيئاً في أعماقه. كنت أحبه كثيراً. وكثيراً جداً. قدمت له العون والمساعدة بكل طاقتي. كونه صديقي. بعد فترة سمعنا أن والد وعم صالح غنيان جداً وقالوا إنه ورث من والده الثري الذي كان يعمل تاجر زيوت ومن أقربائه الأثرياء الآخرين إرثاً كبيراً. وحدث آنذاك أن وقعتُ في ضائقة شديدة. اقترضت من صالح مئتي ليرة. ولم أستطع إيفاء الدين في حينه. كنت أمتلك محلاً للتصوير في شارع /بورصه/. في حي /باي اوغلو/. جاء صالح إلي في إحدى الأمسيات.

خرجنا معاً نتجول في شارع الاستقلال. وبدأ صالح يعطيني درساً في الحساب. أنت لا تعرف إدارة نفسك. ظل يشرح لي طوال الطريق. كيف يجب أن يحسب الإنسان دخوله ومصاريفه أما أنا فكنت أفكر «بالرشيتة» التي أعطيته إياها في امتحان مادة الحساب بينما كان يشرح لي ماهية الحساب والكتاب. كان يشرح دون توقف. يجب أن أفعل كيت وكيت ويجب أن أتصرف هكذا. سابقاً لم يكن يتحدث معي بهذا الشكل ولمدة طويلة. لقد كان صالح محقاً في كل أقواله.

كنت أعرف الحساب. ولكني اجهل حسابي الشخصي. لو كنت

أعرف حسابي الشخصي. ما كنت اقترضت منه مئتي ليرة ديناً. وإن اضطررت إلى ذلك لرددته في وقته وساعته. كان صالح يشرح. وكنت أستمع إليه دون أن أتفوه بكلمة واحدة.

كنت أشعر ببعض الإحباط. وأن صالح يحس بالراحة التامة. كلما أطال في حديثه. يفرغ نفسه من مغالطات نفسية كبيرة. وربما كان يفرغ من أعماقه الكلمات التي كان يريد النطق بها منذ سنين ولم يستطع.

كنا آنذاك في الثامنة والثلاثين من عمرنا. وأصدقاء منذ العاشرة كنت أشعر بأن التراكمات الإيجابية خلال ثمانية وعشرين عاماً. من لذة وجمال وحب وصداقة. تبدد مع كل إطالة في حديثه. كل شيء يتحول إلى ضباب كثيف تمنيت صادقاً لو ينقشع. فهل الصداقة شيء آخر.

ثمة صديق آخر اسمه «فريدون». وهو من أكثر التلاميذ أو الأصدقاء تبذيراً للمال وارتداء أجمل الثياب. كان أنيقاً على الدوام ومبذراً على الدوام. يسكنون في منزل في حي «أونكباني». هو الآخر رأيته في الثانوية العسكرية أصبح ضابطاً طياراً. فريدون هذا فصل من الجيش في وقت مبكر. وكانت الأناقة لا تغادر حتى في حياته المدنية. يلبس مثل موظفي وزارة الخارجية.

ذات يوم رأيته في الطريق. يسأل عن عنوان مضطرباً وبعيون مشدوهة. وقال أنه يحمل البرامج التمثيلية للقرى البعيدة. وكانت هناك حافلة واقفة على بعد خمسين متراً مملوءة بالنساء المطربات. ولما لم يجد العنوان امتطى الحافلة ومضى في حال سبيله. لم تكن ثيابه أنيقة هذه المرة. كان ابن المؤذن في جامع السليمانية. يقرأ أفضل مني في الصف. من حيث الأداء والتجويد. غلام أسمر. وجهه مملوء بحبات حلب كان

يغمض عينيه. ويضرب شفتيه ببعضهما كما يفعل القرّاء.

كان يقرأ القرآن كما يقرأه العرب تماماً. مخرجاً الحروف من أعماق حنجرته.

اللاشعور/ أو ما تحت الشعور

من جملة زملائي ولد اسمه إحسان. كان أطول تلاميذ الصف. وجهه أصفر. مخيف. غلام مدبب الشكل بكل معنى الكلمة. يمشي مترنحاً ذات اليمين وذات الشمال في كل خطوة يخطوها. إحسان هذا لم أره أبداً منذ أن كنا في الصف الثالث. وسبب عدم تذكره. هو عدم تأثيره فيّ لا سلباً ولا إيجاباً. لقد نسيته اسمه كلياً. ولكن وبعد مرور سبعة وأربعون عاماً حصلت حادثة دهشت لها كثيراً ولست أدري هذه الحادثة التي حيَّرتني. هل ستحيرٍّكم وتدهشكم مثلي يا ترى؟. عرفت إحسان هذا عندما كنا في العاشرة. لم نكن نتحدث مع بعضنا أبداً. لقد نسيته ونسيت اسمه. مهما تحدثوا عنه أمامي. لا أتذكره مطلقاً. ولكن عندما بلغت الخمسين من عمري. رأيت إحسان هذا الذي كان يترنح في مشيته رأيته في الحلم ذات ليلة قرابة الفجر. تذكرت حتى اسمه في ذلك الحلم.

وعندما استيقظت. لم أستطع معاودة النوم تلك الليلة. تعجبت كثيراً من حالة اللاشعور هذه. هل هي سر كامن في أعماق الإنسان. في أي نقطة من دماغي تركز إحسان المترنح هذا. والذي نسيته كلياً. يظهر فجأة بعد مرور سبعة وأربعين عاماً فأتذكره. وربما مات إحسان هذا قبل أن يذكرني بنفسه بعشرين أو ثلاثين عاماً. ولكنه لا زال حياً في لا شعوري كخيال من حفلة موسيقية.

هذه الحالة. من اللاشعور. كانت غريبة بعض الشيء بالنسبة لي. أدهشتني كثيراً. وربما هي عادية بالنسبة لكم. ولهذا لم أستطع أن أمر

عليها مرور الكرام دون أن أذكر لكم هذه الحالة التي أفكر بها في كل حين.

وإحسان آخر هو إحسان المترنح. لم أستطع أن أنساه. فقد ترك فيّ أثراً. لم يكن سهلاً أن يتلاءم التلاميذ مع المدارس الحكومية التابعة للوزارة. بعد الجمهورية. تلاميذ المرحلة الابتدائية في هذا العصر. كلهم تقريباً من عمر واحد. أما قديماً وبعد إعلان الجمهورية. كان هناك شباب في السابعة عشرة والثامنة عشرة من عمرهم. يتعلمون في المرحلة الابتدائية والإعدادية. حتى أن بعضهم كان في سن المعلم نفسه. كانوا يرون التلاميذ أطفالاً صغاراً. وعقولهم عاجزة عن استيعاب الدروس الحقيقية. وكانوا يتشاجرون مع المدرسين شاءوا أم أبوا. وفي النهاية كانوا يطردون من المدرسة. ومنهم إحسان القبضاي هذا. بعد دخولي إلى المدرسة بعدة أسابيع. طرد من المدرسة. وكان شاباً متكاملاً بكل معنى الكلمة. ظهر شاربه. يضع على عينيه نظارة شمسية. وكانت قليلة الاستعمال جداً في استانبول آنذاك.

كثرت الوشوشات بين التلاميذ في المدرسة: مفادها: أن إحسان دخل ساحة المدرسة في حالة سكر شديدة. وأن رائحة العرق تفوح من فمه.

يتمنطق بمشَّاط حاد. وليس هذا فحسب. بل معه سكين أيضاً. وأنه جاء كي يقتل المدير والمدرسين. لأنهم طردوه من المدرسة.

مثل هذه الأحداث تجرى اليوم بين حين وآخر في المدارس الريفية البعيدة. وتكتب الجرائد عنها مفصلاً. ومثل هذه الأمور لا تحدث في المدارس الابتدائية. مع العلم أن حوادث القبضايات كانت تحصل في تلك السنوات وتشكل الأحداث اليومية.

رأينا إحسان أثناء الفرصة. كان يمثل السكران في حركاته وتصرفاته. يضرب هذا ويدفع ذاك. يمشي في كل الاتجاهات مترنحاً، كان الأطفال

الصغار. يحيطون به من كل جانب. كي يروه عن كثب. وعندما يريد تخويفهم. كان يجري نحوهم. فيتبعثرون أمامه في كل الاتجاهات.

ارتدى ثوباً كحلياً أو أزرق غامقاً. يمسك بيده اليمنى منديلاً لفه حول قبضته. وكما يدعون. أن المنديل الأبيض هذا. كان يلفه فوق يده اليمنى. عندما يستعمل المشّاط. عندما اشتط إحسان على إرسال نعراته القوية بكل الاتجاهات. كان علينا أن نحفظ شرف المدرسة وكرامتها. وكانت هذه المهمة منوطة بطلاب الصف الخامس. وحصل كما توقعنا تماماً. كان إحسان ضخماً. كبيراً. ولكن عندما يجتمع ضده ثلاثة أو أربعة طلاب. يشكلون قوة ضاربة لإحسان.

احتدم العراك والصراع والمناوشات. وكما يحصل في أفلام الكرتون. عندما يختفي المتصارعون بين السحب. حدث نفس الشيء. قامت الدنيا وقعدت. ثار الغبار وملأ الفضاء من حولنا.

رنّ الآذان جرس المدرسة الأصغر والكبير. بكل قوته إيذاناً بانتهاء الفرصة. ودخول التلاميذ إلى صفوفهم.

كان أصدقاء إحسان يساعدونه بعد خروجه من المدرسة وهو يترنح في مشيته. والدم يسيل من أنفه وفمه.

الحروف المنفصلة

أي تغيير اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي لا يحصل دفعة واحدة. فلا بد أن تكون هناك. بعض الخطط قد أعدت من أجله. ولكن قبل ثورة مصطفى كمال لم يقم أحد بإعداد الخطط أو الدراسات. وأعتقد أنهم لم يبحثوا في تلك الخطوات التي تؤدي إلى كل ثورة أو تغيير. ظناً منهم أنها ستقلل من قيمة الثورة الأتاتوركية، وتنتقص من شأنها المحلي والدولي.

كانت أذربيجان قد غيّرت حروفها من العربية إلى اللاتينية قبلنا بوقت

طويل. ثم تركوا اللاتينية واستعملوا الحروف «المكيريلية».

حاول أنور باشا جاهداً وبكل طاقته إيجاد حل يسهل التعلم بالحروف العربية. دون أن يلقي بها جانباً. لأن التعلم كان صعباً ومعقداً بالحروف العربية. وهكذا ظهرت الكتابة عن طريق الحروف المنفصلة. والذين لا يعرفون اللغة القديمة يصعب عليهم معرفة الحروف المنفصلة وطريقة الكتابة والإملاء والقراءة فيها. وبالمختصر فإن كل حرف صوتي يأتي خلفه حرف ساكن. يعني حرف صوتي وحرف عادي. والقصد من ذلك تسهيل عملية القراءة والكتابة فالقاعدة كانت سهلة ولكن الكتابة تطول أكثر مما يجب.

عند مجيئي إلى المدرسة كنت أكتب بطريقة الحروف المتصلة. وكان السيد ذكائي. وهو معلم تقدمي. يطلب منا الكتابة على قاعدة الحروف المنفصلة. كان أبي يغضب كثيراً لهذه العملية. ويقول صارخاً: هل تتغير لغة أمة بأوامر من الأعلى؟. كل هذه العملية من أنور باشا والأعمى كمال. (الدونمة). ومن يسير في خطاه.

لم يسر مصطفى كمال على خطأ أنور باشا. لقد ألغى الحروف العربية كلياً. وطبق الحروف اللاتينية. لأن الحروف المنفصلة لم تقدم السهولة كما كانوا يظنون بل كانت تعقدها أكثر وتصعِّبها. ولكنها كانت إحدى الحوافز التي أدت إلى التغيير.

ألم المسطرة

كنا نداوم أربع حصص قبل الظهر. وعند الانصراف. كنت اخرج من المدرسة قبل الجميع وأسرع إلى البيت وأتناول طعام الغداء وأعود بسرعة البرق. كي لا أتأخر عن الدوام المسائي. حيث كنا نأخذ حصتين فقط.

رن جرس الانصراف في أحد الأيام. خرجت بسرعة البرق من

المدرسة. مررت أمام ساحة جامع السليمانية. وكما في كل مرة. لم يكن الأطفال يجرون خلفي. فهم إذن غارقون في اللعب. وصلت البيت. وتناولت الطعام، وهو عبارة عن بيض مقلي. حتى الطعام الذي تناولته في ذلك اليوم لم أستطع نسيانه. أكلت بسرعة وعدت إلى المدرسة على الفور. سابقاً كنت أجد الأطفال يلعبون في الحديقة أما اليوم وبعد عودتي من طعام الغداء. كانت الحديقة فارغة. دخلت المدرسة. لا حركة ولا كلام. التلاميذ داخل الصفوف. كيف حصل هذا؟. كيف تأخرت عن الدوام؟. طرقت باب الصف ودخلت. كان السيد ذكائي يشرح الدرس والمسطرة في يده. قال:

ـ أين كنت؟.

قلت: تناولت طعام الغداء يا سيدي.

ـ أي طعام؟.

ظننت أنه يسألني عن نوع الطعام الذي أكلته.

ـ أكلت بيضاً يا سيدي.

ـ افتح ايدك.

فتحت يدي. ضربني بحد المسطرة. لم أتفوه بكلمة واحدة ولم أتوجع /أي أي/ مثل الأطفال الآخرين. ولم أتكور على بطني. ليس لعدم إحساسي بالألم. بل من خجلي. كنت أعتبر البكاء والنحيب والانحناء عيباً. وقفت ورفعت رأسي إلى الأعلى. بعد أن انزل بي ثلاث ضربات بالمسطرة. ربما أشفق عليّ السيد ذكائي حيث قال لي:

ـ افتح الأخرى

فتحت يدي الأخرى. ضربني ثلاث مساطر أخرى بقوة وقال:

ـ اجلس في مكانك.

كانت أصابعي عاجزة عن الإمساك بالقلم. الألم الأكبر والأقوى

كان في قلبي. لماذا ضربني السيد ذكائي. لقد أحببته كثيراً. بعد قليل رنّ جرس الانصراف. دخل بعض التلاميذ مطعم المدرسة.

والآخرون ذهبوا إلى منازلهم لتناول طعام الغداء. عندها فقط عرفت سبب العقاب. وعرفت الخطأ الذي وقعت فيه.

لقد خرجت من المدرسة بعد انتهاء الحصة الثالثة. ظناً مني أنها الحصة الرابعة. ربما أحسست بالجوع أكثر من ذي قبل في تلك الظهيرة. ولم أستطع انتظار جرس الانصراف عند الظهر.

ابنتا بائعة الخبز

في شارعنا بناء مكوّن من طابقين في كل طابق فيه تسكنه عائلة. وعلى كل نافذة من نوافذها ثياب معلقة. تبدو النوافذ مغلقة دائماً جراء الثياب المرقعة والخرق الكثيرة المنشورة. والتي كانت تتحرك على الدوام بسبب قوة الرياح.

الطابق الثاني من البناء تسكنه امرأة تبيع الخبز. ولها ابنتان.

الكبرى تدرس في «دار المعلمات الداخلية». تأتي إلى منزلها يوماً واحداً في الأسبوع أما الصغرى فبقيت مع والدتها. كانت جميلة جداً تشبه الدمى الحجرية شعرها أشقر. تكبرني بعامين.

بائعة الخبز الأم شابة. جميلة. تستيقظ كل يوم باكراً. تلبس صدريتها. وتخرج إلى الطريق. كنت اعرف عملها لأنني ذهبت معها عدة مرات.

وابنتها الصغيرة لا تفارقها. تذهب صباح كل يوم إلى ميناء «ياغ كاباني». المكان مزدحم جداً. تأخذ صندوقها من أحد مستودعات البطاطا والبصل وتتوضع في مكان خلف الميناء. ثم تذهب إلى الفرن وتشتري كمية كبيرة من الخبز أو السمون. وتقطعها بسكين كبير وتجعلها أربع قطع وتبيعها مجزأة. وفي المساء. تعيد الصندوق إلى المستودع

وترجع إلى منزلها. عملها محصور في بيع الخبز فقط. تظل منذ الصباح وحتى المساء. هذه هي حالها تعمل بهمة ونشاط. كي تعلم وتربي بناتها.

بائعة الخبز هذه الشابة والجميلة. زوجة نقيب. استشهد في معركة «جنق قلعة». مثيلات هذه المرأة كثيرات. وقعن فريسة الحياة القاسية كلهن زوجات شهداء. ووضعهن هذا وصمة عار في جبين هذا الوطن. كلما أشهد حفل تكريم خاص بالشهداء. أو إقامة نصب تخليداً لذكراهم وكيف تنفق الأموال الطائلة. أتذكر هذه المرأة وبناتها. كيف كن يعملن ويدرسن ويذبن وسط مراجل الحياة القاسية. لماذا لا تفتح مدارس داخلية لأطفال الشهداء وأطفال الفقراء والمحتاجين. بدلاً من صرف المبالغ الطائلة على رفع الهياكل والأصنام. في ذكرى الشهادة والشهداء ننثر الأموال على الأرض وسط الإسمنت والرمال.

عندما رفعوا نصب شهداء «جنق قلعة». كتبت مقالاً قلت فيه:

يجب أن نفتح المدارس الداخلية باسم شهداء الوطن ولأجل أطفال الوطن الفقراء والمحتاجين تخليداً لذكرى استشهاد آبائهم في جنق قلعة. عوضاً من أن نمد أيدينا إلى الغرب ونطلب القروض لنرفع هذه التماثيل. ولأنني كتبت هذه الكلمات تلقيت الهجمات من كل صوب وصوب. كلما ازدادت محبة الإنسان لوطنه وقومه. يسهل اعتباره خائناً لهذا الوطن. لقد رأيت وأنا في العاشرة من عمري زوجة الشهيد النقيب. تلك الشابة الجميلة بائعة الخبز. كيف كانت تعمل وتعلم بناتها وهي تسكب الدموع الغريزة. وما زلت لا أفهم لماذا يقيمون هذه الهياكل للشهداء ولا يفتحون المدارس.

كان العم غالب يعطي دروس اللغة الفرنسية للأخت الكبرى في دار المعلمات. وأنا أعطي نفس الدروس للصغرى في منزلها. كنت أعلمها

من «سيللابيرا». لأن معرفتي باللغة الفرنسية كانت بهذا المستوى فقط. ولربما كنت انهج طريقة العم غالب. في التدريس. فقسوت عليها بعض الشيء لأنها لم تحفظ درسها. ولما صارت تبكي. خرجت دون أن أقول شيئاً. تركتها مع دموعها. وبدأت أنا الآخر بالبكاء. لا أستطيع رؤية إنسان يبكي أبداً. ولم أشأ الذهاب إلى منزلها ثانية. مع أن أمها كانت تعطيني بعض القروش مقابل تدريس ابنتها «اللغة الفرنسية».

العيد

تعطل المدرسة في ذلك اليوم. لست أدري لماذا. ونحن نلعب في الشارع مع مصطفى. في أعلى الطريق المتحدرة نحو «يشيل تولومباي». كان بابا الحارس يضرب بعصاه الغليظة حجارة الرصيف وهو يصرخ:

ـ آي ي ي أيها الناس. لقد تمت رؤية الهلال. اليوم عيد.

لم أحفظ تماماً ما كان يقوله الحارس. ولكن أغلب ظني أن شخصين شهدا أمام المفتي بأنهما رآيا الهلال. وعليه أعلن المفتي بداية أيام العيد.

العيد في ذلك العام بدأ مباشرة. وبعد الظهر. مع أن الأعياد الماضية. سبقها يوم وقفة «العرفة». كنا نستعد للعيد قبل يومين أو ثلاثة. أما هذا العيد فقد فاجأنا دفعة واحدة. أسرعت إلى البيت مباشرة. فلم أجد أمي. ماذا أفعل يا ترى؟. عندما يذكر العيد أتذكر الاغتسال والحمام. لأن أمي تغسلني ليلة ما قبل العيد وتؤويني في الفراش وتنتقل إلى ماكنة الخياطة تعد لي ثياب العيد حيث تبقى ساهرة حتى الصباح. وبعد كيها بشكل جيد. تلبسني إياها صباح العيد.

بعد عودة أبي من صلاة العيد. تقبل أمي يده أولاً ثم أنا ثم أختي هو الآخر يقبلنا. ثم نجلس لتناول طعام الفطور. ولكن هذا العيد ليس كباقي الأعياد. جاء فجأة وفي وقت الظهيرة. وصراخ الحارس وضربات عصاه على الأحجار ما زالت تسمع في الشارع.

أحسست أنه لن يكون عيداً إذا لم اغتسل. وضعت الطشت وسط الغرفة وبدأت أغتسل بالماء البارد. دخلت أمي آنذاك وصرخت:

ـ ماذا تفعل ولك ابني. هل أنت مجنون؟.

قلت لها: جاء العيد يا أمي.

ـ ستمرض وترى العيد. كيف سيكون.

وحقيقة مرضت. ارتفعت حرارتي. احترقت. كنت أشعر أنني أستحم بالماء البارد وأنا في الفراش. تحسنت صحتي بعد أن أعطاني الساعاتي الأحدب دواء ناجحاً. ولكن بعد انتهاء العيد بوقت طويل.

ما أسعدني

لم يكن مصطفى كمال وحده من قال كلمته المشهورة آنذاك ما أسعد من يقول أنا تركي. كنت سعيداً في حياتي. مقارنة مع الأيام الصعبة التي كنا نعيشها. من جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وكنت كلما خلوت لنفسي. أخلص إلى القناعة التالية: ما أسعدني لأنني ولدت من أب وأم مسلمين. وما أسعدني لأنني مسلم حقيقي.

الشكر لك يا إلهي لأنك خلقتني من أب وأم مسلمين وجعلتني مسلماً. ولم تخلقني يهودياً. عندها. لن أستطيع دخول الجنة. وسأحترق في نار جهنم. ما أسعدني لأنني مسلم. سعادتي لم تتوقف عند هذه الدرجة من التفكير فأقول: ما أسعدني لأنني تركي الأصل. قد يكون الإنسان مسلماً ولكن من أمة أو قومية. غير القومية التركية، هذه القومية العريقة والكبيرة والأصيلة. أنا حبيب عند الله. لأنه خلقني مسلماً وتركياً. ما أسعدني لأنني تركي أصيل.

كانت سعادتي بالاعتزاز بنفسي لا حدود لها. كنت أفكر: أستطيع أن أكون مسلماً وتركياً وكان ممكناً أن أولد في قرية نائية من

قرى الأناضول ولكني ولدت في أجمل بقعة من بقاع العالم. جنة الله على الأرض. إنها استانبول. والسعادة التي تغمرني مردها أني مسلم وتركي ومولود في استانبول نفسها!..

سعادتي كبيرة لا نهاية لها. كنت أفكر:

هل أستطيع أن أغير أبي وأمي؟. أو أن أكون طفلاً لأب وأم غيرهما؟. من رابع المستحيلات. لا أتمنى ذلك أبداً.

كنت أستعرض الآباء والأمهات الآخرين في مخيلتي أو أراهم عن كثب. فأجد أفضلهم على الإطلاق. أبي وأمي. لم يكن أبي غنياً. ليكن. ولكنه طيباً جداً ويحبني كثيراً. ثم إنه أبي. لوحدي. ولأنه أفضل الآباء على الإطلاق. وكذلك أمي. هذه الأم الطيبة إنها أفضل الأمهات جميعاً.

ما أسعدني وقبل كل شيء إذ خلقني الله مسلماً. ثم ولدت تركياً أصيلاً. وفي استانبول نفسها. ثم إنني ابن لأب وأم مثاليين. وأنا أحبُّ إنسانٍ عند الله. ما أسعدني. ما أسعدني. ولهذا فقط أعجبت بكلمات مصطفى كمال وفهمت مضمونها: ما أسعد من يقول: أنا تركي.

ولكن الشكوك بدأت تساورني فيما بعد. لماذا ولدت مسلماً يا ترى؟. إذا كان الإسلام ديناً مصطفى من بين كل الأديان. ما ذنب الأطفال الذين يولدون غير مسلمين؟. وما سبب تفوقي وتفضيلي على الآخرين؟. إذا كان الطفل يولد غير مسلم. ما ذنبه حتى يذهب إلى جهنم بعد موته. لماذا هذا الشيء؟. لما سيحترق في نار جهنم؟. ألا يعبد الله مثل الآخرين ولماذا خلقه الله بشراً. ولماذا أرسل له الأنبياء لهدايته.

أنا ولدت في استانبول. جنة الله على الأرض. استانبول مدينة جميلة وكبيرة. فيها مدارس ومستشفيات كثيرة. ما ذنب الطفل الذي يولد في قرية نائية بعيدة.

بماذا أمتاز عنه. ولماذا أتفوق عليه هذه الشكوك شغلت عقلي وتفكيري منذ طفولتي.

أمي تذهب إلى فونا

قالت لي أمي:

عند أبي حقول كثيرة ومزارع فستق واسعة. وقد فاته منذ وقت طويل أن يخصني بشيء مما يحق لي منها. لربما يكون قد بقي لي شيء من هذا الإرث بعد وفاته. يزرعون الأرض ويأكلون محاصيلها. مبروك عليهم. وحلال لهم. ولكن أنا أيضاً محتاجة الآن. سأذهب إلى قريتي وآخذ نصيبي من الإرث الذي بقي لي بعد أبي. لن أختلف معهم على الأرض. ولكن عليهم أن يعطوني نصيبي من المواسم .

قال أبي:

ـ هذا غير ممكن:

أجابته أمي:

ـ ولكننا محتاجون. ونحن في ضائقة شديدة.

أبي يغضب كثيراً عندما يذكر أحد أمامه «ضائقة مالية». بالنسبة له كل شيء حسن وجميل. وعلى الإنسان أن لا يكشف عن ضائقته أو فقره أو احتياجه لأحد مهما كانت الحالة مزرية. ويجب أن يحمد الله ويشكره في السر والعلن ويقول: الشكر لله. نحن بألف خير ونعيش. يردد هذه المقولة كثيراً. وليس هكذا فقط بل يجب أن نقدم المساعدة للآخرين.

قالت أمي:

ـ لماذا أدع الآخرين يأكلون حقي؟. فأنا لا أعرف من الذي يستثمر هذه الأرض. وربما إخوتي غير موجودين في القرية.

ويعود أبي للقول:

ـ هذا غير ممكن. غير ممكن أبداً. هل تعرفين تلك المناطق؟. ومن أين ستعرفينها؟. في قريتك يقتلون الإنسان من أجل حفنة من الذرة. فكم بالحري مصير من يذهب إلى هناك ويطالب بالميراث.

أبي أيضاً عنده حقول وأراض كثيرة. بقيت من أبيه. ولم يطالب بشيء من ميراثه أو حقه. ولن يطالب. ستمر سنون وأعوام وسيعمل أبي على إهداء كل أمواله وأرزاقه لابن أخيه مصطفى المتوفى. ويعتقد يقيناً أنه لن يتأمل خيراً من تلك الأراضي غير الخصبة. وبالنسبة له. الإرث حق. وكذلك الجهد حق.

وأنه من المعيب على من عاش طول عمره في المدينة. ولا يعرف أرضه ولم يعمل بها بان يطالب بها إرثاً أو حقاً ممن يخدمونها ويستثمرونها ويسقونها من عرق جباههم وتعود أمي لتقول ثانية: إننا في ضائقة شديدة. فيكرر أبي مقولته.

ـ الحمد لله. لسنا في ضائقة ولا مائقة. نأكل براحة ونعيش.

استمرت هذه المناقشات أياماً طويلة. وفي أحد الأيام. قالت أمي باكية: أريد أن أرى قريتي ولو مرة واحدة على الأقل بعيوني هذه قبل أن أموت. يسكت أبي هذه المرة. وأصبح على وشك أن ينهزم أمام أمي. لكنها عندما أحست بضعفه أمامها بدأت بمهاجمته وحصره.

ـ الأطباء يطلبون مني تبديل الهواء دائماً. ويقولون: هواء الجبل والبحر يفيدان صحتي ويقضيان على مرضي. ويجب أن أسكن الأماكن العالية وقريتنا في منطقة عالية مقابل البحر تماماً. وكانت كلما شعرت أنها تشدد عليه الخناق وينهزم أمامها تزداد هجوماً وإلحاحاً في الطلب. يجب أن أذهب وأرى أمي. ماذا حلّ بتلك المسكينة يا ترى؟.

لقد شاخت كثيراً. هل أجدها؟. وربما ماتت منذ وقت طويل.

فيجيبها أبي هذه المرة بصوت خافت:

ـ إذا كان هكذا. اذهبي وزوري أمك ثم احميلها وعودي بها إلينا.

أنا أعرف تلك المناطق. الحياة صعبة جداً هناك. وأحضريها فوراً إلى هنا.

منذ سبعة عشر عاماً وأمي لم تر أمها ولا قريتها ولا أقرباءها. منذ أن غادرت من بيت أهلها وهي في السادسة من عمرها. عندما أعطوها للتبني. ولم تتلقّ شقيقان صغيران من خالتها. وزوجة أبيها. لا تعرف عنهم شيئاً. رافقناها إلى رصيف «توب خانة» لتسافر بالباخرة إلى البحر الأسود. حيث قريتها. استقلت الباخرة. أمامنا. أتذكّر ذلك اليوم وكأنه البارحة .

قصدت مدينة «أوردو»، من هناك ستسافر إلى قرية «فونا». التي تغير اسمها بعد ذلك وصار «برشمبة». ومن فونا ستذهب إلى قريتها. أناس كثيرون نعرفهم يسافرون معها إلى «برشمبة». وقد وعدونا أنهم سيساعدونها في رحلتها هذه.

الجنسيون الشهوانيون

هذا ما حدث منذ أربعين عاماً.

إذا قالوا للشباب أو الأحداث: إن أخلاق المجتمع في الماضي كانت أفضل من الآن. لا يصدقون الكلام ويقولون الأخلاق في الماضي كانت أكثر انحطاطاً وتدميراً من الآن.

وخاصة. العلاقات الجنسية التي كانت متفشية ولكن بشكل سري.

غير أن المجتمع كان يشعر بها ويعرفها وأكثر أنواع الشذوذ انتشاراً كان اللواط. فلم يخجلوا به. بل يتفاخرون لأنهم يعتبرونه مرتبطاً بالرجولة والقوة. وهنالك طرائف كثيرة شاعت بين عامة الشعب حول هذا السلوك اللاأخلاقي.

كانت أمهاتنا تحظر علينا الخروج من البيت في مرحلة الطفولة

كالخروج إلى اللعب أو الذهاب إلى أي مكان. لا لشيء. إنما فقط ليحمينا من الرجال الشاذين جنسياً. إن توضيح هذا الموضوع صعب جداً لأنني شاهدت ورأيت بأم عيني. كيف عمد الرجال الكبار. ذوو المناصب العالية.

والمشهورين. على استغلال الأطفال الصغار في شذوذهم. وخاصة في دوائر وهيئات لا أحد يتوقع حدوث ذلك فيها. أعتقد أن كلاً من أترابي قد مرّ بتجارب، ووقع فريسة هذا الشذوذ مرة أو مرتين على الأقل، وإذا لم أتطرق إلى توضيح تلك الأحداث في مذكراتي. أكون مقصراً في تبيان أحداث أكثر الظواهر التركية التي تعكس الحياة الاجتماعية. وكلها متمحورة حول الشذوذ الجنسي. كنا نسمع هذه الظواهر في الشارع والسيارة وفي كل مكان. لأنها كانت متداولة شئنا أم أبينا على ألسنة الناس وفي النقاشات اليومية. ولكني شخصياً كنت أظن أن أسبابها تبقى محصورة في حيز الكلام فقط.

غير أني لم أستطع التوصل إلى الحقيقة. إلا بعد أن بلغت الرابعة عشر من عمري وعندما دخلت مدرسة داخلية ورأيت الحقيقة بأم عيني. قلت معرفتي هذه، سببها عائلتي وبيئتي وخاصة تحذيرات واهتمام أمي الكبير.

وأول حادثة جرت معي في هذا الموضوع. عندما كنت في العاشرة من عمري. كانت أمي قد سافرت إلى مدينة «أوردو». إلى قريتها. ولا أتذكر الآن. خرجت من البيت وإلى أين كنت ذاهباً لم أعد أذكر بالضبط لماذا وإلى أين.

كنت سالكاً طريق «الوفاء» ونازلاً في بيتنا في السليمانية. وإلى يمين الطريق بناء مهجور مهدم. أشبه بمدرسة قديمة. خربة. تتبعثر القبور حولها هنا وهناك تحفُّ بها أشجار البطم، ثم تحول المكان بعد ترميمه على ما أعتقد إلى مكتبة السيد عاطف أفندي.

وأثناء مروري بذلك المكان. شاهدت رجلاً يخرج منه. بدأنا الحديث ولا أذكر الآن كيف حصل ذلك وماذا تحدثنا. رجل في أواسط عمره. ثيابه أنيقة إلى حد ما. يضع على رقبته لفحة. وبما أنني اعتدت الحديث مع الرجال الكبار. واحترامهم. لم تراودني أية شكوك حوله وعلى الأغلب كان يحدثني عن دروسي ووظائفي. لأنه كان يردد كلمة «عفارم» بين وقت وآخر. مررنا من جسر أونكباني. ووصلنا إلى حي «باي أوغلو». فقال لي:

ـ ما رأيك لو آخذك إلى السينما.

وأنا على يقين بأنني لم أقل له. لا. غير ممكن. منذ دخولي السينما في «شيخ زادة باشي». وهذه أول مرة ادخل فيها السينما في حياتي لم أزل حتى الآن هكذا. يصعب علي أن أقول: لا. منذ نعومة أظفاري أقوم بأعمال كثيرة فقط كي أسعد من حولي.

وكثيراً ما قمت بخدمات لم اكن مقتنعاً بها شخصياً ولكن فقط لأسعد الآخرين. وأشعر بعدها بندم وحزن شديدين. هذه هي طبيعتي.

لا أرد طلب أحد ولا أستطيع أن أقول: لا لأحد.

لست أدري لماذا دخلنا دكان بائع سكاكر. قصد تمضية الوقت أم لسبب آخر. لا أتذكر الآن . كان هنالك طاولة صغيرة. جلسنا حولها.

الدكان صغير وما زال موجوداً حتى الآن . أحضروا لنا «كاتو». نعم كاتو. هذا الشيء مهم بالنسبة لي وفجأة شعرت بيد تمتد من تحت الطاولة نحو ركبي.

وقفت مباشرة. أنا ذاهب.

ـ ألن تذهب إلى السينما؟.

ـ غير ممكن.

لا أظن أنني قلت هذه الكلمة بغضب. وبما أن الرجل لم يلح علي

بالبقاء. عرفت أن جوابي كان قاسياً وحاسماً. لقد أحسست بنواياه الشريرة وإن فاتتني المعرفة آنذاك، سأعرف ماهيتها بعد سنوات طويلة.

رجعت إلى البيت مذعوراً. وهارباً خائفاً. كنا نكبر ونترعرع من إحدى جوانب حياتنا فقط. أما الجوانب الأخرى فعلينا ترميمها من خلال تجاربنا الكثيرة. قليلون جداً من فاتتهم هذه الأحداث من أترابي. أما أنا فقد شهدت حالات كثيرة تعرض لها بعض أصحابي من هذا القبيل.

الباشا الذي سيضع ذهباً

عندما كان الكثيرون من ضيعة أبي يزوروننا. أسمعهم يقولون:

ـ عندنا في البلد رجل يسمى رشدي باشا. هل عرفته؟.

فيجيبهم أبي:

ـ نعم عرفته.

ـ رشدي باشا مريض جداً. جاء إلى استانبول لا قريب له فيها ولا معين. هل تقبله عندك في المنزل؟.

جاءوا برشدي باشا هذا ملفوفاً بالشراشف واللحف ووضعوه في بيتنا وهو أشبه إلى حد بعيد بالعمال القرويين القادمين من المناطق النائية يبحثون عن عمل تراهم في الشوارع حاملين أغطيتهم على ظهورهم وكان أكبرهم سناً وأشدهم مرضاً. يئن على الدوام، عاجزاً عن قضاء حاجته في المرحاض مما يضطرهم إلى وضع المقعد تحته في الفراش، لو كانت أمي حاضرة لجن جنونها.

أختي سعادات هي من كان يعتني برشدي باشا. ما أسوأ حظ أختي هذه. أمضت عمرها وهي تعتني بالمرضى والمقعدين. أنهكت جسدها. ذابت. أنهكت ذاتها بذاتها. لقد أحببتها أكثر من الآخرين. لكن بسبب طبعي وتكويني لم أستطع أن أكشف لها عن حبي الكبير لها وعطفي عليها.

ما نوع هذا الباشا؟. يقولون باشا مدني. من باشاوات عبد الحميد. كان غنياً جداً وقالوا أن الفراش الذي يستلقي عليه الآن ويئن فوقه مملوء بالليرات الذهبية. ولكنه الآن خاو لا ذهب فيه ولا فضة ولا مثليك. هذا الباشا بخيل جداً. فإن لم يكن الذهب موجوداً في فراشه معنى ذلك أنه وضعه في جعبة نطاقه أو جيوب صدّارته. وربما ابتلعه لشدة بخله.

كي لا يأخذه أحد. بدأ الباشا يئن. وضعوا المقعد تحته. لم يتساقط الذهب في المقعد. وصار يسعل. فلم ينزل الذهب من فمه. إنه باشا. مصيبة من الله حلت بنا وضعوه عندنا وذهبوا. وأخيراً مات الباشا وهو يئن. ونسيت. كيف أقيمت جنازته.

الساعات السعيدة

في خضم تلك الأيام العصيبة الشديدة التي نعيشها سواء كانت أمي غير موجودة فيها. أختي تعتني بنا. هي التي تطهو لنا طعامنا. وفي المساء. يحضر أبي معه سمك الجمبري. فتنظفه وتغليه على الشرفة وعندما يشعل أبي المصباح ذي النمرة الخامسة ويضعه أمامنا تظهر أخيلتنا على الجدار من خلفنا.

مقابل نوافذ الشرفة. يطل بناء «شيخ الإسلام» القديم. بناء مرتفع. يحجب أسطحة المنازل والجدران المقابلة والشارع. وفي كوى جدرانه العتيقة عشّش الحمام. ومع هدأة الليل كنا نسمع هديله المألوف كأنه موسيقى هادئة تطرب كل من في البيت أنا وأختي نلعب مع خيالاتنا المرتسمة على الجدار من خلفنا ظلالنا كبيرة. كبيرة جداً. مثل العمالقة. ألعب وأركض وأقفز هنا وهناك.

فتلعب الأخيلة العملاقة معنا تقفز وتجري. نضحك . ونضحك، أخيلتنا تهتز جراء صعود أدخنة السمك المقلية. لعبنا أنا وأختي. نسينا أنفسنا وكذلك خيالاتنا المتداعبة. المرتسمة على الجدار المقابل.

فستق، فاصولياء. مندلينا

عادت أمي من قريتها. استقبلها أبي وعادا معاً إلى البيت. كانت أمي قد أخذت معها كيساً مليئاً بالهدايا. الأقمشة المتنوعة وأغطية الرأس. وأحذية وحنة. وخرز وصابون. هدايا كثيرة حملتها أمي معها إلى هناك. وعند عودتها أحضرت معها كيسين وسلّة كبيرة من القصب أحد الأكياس كان مليئاً بالفاصولياء اليابسة.

حبات بيضاء صغيرة. أما في الكيس الصغير الآخر فمملوء بالفستق. والزنبيل القصبي كان مملوءاً بحبات الماندرين الصغيرة الحامضة. تقول إن هذه الأشياء التي أحضرتها هي من حقها. وأنهم سيرسلون لها كل عام من هذه المنتوجات.

كانت أمي سعيدة. فرحة. لأنها رأت أمها وأخويها القاطنين في قرية والدهما. لأن أمها في قرية أخرى بعيدة. كانت تتحدث عن أمها مطولاً وتقول: رأيت أمي قبل أن أموت. نعم رأيتها بعيني هاتين هذه الزيارة جلبت الراحة والسرور لأمي. فقويت وتحسنت كثيراً.

صورة للوثيقة

الأطفال لا يشعرون بالضائقة الاقتصادية. مع أنهم يعيشون وسطها. فالضائقة الاقتصادية الشديدة التي كنا نعاني منها في تلك الأيام. ستتضح أمامي وسأعرفها وأفهمها على حقيقتها عندما أكبر وأستعرض أحداثها عن وعي وإدراك.

مرضت أمي. وبطالة أبي من جهة ـ وقلة المال وعدم وجوده من جهة أخرى. والأهم من هذا كله عدم تمكننا من إظهار فقرنا وحاجتنا للآخرين بأمر من أبي. وهذا ما يعادل كل الجوانب.

كانت أمي تبحث عن حل لهذه الضائقة الشديدة. وقررت أن تبيع الأرض التي ورثتها عن أبيها ولهذا ذهبت إلى «أوردو» قريتها وهناك

ستعطي وكالة عامة لأحد الأشخاص. لينوب عنها في بيع وتجميع وإرسال نصيبها من المال.

إنجاز الوكالة ليس بالأمر الصعب. ولكن الطَّامة الكبرى كانت في الصورة التي ستلصق على الوكالة. يجب أن تلصق صورة أمي على الوكالة. ولكن كيف سيحدث هذا؟. فهل تقوى أمي في إقناع أبي كي تتصور؟. الأمر بالنسبة لأبي (أي التصوير) يعد من الكبائر وأمي لا تستطيع أن تدخل في جدال معه جراء هذا الذنب الكبير.

وكنت متأكداً أن الغيرة فقط هي السر الكامن خلف ستارة الذنب لدى أبي وأنا في هذا العمر الصغير. لأن أمي ستجلس أمام المصور وستكشف عن وجهها وهذا ما لا يريده أبي مطلقاً ويأباه. كنت أفهم أبي تماماً فهو لا يفعل هذا الشيء بسبب عدم ثقته بأمي مطلقاً. ولكنه يخشى نوايا الرجل الذي سيصورها. فأبي يغار على أمي حتى مما يجول في أعماق الآخرين من نوايا.

وأجمل شعر قيل بهذا الشأن أي عن الغيرة كتبه (ببنين) أحد شعراء الأتراك الشعبيين.

أرى آثار نظرات على وجهك

من الذي نظر إليك يا حبيبتي

هذان البيتان يوضحان بجلاء. صفات الرجل التركي. ونواياه وتفكيره في هذه القضية. أي الصورة التي تحتاجها أمي خلقت مشكلة كبيرة مكبوتة. بين أبي وأمي. كان هذا صراعاً صامتاً. إنها طبيعة منزلنا. كل صراع يظل مكفوفاً بالصمت والكتمان لا أبي يعبر عنه ولا أمي.

أبي بالرغم من طابعه الحاد. يظل ساكناً. وتتحول تأثراته إلى نوع من اللامبالاة في كل حركاته وسكناته وصوته. وأمي لا تتكلم أبداً. لا

تصرخ. تظل هادئة وادعة. مكسورة الخاطر. متألمة بصمت لا تكشف عن تأثرها حتى لنفسها.

حتى الخلاف المكبوت لا يدوم طويلاً وسرعان ما يزول. الزوج كان «أفندياً». لا تستطيع المرأة أن تبدو عابسة بوجه سيدها. فهذا مسموح فقط تصورت أمي. ست صور شمسية. عند المصور الذي يجلس في الشارع. الصورة عبارة عن وجه مثلث الشكل. لا يظهر منه سوى العينين والأنف والفم. قسم صغير. السواد يغطي أطراف وجهها الظاهر.

كان وجهاً شاحباً. ضبابياً. صدئاً.

أرسلت الوكالة والصور إلى «أوردو». لكن أمي لم تتلق جواباً عن هذه الوكالة. سيتحدثون عن هذا الإرث وهذه الوكالة لفترة طويلة في منزلنا ومن ثم ستنتسى كلياً. لا الحقل سيباع ولن تحصل أمي بعد ذلك على الفستق والفاصولياء والماندرينا.

أظل متألماً في أعماقي: فأمي لم تذهب إلى السينما ولو مرة في حياتها. لا تعرف ماهيتها أو شكلها ومضمونها. ولم تذهب إلى المسرح. لا تعرف شيئاً عنه. لأن الذهاب إلى المسرح والسينما يشكلان ذنباً كبيراً. ولم تنل أمي من تطورات عصرها سوى هذه الصور الست.

إنني الآن أستطيع الحصول على صورة أمي تلك. إنها عندي مقابل خزائن الدنيا كلها. ولكي أرى شكلها في الصورة التي أبعادها (٦٩). ذهبت إلى «أوردو» عام (١٩٥٩). كي أحصل على واحدة منها. وقصدت ناحية برشمبة. ودرت قرية آنّاج. ولكنني لم أحصل على صورتها. تلك. الصورة الوثائقية.

جوليفر

أول كتاب أدبي قرأته هو مغامرات جوليفر.

هنالك أحياء في استانبول يتجمع فيها. أهالي المناطق النائية بكثافة.

فأهالي منطقة أبي كانوا يقطنون في حي «باباك». وقروجشمة وفي قاسم باشا. أما أهالي منطقة أمي فكانوا يقطنون حول «الجامع العربي». وعرفنا ذلك بعد زيارة أمي «لأوردو». هنالك مقهى قريب من الجامع العربي. يديره الأخوان «جلال وبلال» وهما من قرية أمي وضواحيها.

لست أدري لماذا وكيف كنت أقصد ذلك المقهى بين وقت وآخر.

كان لجلال وبلال ابن خالة يدعى زكريا. أنهى دراسته الابتدائية. وهو ولد طيب إلى أبعد الحدود. يحب المطالعة كثيراً. لكن جلال وبلال لم يتركاه يكمل تعليمه وأبقياه يعمل معهما في المقهى وكثيراً ما قال لي أنه سيجد طريقة ما ليترك المقهى ويذهب إلى المدرسة. لديه مجموعة كبيرة من الكتب. وموسوعة للأطفال. ترافقه كتبه إلى المقهى ويطالعها هناك. قرأت الموسوعة عدة مرات من أولها حتى آخرها. وأكثر ما أحببته فيها. رحلات جوليفر. أصبحت رحلة هذا الرجل إلى بلاد الأقزام ومغامراته هناك أكثر من رحلته إلى بلاد العمالقة.

لست أدري ماذا حل بزكريا. كثيرون من أمثاله. يريدون التعلم ولا يستطيعون. وكلما تذكرته. أجدني مذنباً بحقه أو مسؤولاً عن عدم إتمامه لدراسته. وأخجل من نفسي ومن تعليمي.

سكر العيد

ما لفت نظري في أول يوم ذهبت فيه إلى المدرسة لتأدية امتحان القبول والانتساب كان رؤيتي المدير في غرفته يتراقص في الهواء مثل القصاصات الورقية الصغيرة. لا أقول هذا عبثاً. ولكني أقول الحقيقة.

كان المدير ذو اللحية يعطينا دروساً في «العلاقات الأخلاقية». هذا الدرس غير موجود الآن في المنهاج. في كل مرة يدخل صفنا. كنت أراه. كما في المرة الأولى. يدور في الهواء دون توقف. هكذا كان دائماً ولم أره ولو لدقيقة أو لمرة واحدة خلاف ذلك.

قبل عطلة العيد. اجتمع بعض التلاميذ المجدين واتفقوا فيما بينهم. على زيارة منزل معلم الصف السيد ذكائي. ليقبّلوا يده. وقالوا لي: تعال أنت أيضاً معنا. فوافقتهم على طلبهم.

في اليوم الأول من العيد شعرت بفرح عظيم. لأننا سنذهب إلى منزل السيد ذكائي. من يدري كيف يكون منزله. وكيف تكون غرفته. وأمتعته المنزلية. كتبه ورفوفه وخزائنه. كيف هي يا ترى؟. وشعرت بفضول شديد كي أرى كل ذلك عن كثب.

التقينا حيث تواعدنا. كنا خمسة تلاميذ. وكنا نسير عكس اتجاه منزل السيد ذكائي.

قلت: إلى أين؟.

قال أحد الزملاء وكان طفلاً لطيفاً. صغيراً. والده يمتلك متجراً لبيع السكاكر في «تختة قلعة». واسمه سليمان:

ـ في البدء سنذهب إلى متجرنا. دخلنا إلى المتجر الواقع وسط مجموعة من المحلات التي اصطفت متلاصقة على سوية جامع رستم باشا.

ـ أعطني علبة سكاكر يا عماه.

ـ اعطني أوقة من السكر يا عماه

كان الأطفال يطلبون السكاكر من والد سليمان، قلت: وماذا ذلك؟.

قالوا: ألا نذهب إلى بيت السيد ذكائي. لا يعقل أن نزوره وأيدينا فارغة: لم تخطر هذه الفكرة على بالي أبداً. حتى ولو خطرت فلن يتغير شيئاً في المعادلة. من أين سآتي بالنقود. كي أشتري السكاكر. أحسست بالنار تشتعل في رأسي واحمرت أذناي من شدة الخجل.

قال سليمان:

ـ أبي سيعطينا السكاكر بسعر زهيد. لهذا السبب. قصدنا متجره.

رغبة جامحة تشدني لرؤية منزل السيد ذكائي بشكل غريب. من يدري كيف يكون المنزل وداخله؟. أساسه وكتبه وطاولته أو مكتبه؟.

أعطى والد سليمان كلاً منا قطعة مستديرة من سكاكر الجبنة الملونة.

خرجنا من المتجر وفي يد كل منهم علبة من السكاكر ملفوفة بورق جميل آه لو أن الأرض تنشق وتبتلع هذه الهدايا. لماذا جئت معهم يا ترى؟.

سلكنا الطريق الصاعد إلى «تختة قلعة». من يدري كيف حالة منزل السيد ذكائي؟. حتماً لديه طاولة للكتابة. كطاولة غرفة المدرسين. وربما مغطاة بقطعة جوخ خضراء. وفوقها طاقم من المحابر والأقلام.

وصلنا «باقير جلر». كتب كثيرة على رفوف منزل السيد ذكائي خزانة الكتب زجاجية تشبه خزانة السيد المدير. هزّ الأطفال علب السكاكر التي يحملونها. يتحدثون. يتحدثون دون توقف. أما فمي فلم تعد السكاكين قادرة على فتحه. كيف أنفصل عنهم يا ترى؟.

ماذا أقول لهم؟. اجتزنا حديقة نظارة الحربية (الآن حديقة الجامعة). قطعنا حي «بيازيد» وصلنا منطقة «شيخ زادة باشا» لو التفتنا نحو اليمين. لوجدنا منزل السيد ذكائي. من يدري. من يدري كيف حال منزله من الداخل؟. طبعاً. عنده كراسي. ومن المخمل حتماً. أرض غرفته مفروشة بسجادة. جميلة. الكتب المثيرة التي يمتلكها وكلها مجلدة تجليداً فنياً.

دخلنا زقاق السيد ذكائي. على الطرف المقابل. يسير الأخوان التوأمان ثابت وناهد. كل منهما يحمل علبة من السكاكر.

ـ قلت لهم. اذهبوا أنتم يا أولاد. سأدخل بعدكم.

ـ لماذا؟.

ـ لأنني محصور جداً. أريد التبول.

ـ لا. هذا من انفعالك. أليس كذلك؟.

كنت أسير بسرعة. وكأن أحدهم يطاردني من الخلف. دخلت أول زقاق صادفته. مرة من هنا. ومرة من هناك. كنت كلما ابتعدت. أحس بالراحة. وأخفف من سرعتي. لم أر نفسي إلا وأنا في حديقة الفاتح. تجولت هناك قليلاً. ثم عدت إلى البيت متأخراً. سألتني أمي: لماذا تأخرت هكذا يا بني؟.

ـ السيد المعلم لم يسمح لي. عنده منزل جميل يا أمي. ومكتب.

ـ طبعاً سيكون.

ـ ولكنه مغطى. بغطاء جميل. فوقه كتب كثيرة وكلها مجلدة. وعنده خزانة أيضاً.

ـ طبعاً سيكون.

ـ ولكن الخزانة زجاجية يا أمي. وعنده مقاعد منجَّدة أيضاً.

ـ طبعاً

ـ من المخمل. منزله جميل بشكل مثير يا أمي.

كنت أصف لأمي منزل السيد ذكائي. بشكل. جدرانه أساسه وأمتعته. أشرح لها المواقف كلها بشكل مثير. مثل /رحلات جوليفر/. مثل قصة اللقلق الأعرج.

ـ ماذا قدم لكم؟.

ماذا قدم لنا. هذا السؤال لم يخطر لي على بال

ـ قدم لنا. السكاكر.

أعود لأدخل غرف القبو. المظلمة. المتعفنة من شدة الرطوبة. أنظر إلى الجدران المتشققة. آه لو توسعت هذه الشقوق. كما في الحكايا. وتدفق الذهب من تلك الثقوب العفنة.

غرفة دراسية شعبية في «يشيل تولومبا»

سمعت أنهم افتتحوا مدرسة شعبية في «يشيل تولومبا». يستطيع

الانتساب إليها كل من لم تسمح له ظروفه أو سنه، ويتعلم فيها القراءة والكتابة والحساب. والذين يعملون في النهار. يدرسون في الليل. وبواسطة هذه المدرسة الشعبية التي تقدم العلم للجميع للصغار والكبار والشباب. سيجد من يريد التعلم ضالته المنشودة، وهكذا. وبما أنني متعطش جداً للعلم والتعلم. أستطيع أن أتعلم أشياء أخرى في هذه المدرسة خارج منهاج مدرستي. هكذا كنت أفكر.

تقع منطقة «يشيل تولومبا». في شارع منزلنا وفي الجهة اليسرى منه منزل جميل تصعد إليه بأربع درجات حجرية. تغطي واجهته كلها عريشة زهور البنفسج الجميلة وعندما تنزل نحو الأسفل. تجد مجموعة من المحلات. تصنع فيها السلل والقفف. هذه المنطقة تسمى «يشيل تولومبا». إلى يسار الطلعة تقع غرفة المدرسة الشعبية. تحتها دكان. صعدت الدرج إلى الطابق الثاني ودخلت الغرفة وقلت:

ـ جئت يا سيدي كي أتعلم وآخذ الدروس.

ـ ألا تذهب إلى المدرسة؟.

وبما أنهم لا يسمحون لطلاب المدارس النظاميين بالتعلم هنا قلت:

ـ كلا يا سيدي لا أذهب.

ـ حرام. طفل في عمرك يجب أن يعرف القراءة و.

ـ أعرف يا سيدي.

يمتحنونني كي يعطوني دروساً تتناسب مع مستواي التعليمي والعقلي.

أتذكر الآن تماماً. ما قاله الأستاذ الذي امتحنني. كلمة. كلمة. وهو يمطرني بالمديح والثناء. شرارات الذكاء تتطاير من عيني هذا الولد. لقد قال هذا ظناً أني لا أذهب إلى المدرسة. الذين لا يعرفون القراءة والكتابة يأتون إلى المدرسة بعد الانصراف من أعمالهم.

أما نحن المتقدمون فكنا نأخذ دروسنا في الساعات المتأخرة. كنت أذهب ثلاث مرات في الأسبوع إلى الغرفة الشعبية لأن دروس الحساب كانت تعطى في هذه الليالي الثلاث. وأنا ينقصني الحساب. أما المواد الأخرى. فكانت أقل من مستواي. كان معلم الحساب يعطينا الدرس وكأنه يشرب شراباً لذيذاً. وبسهولة.

جميع الدارسين أكبر مني... في الثلاثين من أعمارهم وما فوق. ما خلا شاباً واحداً كان يكبرني بعض الشيء. كلهم متعطشون للعلم والتعلم. حرفيون وضاعيون وعمال. كان المعلم يعطيهم مسائل الحساب. يحلونها. وكنت أستفيد منهم كثيراً.

كان أبي يثق بي ثقة عمياء وأنا في هذه السن. كان يتركني. أذهب إلى الغرفة الدراسية وأعود منها. ولا يشك فيّ مطلقاً. مع أنه لا يعرف ماهية الدروس التي نتلقاها ولا يعرف مكان المدرسة.

العجوز الشمطاء التي تصنع المكياج

انتقلنا من منزلنا الكائن في السليمانية. ولا أعرف كيف. لأنني كنت في المدرسة عندما تمت عملية الانتقال. لم أر العربة ذات الحصان الواحد. وهي تسير الهوينى «تنغر منغر». وأثاثنا فوقها.

منزلنا الجديد يقع في السليمانية أيضاً... تصل إليه في نهاية منحدر النزلة العسكرية «باسي مافي»: هل قلت منزلاً؟. لا. إنه أشبه ما يكون بغرفة من مدرسة. يستشم من هذا أن الضائقة الاقتصادية قد شدت خناقها علينا من جميع الجهات. حتى انتقلنا. أو اضطررنا للانتقال إلى مثل هذا المكان.

ذاك الزقاق الضيق يحوي غرف المدرسة السليمانية على نسق واحد. أبواب كثيرة تفتح على الزقاق الضيق. والبارد على الدوام لعدم رؤيته للشمس. صدر الإنسان يطبق ويضيق بسبب جدران المدرسة العالية.

سأصف لكم الآن غرفتنا. إنها لاتشبه الغرف أبداً. بل إنها أشبه بكهف كبير. تدخلها عبر باب خشبي. أكثر سمكاً من أبواب الحمامات لها نافذة فوق باب الزقاق. وعلى ما أذكر. أن هذه النافذة فتحت حديثاً. لا تدخل الشمس إلى ذلك الكهف أو القبو إلا من خلال هذه النافذة. فالزقاق بمجمله لا يرى الشمس مطلقاً. فكم بالحري غرفتنا الواقعة داخله. سقفها عقد من الحجر عال جداً قطع بسقيفة من الخشب السميك. تصعد إليها بدرج خشبي ملاصق للجدار.

أما سقف الطابق الأرضي. فهو من التراب الأسود المضغوط. والموضوع عشوائياً. المستأجر الأصيل لكهف هذه المدرسة. امرأة عجوز ضعيفة. منهكة. تعيش فوق السقيفة الخشبية.

في الطابق الأرضي عائلات كثيرة رجال ونساء وأطفال يسكنون في الغرف السفلية. انتقلنا نحن إلى السقيفة. حيث تسكن العجوز الضعيفة. هنا لا يوجد غرف ولا جدران إنه ساحة كبيرة أو (منصة كبيرة) قسَّمته ستارة مرقعة بيضاء. إلى قسمين. قبل الستارة تسكن العجوز ومن خلفها نسكن نحن.

في تلك المرحلة قرأت مجموعة كبيرة من الروايات المترجمة عن الفرنسية للكاتب الفرنسي «Tol de kok» حيث كانت قصصه قد اشتهرت يومذاك، وكانت الروايات تحكي حياة الأشخاص الكبار. المسنين. القاطنين في الأحياء القديمة من باريس. والذين يقومون بأعمال كثيرة ومجهدة. وكلهم فقراء. محتاجون. وكان القبو أو الأصح بأن يسمى الكهف. الذي نسكنه مع العجوز الشمطاء الضعيفة شبيه إلى حد كبير بأبطال تلك الروايات ومساكنهم.

هذه العجوز لا تبرح فراشها أبداً. تعولها امرأتان.

يتحدثون عن غناها المفرط تقبض بدل الإيجار من القاطنين في الطابق

الأرضي. وكان عندها مدخول آخر. بعض الرجال يأتون لزيارتها من المناطق الشرقية ويعطونها أموالاً كثيرة. هي الأخرى يجب أن تكون من شرقي الأناضول. إنها أشبه ما يكون برئيسة المتسولين. وربما كانت تقبض الأموال من القادمين من الشرق كي تجد لهم أعمالاً في استانبول عن طريق معارفها. وربما كانت تعطي القروض بالفائدة. إنها امرأة محيرة فعلاً شخصية ديكتاتورية. ومع ذلك كله. كانت مهتمة بزينتها ومكياجها بشكل ملفت للنظر. تضع الكحل الداكن على رموشها. فتبدو أهدابها سوداء كجناح الغراب وتصبغ شعرها. تلون أظافرها. وتضع على خدودها الذابلة أنواعاً من الحمرة أما اللون الأحمر الزاهي فكان لشفتيها. (لم تعد تلك الألوان موجودة الآن. فاليوم يستعملون الروج والريميل وأقلام الحواجب والبودرة).

هذه العجوز المتصابية والتي لا تغادر فراشها مطلقاً. تتزين وتتبرّج على الدوام. تمسح خدودها الذابلة بأوراق الشوكولاته الحمراء. بعد أن تبصق عليها. وأول مرة رأيت فيها كيفية إزالة شعر السيقان ووبر الوجه بواسطة «السكر المذاب» (أو ما يسمى الآن «ميم»). كان عند هذه المرأة العجوز.

وبعد أن رأيت هذه العملية لدى نساء أخريات تأكدت أن إزالة الشعر بالسكر نوع من أنواع التعذيب.

وضعت السكر على علبة وتركته يغلي مع الماء لفترة طويلة. فتحول السكر إلى ما يشبه المعجون دفعتني إلى خلف الستارة كي لا أرى شيئاً. إلا أن فضولي شدني لمعرفة ما ستفعله تلك العجوز أزحت طرف الستارة قليلاً. فرأيتها تلصق «العجينة» على خديها دون توقف. وتنتزعها بقوة. كانت الشعرات تقتلع من جذورها. فشعرت بالألم عوضاً عنها. كان المكان مظلماً حتى في وضح النهار. فنضطر لإشعال مصباح الكاز قرابة العصر.

الأيام التي عشتها هناك في ذلك الكهف ومع تلك العجوز الشمطاء. أسوأ أيام حياتي على الإطلاق. اشتد المرض على أمي هناك. كنا فقراء ومحتاجين. لم نعتد السكنى في مثل هذه الأماكن ولا العيش كأشباه الحيوانات.

فنمط حياتنا انقلبت رأساً على عقب. صارت أمي تضغط على أبي كي ننتقل من هذا المكان دون توقف لكن والدي كان يرفض الانتقال. متذرعاً. إن هذا المكان جميل ويمكن تدفئته بسهولة في الشتاء. ولا ندفع أجاراً لست أدري لماذا. كانت المرأة العجوز لا تأخذ الأجار من أبي. ربما احتراماً منها لأبي لأنه شيخ. لم نبق طويلاً في كهف تلك المدرسة. ربما أسبوعاً أو اسبوعين أو شهراً على الأكثر.

آه يا ابنتي ذات الحنّاء - (المحنّاة)

مرة أخرى أعدو خلف العربة ذات الحصان الواحد. حيث وضعنا عليها عتادنا المألوف والفرش. والخزانة الخشبية ذات الأسلاك المهترئة. والطست المعدني. على إحدى جهات العربة. تتدلى المدفأة وبواريها وصفائح قديمة. وفي الجهة المقابلة. الطاولة الخشبية المستديرة. التي كنا نضع عليها الطعام.

المسكن الجديد في «الوفاء». إنه منزل شبيه بالمنازل الأخرى. مكون من ثلاث طوابق. فرحت من أعماق قلبي بهذا البيت الجميل. إنه من أجمل البيوت التي سكناها حتى الآن، على جانبيه منازل أخرى جميلة متلاصقة. سكننا سيكون في الطابق الثالث. غرفتان متلاصقتان وشرفة ومطبخ ومرحاض. أثاثنا المتواضع لا يغطي غرفة. هذا البناء استأجره شخصان من بلد واحد.

كانا. إما من «نيفدا» أو من «نف شهير». يعملان مثل أبي بالبحث عن الكنوز أو الدفائن. وبما أنهما وإياه من نفس الطينة فقط أعطياه

الطابق الثالث ولا أذكر إن كنا ندفع أجاره أم لا. الرجلان يعيشان بسعادة ووئام تامين إلا أن زوجتاهما. لا تتفقان مطلقاً. كانتا تتشاجران دائماً. فتحاول أمي جاهدة إصلاح ذات البين وتخشى كل منهما أن تشكو لزوجها ما تعانيه من زوجة صديقه. لأن العقاب الشديد بالعصا يكون بانتظارها فالشكوى ممنوعة.

في طريقي إلى المدرسة. كنت أقف على رأس الطلعة الواصلة من «الوفاء» إلى «السليمانية».

وأشرف على البيوت الجميلة من تحتي. وأقول في نفسي: لو أننا نملك بيتاً مثل هذه البيوت. أو نسكن منزلاً مثل هذه المنازل الجميلة لكن هذه البيوت التي كانت تبدو لي جميلة. كانت خلاف ذلك.

منذ أن عادت أمي من مدينة «أوردو». وهي تتحدث عن أختها. تقول اسمها حواء. في الخامسة عشرة من عمرها. وتقول: إنها رأتها عندما كانت في زيارة أمها: آه لو ترونها ولو مرة واحدة إنها جميلة. جميلة جداً.

لكنها تعرج من إحدى رجليها وسترسل نقوداً إلى القرية لتأتي بها إلى استانبول. لتجري لها عملية جراحية وتكرر القول: فتاة شابة. جميلة. حرام أن نتركها هكذا.

أرسلت أمي نقوداً إلى القرية. فجاءت خالتي حواء إلى استانبول مع أحد (الأوربيين) نسبة إلى مدينة «أوردو». الحق يقال لقد كانت خالتي حواء جميلة جداً. يندر أن ترى بجمالها. شعرها أصفر طويل يتدلى حتى وركيها عيناها سوداوان واسعتان كعيني غزال. أصابع إحدى قدميها ملتصقة. ويقال أنه تشوه ولادي. بعد أن أخذتها أمي إلى مشفى «حسكي النسائي». وأجرو لها عملية في قدمها. أعادتها إلى المنزل.

وعادت خالتي حواء طبيعية. ولكنها تبكي على الدوام. وقالت إنها

اشتاقت إلى قريتها وكانت تردد: آه يا ابنتي الصفراء. آه يا ابنتي ذات الحنّاء. وتلح قائلة: أرسلوني إلى قريتي. فتجيبها أمي: ماذا ستفعلين في قريتك. انظري إلى استانبول كم هي جميلة. أمي تقول ذلك وخالتي حواء تبكي وترد: آه يا ابنتي ذات الحناء. وأخيراً عرفنا أن ابنتها ذات الحناء عجلة. لا تقوى على فراقها. استانبول بنظرها لا شيء. ليست مكاناً يستطيب الإنسان العيش فيها. لا تريد إلا قريتها.

بعد أعوام جعلتني الخالة حواء أفكر طويلاً وعلمتني أن حب الوطن لا يتعلق بجماله ولا بخصاله. فالإنسان يحب وطنه حتى ولو كان صحراء تحترق. الإنسان يحب الوطن لأنه بيته الكبير. يحبه لأن كل شيء فيه ممزوج بدمه مختزل في كيانه.

قرية الخالة حواء. خاوية. العيش فيها لا يُطاق. وتأكدت من ذلك بعد أن زرتها منذ أعوام. لكن الخالة حواء ستعمل راعية هناك. ستحمل على ظهرها الحطب. لأنها كانت تحب قريتها أكثر من استانبول /والابنة ذات الحنّاء/. هي رمز الحنان الطاغي لقريتها الفقيرة.

وكانت أمي تحبها كابنتها وليس كأختها. أما أنا فلم أشعر نحو خالتي بأحاسيس القربى أو حب الخالة. وأتذكر أنها ما أحبَّتني مرة على أنني ابن أختها. كانت تحب ابنتها الحنّاء وكثيراً ما كانت تهذي بها في حلمها. وأخيراً أرسلتها أمي مع أبناء بلدها إلى /أوردو/. وعندما زرت المنطقة في عام (١٩٥٩). عرفت أنها ماتت بعد عودتها من استانبول بعام واحد.

الإنسان لا يستطيع تحمل أعمال وأعباء تلك القرى النائية الفقيرة. وخالتي حواء كانت فتاة نحيفة جداً.

يقال: إن لي أخاً في الرضاعة

سافر أبي مع صديقين صاحبي العمارة إلى خارج استانبول للبحث

عن الكنز. وانقطعت أخباره عنا كلياً. والمرات التي سافر فيها بعيداً ولمدة طويلة ليبحث في المجاهيل: عن الكنوز والآثار لا يمكن حصرها على أن يجد الكنز ويصبح غنياً حتى يقدم لنا حياة كريمة.

اهتدت أمي إلى عنوان منزل السيد سليم من أحدهم. ولست أدري كيف توصلت إلى ذلك.

والسيد سليم هذا هو من أخذ أمي من جدي بالتبني وهو الذي زوجها لأبي. وكان من المدراء السابقين للمدرسة البحرية الثانوية.وعقيد متقاعد الآن.

ذهبت مع أمي لزيارتهم في «قاضي كوي» في «خانة المواقيت».

استقبلونا هناك بالترحاب. لا يمكن أن أنسى الحب الذي أحاطوني به. والأهمية البالغة التي أولونا إياها ومن أعماقهم. المحبة التي أحاطونا بها غير مصطنعة أبداً. بل كانت من أعماق قلوبهم.

وهذا الاستقبال المنقطع النظير والذي لم أعهده من أحد قبلهم، جعلني أشعر بارتياح نفسي وجسدي. السيدة ثريا. إنسانة رائعة. مرتبة. نظيفة. تفهم مالها وما عليها. وأستطيع أن أقول: إنها رائعة الخلق والخلق. وأعتقد أن استانبول تفتقر إلى الكثيرات من أمثالها. أحسست بالراحة المطلقة للإهتمام الزائد الذي لقيته أمي هناك قالوا لي: هذا أخوك في الرضاعة.

فعبد القادر إذن هو أخي في الرضاعة. وأننا رضعنا سوياً من ثديي أمي وأنهم عندما سمعوا بتردي صحة أمي. وإصابتها بمرض السل. وغياب أبي عن البيت لمدة طويلة. حزنوا كثيراً. كانوا يهتمون بأطباقنا وملاعقنا وملاعقهم. ما كنت أشعر بالتفرقة أبداً. لأن السل آنذاك. كان كالسرطان اليوم. علة قاتلة. ثم إنه مرض معد.

أمي مسلولة. وأنا ابن مسلولة. ولهذا ما كنت ألومهم لتصرفاتهم بهذا

الخصوص. وأمي أيضاً كانت تفعل نفس الشيء فلا تعانقني ولا تقبلني خوفاً من العدوى. فرحت كثيراً. عندما علمت أن لعبد القادر أخوين كبيرين اسمهما «نعيم» و«أديب». لقد طلب الأطباء من أمي أن تغير مكان إقامتها. وعليها ستجد أمي منزلاً هناك وستنتقل إليه وبدل الإجار الأول سيدفعه السيد سليم وسيعطينا كل شهر عشر ليرات.

حارة التلة. شارع المطحنة

للمرة العشرين العربة ذات الحصان الواحد تنغز منغز ـ أغراضنا ستنتقل إلى قارب يجري من العربة في ميناء «ياغ كاباني». نصفها ينقله الحمالون والنصف الآخر أنا وأختي.

منزلنا الجديد في «هيبلي آدا». حارة التلة شارع المطحنة وسط الجزيرة تقريباً. وفي أعلى نقطة منها. منزل مكون من غرفتين وشرفة صغيرة. خشبي أشبه ما يكون بعلبة صغيرة. نستقر فيه.

كنت أقصد منزل السيد سليم في «قاضي كوي» مرة أو مرتين في الشهر يعطونني النقود. كي أسلمها لأمي. تضعها السيدة ثريا. داخل جوربي الطويل الأسود. كي لا تقع مني. ولا يسرقها أحد. وتعاين بدقة مطاط الجورب من الأعلى كي لا يكون رخواً. ليناً. إلى جانب ذلك. كان الأخ أديب يعطيني بعض النقود الفراطة.

عندما نتناول طعام الغداء عندهم كانوا يعزلون. صحوني وكأسي وملعقتي كي لا تمس صحونهم وأغراضهم. محاولين قدر المستطاع إخفاء ذلك عني. غير أني كنت أعرف فحوى حركاتهم وتصرفاتهم وأتألم كثيراً في أعماقي. ولكن ماذا بودي أن أفعل؟.

أنا ابن لأم مسلولة. وعلي تفهم هذا الأمر. عندما أعود إلى المنزل. أعطي النقود المخبأة ضمن جوربي لأمي. حتى الفراطة أيضاً. في كل مرة أذهب فيها إلى منزل السيد سليم. يعطونني علبة من العسل أو المربى.

ومثلها من السمن البلدي. كانت أمي تمزج العسل أو المربى بالسمن. وتضعه فوق ثلاثة قطع من الخبز. واحدة لي وأخرى لأختي والثالثة تأكلها هي.

هذه الوجبة الدسمة. من العسل والزبدة. كانت تعجبني كثيراً. ولكني لست مسلولاً. كي أشارك أمي دواءها هذا الأمر كنت أرفضه من أعماقي.

الرسالة المختومة بالنقود

وصلتنا رسالة أبي التي أرسلها من مدينة /بورصا/. وكانت حافلة بأخبار سعيدة مفرحة. قرأتها لأمي شخصياً. سنكون أغنياء عما قريب. لأن أبي ورفاقه وجدوا كهفاً في بورصا ووجدوا فيه كنزاً. لقد أخرجوا من تحت التربة نقوداً قديمة. وكما يقولون: سيظهر الذهب أيضاً في وقت قريب. لقد وضع أبي النقود المعدنية ضمن مغلف وبواسطة قلم الرصاص ارتسمت آثار النقود على ورقة الظرف. وصلت الرسالة وعليها أربعة أو خمسة آثار لنقود معدنية على شكل أختام. إذن قريباً. نحن سنكون أغنياء.

هذه البشائر لم تفرح أمي. لأنها لم تصدق هذا الكلام. أي كنز هذا لقد وصلتها سابقاً بشائر كثيرة من هذا النوع. لو بقي أبي قريباً منا.ومعنا. وأنجز عملاً وبمبلغ بسيط للغاية. لكانت أمي سعيدة أكثر ومرتاحة أكثر. عندما تفرح أمي بالكنز. أنا الآخر لم أشعر بالفرح. والأختام التي جاءت مع الرسالة لم تؤثر بنا إيجاباً مطلقاً.

لم يحصل أبي من خلال عمله وبحثه المتواصل وغربته عن البيت إلا على هذه الأختام المعدنية. دون أن يحصل على قطعة ذهبية واحدة وحسبما يدعي. إما أن رفاقه أخذوه أو سبقه أحدهم واستولى عليه. كان أبي يعد أسماء رفاقه الذين صاروا أغنياء جراء الكنوز. وأعتقد تفكيره

هذا كان تخيلاً. أودى به إلى شبه اعتقاد ونتيجة مراقبتي لأبي ورفاقه. خلصت إلى أنه في البحث عن الكنز ناحية إيجابية واحدة عندهم. وهي الشعور بالأمل الذي لا يفارق احاسيسهم وهذا ما كان يجذبهم إليه. دونما أي برهان أو حقيقة. إنه نوع من أحلام اليقظة. والشعر الجذاب ليس إلا.

اليوناني العثماني

لقد عاد أبي إلى البيت خاوي الوفاض. كما في كل مرة يغيب فيها عن أهله ويعود بخفي حنين. لم ندفع أجرة البيت عن ذلك الشهر. وجاءنا صاحبه مطالباً بحقه. لأنه كان يسكن في استانبول ويوناني (وكما يقول الأتراك رومي) يوناني عثماني بكل معنى الكلمة لن أنسى حديثه مع أبي داخل الغرفة.

كان أبي يتحدث بلهجة المتعالي وهذا مردّه طبعه الحاد. كانا يحتسيان القهوة. ولم يظهر من حديثه أنه يوناني. كان يتحدث العثمانية الفصحى تماماً. كأنه يشبه إمام خلع عنه جبته وعمامته. تمحور حديثهما لفترة حول الآيات والأحاديث. فإن ذكر أبي حديثاً عن الرسول.

أعقبه اليوناني بحديثين شريفين. ثم بدأ بقراءة الشعر القديم. وعندما نزل الشعر إلى الميدان. تأكدت أن أبي سيهزم. كان اليوناني العثماني ينشد الأشعار الديوانية أما أبي فكان يقرأ الأشعار الشعبية أو الدينية (التكوية).

صاحب البيت هذا رجل لا يضاهى في أي شيء على الإطلاق.

وكما يقال كان كمن يغرف من بحر. لم يضغط على أبي من أجل الأجرة أبداً. هذه أحوال البشر. يوم لك ويوم عليك. وعندما يتوفر المال. سيدفع له الأجرة. والأفضل إيصالها إلى دكانه. على الأغلب كان يملك متجراً كبيراً في «يميش». أخرج من جيبه دفتراً ونزع منه ورقة. وكتب

عليها عنوانه بخط الثلث. كان خطه جميلاً جداً. وأنهيا حديثهما بتفاهم تام. عندما غادر المالك الدار. قال أبي وهو يحوقل: لا حول ولا قوة. هذا اليوناني صار مسلماً بالسر. هذه المعرفة الواسعة لا تتوفر إلا لمسلم المهم أنه يحمل في حناياه ديناً سرياً. فلا يظهر إسلامه لأحد.

الذنب الأول

هل من إنسان يتذكر الذنوب التي اقترفها في طفولته. وفي أوقات غير مناسبة. وأماكن لا يجب أن يتذكرها ولا يشعر بالخجل من نفسه؟. أظن أنه ما من إنسان في هذا العالم لايحس ولا يخجل من ذنوبه الماضية.

أنا شخصياً عندي ذنب كبير. يخجل الإنسان منه. مرّ أربعون عاماً ولم يفارق ذاكرتي. وبين الحين والآخر عندما يخطر لي ترتفع الحرارة إلى وجهي. ذنبي هذا الذي اقترفه مذ كنت في العاشرة من عمري. يتشابك مع أفكاري فتختلط فيه الخيالات كما تختلط أسلاك الهاتف مع بعضها. مثلاً:

عندما أقف أمام القاضي. أو النيابة العامة لتحقق معي. أو عندما أكون في نقاش حاد مع إنسانة أعزها وأحبها. أتذكر ذنبي فجأة. ودون سابق إنذار. مرة أخرى. فارقنا أبي وذهب للبحث عن كنوزه. وكان مرض أمي قد اشتد كثيراً. وطلب منها الأطباء أن تعمل كل يوم حماماً شمسياً.

وجارتنا السيدة زينب كانت مسلولة أيضاً. وبما أنها امرأة عجوز. كانوا يسمون مرضها استسقاء. فيقولون السل للشباب والاستسقاء للعجز. المصابون بالاستسقاء لا يموتون سريعاً. ومعنى الاستسقاء. الخلاص من السل. والرأي السائد أن أفضل وقت للحمام الشمسي هو العصر. او شمس العصر.

فتخرج أمي مع جارتها كل يوم ويذهبن إلى غابة أشجار الصنوبر الكثيفة ويجدون مكاناً. هناك. يجلسن ويعرضن ظهورهن للشمس. طبعاً الغابة خالية من البشر.

أشد أزمات الجزيرة. هو الماء. فالبيت الخالي من خزان أرضي «صهريج» حتماً سيتعرّض لهذه الضائقة. هنالك أناس يبيعون الماء على الدواب. يضعون «مندقين» على ظهر الحمار في كل منهما صفيحتان من التنك. يبيعون الماء بواسطتهما. ولكن ميزانيتنا صغيرة. لا تسمح لنا بشراء الماء من الباعة. فكنت أنا وأختي نقوم بمهمة نقل الماء إلى بيتنا.

عندنا وعاءان نحاسيان كبيران. نجلب الماء بهما. أحدهما لي والآخر لأختي. ولكن عندما أتهرب من هذه المهمة. تضطر أختي المسكينة على حمل الوعاءين معاً.

هنالك مصدر واحد للماء في الجزيرة. قريب من الميناء. له عدة صنابير كبيرة. لا يسيل الماء منه سوى لساعات قليلة بعض الظهر. ويأتون به بواسطة السفن من منطقة «القرطل». ويصبونه في خزانات خاصة.

حول الصنابير تجمع الكثيرون ذكوراً وإناثاً ينتظرون الدور. الباعة يأتون بدوابهم. والنساء يأتين بالتنكات والسطول والدلاء وكذلك الأطفال. كل يحمل وعاء ماء ينتظر دوره. ويأخذ نصيبه من الماء في ذلك اليوم. وكثيراً ما تحدث الصراعات بين الباعة من أجل الدور. أحد الباعة جارنا شريف أفندي. ابنه الآن جنرال في الجيش. ومن (زملاء الصف). شريف أفندي ينتظر دوره أيضاً وحماره إلى جانبه. بعد ساعات من الانتظار. يأتي دوري فأحمل وعائي النحاسي وأقترب من الصنبور. الواقف من خلفي يدفعني على الدوام. كي أملأ وعائي وأذهب.

أقصر طريق إلى بيتنا كانت طريقاً صاعدة ووعرة. في كل عشر

خطوات أنقل الوعاء من يد إلى اليد الأخرى. وأحياناً أضعه على الأرض وآخذ قسطاً من الراحة. طريق صاعدة قاسية ووعرة. يصعب على الإنسان اجتيازها بسهولة. وعائي كبير وقامتي قصيرة. ماذا أفعل؟. إذا مسكت الوعاء بيدي وأرخيت ذراعي على مداها نحو الأعلى. فيزداد وزن الماء إلى أكثر من خمسة أضعاف.

عندما أبلغ منتصف الطريق. تصبح الطريق مستوية وإلى اليمين تبدو الأرض معشوشبة بديعة. عند هذه النقطة. أحث خطاي وأطير كالعصافير. دون أن التفت يمنه أو يسرة. لأن بعض الأولاد الأغنياء من أترابي. يلعبون في تلك الفسحة الكبيرة من الأرض. كلهم أغنياء عندهم دراجات وكرات وأشياء أخرى. ولكي لا يسخروا مني لأني أنقل الماء بالوعاء النحاسي. أسرع بالجري في تلك النقطة. حتى يغيبوا عن ناظري فأضع الوعاء على الأرض وآخذ قسطاً من الراحة. وبسبب اصطدام الوعاء برجلي. ابتل بنطالي تماماً وقلت في نفسي عندما أكبر سأكتب قصة هذا عنوانها: في الجزيرة يسكن الأغنياء والفقراء..

خرجت أمي وجارتها زينب من البيت عصر أحد الأيام ليذهبن إلى الغابة. بين الأشجار الكثيفة كي يعملن حماماً شمسياً. أعطتني أمي نقوداً أشتري بها خبزاً. كل شيء متوفر في السوق قرب الميناء فقط لا دكاكين قرب منزلنا ولا متاجر أعطتني ليرة واحدة. وكان علي أن أشتري الخبز وفي الوقت نفسه أجلب الماء للبيت.

تركتُ أمي وجارتنا السيدة زينب بين الأشجار الكثيفة. ورجعتُ إلى البيت وحملت الوعاء النحاسي. ونزلت السوق سالكاً طريقاً أخرى كي لا يراني الأطفال الذين يلعبون فوق تلك الفسحة العشبية الجميلة. كان صعباً علي أن أملأ وعاء الماء ثم أذهب لشراء الخبز. ولهذا السبب ذهبت بداية إلى بائع الخبز وكان دكانه قرب الكنيسة.

صاحبه رجل يوناني. قصير القامة مُكتنز باسم الوجه.

أعطيت الرجل الليرة وقلت له: عند العودة آخذ الخبز والمبلغ الباقي من الليرة.

طبعاً لا أستطيع انتظار دور الماء والخبز معي. وقفت في المؤخرة لما جاء دوري ملأت وعائي. ثم عدت إلى الفران فأخذت الخبز والمبلغ المتبقي وخرجت من الدكان. أحمل الخبز في يد والوعاء في اليد الأخرى.

في اليوم التالي وكالعادة أوصلت أمي وجارتنا السيدة زينب إلى الغابة. أعطتني أمي نقوداً كي أشتري خبزاً. كنا مفلسين تماماً. فأبي لم يرسل لنا نقوداً منذ مدة طويلة في ذلك اليوم اقترفت ذنباً لم أستطع نسيانه لأعوام عديدة. وأتذكره على الدوام.

قصدت بائع الخبز حاملاً وعائي الفارغ. أعطيته ثمن الخبز وقلت له:

ـ عند عودتي آخذ منك الخبز من الباب.

ذهبت إلى النبع مصدر الماء وملأت وعائي. ومررت بدكان بائع الخبز الموجود قرب الكنيسة. أعطاني الرجل الخبز من الباب. وهممت بالانصراف وإذا بالرجل يقول لي: تمهل لم تأخذ بقية الليرة.

لم أفهم كلامه في البداية. فتح الرجل الدرج وعدّ في كفِّه مقداراً من النقود ظناً منه أنني أعطيته ليرة. ونسيت الباقي. أخذت النقود ومضيت دون أن أقول شيئاً.

كان هذا خطأً صغيراً. لا يترك عند الإنسان أي مبعث للخجل، ولكن التصرف الذي يخجل المرء منه، كان ما فعلته في اليوم التالي، بعد أن ملأت وعائي. مررت بالرجل وبعد أن أخذت منه الخبز، طلبت منه الباقي، قائلاً:

ـ قبل قليل أعطيتك ليرة.

أعطاني الرجل الخبز. وبقية الليرة.

والمعيب والمخجل أن هذه العملية تكررت مرات كثيرة. فعندما كنت أمر بدكانه ويكون مزدحماً، أعطيه ثمن الخبز. وعند العودة آخذ الخبز وبقية الليرة التي لم أعطه إياها أبداً. وبالرغم من تكرار هذا العيب لم يشك بائع الخبز اليوناني فيَّ مرة واحدة.

تلك أحداث عفا عليها الزمن. وحتى الآن لم أستطع فهم كيف يكون الرجل غارقاً في التفكير لهذه الدرجة. كيف يكون بسيطاً. كنت أقول في نفسي: ربما كان الرجل يعطيني النقود عن معرفة، وربما كان يشفق عليّ ويعطيني المبلغ لمساعدة إنسانية. وأعتقد جازماً، أن الأمر لم يكن هكذا.

كنت أخاف من أمي كثيراً لأنني آخذ النقود من اليوناني بالمكر والخداع، ولربما سيأتي يوم تعرف بفعلتي هذه، كانت العبارات والسفن تجلب بعض الخضروات كالبطاطا والبصل والفواكه من ميناء عباس باشا. فأشتري بعض الفواكه وأحضرها إلى البيت وأقول لأمي بأنني اشتريتها بسعر بخس جداً، وهكذا أكون قد أخفيت قصة النقود التي سرقتها من بائع الخبز اليوناني، وما كنت أفكر أن تلك النقود ستبقى سراً لا يعرفه أحد. ولاحظت أن أمي قد أحست بهذا الشيء.

زوج السيدة ناريمان أحد رجال الإطفاء في الجزيرة، قد اشترى لي من تلك الصناديق بعض السفرجلات، وبسعر بخس أيضاً. وعندما عرفت أمي أن السفرجلات التي اشتريتها أرخص بكثير من التي اشتراها جارنا، بدأت التحقيق معي، فبقيت مصراً على أنني اشتريتها بذلك السعر. ولم أقل شيئاً آخر.

في اليوم التالي ذهبت لأشتري الخبز. أعطاني الرجل الخبز وبقية الليرة التي اعتاد على إعادتها لي. قلت له:

ـ لا تمام، أعطيتك ثمن الخبز فقط.

وهنا انتهت تلك النقيصة.

وبالرغم من ذلك لم أستطع نسيان هذا العمل. أتذكره في مناسبات حساسة جداً وفي غير مناسبة، فأشعر بالنار تحرق وجهي. تحدثت كثيراً بيني وبين نفسي وقلت: لو أجد الرجل وأقول له الحقيقة. وأُعيد له كل النقود التي أخذتها منه نصباً واحتيالاً. من يدري ماذا حصل لبائع الخبز اليوناني. لو أنه يعيش الآن سيكون عمره فوق السبعين.

زيتو فنزيلوسي

سألت أمي صديقاتها عن يوناني عجوز طيِّب جداً عرفته منذ زمن، وكما تقول إنه كان يملك متجراً غريباً. عندما جاءت أمي إلى الجزيرة مرت بالدكان، فلم تجده هناك. بل وجدت دكاناً وإنساناً آخر. فقالت على الفور: أخشى أن يكون المسكين قد مات. فقد كان هرماً جداً.

غير أن امرأة حكت لأمي حقيقة ذلك اليوناني فيما بعد وقالت: ها. ذاك العجوز فطس. فطس. ليعم الله بصره إن شاء الله.

وتابعت القول: عندما دخلت قوات الاحتلال الإنكليزي إلى استانبول. والقوات اليونانية إلى إزمير. أغمي على ذلك اليوناني من شدة الفرح. فخلع الطربوش العثماني عن رأسه ورماه أرضاً وداسه برجليه. أمام باب الكنيسة. تقول أمي:

ـ كيف حدث ذلك؟. مستحيل؟. لقد كان رجلاً طيباً ومسالماً جداً.

لم تصدق ما قالته المرأة ولم تشأ أن تصدق ما حصل. ولكن عندما أكد الحقيقة رجل آخر، اقتنعت وزاد حزنها أضعافاً مضاعفة. قال لها الرجل: صرخ أمام كل الحرفيين الموجودين هناك. «زيتو فنزيلوسي. زيتو فنزيلوسي»، ثم خلع الطربوش عن رأسه وألقى به أرضاً، وداسه بقدميه.

لم يتجاسر أحد أن يعترضه من شدة الخوف. ولكن عندما انتصر جيشنا لملم نفسه وحوائجه وهرب.

كانت أمي تقول:

ـ واه. واه. لا أحد يتوقع منه ذلك. كان رجلاً طيباً.

نقيب

يقال إن للسيدة زينب ولداً برتبة نقيب في الجيش، يرسل لأمه المريضة نقوداً في نهاية كل شهر. وقد شارك في حرب الاستقلال قبل أن يتخرج من الكلية العسكرية، لأنه كان ضخماً ونظامياً. اتبع عدة دورات كي تؤهله لخوض المعركة بعد انتهاء الحرب بفترة. ترفع مباشرة إلى رتبة النقيب. والآن يعمل في إحدى القطعات العسكرية في الأناضول. وسيأتي قريباً إلى استانبول كي يكمل تعليمه العسكري لأنه لم يتخرج منه بعد رسمياً. وفيما كانت السيدة زينب تقص مزايا وخصال ابنها من القوة إلى الطيبة إلى الوسامة، بكلامها اللذيذ، كانت أمي تنظر إليّ بين وقت وآخر. تنظر وتغيب مع أفكارها، وأحسست بما لا يقبل الشك، أن أمي كانت تتمنى أن تراني مثله قبل موتها. كانت عيناها السوداوان الكبيرتان تغشاها مسحة من الكآبة والتعب، فتحولت برأسها إلى الجهة الأخرى مباشرة وتجاهلت الأمر.

جاء النقيب ابن السيدة زينب إلى استانبول. وقال إنه يدرس في المدرسة الحربية وربما في الأكاديمية العسكرية ليكون ضابطاً في الأركان. إنه يثابر على زيارة أمه أيام العطل الأسبوعية في الجزيرة. والحق يقال كان شاباً وسيماً، بدا لي وكأنه جلمود صخرة قاس قُدَّ من جبل، تبدّى بهيئة شاب قوي. وسيم. جميل. كنت أنظر إلى سترته الخاكي الغامقة وإلى صدره البارز، وأحسب أن شظايا ورصاصات وقنابل الأعداء لو اصطدمت بهذا الصدر لارتدت خائبة. هذا هو بطل الحرب أمامي عندما

كان يرفعني بيديه الاثنتين نحو الأعلى، أغضب منه، لأنه يعاملني معاملة الطفل الصغير. ولكن ما أن يطول الحديث بيننا، حتى أدرك بأنني أضارعه علماً وثقافة معتزاً بنفسي.

طفل بلا أب

كنا نجهل مكان أبي العسكرية آنذاك، وترى تلاميذ الضباط بثيابهم الصيفية البيضاء، والشتوية الكحلية الغامقة. ربما هيأت نفسها لهذا المستقبل الحلم الذي تجعل مني فيه ضابطاً بحرياً، وخاصة أننا نسكن قريباً من المدرسة البحرية، ولكن وقبل كل شيء، عليّ الحصول على الشهادة الإعدادية كي أُقبل في الثانوية البحرية العسكرية.

كان السيد سليم يهتم بتعليمي أيضاً. فكروا في تسجيلي بمدرسة داخلية مجانية، ولكن هذه المدرسة لا تقبل إلا اعتباراً من أول المرحلة الإعدادية. ومدرسة دار الشفقة فقط، تقبل التلاميذ بدءاً من الصف الرابع الابتدائي في مدرستها الداخلية المجانية بعد امتحان بسيط.

كان السيد سليم وأخي الكبير أديب يثقان بي وبمقدرتي على النجاح في الامتحان ولكن المشكلة أن /دار الشفقة/ لا تستقبل سوى التلاميذ الأيتام، الذين فقدوا آباءهم، أما أنا فلي أب. نعم لي ولكن أين هو؟. ربما سيأتي غداً، أو بعد غدٍ، أو يظهر فجأة من مكان ما.

كتب السيد سليم رسالة إلى إمام «هيبلي آدا» أي الجزيرة، بشأن وضعي. ويقال إنه عندما كان السيد سليم مديراً للثانوية البحرية، كان شوكت أفندي إماماً لجامع الثانوية آنذاك. وعندما ألغيت وظيفة الإمامة من الثانوية بعد إعلان الجمهورية، صار شوكت أفندي إماماً لجزيرة / هيبلي آدا/. كان الأئمة آنذاك يقومون بأعمال المخاتير، وكتاب العدل. وبنصف وظائف الدولة.

يجب أن يكون شوكت أفندي على علم بمكان أبي، لأنني رأيت

أحد سندات القروض مذيلاً بختم الإمام شوكت أفندي.

طلب السيد سليم في رسالته من شوكت أفندي أن يقدم لي خدمة، وهي أن ينظم ورقة تسمى «علم خبر» باسم نصرت بن عبد العزيز كي يستطيع التسجيل والانتساب إلى مدرسة «دار الشفقة» الداخلية المجانية.

«وعلم الخبر» هذا. يعني أن نصرت بدون أب (يتيم) أي يجب أن يوضح خلال تنظيمه للورقة بأن عبد العزيز متوفى، وبذلك يكون قد قدّم خدمة جليلة لعبد العزيز ولابنه في تحصيل وتكميل دراسته، لأن محمد نصرت تلميذ ذكي وعليه يجب أن يدخل «دار الشفقة» لأن أمه مسلولة وأباه غير موجود، ولكي يدخل المدرسة يجب أن يكون والده ميتاً.

شوكت أفندي هذا إما أنه يحب أبي كثيراً، أو أن السيد سليم قدّم له مساعدات وخدمات في الماضي لا يستطيع أن ينساها، وإما أنه إنسان طيب وشفوق وكريم حتى كتب ورقة «علم الخبر» ومهرها بخاتمه ووقع عليها وأعطاني إياها. الورقة التي كتبها الإمام شوكت أفندي لم يذكر فيها أن والدي متوفى، بل كتب (والد محمد نصرت غائب منذ زمن بعيد لم يستطع أحد أن يجده). وهذا لا يعني أنه ميت، فإن ظهر أبي في أحد الأيام، فيكون الغائب قد ظهر ولا يتحمل شوكت أفندي أية مسؤولية قانونية أو جزائية أو وجدانية من كتابته هذه الورقة، وبهذه الخدمة الجليلة يمكن أن يكون شوكت أفندي قد عرّض نفسه لمسؤولية كبيرة يحاسب عليها، إذا ما أدت الأمور إلى أبعد من ذلك.

ولو لم يكتب شوكت أفندي تلك الورقة ويعطني إياها لما كنت كاتب هذه الأسطر والكلمات، وما كنت أنهيت المرحلة الابتدائية مطلقاً. وهكذا قدّم لي شوكت أفندي خدمته الجليلة الرائعة التي غيّرت مجرى حياتي كلها. إذ لم يكن له أية مصلحة في تقديمه هذه الخدمة حتى إنني لم أعطه أجرة كتابة الورقة.

هل الخروج عن الأنظمة والقوانين خدمة للآخرين، يعتبر جريمة؟. يصعب الإجابة عن مثل هذا السؤال. لكن هل هذا السؤال في محلّه يا ترى؟. أنا شخصياً عانيت كثيراً من مثل هذه التصرفات. وقعت تحت طائل كثير من المساءلات الكبيرة لأنني قدمت خدمات للآخرين. وطُردت من الجيش بسبب ذلك. ولكن كيف يمكنني التصرف خلاف ذلك، وأنا من لقيتُ مساعدة من شوكت أفندي وغيرت مجرى حياتي مائة وثمانين درجة. وأوشكت على الضياع لولا خدمته هذه.

شوكت أفندي الذي أنحني اليوم احتراماً وإجلالاً لذكراه، عندما أخذت الرسالة من السيد سليم وذهبت إلى بيته في منطقة تسمى «كوشك بفروسو» والمكون من طابقين. ما كنت أتوقع أبداً أنه سيعطيني الورقة المطلوبة أو أن أراها في يدي مذيلة بالطوابع والتوقيع والخاتم. لم أفرح أبداً. لأنني أحسست بنوع من الإحباط والنفور تجاه الرجل، ما معنى أن يكون الطفل بلا أب وهل يعتبر الأب الغائب ميتاً. كان لهذه الشهادة بالغ الأثر في نفسي، ولكن لا ذنب للسيدين سليم وشوكت أفندي، ولا أحملهما المسؤولية على الإطلاق. شعرت أنني أنا من ارتكب الذنب، وأن ما قمت به في طفولتي جناية بكل معنى الكلمة، من أجل مصلحتي الشخصية، من أجل قبولي في مدرسة داخلية، قتلت أبي. هكذا تراءى لي الأمر، والدي الذي أحبه كثيراً.

عندما أعطاني شوكت أفندي ورقة «علم الخبر» وصرفني من باب بيته. لم أتمالك نفسي وأجهشت بالبكاء. أسرعت إلى الغابة مباشرة، أفضل مكان للبكاء. الغابة التي لا يراني فيها أحد أذرف الدموع بغزارة. قديماً كنت أبكي في المرحاض كي لا يراني أحد. أما في «هيبلي آدا» صارت الغابة الكثيفة مكاني وملاذي الوحيد من أجل البكاء.

الإحساس بالذنب هذا أثّر عليّ كثيراً ولسنين عديدة. وعملت

المستحيل كي أتخلص منه. ماذا حصل لذاك الولد. اكتملت الأوراق الثبوتية المؤهلة للدخول إلى مدرسة دار الشفقة.

تلك الليلة بتُّ في منزل السيد سليم الكائن في منطقة «قاضي كوي». ومع إشراقة صباح اليوم التالي أخذني ابنه أديب إلى المدرسة. لم أرَ تلك المنطقة من قبل. مررنا من ساحة جامع الفاتح، وسط مجموعة كبيرة من الجمال. بعضها جاثٍ على الأرض، وبعضها لا زال واقفاً. كان الجمالون ينزلون أكياس الحطب المعدّة لصناعة الفحم. مررنا أمام باب الجامع واتجهنا يميناً إلى حي «جرشمبة» حيث باب مدرسة «دار الشفقة».

أطفال كثيرون من أترابي كانوا قد حضروا أيضاً. ينتظرون هناك مع أمهاتهم. يتراءى لي ذلك اليوم الآن، وكأنه خلف زجاج شفاف سميك. ذكريات ضبابية غير واضحة. أعطيناهم الأوراق الثبوتية وأخذت رقمي المتسلسل للامتحان. سأدخل الامتحان بموجب هذا الرقم الذي أعطوني إياه.

لا أذكر الأسئلة التي وجهت لي. امحت كلها من ذاكرتي. أما وجه الولد الذي جاء من أجل المسابقة لا يفارق مخيلتي وكأنه ماثل أمامي الآن، لكنني نسيت اسمه. دام الامتحان بضعة أيام. كنت أحضره كل صباح. قادماً من جزيرة «هيبلي آدا». وذاك الولد أيضاً كان يأتي من مكان بعيد. وسبب صداقتنا وتمسكنا ببعضنا. حضورنا إلى دار الشفقة والامتحان دون مرافقة أحد. أما الآخرون فكانوا يحضرون إما مع أمهاتهم أو خالاتهم أو أحد أقربائهم.

أمي المريضة لم تستطع الحضور معي كل يوم من /هيبلي آدا/. وهكذا جمعتنا الوحدانية معاً.

لم أستطع إعداد نفسي والتحضير للامتحان، لست أدري لماذا. هل

كان لعدم وجود الكتب أم لعدم توفر الوقت. أم لجهلي وعدم معرفتي. أو لعدم قدرتي. لا أدري، المهم أن استعدادي كان شبه معدوم. ربما كنت غير مبال بهذه المدرسة، متجاهلاً مكانتها. وأقول في نفسي حتى ولو لم أدخل هذه المدرسة، سأتابع تعليمي مهما كلفني ذلك. أما الطفل الثاني فيقول: إنه أعدّ نفسه للامتحان طوال العطلة الصيفية.

كان هنالك فراغ بين الامتحانين الصباحي والمسائي نتجول خلاله في الأحياء والشوارع. أما الأولاد الباقون، فكانت أمهاتهم تأخذهم إلى بيوتهم، ويعودون بهم بعد طعام الغداء.

كان طعامي الكعك في أوقات الظهيرة، أما الولد الآخر فمعه نقود كثيرة. كان يطعمني أيضاً مما يشتريه. أتذكر تماماً أنه اشترى قطعة كبيرة من الشوكولاته، فأعطاني نصفها. ومرة أخرى أخذني إلى بائع السحلب. كان يشتري الموالح بأنواعها: الفستق والحمص والبزر الأبيض. دائماً يعطيني نصف مشترياته. تمنيت كثيراً لو قابلته على جميله. كنت أملك النقود التي تكفي لذلك. غير أني أحجمت فلا أشتري شيئاً، لم أعتد إنفاق النقود، كنت أقتصدها خشية الإفلاس وعدم تمكني من العودة إلى الجزيرة.

لقد قال رفيقي هذا إنه كتب جيداً في الامتحان. وحدث أن جرى حوار فيما بيننا لا أستطيع أن أنساه أبداً. لقد سألني: ماذا ستصبح عندما تكبر؟.

ـ قديماً كنت أتمنى أن أكون طبياً. ولكن الآن أفكر أن أكون رساماً.

فقال: يا للغرابة. أنا أيضاً فكرت في أن أكون طبيباً. حسن. نحن الاثنان سنكون أطباء.

كنا نشعر وكأننا لن نفترق أبداً. سنظل معاً مدى العمر. وصداقتنا ستدوم طويلاً.

قلت له: ولكن أريد أن أكون رساماً.

قال: هذا جيد. تكون طبيباً ورساماً في آن واحد.

ـ معقول.

ـ طبعاً. تكون طبيباً وترسم أيضاً.

يا لتلك الأحلام التي كنا نبنيها.

كنا قلقين يوم إعلان نتائج الامتحان. وأعتقد أن عدد الناجحين كان ثمانين من أصل ثلاثمائة شاركوا بالامتحان. نحن الاثنان كنا من الناجحين. تعانقنا من شدة الفرح وقبلنا بعضنا. غير أنهم سيجرون القرعة لأخذ ما يلزمهم من الثمانين.

حضرنا يوم إجراء القرعة. وتجمعنا تحت السلم المرمري. لقد وضعوا طاولة عليها كيسان. أعطانا أحد المعلمين أرقام السحب. وعلى كل مشارك سحب الورقة من الكيس المخصص لرقمه.

ـ فارغة. بيضاء.

ـ فارغة. بيضاء.

ـ فارغة. بيضاء.

من كانت أوراقهم بيضاء «فارغة» يبتعدون عن المكان وهم يبكون.

كنت فرحاً. بالرغم من جدية الموقف. ما كنت أفكر أبداً بالورقة الفارغة. كنت واثقاً من حظي، وبأني سأسحب ورقة (مقبول). يعني سأقبل في المدرسة.

ثمانية عشر ولداً سحبوا /أوراقاً بيضاء/ متتالية دون أية ورقة مقبول. ثم جاء رقمي، مددت يدي داخل الكيس بثقة:

ـ مملوءة ـ مقبول.

كنت أول المقبولين في تلك القرعة، وكان صديقي قريباً مني. عانقني بقوة. وجاء دوره متأخراً جداً. سحب ورقته فجاءت فارغة. لم ينتظر

هناك أبداً. مشى على الفور وابتعد عن المكان. ناديته، فلم يلتفت صوبي. أسرعت خلفه، فزاد هو الآخر من سرعته. ناديته بصوت عال. لم يتوقف ولم يلتفت لأنه كان قد انعطف يميناً إلى شارع آخر. أحاول اللحاق به بعد ذلك، كنت أعرف أنه يبكي. كنت أرى دموع عينيه دون أن أراه.

ماذا حلّ به يا ترى. هل أكمل تعليمه؟.

مقالة

تحتفل مدرسة دار الشفقة في شهر أيار من كل عام بيوم تأسيسها. دعوني إلى الاحتفال في عامي (١٩٦٠ - ١٩٦١)، وفيما كنت أتحدث أمام الميكرفون تأثرت كثيراً، وبعد قراءة جملتين أو ثلاث من خطابي أمام الحفل، لم أستطع أن أتمالك نفسي فأجشهت بالبكاء، فيما بعد كتبت مشاعري وأحاسيسي عن ذلك اليوم، في مقال نشرته في جريدة /أقشام المساء/ في الرابع من تموز (١٩٦٠)، وهاأنذا أعرضها مع مذكراتي هذه.

عندما كنت أدخل من بابها. تأثرت كثيراً، بدأت الدموع تسيل على خدي، ألم مجهول ضغط على صدري، عامان كاملان قضيتهما في هذا العش الدافئ. هاأنذا أصعد درجاتها المتعبة. قدماي مع آلاف الأقدام التي ساهمت في تخريش هذه الدرجات.

المتخرجون من هذه المدرسة يجتمعون في البهو. كل شيء كما كان قبل ثلاثة وثلاثين عاماً، غصّة في حلقي كادت تخنقني. دعوني إلى الميكرفون كي أتحدث. صدري عامر بالمشاعر والكلمات التي أريد قولها كثيرة. لو لم تحتضنني هذه المدرسة «دار الشفقة» على مدى عامين، ما صرت كاتباً ولا قارئاً.

كل إنسان له ذنوب تختبئ في أعماقه يحس بوجودها ويثقلها. أهي شقاوتنا، لست أدري. أكاذيب طفولتنا. خجلنا. هذا وتلك، تمر السنون

تباعاً. عشر. عشرون. ثلاثون سنة. نتذكر أيامنا الماضية فجأة. ذكرياتنا. عندها تعود حمرة الخجل الطفولي إلى وجوهنا تحمرّ حتى الأذنين. مهما يكن عمرنا. جميعنا مكبلون بمثل هذه الأحاسيس، أنا الآخر. كان عندي شعور سري. لم أفصح عنه لأحد. أنوء تحت ثقله بالأمس قلت هذا الكلام للخريجين القدامى من دار الشفقة:

ـ دخلت دار الشفقة بدون أب. ولكن أبي ظهر فجأة بعد مضي عامين. امتزجت فرحة اللقاء مع أبي. مع حزن الفراق لزملائي الذين ليس لهم آباء. لم يستطع كتفي الضعيف تحمل هذا العبء. الثقيل. كتف ولد في الحادية عشر من عمره. هربت من دار الشفقة دون أن أفتح فمي لأحد. الآن أعترف بعملي وأحس ببعض الراحة. ولهذا أنا مدين لهذه الدار أكثر منكم. أنا لست متخرجاً كاملاً منها. وهذا هو نقصي الكبير.

بعد هذا الاعتراف شعرت بغصة تسد حلقي من جديد. ذهبت. وجاء محمد نصرت وهو في الحادية عشر من عمره. ذي الرقم (٩١٧). بكيت وبكيت. أعرف أن البكاء أمام الميكرفون غير مستحب وخاصة في ذلك اليوم. ولكن ما العمل؟. لم أستطع أن أتمالك نفسي. فليسامحوني.

ومهما كان الحاصل. نحن من طلبة السيد شكري. كان حديث المرحوم يتغلغل في أعماقنا، في كل ثمانية دروس من أصل عشرة. كان يملأ قلوبنا حباً للوطن، ويبكينا، نحن أناس ما جفت الدموع يوماً في مآقينا. نفرح ونبكي. نحزن ونبكي. نحس بالقهر ونبكي. وهكذا أصبحت دموعنا سخرية، وتحول بكاؤنا إلى قهقهات. ترعرعنا هكذا في تلك الأيام العصيبة، كما ترعرع معنا (أحمد راسم) إكبروا أيها الأطفال وأنتم تبتسمون.

أما في عام (١٩٦١)، وفي اليوم المخصص للاحتفال بيوم دار الشفقة، كتبت مقالاً نشرته في جريدة (أقشام) في (٨) نيسان (١٩٦١)، ضمنته مشاعري عن ذلك اليوم:

خريجو دار الشفقة كلهم أخوة. الصغار يحترمون الكبار ويسمونهم آغا البيك. ولذلك فوالد «بيامي صفا» الشاعر إسماعيل صفا، هو أخي الأكبر، وبيكي الأكبر وقد حفظنا منظومته المسماة (دار الشفقة) عندما كنا في العاشرة من عمرنا: نعم كنت يتيم الأبوين في هذه الدنيا الفانية.. ترعرعت وكبرت تحت هذا السقف الحنون.. ثلاثة أيتام. صارت المدرسة لنا أباً وأهلاً.. آي واه. أخشى أن يكون الوفاء مفقوداً بعد الآن.. كبرت وترعرعت تحت هذا السقف الحنون.

ثلاثة أيتام. ترعرعوا تحت سقف دار الشفقة وهم إسماعيل صفا ـ الوفاء ـ وعلي الكامي. أصغرهم سناً علي الكامي. كان بهجتنا ومديرنا، ونحن في المرحلة الابتدائية. أما «وصفي ماهر» كبيرنا. فقد قرأ شيئاً من أشعاره التي كتبها آنذاك بعنوان دار الشفقة: في حضنك ترعرع الأذكياء ونضجوا.. صالح زكي، ومحمد أمين، وصفا.. كلهم ورود من حديقة دار الشفقة.. دار الشفقة. المدرسة الحبيبة مشعل النور.. أفخر وأعتز لأنه صار لي مكان هنا.

هذه المنظومة الشعرية استمعت إليها عام (١٩٢٧)، بعد مرور أربعة وثلاثون عاماً.

بالأمس تم الاحتفال بالعيد (٨٨) لتأسيس مدرسة دار الشفقة، كلما دخلت هذه المدرسة تعاودني ذكريات الأمس. تجتاحني أحاسيس مجهولة الهوية، فيها رائحة الطفولة الحلوة والمرة. أتذكر لعبنا وصفاءنا. أتذكر ليالي رمضان. وما بعد السحور. أتمنى أن ألقي بنفسي في زوايا

ذلك البهو، بلونه الأخضر وخطوطه السوداء وأبكي إلى ما شاء الله. ماذا حلَّ بأيامنا تلك؟. أين أصدقاؤنا؟. أين نحن الآن؟. وأين الذين سحبوا الأوراق الفارغة؟. لا أستطيع أن أنساهم أبداً. دائماً في عقلي وقلبي. في فكري ومخيلتي.

عام (١٩٢٦) نجحنا في امتحان القبول لدار الشفقة. كنا تقريباً مائة تلميذ وعلى ما أذكر كانوا يستقبلون ثلاثين تلميذاً فقط. كانت القرعة تجرى في الحديقة. أسفل الدرج، كان الأطفال يتقدمون ويدخلون أيديهم الناعمة في الكيس:

فارغة. فارغة. فارغة.

الورقة الأولى (مقبول) سحبتها أنا. وماذا سيحدث لو كانت ورقة بيضاء؟. فساحبو الورقة الفارغة يندبون حظهم، يبكون، يتراجعون، ويعودون إلى بيوتهم: فارغة. فارغة.

أفكر الآن، أفكر وبمرارة لو كانت ورقتي بيضاء. ربما لم أكن قارئاً، ولا كاتباً. كنت عدماً، الحياة كلها مرهونة بقصاصة ورقة. مكتوب عليها مقبول، أو أن تكون بيضاء فارغة. ماذا حصل لمن سحبوا الفارغة؟. وأين هم الآن؟.

آه أيتها الأرواح الصغيرة. كيف دارت الحياة. عكس ما نشتهيها؟. كيف؟.

نعم الذين سحبوا الورقة الفارغة. يبكون الآن خافضين رؤوسهم نحو الأرض.

الأمل الذي انتسى في المرحاض

أعادوا لنا الأوراق الثبوتية. داخل مغلف كبير. وبعد إجراء القرعة. كل تلميذ يحمل رقماً. رقمي (٩١٧). انتهى الأمر. لقد قبلونا في المدرسة، وسنأتي يوم افتتاحها لنعيد لهم الأوراق الثبوتية التي أعادوها لنا

هذا اليوم. ولا أعلم لماذا أعادوها لنا. ولم يبقَ أكثر من شهر لافتتاح المدارس.

خرجت من باب حديقة دار الشفقة فرحاً. والمظروف الكبير في يدي. يجب أن أصل المنزل بأقصى سرعة كي أزفّ البشرى لأمي. وكما هي العادة، سيراً على الأقدام حتى جسر «غلطة» ومن ثم على السفينة كي أصل إلى الجزيرة. دخلت ساحة جامع الفاتح. لا. لا أستطيع الذهاب لأنني متضايق جداً. في ساحة جامع الفاتح، مجموعة من المراحيض الحجرية (المراحيض غير موجودة الآن. أزالوها جميعاً). سأروي لكم هذه الحادثة بأدق تفاصيلها. لما لها من أثر في مجرى حياتي. إليكم أولاً قصة المراحيض الموجودة في ساحة الجامع.

المراحيض كلها مبنية من نفس الحجارة التي بني منها الجامع. تدخلها من باب خشبي كبير. وبما أن فوق الباب مفتوح. تستطيع رؤية رأس الإنسان الواقف خلفه. هذا الباب الخشبي السميك. يدور بواسطة مفصلات كبيرة مثبتة على الجدران، مساحة المرحاض تعادل غرفة الصناديق. الجلاّس مثلث الشكل. نحو الخلف، فتحته كبيرة حيث يجب على الرجل الكبير أن يفتح ساقيه تماماً كي يستطيع تركيز نفسه ومؤخرته على الثقب تماماً. كما إن الثقب يسمح لشخص بدين أن ينزلق منه. ويصعب على صبي مثلي استعمال هذا المرحاض (ويقولون أن الكثير ممن هم في سني قد سقطوا فيه).

في أحد الجدران طاقة مستديرة، لوضع الشموع في الليل. أو لوضع المصابيح الصغيرة، لأن أطرافها سوداء من أثر الدخان، وأثر الشموع. لا زال موجوداً فيها على الجدران ثمة عبارات بذيئة، وصور لا أخلاقية.

الكتابات كلها كانت شعراً مقفى ومنظومة وبشكل جيد. أذكر من هذه الأشعار أو الآداب المرحاضية هذين البيتين:

مهما (تهزه هزاً عنيفاً) مهما تنحنحت ومهما حاولت ستنزل النقطة الأخيرة في سروالك.

وفي الجدران غرست قطع حديدية كبيرة على شكل أوتاد لتعليق المعاطف وما شابه.

تستطيع الجرذان القفز من الثقوب فجأة. وإذا لم نرها تقفز. تستطيع سماع أصواتها وحركاتها زيك. زيك من داخل الثقب، وبدون أي مبالغة يصل حجم بعضها إلى حجم القطط. ألفاظ بذيئة وكلمات لا أخلاقية يتردد صداها بين المراحيض، أناس قذرون يترددون إليها. كنا نخافهم كثيراً.

اتجهت إلى أحد هذه المراحيض الموجودة في ساحة الجامع. بعضها فيه صنابير والبعض الآخر تنكات صدئة مملوءة بالماء. دخلت إحداها وكان مزوداً بصنبور الظرف في يدي. الخوف ينهشني. كنت أشعر وكأن المظروف سيسقط في ثقب المرحاض، وكأن مخلباً سرياً قوياً سيسحبه من يدي، ويوجهه نحو الثقب، تيارات شديدة، من الخوف كانت تهزني، وأوشك المظروف أن يسقط من يدي. إذا ما سقط معناه انتهيت، ولن أستطيع العودة إلى دار الشفقة، وفي الوقت نفسه كنت مضطراً جداً. ماذا أفعل. وأنا على هذه الدرجة من الخوف والاضطراب والحيرة، رأيت ثقباً في الجدار وكان مرتفعاً، وأنا قصير القامة. فوقفت على رؤوس أصابعي لأضع المغلف داخله. وأخيراً نجحت، وظل يتراءى لي أن تلك اليد الخفية ستأخذه وترميه في الثقب.

وأخيراً. إسترحت.

خرجت من المرحاض، مررت من ساحة الجامعة. إلى حديقة الفاتح ومنه إلى «سراج خانه باشي»، ثم إلى طلعة «زيرك» ثم إلى «ياغ كباني»، ويميش. ثم إلى «قرة كوي» والجسر. ركبت الباخرة من ميناء الجزيرة.

مسرور جداً سأزف الفرحة لأمي، سأصرخ نجحت في سحب القرعة يا أمي. سأحضنها وأعانقها.

اقتربت السفينة من «قينالي آدا» ثم من جزيرة «بورغاز» ثم إلى «هيبلي آدا» كنت أول القافزين من السفينة. أطير كالعصافير أجري. أقفز. أمي ستفرح كثيراً. مررت بفسحة المروج الكائنة إلى اليمين. ووقفت فجأة. آي واه. المظروف المغلف المظروف المغلف ليس معي.

ماذا حصل للإضبارة؟. بقيت جامداً لبعض الوقت. ثم جلست على الأرض. الآن وأنا أكتب هذه السطور. أتصور نفسي آنذاك. طفولتي. من خلال وضعي الآن. وأنا في الخمسين، تعود بي الذاكرة وأنا في الحادية عشر. ولد جلس فوق أحجار الرصيف. أرى فيه كل شيء. بنطاله القصير وجوربه الأسود. شعره المحلوق بماكنة النمرة واحد. وجهه مدور. قصير مربوع. اشتهيت لو أفرك خديه الأحمرين، وأجعل منه طفلاً جاوز الألف من عمره.

لا لم أبكِ. انتصبت واقفاً، كالجلمود. عدت إلى البيت.

ـ ماذا حصل؟.

ـ نجحت يا أمي. نجحت يالقرعة.

جاءت الجارات، السيدة زينب. والسيدة ناريمان زوجة الإطفائي. كلهن فرحن لقبولي في دار الشفقة الداخلية. فرحن وقبّلنني. قالت أمي:

ـ ولكن لماذا أنت واجم هكذا؟. ابتسمت لأني رأيت أمي سعيدة. سعيدة لأبعد الحدود، لأن ابنها سيدرس في مدرسة داخلية ومجاناً وسيصبح رجلاً كبيراً مهماً. ذهبت نحو أشجار الصنوبر الكثيفة. أفضل مكان لي هناك يخلو الإنسان مع نفسه. لم تعد المدرسة في الحسبان، فالمظروف الذي نسيته في ثقب مرحاض جامع الفاتح. أنهى كل شيء. آمالي كلها تحطمت ولا أستطيع أن أبوح بذلك لأمي، من يدري من

الذي أخذ المظروف من الثقب. وفي أي مكان رماه؟.

حسن، وماذا سيكون بعد؟. ماذا كنت سأفعل؟. ليحصل ما يحصل. لم أفكر بشيء أبداً.

في اليوم التالي نسيت كل شيء. ونسيت الظرف الذي وضعته في ثقب المرحاض وصدقت الكذب الذي أقنعت نفسي به. وهو: إنني دخلت مدرسة دار الشفقة. وعندما ستفتح المدارس أبوابها سأذهب ولذا فقد تركت نفسي في مهب الريح وليحصل ما يحصل.

لست أدري هل أن سعادتي هذه من سعادة أمي؟. بدأت أعيش أجمل أيام طفولتي الأصدقاء. واللعب. والبحر. وبما أنني سأدرس في دار الشفقة كانت أمي تضعني تاجاً على رأسها وتدلعني مثل طفل صغير.

هل أذهب من هنا أم من هناك؟. أناس كثيرون. كانوا فقراء. محطمين في طفولتهم وفتوتهم. ثم نجحوا في معترك الحياة وصاروا من المشاهير بعض هؤلاء يفتخر بنفسه وبظفره ونجاحه. ويحسب أن مفتاح النجاح لديه هو قوته وذكاؤه وعمله.

آه. يا للغباء. لا يعرفون أن للمصادفات دوراً كبيراً في تسيير شؤوننا الحياتية والمستقبلية. إن كان الأمر كما يقولون: فكل الطلبة الأذكياء الفقراء. النشيطين المجدين. يجب أن يصبحوا مشاهير ويحتلوا أماكنهم داخل المجتمع. هذه الصدفة التي سأرويها رسمت منحى حياتي من بدايتها حتى نهايتها.

في ذلك اليوم. ما كنت بحاجة لدخول المرحاض. وربما كنت قد قضيت حاجتي قبل خروجي من دار الشفقة. لم أنسَ الظرف في المرحاض. ولكن حصل كل شيء دون إرادتي. لم أذهب بعد إلى المدرسة ولم نبدأ بتلقي الدروس. ناداني جارنا الإطفائي زوج السيدة

ناريمان الذين يسكنون قريباً منا. وقال: أين أوراقك التي تقدمت بها إلى دار الشفقة؟.

لم آبه أبداً. وقلت:

ـ في المدرسة.

قال: نسيتها في مرحاض جامع الفاتح أليس كذلك؟. أخذ وأعطاني المظروف.

لقد حصل الأمر هكذا: بعد خروجي من المرحاض. دخل بعدي مباشرة. إطفائي من عناصر إطفائية الفاتح. خلع الرجل سترته وقبعته ليعلقهما بالوتد. وإذا به يتفاجأ بالمظروف. عند خروجه حمله معه. وقرأ ما في داخله أثناء عودته إلى عمله. وفهم منه أن الأوراق الثبوتية عائدة لطالب يريد الدخول إلى مدرسة دار الشفقة. وعرف عنوان الولد الموجود ضمن محتويات المظروف «هيبلي آدا ـ محلة التلة ـ زقاق المطحنة».

عشرة أيام مرت على نسياني المظروف. اتصل الإطفائي من مقر عمله، يوم مناوبته بجارنا الإطفائي في فوج هيبلي آدا، الذي كان مناوباً هو الآخر. وسأله عني وعن عنواني. فقال له: أعرفه إنه جارنا.

أرسل الظرف مع عنصر يعمل ساعياً للبريد بين محطات الإطفاء في استانبول. وسلم المظروف لجارنا الإطفائي زوج السيدة ناريمان. أرأيتم هذه السلسلة المترابطة من المصادفات. التي ساعدتني في الدخول إلى دار الشفقة. وإلا لكان الأمر مستحيلاً. فأنا وحيد ولا أحد يساعدني في إيجاد المظروف.

الأولاد الذين ينقلون الحطب إلى القلعة ذات الأبراج

قريباً من بيتنا، تسكن سيدة اسمها «حبيبة». تعمل في بيوت الأغنياء، وتذهب إلى القصور، لتقوم بأعمال المنزل من نظافة وغسل وترتيب إلى ما هنالك، تعول أكثر من ثمانية أولاد وربما عشرة.

زوجها يعمل طباخاً في استانبول، لا يهتم بزوجته وأولاده مطلقاً، ونادراً ما كان يأتي إلى بيته، وربما كان يأتي فقط لإنجاب الأطفال. وكانت السيدة حبيبة تترك أولادها في المنزل. كلٌّ منهم يعتني بالآخر، وتعمل هي في بيوت الآخرين. كانت امرأة جبارة قوية كالحصان. الابتسامة لا تغادر شفتيها أبداً. وطيبة إلى أبعد الحدود. أولادها وسيمون، كل منهم أجمل من الآخر. يسكنون في غرفة واحدة. عندما تقترب من باب غرفتهم، تستقبلك رائحة حمض البول القوي جداً. رائحة الأمونياك، تنتشر تباعاً في أرجاء المنطقة. رائحة قوية جداً. وأصدِّقكم القول إن: الرائحة كسرت عمود أنفي. كل شيء فيهم رائحته البول. رؤوسهم وثيابهم ووجوههم وشعورهم عشرة أطفال تفوح منهم تلك الرائحة القوية.

جاء ابنها الكبير يوماً وقال لي:

ـ الأولاد ينقلون الحطب للقصر ذي الأبراج. تعال معنا، شمخت بأنفي عالياً وقلت له: أتريدني أن أعمل حمالاً. من غير المعقول. أنا أعلى مستوى من ذلك بكثير.

قال: ولكنهم يدفعون أجراً جيداً.

قال شو: سيدفعون خمسة قروش. وربما أكثر.

ذهبت مع الولد. كانت القصور منتشرة حول منزلنا، كلها مدهونة باللون الأبيض، حدائقها جميلة. مزهرة. أحدها له برج، أمام القصر، أرض منبسطة وقطع الحطب الصغيرة مكدّسة فيها فوق بعضها. مجموعة كبيرة من الأطفال كانوا ينقلون الحطب إلى غرفة خاصة داخل القصر. وقالوا إنهم سيعطون النقود للأولاد الذين يتقنون نقل الحطب. وقلت في نفسي لو عملت معهم يكون أفضل. ويجب أن أشاركهم.

ولكن كيف أقوم بذلك العمل؟. يقال إنهم سيدفعون نقوداً. وكم

سيدفعون يا ترى؟. اقتربت من كومة الحطب رويداً رويداً. راقبت الأطفال الداخلين والخارجين من القصر. كيف أبدأ النقل يا ترى؟.

كان ابن السيدة حبيبة وسط أكوام الحطب. وكانت فتاة جميلة تنقل الحطب مع الأولاد. ولكنها غريبة. ليست منا. فتاة جميلة، رائعة، تلبس ثياباً جميلة. ربما كانت بسني أو تصغرني بعام واحد. سألت ابن السيدة حبيبة:

ـ من هذه الفتاة؟.

قال: هذه أليس؟. هذه الفتاة تسكن في القصر. والصبي الذي تراه هناك، شقيقها. وهما توأمان. والرجل الأعرج خادم لهم. الفتاة الجميلة تنقل الحطب مع الأولاد الآخرين. وأخوها على بعد أمتار منها يلعب وحيداً.

لست أدري كيف اختلطت مع الأولاد وبدأت أنقل الحطب معهم. هل لأن الفتاة الجميلة تقوم بهذا العمل؟. أم لشيء آخر لست أدري. كنت أنقل الحطب أكثر من الآخرين، وبنشاط كبير. بدأت صداقتي مع الفتاة أثناء عملية نقل الحطب، تتوطد. اهتمت بي أكثر من الآخرين وربما تراءى لي ذلك. وربما عملت المستحيل كي أجذب انتباهها.

نقلنا قطع الحطب الصغيرة. المقطوعة من الحديقة مروراً بالمطبخ ثم إلى غرفة الحطب، ثم أعطونا أجرنا. لا أتذكر من الذي أعطانا النقود وكم كان مقدارها، ولكن ما حيّرني كثيراً وكثيراً جداً، هو أنهم أعطوا الفتاة أيضاً أجرها. عرفت مغزى هذه العملية بعد زمن، كي يطيبوا خاطرنا نحن أولاد الفقراء والمحتاجين، فقد ساووا بيننا، وبين ابنتهم، وكان هذا شيئاً جميلاً.

لعبة التجميل

بدأت صداقتي مع أولاد الجزيرة أثناء وبعد حادثة نقل الحطب، كنا

أكثر من عشرين ولداً، بدأنا نلعب لعبة ما كنت أعرفها قبل ذلك يسمونها لعبة التجميل. أحدنا يكون رئيساً أو أميراً أو مراقباً

هذا الرئيس يدور نحو الخلف ويعد حتى العشرين. في هذه الأثناء يتخذ الأولاد الآخرون مواقف ومواضع إلى جانب أسوار القصر على شكل تماثيل أو هياكل مفردة وثنائية أو جماعية، أشبه ما يكون بالآلهة اليونانية أو الأم العاشقة الموجودة على بطاقات الأعياد. وأكثر من ذلك المواقف الرومانسية وبدا أن هذه اللعبة يمارسها الأولاد المجدون، والمثقفون الذين قرأوا كثيراً، وشاهدوا كثيراً من تماثيل العظماء، أحدهم يضع إحدى يديه على ركبته والأخرى على خده. يرنو إلى البعيد، والآخر يجلس على ركبتيه ويده اليمنى على صدره واليسرى مرفوعة نحو الأعلى. والبعض الآخر نفخ صدره وفتح ذراعيه عارضاً عضلاته وقوته، وهناك من وضع يده على شفتيه يوزع القبلات على الآخرين.

بعد أن يعدّ الرئيس حتى العشرين، يلتفت إلى الأولاد فجأة، ويراقب أوضاعهم. فالوضع الذي يعجبه يجعل من صاحبه رئيساً.

كنت مضطراً أن أظهر نفسي أمام تلك الفتاة الجميلة أنا الوحيد الذي كنت أختار الرئيس. وكنت أنتخب رئيساً جديداً. أو وكيل نيابة. أو قاضياً. وهكذا جذبت انتباه الفتاة كثيراً، وبدأنا نحن الاثنان نتخذ مواقف وأوضاعاً ثنائية مشتركة رائعة جداً. وكانت أيدينا تتشابك وكأننا في حفلة رقص. وكنت أجثو على ركبتي وأرفع لها يدي. وكأنني أعلن لها عن حبي وهيامي. كيف تعلمت هذه الحركات لست أدري؟. فهذه الحركات صدرت عفوياً، كالبطة التي تتقن السباحة دون أن تتعلمها.

الحب الأول

الحب الأول. أحسست به تجاه هذه الفتاة، حتى ولو كان جنيناً مثل بذرة صغيرة، لم تنمُ بعد. ربما تكون قد نسيتني جملة وتفصيلاً. وقد لا

تعرفني، وأنه لا مكان لي في قلبها ولا في حياتها. وربما كثيرون قد تركوا أثراً كبيراً في حياتها. ثم نسوها كلياً.

وددت كثيراً لو قابلتها مرة وحدثتها عن ذكرياتنا المشتركة. ربما لن تتذكر واحدة منها. وربما لم يبقَ في رأسها أي أثر لتلك الأيام.

هي الآن، غير تلك الفتاة الحلوة الجميلة التي كنت ألعب معها لعبة التجميل قبل أربعين عاماً ولا أنا ذلك الغلام الصغير الذي كانت تلعب معه تلك اللعبة أيضاً. لو تقابلنا ربما لن يكون بيننا كلمات ولا أحاديث مشتركة المشاعر التي نتذكرها، ليست لأحد. هي ملكنا ولكنها انعكست على الآخرين.

إن كنا نتذكر تلك الأيام، فإننا نتذكر أنفسنا، ذواتنا مرة أخرى. حتى إن أفراحنا الطفولية ليست سوى أفراحنا وأتراحنا نحن فقط وليس سوانا.

كان التوأمان ولدين لوالٍ عثماني قديم. ربما والي بغداد أو والي اليمن. في مذكراتي القادمة سأعرضهما عن كثب. سأتحدث عنهما، ولذا لم أتعرض لأسميهما الحقيقيين، ولكن سأتذكرهما بأسماء أخرى. وليكن مثلاً. فريد وفريدة.

أعوام عديدة مرت وبعدها وفي أحد الأيام وفيما كنت أتحدث مع «ناجي سعد الله» بدأ ناجي بذكر فريدة أثناء حديثه، وهو لا يعلم أنه يلامس مشاعر الطفولة عندي. كنت أستمع إليه بانتباه شديد. قال: إن فريدة تزوجت وأنجبت بنتاً. وافترقت عن زوجها، وأنها بائسة جداً، وأنها لاقت كثيراً من المتاعب والمصاعب والمصائب في حياتها.

كان ناجي سعد الله يتحدث عن فريدة، وأنا من كنت ألعب معها لعبة التجميل تحت أسوار القصر. لم أسأل عنها، ولم أطلب محادثتها على انفراد. أعرف أنها لن تتذكرني أبداً. الصفحات الموجودة عني في كتاب حياتها، تمزقت، انتزعت من مكانها وتتطايرت في الهواء، ستظل

معي مدى الحياة ولكن كطفلة صغيرة جميلة، نلعب لعبة التجميل.

كل إنسان يحمل في ذكرياته وجوهاً مختلفة، لم تكبر، وجوهاً صغيرة ناعمة، تنبض بالحياة. بعضهم يترك في عقلك ومشاعرك آثاراً لا تمحى، والبعض الآخر لا تتذكره إلا بصعوبة، مجموعة الصور الوجوه هذه، ليست إلا أنفسنا.

صيد السمك

كنا في ضائقة مادية شديدة جداً. وكنت أشعر أنه يجب أن أعمل لأربح مالاً. ولكن كيف أحصل على المال بالعمل وأساعد أمي المريضة في آن واحد. صرت أصطاد السمك على الرصيف الأيسر للميناء. وأحسست كأنني أقوم بعمل كبير. أنزل إلى الرصيف صباح كل يوم. حاملاً تنكة فارغة وسنارة، في البدء كنت أجمع المحار والصدف، لأستعملها كطعم. أدخل الطعم في السنارة وألقي بها في البحر. وكان وجهه يلمع بشكل ملفت للنظر، وكأنه كما تريد. خيالات لا نهائية شفافة، افتح فقلبك ومشاعرك قدر استطاعتك. خيط السنارة في يدي. أحلام بلا حدود ولا حواجز ولا جدران... أحلام لا نهائية. أحس بالسعادة، أسحب الخيط بعض الشيء كي تأتي الأسماك إلى السنارة. أحرك إصبعي، السمكة تنقر السنارة. أسحب الخيط، فأشعر ببعض الثقل فيه. وفجأة تتخلص السنارة من كل شيء. تفرغ. يرتفع الخيط خفيفاً، أسحبه. لا شيء عليه. ذهب الطعم مع السنارة. أعلق سنارة أخرى.

أجمل السمك على الإطلاق. صغار «الصرغوس» منذ تعلقها بالسنارة وحتى وصولها إلى يدي. ترسم على وجه المياة الزرقاء خطوطاً لامعة منكسرة رائعة. أخلصها من السنارة وألقي بها في التنكة الفارغة. أكثر الأسماك تعلقاً بالسنارة هي الصراغيس.

وأبلد الأسماك الصغيرة «سمك الطون» (ستيواريت) ولكن أكثرها

ارتماء «العريسات» ذات الألوان الخضراء الجميلة والتي تعيش على الصخور. إنها شرهة جداً. معدتها ممتلئة على الدوام. وناعمة الملمس ولزجة. وسمكة أخرى تقترب من السنارة كثيراً. نسيت اسمها الآن ولا أتذكر سوى الحرف الأول منه، وهو حرف «آ» وعلى الأغلب فيه حرف اللام أيضاً «L» هذه السمكة ليست جيدة، فالذين يصطادون قربي. عندما تعلق السنارتهم. يخلصونها بصعوبة ويرمونها إلى البحر ثانية، ويشتمونها الشتائم كثيرة. ولكني شخصياً لا أرميها، أليست سمكة تؤكل؟.

يصرخ أحد الأولاد في وجهي:

- إياك أن تمسكها.

- ولماذا؟.

- إنها سامة. تجرحك وتسممك.

يقال إنها سامة جداً فإذا ضربت الإنسان تقطع إصبعه. فأضعها فوق أحجار الرصيف وأسحق رأسها بقدمي وأخلص السنارة من فمها.

رأسي يكاد ينفجر من حرارة شمس الهجيرة، وبطني خاوٍ. في التنكة، ثلاث صراغيس وتلميذتان صغيرتان، ومجموعة كبيرة من (العِرِيْسَات). وسمكة من سمكة آ (يقول الكاتب إنه تذكر اسم تلك السمكة (لابينا) وتسمى عندنا رزنبوري، وهي سمكة خطرة جداً سمها أقوى من سم الأفاعي. تطمر جسدها في الرمل. وتهاجم الإنسان.

تتظاهر أمي بأنها سعيدة من العمل الذي أقوم به. أنا شخصياً أعرف أنه لا خير في صيد هذا السمك، وتحاول جاهدة أن تشعرني بأنني قد قمت بعمل كبير. وهي تقلي الأسماك بالزيت.

لا. لا. أعرف وأفهم. لا خير في هذا العمل، لا خير في صيد السمك، لا تسخري مني يا أمي. هل أنا ولد صغير، لا يفهم ما تبغين.

لا يا روحي، يا أمي. لا أستطيع أن أكون إلا شريكاً لكِ في العمل وأتحمل بعضاً من مسؤوليات البيت.

العمل نحّاتاً

بمقدوري أن أجد عملاً ما آخر وأعمل به. لا أدري الآن أين رأيت؟. وممن سمعت؟.

بدأت أنحت وأحفر الخشب. هناك أخشاب رقيقة تلصق عليها الصور وتصنع أشكال مختلفة وتقطع بمنشار حديدي صغير. رفوف جميلة وصناديق. وإطارات للصور ومكتبات صغيرة للكتب. أصنع من هذه الأشياء وأبيعها. يا أمي سأشتري مجموعة للنحت والحفر.

تبقى أمي صامتة، لا تعارض. لا تقول: (هذا غير ممكن). تعطيني نقوداً أسافر إلى استانبول، إلى حي (الرصيف العالي). هناك يبيعون المعاكس، والمناشير والصور.

يعطيني البائع اليهودي طاقماً للنحت مثبتاً على ورقة قاسية من المقوى، ويضع أمامي مجموعة كبيرة من الصور والأشكال؟. ما أجمل هذه الصور!. خزائن وأقفاص وإطارات للمرايا والصور ورفوف، لو كنت أملك ما يكفي من النقود لاشتريتها كلها. ومع وصولي إلى المنزل. أنشر وأنحت.

اشتريت طاقماً للنحت وأنموذجاً للرفوف. وحسبت نفسي نجاراً على مستوى عالٍ من القيمة والهيبة. سأشتغل وأصنع مثل هذه الرفوف وأبيعها. ثقبت الخشب بمثقب حديدي صغير، وأدخلت الشفرة الرفيعة من خلاله، وبدأت العمل على الفور. نشرت الخطوط الخارجية للصورة. وغبار الخشب يتطاير هنا وهناك. رائحته مألوفة، أحببت هذه الرائحة كثيراً (أتصدقون ما سأقوله؟.) عندما كنت أكتب هذه الأسطر، أحسست بتلك الرائحة، رائحة نشارة الخشب أليس غريباً؟.

يا الله. لقد كسرت المنشارة الرفيعة، فعملت على تبديلها وكما خططت يجب أن أنهي العمل فوراً وأعرض الرفوف للبيع. ولكن. أنَّ لي ذلك؟. لقد حل المساء ولم أُنْهِ قطعة صغيرة. عملت ثلاثة أو أربعة أيام، وكلما طالت مدة العمل، ارتفع سعر الرفوف وسأبيعها بسعر غالٍ.

أمي سعيدة بالجهد الذي أقدمه، راضية، تبتسم. مرة أخرى أشعر بالإحباط، لماذا أمي تفعل ذلك من خلال تصرفاتها وعدم أخذها الأمر بجدية. عرفت أن الأمر لا يعجبها أبداً ولا تتصور بأنني سأربح نقوداً من هذا العمل. سابقاً كنت ألهو هنا وهناك. أجوب الأزقة والشوارع، وكي لا أبقى خاملاً، عاطلاً متشرداً، يجب أن أعمل وأربح نقوداً.

اكتملت القطع الست للرف، ثبتها مع بعضها كما في النموذج الموضوع أمامي. كُسر أحد جوانبه، ولكن لا بأس، أصبح رفاً جميلاً. إنها قطعة نادرة. كل من يراه سيشتريه ويدفع من أجله مبلغاً كبيراً.

طبعاً. لم أقل لأمي بأنني سأبيع الرف. حملته ونزلت إلى السوق. كيف سأبيع هذه القطعة يا ترى؟. ومن سيشتريها؟. درت هنا وهناك حتى المساء، والرف تحت إبطي. ورجعت إلى البيت خائباً. وضعته في زاوية الغرفة بين الجدارين، وركزت أمي مصباح الكاز فوقه وقالت:

- سلمت يداك يا نصرت. إنه جميل جداً.

- حسن. ماذا سأعمل؟.

هل تعرفون الفطر. نعم الفطر. ينبت قريباً من جذوع الأشجار. في الأماكن الرطبة. تحت أشجار الصنوبر الكثيفة. خرجت أنا وأختي لنجمع منه، خلف الجزيرة وعلى سفوح منطقة الشفق. وعباس باشا وفي الجزيرة كلها.

آمان. انتبها. إياكما أن تقطفا النوع السام، وهو ما يسمونه «فطر الكلاب». تعلمنا كيفية جمع الفطور تماماً. جمعنا سلة وكيساً وقفلنا

راجعين، وكنا عندما نضعه فوق النار، يقطر منه الماء على شكل نقاط. تماماً مثل قطعة اللحم. نذر عليه الملح ونأكله. إنه لذيذ جداً، طعمه كطعم اللحم تماماً.

الورود والقرنفل من ورق الكربون

يجب أن أجني المال بأية وسيلة كانت. الرجل الوحيد في المنزل هو أنا. من يدري أين أبي الآن؟.

كان ابن جارتنا السيدة زينب يأتي إلى الجزيرة بين حين وآخر، يحملني بين ذراعيه، ويرفعني في الهواء. كانت رائحة هذا النقيب (يوزباشي) تشبه رائحة الحريق. هكذا كنت أشعر، كالدخان أو كي الثياب. رائحة لا خيار لي في قبولها. ربما أحسست بذلك لأن والدي عندما كان يعود إلى المنزل من حرب الاستقلال، كانت تفوح منه رائحة النار والحريق والغبار. وكلما تذكرت كلمة الحرب، أشعر بهذه الرائحة، ربما كانت هذه الرائحة تفوح من الضابط الشاب، كونه عسكرياً. وهذه على ما أعتقد عملية نفسية، تجعلني أشعر أن رائحة الحرب ما تزال عالقة بلباسه، وتستطيعون تسمية الأشياء بأسمائها، وتقولون عنها: رائحة البارود. ولكن في الحقيقة لا وجود لهذه الرائحة.

كان هذا الضابط يعطيني نقوداً، بعد كل عملية رفع وإنزال. ومن العيب جداً أن يأخذ الإنسان نقوداً من الآخرين. كنت أرفض هذه النقود، إلا أن إصرار السيدة زينب على ذلك، يضعني في حالة إحراج شديدة. فأخجل وآخذ النقود منه.

ولا أنسى أنني في أحد الأيام بينما كنت عائداً من السوق، قطفت بعض حبات البندورة البرية، المزروعة في بقعة صغيرة محاطة بأسلاك معدنية صدئة، وفي البيت كذبت على أمي، وقلت لها بأنني اشتريتها من السوق.

ولا أذكر كيف تعلمت صناعة الورود والقرنفل من أوراق الزينة، وعرضتها للبيع، وقبلها كنت قد صنعت من الأوراق العادية (مراوح) ورقية بعتها للأطفال. أذكر ذلك جيداً، وأهم من ذلك كله أني بدأت صناعة الورود وبيعها في ميناء الجزيرة، وربما مرتين أو ثلاث.

كان لي صديق يسكن بموازاة القصور المدهونة باللون الأبيض. في بيت قديم اسمرّت أخشابه لقدمها. سنغير اسم صديقنا هذا، وندعوه (شيرزاد). كان يكبرني بعام أو عامين، صبي طويل القامة، وأضخم جثة مني. أنهى دراسته الابتدائية في نفس العام. وكان يهتم بفريدة أيضاً، أي أننا كنا نسعى لنيل رضا وحب فريدة. ولكن نفحة الحب هذه كانت تنام في أعماقنا فقط، حب سري لم نظهره لأحد أبداً.

كان لشيرزاد شقيقتان أو ثلاث، إحداهن معلمة ابتدائي، علمتني كيفية صنع الزهور والورود من أوراق الكرنيش، كانت تصنع وروداً وقرنفلات رائعة بأصابعها الجميلة، تطوي الأوراق وتلفها بمهارة، فتخرج من بين أناملها وروداً بديعة تشبه الورود الحقيقية، وتصنع لها البراعم الغضّة أيضاً. كنت أرى أصابعها العشرة أكثر من مائة إصبع، تتحرك على الدوام وبمهارة فائقة. فقلت لها:

ـ أنت ماهرة في صناعة الورود.

ولن أنسى جوابها أبداً:

ـ طبعاً. عندما تقول: إصبع الأنثى يحلو كل شيء.

هذه المقولة (إصبع الأنثى) أعجبتني كثيراً. لقد تعلمت شيئاً جديداً. يجب أن أقولها لأحد على الفور. عندما عدت إلى البيت قدَّمت القرنفلات لأمي فقالت:

ـ إنها قرنفلات رائعة.

قلت لها بفخر واعتزاز، تلك المقولة التي تعلمتها قبل قليل.

ـ طبعاً. هذه القرنفلات لمستها يد أنثى.

ضحكت أمي كثيراً لكلامي، وخجلت من نفسي، وصرت كلما أتذكرها الآن أخجل.

بينما كنت أصنع الورود القرنفل في ظهر أحد الأيام، بدأ الزوجان اليونانيان العجوزان يتلاسنان، وكانا يعيشان في الطابق الأرضي من بيتنا، في بيت على شكل نصف قبو. العجوز اليوناني يعمل في تجارة الحمير على ما أعتقد، ولم أعرف سبب شجارهما سوى من ارتفاع صوتيهما أكثر من اللازم. وربما كان من أجل أنتري أو جلباب، لأن المرأة كانت تردد كلمة (آنتري. أنتري) كثيراً، بلهجة مضحكة. كلما كانت تقول (آنتري) كنت أضحك وأضحك.

في أحد الأيام جمعت السيد حبيبة أولادها، وأولاد آخرين. بعضهم حمل سلة وبعضهم حمل كيساً صغيراً، أما أنا فحملت كيساً كبيراً.

وقالوا إن في (مال تبة) أرضاً واسعة مزروعة بالخيار، ويبيعونه بسعر زهيد جداً، كنا في نهاية الموسم، والأسعار متدنية بشكل كبير. فلو قطفها صاحبها وحملها على العربات ونقلها إلى سوق الهال، فلن تأتي بكلفتها، ولهذا كان المزارعون يسمحون للفقراء بقطافه من الأرض مباشرة، وبأسعار رمزية جداً.

ركبنا السفينة من الميناء. وربما كان اسمها «يقاجك» سفينة صغيرة وذهبنا إلى (مال تبة) ودخلنا بستاناً كبيراً جداً. حيثما تطلعت وعلى امتداد النظر. الأرض مزروعة بالخيار. لقد باعوا القسم الأكبر منه، وما تبقى أعطوه للفقراء. وكما قلت بأسعار زهيدة جداً. فمثلاً أعطيتهم أقل من ليرة. في ذلك اليوم بقيت آكل الخيار حتى المساء، ثم ملأت كيساً كي أنقله إلى البيت.

كان طعامنا الخيار لعدة أيام، خيارات صغيرة، غضة وناعمة. عندما

تقطعها نصفين تفوح منها رائحة زكية، عطرة، طعمها لذيذ جداً. أكلناها خضراء، وصنعنا منها السلطة والباقي منها صنعته أمي مخللاً.

الطفولة السعيدة

كثير من الأشخاص كانت طفولتهم سعيدة، أما أنا وإن كنت أشعر بالسعادة وأنا أذكر طفولتي، غير أني لم أعش طفولة سعيدة حقيقية، وأستطيع القول إنني لم أعش الطفولة الحقيقية، ولكن ذكرى تلك الأيام تجعلني أشعر بفتور إلى حد ما.

طفولتي التي اكتنفتها صعوبات الحياة، ورافقها العوز والفقر والعزلة الاجتماعية، تخللها مقاطع حلوة. سعيدة. وأجملها السعادة التي تذوقتها خلال صداقتي مع فريدة. كنا شخصين لا يفترقان أبداً. نقضي النهار سوية. طبعاً تنتابها مشاعر جنسية عندما نقترب من بعضنا ونبقى وحيدين، لكنها تبقى مشاعر داخلية غير ظاهرة حتى على أنفسنا. أحاسيس جنسية طفولية غير واعية. وغير مستيقظة تماماً. كنا ندور في خضم هذه المشاعر الطفولية، الضبابية. ما كنت أعرف شيئاً عن العواطف والمواضع الجنسية، ولكن فضولاً كبيراً كان يحركنا نحن الاثنين.

كانت مهمة الخادم الأعرج، العربي، مراقبة الأخوة التوأم، والبقاء معهما، ولا يجعلهما يغيبان عن نظره أبداً، وحمايتهما من كل سوء وأذى، ولكن فريدة، كانت تعرف كيف تتخلص من هذا الخادم، الحارس الأعرج، وكانت تعطي أخاها فريداً نقوداً لتجعله خارج الحلبة. وهكذا نظل لوحدنا، إلى أين؟. إلى البحر.

كنا نبتعد داخل الغابة الصنوبرية الكثيفة. نسلك طريق الماعز الضيق. نقع وننهض. أقدامنا تزل على أوراق الصنوبر الإبرية الجافة والناعمة. نتزحلق، نقع على الأرض، نتدحرج، نمسك بأيدي بعضنا كي لا نقع.

هناك خليج صغير على بعد أمتار من منطقة عباس باشا. الخليج من الطرفين محاط بصخور عمودية عالية. يشبه إلى حد ما خزاناً أو مسبحاً صغير محاطاً من جميع أطرافه. كنا نترك أنفسنا نحو الأسفل، نتدحرج ونتدحرج حتى الشاطئ. شاطئ رملي ناعم في أحد أطرافه. بينما الطرف الآخر مغطى بالحصى.

كانت أمهاتنا يُمنعننا من النزول إلى الماء، والأمهات اللواتي يردن معرفة أولادهن فيما إذا كانوا قد نزلوا إلى البحر أم لا، يطبقن القاعدة التالية وهي: إذا أرادت أم أن تعرف إذا كان ولدها قد نزل البحر أم لا. عليها أن تلحس جسده بلسانها، فإذا كانت ملوحته شديدة معناه أن ابنها قد نزل البحر. وطريقة ثانية: إذا خدشت بظفرك جسد الطفل النازل إلى البحر، يتحول مكان الخدش إلى خط أبيض من جراء الملح الناشف على جسده.

لم أنزل إلى البحر إلا بعد أن آخذ إذناً من أمي، ولكن فريدة كانت تنزل سراً ودون إذن من والدتها. ولهذا كانت تنزل إلى البحر دون «مايوه» أو بشكير. أنا بالأصل ما كنت أملك مايوهاً للسباحة. كنت أنزل إلى الماء بسروالي الداخلي، وبعد الخروج، كان السروال يجف على جسدي. كانت فريدة تخلع سروالها الداخلي أثناء نزولها إلى الماء، لأن أمها كانت تتفحص ثيابا وجسدها. وتعرف إذا كانت قد نزلت البحر أم لا.

ولما وصلنا إلى الشاطئ الرملي للخليج، ونحن نتدحرج من الصخور العالية، دخلت فريدة بين صخرتين وخلعت ثيابها، وقالت:

ـ لا تتطلع.

كنت أشيح بنظري عنها متطلعاً إلى الصخور. في هذه الأثناء تكون فريدة قد نزلت إلى البحر، وبعد أن تصبح وسط الماء حتى صدرها تقول لي:

ـ تمام.

أنا الآخر نزلت إلى الماء وصرنا نسبح ونلعب ألعاباً طفولية بكل معنى الكلمة. بعد أن قالت لي فريدة «دير وشك» لأول مرة، لم أكن قد رأيتها ولا مرة واحدة عارية، ولم أفكر بمراقبتها أو اختلاس النظر إلى مفاتنها. فعندما كانت تنزل البحر، لا أشعر بأي فرق بين صدرها وصدري.

ـ هل نخرج؟.

ـ هيا. ينتظرونني على الطعام.

أخرج أنا أولاً، ثم هي، وتقول:

- إني أخرج

ومعنى ذلك أنها تقول لي «دُر وجهك». فوراً أميل بوجهي صوب الصخور.

ـ انتهيت؟.

ـ تماماً.

بعدها نتسلق الصخور العمودية القاسية. التفت، أنظر إلى الخلف. إلى البحر، المياه شفافة، براقة، والحصى متعددة الألوان، تلمع في القاع. تبدو وكأنها كبرت وتضخمت، وتتهادى وتتحرك في الأعماق على الدوام، بسبب شفافية الماء وحركته الدائمة، نسلك الدرب الضيق بين أشجار الصنوبر، درب رفيع، لا يتسع لشخصين، كانت فريدة تمشي أمامي، أمسك من يدها كي لا تتزحلق وتقع على الأرض، ومع هذا كنا نقع فوق تلك الأوراق الإبرية الجافة.

كان «شيرزاد» يشاركنا النزول إلى البحر في بعض الأحيان. الثلاثة معاً نلهو أكثر، نشعر بالسعادة أكثر، وعندما نصبح ثلاثة، كان لساني يفتح كالمذياع. الحوار والنقاش سلاحي الأكبر، وبواسطة هذا السلاح، كنت أحاول التغلب على «شيرزاد». المناقشة زينتي، وبواسطتها كنت

أحاول كسب ودّ فريدة. خصومة، مخفية مضمورة، باطنية، بيني وبين «شيرزاد» بسبب فريدة. «شيرزاد» أنهى دراسته الابتدائية، أكبر مني بعامين أو ثلاثة، طويل القامة، يفوقني في هذه الأمور، وأنا أحاول التغلب عليه وتحقيق ذاتي بطرق وأسلحة أخرى.

كانت فريدة تريد وتتمنى أن نكون وحدنا أثناء ذهابنا إلى البحر. بعض الأحيان نناور ونبتعد عن «شيرزاد» كي نظل وحدنا. إذن وسط هذه الخصومة الخفية، يكون شيرزاد مغلوباً وأخشى أن يأتي يوم يعمد فيه «شيرزاد» على الانتقام مني بشكل أفظع.

عاشوراء شهر محرم

مرّ الصيف الجميل بسرعة. الذين جاءوا إلى الجزيرة في الصيف بدأوا بالعودة إلى استانبول. أهل فريدة أيضاً سيعودون. المدارس ستفتح أبوابها قريباً. فريدة ستدرس في مدرسة تسمى «فيزي آتي» «شيرزاد» تسجل في مدرسة «غلطة سراي» أشعر بألم كبير في أعماقي.

فريد وفريدة تركا الجزيرة

هنا متسع من الوقت حتى افتتاح مدرسة «دار الشفقة».

قالوا: إنهم سيوزعون طعام العاشوراء في قصر سعيد حليم باشا. أطفال (محلة تبة) الفقراء. يهيئون أنفسهم للذهاب إلى القصر وأخذ نصيبهم من العاشوراء. الجميع سيأخذون الطعام وبقدر ما يريدون. يذهب من كل بيت عدد غير محدد من الأشخاص والأولاد ويحملون القدور والأطباق الكبيرة. أنا وأختي ذهبنا أيضاً لأخذ نصيبنا، كل منا يحمل وعاء كبيراً. طاسة نحاسية كبيرة وطنجرة نحاسية كبيرة أيضاً.

مررنا أمام منزل عصمت باشا. ووصلنا إلى حي عباس باشا، وإلى اليمين قصر كبير. كبير جداً. مدهون باللون الأبيض. وقفنا في الصف، أما باب حديقة القصر. انتظرنا ساعات طويلة هناك. فتحوا الباب

الحديدي الكبير، والمدهون باللون الأبيض.

لا يسمحون لأحد بالدخول، ووقف رجل يغرف الطعام بالكبجة من القازان الكبير الذي أحضروه إلى هناك، ولما جاء دوري. قدمت له واحداً من الوعاءين اللذين حملتهما في يدي. وضع الرجل كبجتين من العاشوراء في وعائي الذي كان يتسع أيضاً لكبجتين أخريين. واكتفى الرجل بذلك.

ـ هيا. اذهب

قدمت له الوعاء الآخر:

ـ كل واحد سيأخذ بوعاء واحد فقط. تركت الباب وعدت أدراجي.

لحسن الحظ أن فريدة وعائلتها غادروا الجزيرة، وإلا كنت أخجل من نفسي إذا ما رأتني أو سمعتني وأنا أحمل العاشوراء من هنا.

عدت إلى البيت وأنا أشعر بخجل شديد. أفكر بالرجل الطيب الكريم المحب للخير والذي يوزع الطعام بهذه المناسبة. عندما أكبر سأعد طعاماً كثيراً، وأوزعه على كل الناس، وليس بوعاء واحد، بل بعدد غير محدود من الأوعية.

الفتاة الغلام

بعد أربعة أو خمسة أيام من افتتاح المدارس، جاء شيرزاد وفريدة إلى الجزيرة. كلاهما يلبسان زيٍّ مدرستهما، فوق جيب السترة الكحلية التي كان يرتديها شيرزاد حرفان مكتوبان هما «GS» ويعنيان الحرفين الأولين من «غلطة سراي».

تجمهر أطفال الحي أمام باب القصر البرجي، وتحلقوا حول فريدة وشيرزاد، يتحدثون. كانت فريدة تقص شيئاً ما على الأطفال، بعد أن اتخذت مكاناً مرتفعاً، أو فوق نتوء صخري صغير.

اقتربت قليلاً منهم، ووقفت أنظر إليهم. أحسست أن فريدة قد

صارت غريبة عني وربما أنا الذي صرت غريباً عنها. اعرف أننا لسنا من عالم واحد. عوالمنا مختلفة كلياً. أعيش في مكان بعيد جداً عن عالمها. بحيث لا أستطيع الوصول إليها بأي شكل من الأشكال. الاقتراب منها كلياً صعب جداً، والابتعاد عنها أصعب بكثير. كنت واقعاً تحت تأثير جاذبيتها. أنظر إليها من بعيد. مزيج من الغضب والعتب يعبثان في أعماقي. إنه صوت فريدة. تناديني. لماذا أنا واجم هكذا يا ترى؟. مشيت نحوها ببطئ. ببطئ شديد جداً. هي أيضاً تحركت نحوي، فتحرك الآخرون خلفها أيضاً.

إنهم متجهون صوبي. هذه التحركات أغضبتني أكثر، كنت في وضع لا أتحمل فيه نفسي. كنت أغضب من كل شاردة وواردة. من حركاتي وحركاتهم، وكأن النار تتأجج في أعماقي لسبب لا أعرفه. إن اقتربوا مني أغضب، وإن ابتعدوا أغضب. إذا تحدثوا أغضب، وإن سكتوا أغضب.

نتداخل فيما بيننا كالأعداء. هم كثيرون وأنا وحدي. فريدة تبتسم، تبتسم بعذوبة، تبتسم كصديق، فأغضب أكثر، ما الذي يدعوها إلى الضحك والابتسام؟. على رأسها قبعة المدرسة. مدرسة «فيزي آتي» وفوق واقية القبعة لوحة المدرسة وشارتها. أنظر إلى شعرها، كلما أطلت النظر، ازددت غلياناً وغضباً وحقداً، لأنها قصت شعرها. عمود من نار يجتاح أعماقي. أغار من شعرها، ولأنها قصته طبعاً سأغضب. أنا ابن من؟. شو يعني أن تقص فتاة شعرها؟.

الأولاد الآخرون ينظرون إلى فريدة وفريد وشيرزاد، فريدة تقول شيئاً ما: أنا الآخر يجب أن أتحدث وأقول لها شيئاً. ولكن ماذا أقول والكلمة التي خرجت من فمي: القبعة لا تليق بك.

ـ هذا نظام المدرسة.

ـ اخلعيها عن رأسك.

ترفع القبعة عن رأسها. شعر قصير جداً. تشبه الذكور «حسن صبي».

ـ شعركِ أيضاً صار قبيح المنظر.

فأجابت مبتسمة:

ـ «تسريحة الصبيان».

هذه الكلمة أسمعها أول مرة. غارسون معناه «غلام».

قال شو: غارسون. انظروا إليها، أصمت، فيتحدثون.

فريدة مرتاحة بشكل كبير، راحة زملاء صفها تعادل قلقنا واضطرابنا. الراحة التي نأخذها في نهاية المطاف، صعبة جداً. الراحة في الطفولة مهمة جداً. لقد ورثوا الراحة عن أهلهم.

انسحبت من بينهم خلسة، ودون أن أقول لهم شيئاً. أقترب من الخادم الأعرج، الجالس تحت الجدار، وأحقق معه، إلى أين انتقل أهل فريدة في استانبول، أين يسكنون؟. قال شو: يسكنون في حي «شيشلي»، لأنهم يملكون بيتاً هناك. كلمة «شيشلي» تغرز كالوتد في رأسي. أين هي يا ترى هل أستطيع الذهاب إليها في أحد الأيام؟. أستطيع معرفة بيت فريدة. وأراها عن كثب. عندها نكون وحدنا ونستعيد ذكرياتنا. كيف كنا ننزل إلى البحر معاً، في الصيف، نعم هكذا. أذهب إلى «شيشلي» أينما كانت.

أذهب إلى غابة الصنوبر الموجودة في رأس التلة. آخذ غصناً عن الأرض. أضرب الأعشاب، أضربها بقوة، وكأنني أحمل سوطاً. أقطعها كلها من جذورها، أضربها بسرعة وقوة. أجتثّ الأعشاب البحرية بضربة واحدة. أضرب. أعشاب «شوك الجمل» أطيح برؤوسها هنا وهناك. تتطاير في الجو. سأذهب إلى شيشلي. أينما كانت.

كلما لوّحت بالغصن «العصا» يخرج صوت يشبه الفحيح أو الصفير.

قال شو: «ألاغارسون» قبيح، لا يليق بك. هكذا. قبيحة المنظر.

ولك شو. هل تذهب النساء إلى الحلاق ويحلقن شعرهن؟. عيب والله عيب (سأقول لكم لماذا العيب. آنذاك. العيب في قص الشعر معناه أن المرأة يمكن أن تزني وتعمل ما يحلو لها) أضرب أغصان الصنوبر بالعصا التي في يدي.

شيشلي. سيأتي يوم أذهب فيه إلى هناك.

ـ سبعمائة وسبعة عشر

لا أتذكر الآن. كيفية ذهابي إلى دار الشفقة، ولا يومي الأول هناك. ولكن الصباح الأول، واستيقاظي الأول، ما زالا في عقلي وذاكرتي بكل دقائقهما. لقد استيقظنا على أصوات عصا السيد زكريا.

وزكريا هذا كانت لا تفارقه عصاه أبداً. كان يضرب بها على حديد الأسرّة، ثم ينفخ بصفارته تلك أول ليلة كنت أنام فيها على سرير. لأن بيتنا كان خالياً من الأسرّة، أو لم نكن نملكها، وهكذا أكون قد ودعت النوم على الأرض، ولو لفترة. وكالأولاد الآخرين أنا أيضاً رتبت سريري.

لبسنا ثيابنا، وكانت مهاجع النوم في الطابق الأعلى. في الطابق الأرضي سلسلة من الصنابير مصفوفة جانب بعضها. سنتوضأ هناك لنصلي الفجر في جامع المدرسة الكائن في الطابق الثاني. وكانت الصلوات الخمس إجبارية في دار الشفقة.

لم ينبلج الفجر بعد. جلسنا جميعاً أمام الصنابير نتوضأ. منشفة نشفت وجهي وساعدي. ووضعت «المنشفة» كما علموني فوق كتفي الأيسر. ثم لبست السترة فوقها بينما كان أحد تلاميذ القسم الابتدائي. الصف السادس يؤذن آذان الفجر، بصوته العذب. انتظمنا على شكل صفوف، أمام الدرج في الطابق الأرضي.

كنت أقصر تلميذ في الصف ولهذا وضعوني في المقدمة. السيد

رفقي. مقابلنا تماماً. على كرس الدرج. وقد سند جسمه إلى الدرابزين والمعروف أنه عندما يكون السيد رفقي واقفاً. يراه الجميع. معناه أن السيد رفقي موجود، فلا صوت حتى ولا حشرجة صغيرة.

يسمونه «الملاك» كل ما يريد أن يفهمه المرء من كلمة الملاك. موجود في السيد رفقي. أنا شخصياً كنت أرى فيه كل الصفات الإنسانية مخلوق رائع. أجمل وأقوى وأحلى من كل من اتصف بالإنسانية. لم أره مرة واحدة يغضب أو يصرخ، أو كان قاسياً. ليِّنا على الدوام. كل شيء فيه مملوء بالحب. عيونه وقلبه ويداه. كأنه جُبل من الحب والحنان. كنا نجد فيه حبنا الضائع، الذي لم نعرفه إلا في السيد رفقي. حب الأب والأم والأستاذ. كان السيد رفقي قد نذر نفسه لأولاد دار الشفقة الأيتام. ترك دنياه، هكذا كان السيد رفقي يتراءى لي وأنا في ذلك العمر.

هناك مقولة يرددونها كثيراً (لا يزعج حتى النملة) والسيد رفقي أيضاً لا يزعج حتى النملة، وكأني أراه الآن أمامي مثلاً، لم يلبس مرة واحدة حذاء له نعل. فحذاؤه دائماً من البلاستيك أو الكاوتشوك. كان يطأ الأرض بروية، فلم يحاول يوماً حتى إزعاج الأرض الحجرية.

عندما يبدأ الأطفال صعود الدرج، يتنحى جانباً، كي لا يسير الأطفال من خلفه. ويستند إلى الجدار ونحن نمر من أمامه.

السيد رفقي يحفظ أرقام التلاميذ غيباً، إذ لم تمضِ ثلاثة أيام حتى كان قد حفظ أرقامنا جميعاً. لم يكن ينادي أي تلميذ باسمه، بل كان ينادينا بأرقامنا. حتى أرقامنا كان يلخصها، ولا يذكرها كلها مثلاً، أنا رقمي (٩١٧)، كان يناديني «تسعمائة وسبعة عشر». وإن التفت أحد إلى زميله، كان صوت السيد رفقي يصدح:

ـ تستعما وثمانية عشر. نسكت جميعاً.

وصاحب الرقم (٩١٨) هو أحد ممثلي مسرح مدينة استانبول، الكاتب والقاص القديم «إحسان دفريم» والد عائشة كول دفريم.

ـ تسعمائة وسبعة عشر، فأسكت على الفور.

يا لها من مدرسة

وزعوا علينا الثياب والجوارب، ربما كنا في اليوم الثالث أو الرابع من دخولنا إلى دار الشفقة. كما أعطونا ثياباً قديمة من مستودع المهمات الموجود هناك. أعطونا كل شيء، كأن الدنيا كلها صارت ملكاً لي. بعد ذلك أخذوا مقاساتنا ليخيطوا لنا ملابس جديدة وفق أجسامنا، وفيما كنا نهبط الدرج، نريد الذهاب إلى المطعم، وكانوا قد وزعوا علينا في ذلك اليوم أحذية جديدة، كانت أصوات أكعاب أحذيتنا تتردد في أنحاء المدرسة. وكان إلى يميني ولد أشقر اللون، اسمه موسى كاظم.

كان موسى كاظم هذا. مسروراً مثلي بحذائه الجديد. وكنا في يوم الخميس، يعني كأيام السبت الآن، اليوم الذي يأتي قبل العطلة الأسبوعية، حيث سنذهب إلى بيوتنا بعد تناول طعام الغداء بإذن رسمي من المدرسة، ونعود مساء الجمعة إلى المدرسة، ونبدأ الدروس يوم السبت. ففي أيام الخميس كانوا يقدمون لنا نوعاً جيداً من الطعام.

لا أنسى كلمات ذلك الولد الأشقر أبداً عندما قال شيئاً أثناء هبوطنا الدرج. قال: يا لها من مدرسة رائعة. فأم الإنسان لا تعتني بطفلها مثل هذه المدرسة. وحمدت الله أن صوت موسى كاظم قد اختلط بأصوات الأحذية الجديدة، لأنه يومها تفوّه بما يعيب أن أقوله بالحرف الواحد.

مرت سنون وسنون، قابلت بعدها موسى كاظم في حي الاستقلال. تصافحنا، وشدّ كل منا على يد الآخر. كنت يومها أعمل كاتباً. أما موسى كاظم كان أحد لاعبي فريق غلطة سراي الكروي، وهو لاعب مشهور، كما كان يلعب ضمن تشكيلة المنتخب الوطني. وربما إنني لا

أهتم بالرياضة ولا بالكرة، كنت أجهل كل هذه المعلومات. بعد السؤال عن الصحة والعافية، سألت موسى كاظم عن عمله:

- ماذا تعمل؟.

غضب موسى من سؤالي هذا، وقال: ألا تعرف؟.

- لا.

- صحيح ما عندك خبر.

- والله ما عندي خبر.

تغيرت ملامح وجهه:

- ألعب في نادي غلطة سراي.

كان غضبه ظاهراً في صوته. افترقنا عن بعضنا، نظرت إليه من الخلف فعاودني صوت ذلك الولد الأشقر (أي الحذاء الجديد).

- يا لها من مدرسة رائعة. حتى أم الإنسان لا تعتني بطفلها هكذا.

فرحة اللقاء بأبي

لباس مدرسة دار الشفقة مكوّن من لونين: أخضر وأسود. على ياقة السترة وعلى القبعة شعار المدرسة، وعلى البنطال الأخضر خطوط سوداء.

من أنا يا ترى؟. هل أنا باشا أم مارشال؟. في قدميّ حذاء جديد. أرتدي طقماً كحلياً، ومعطفاً جميلاً. حتماً أنا شخص كبير ومهم جداً. بطاقة الركوب على السفينة بأربعين بارة، إذا كنت طالباً في دار الشفقة. أقطع التذكرة، وأذهب حيثما شئت. إلى الجزر، إلى «يالوفا» إلى «كفاقلر».

عندما خرجت من المدرسة في أول سماح لي، كدت أطير من الفرح، عندما نزلت في ميناء «هيبلي آدا» حسبت أطراف معطفي أجنحة تطير، اجتزت تلك الطلعة العمودية القاسية. وجدت أمي قد حضرت من أجلي، أطعمة خاصة، وحلاوة الخبز.

حلاوة الخبز هذه كانت للفقراء والمحتاجين، تصنع من فتات الخبز البائت، توضع الفتاتات الرفيعة تحت الشمس حتى تتحمص ثم تقلى بالزيت، ويوضع القطر الساخن فوقها. وعندما تمتص القطر تصبح لينة كالإسفنج. ومن الأفضل أن تقلى فتات الخبز بعد دهنها بصفار البيض.

فأمي كانت تصنع الحلاوة هكذا، لأننا كنا نملك دجاجات. لا أتذكر أبداً أن طلبت أمي مني أن أقرأ وأجتهد، أي لم توصني ولم تقل لي: بالله عليك يا بني اقرأ. واجتهد كانت تعرف أنني أعمل على الدوام بجد ونشاط.

في الإجازة الثانية أو الثالثة لا أذكر، عندما وصلت البيت وجدت أبي، أبي الذي لم أره منذ شهور طويلة، كان مرهقاً، عانقني وقبلني. أحسست بذقنه على خدي، كانت فرحتي غامضة لا أدري كيف أصفها لكم.

الإحساس بالذنب

آنذاك يوم الجمعة، وأنا عائد مساء من البيت إلى المدرسة، كدت أتحطم تحت وطأة الإحساس بالذنب بشكل كبير. كنت أعود إلى دار الشفقة لأعيش بين زملائي الأيتام، وأنا لي أب. وكان عليّ أن أكتم وجود أبي وعودته عن زملائي ومعلمي وعن الجميع. هل تقدرون فهم هذه المغالطة الحقة، وهذه المرارة العظيمة التي يحسّ بها ولد في الحادية عشرة من عمره؟.

قدماي كانتا لا تريدان حملي إلى المدرسة. كانتا تنتقلان بثقل شديد وكأن أغلال عبيد روما قد علقت بهما.

عندما وصلت المدرسة في ذلك المساء، كانت أعماقي تدعوني، تطلب مني أن أصرخ بملء صوتي: أنا عندي أب. ولكن إذا ما عرفوا أن لي أباً سيطردونني من المدرسة على الفور. وعندها أظل جاهلاً أمياً. لا

أكمل تعليمي. وأتصور حزن أمي بسبب طردي من المدرسة والذي أعتبره أهم من بقائي جاهلاً وغير متعلم.

لست أدري إن كان هنالك طفل على سطح هذه المعمورة مجبر على كتمان حياة أبيه وإبقاء وجوده سراً عن كل العالم. إنها حالة درامية حقة عندما لا يستطيع طفل أن ينادي أباه أمام الناس بكلمة بابا، لأن الجميع يعرفون، أنه لا يدخل دار الشفقة سوى أولاد الأيتام. ربما يعرفون وربما لا يعرفون. ولكن يتراءى لي أنهم يعرفون ذلك.

تسعمائة وسبع عشرة

لم أستطع الهروب. علي الذهاب إلى المطعم مع زملائي. دخلت وجلست إلى المائدة. كانت اللقمات تصطف في بلعومي، لا تريد النزول إلى معدتي. ربما كان ذلك بدون معرفة. كنت غارقاً تحت تأثير ذلك الإحساس. الإحساس بالذنب، لأنني سرقت حقوق يتيم آخر، نعم لقد أصبح تفكيري كله منصباً على السرقة، وخاصة أنها سترافقني طويلاً، حتى وإن أكملت الدراسة، سيبقى رفيقي مدى الحياة، لأنني مضطر على كتمان وجود أبي عن زملائي وعن الجميع.

الخوف الشديد من ظهور كذبي وخداعي، بسبب ظهور أبي، كان أكبر من الكذب والكتمان.

وكما في كل يوم، ذهبنا إلى صفوفنا، بعد تناول الطعام، لأن ساعة الدرس والمثابرة كانت قد بدأت. الكتاب مفتوح أمامي. لا أقرأ منه شيئاً، وما أقرأه لا أفهم منه شيئاً، بقيت هكذا صامتاً حزيناً، ثم ذهبت إلى المهجع، خلعت ثيابي وتمددت على السرير، وكما علمونا فعلت: يجب أن ينام الإنسان على اليمين أولاً، لأن ملائكة الرحمة والخير في يميننا، ثم سنقرأ قل هو الله أحد.

عندما أنام على الجانب الأيمن كل ليلة. كنت أدعو الله يا ربي

اجعلني رجلاً مشهوراً له شأن عظيم. ثم أقرأ قل هو الله أحد. والمعوذتين. وأنام قرير العين، وعندما أذكر الرجل الشهير، أتذكر المكتشفين المبدعين، الذين يخترعون كلّ جديد، لأنهم رجال عظام حقاً. وخالدون، أسماؤهم لا تنتسى. يا ربي اجعلني ممن ينفعون أوطانهم ثم أقرأ الحمد لله رب العالمين. قراءتي قل هو الله أحد للمرة الثالثة والرابعة، أغرق في النوم. وأظل كالقالب هكذا. وعندما أستيقظ صباحاً أجد نفسي على جهة اليمين.

وذات ليلة، قرأت قل هو الله أحد أكثر من عشر مرات ولم أغفُ. هل يا ترى عرفوا أو أحسوا بوجود أبي!!؟. عندما استيقظت صباح اليوم التالي. وجدت غطائي قد سقط على الأرض.

يقولون إنك أخذت عشر درجات في الغباء

بعد يومين أو ثلاثة من بدء الدروس، انتقل إلى مدرستنا طلاب دار الأيتام، ووضعوهم في صف خاص بهم، وهكذا صار الصف الرابع في دار الشفقة شعبتين.

كان تلاميذ دار الأيتام، مرتبطين ببعضهم كثيراً، لأنهم قضوا ثلاث سنوات قبل مجيئهم إلى مدرستنا مع بعضهم. كانوا يخيطون من الألبسة القديمة أحذية قماشية جميلة، ويصنعون كرات من القماش، ويلعبون الكرة جيداً، بأحذيتهم الخاصة التي يصنعونها.

أتذكر تلك الشعبة. أتذكرهم تماماً، طفولتهم ولطافتهم، ولكن إذا قابلتهم الآن لا أعرف سوى القليل منهم.

بعد خمسة عشر يوماً من دخولنا المدرسة، التحق بنا ولد أصفر الوجه، شعره ناعم كالحرير، يدعى «فارس». كان أحد الناجحين في الامتحان والقرعة، لم يلتحق بالمدرسة لسبب ما. وكان فارس هذا أول طالب في الاحتياط، قبلوه في المدرسة. كان وجه فارس جميلاً ونظيفاً،

إلى حد كبير. وكأنه قادم من غير عالم. لباسه نظيف جداً، يتحسس من كل شيء، عندما نزلنا إلى الطابق الأرضي وقف أمام الصنابير مدهوشاً، محتاراً. البيئة الجديدة لم تعجبه أبداً. أحسست نحوه بشيء من الحب، نعم أحببته.

كان فارس، ناعماً، هادئاً، ساكناً، يصدِّق بسرعة، طيب القلب أكثر مما يجب. ومتفوقاً. ولكن تفوُّقه لمسناه في درس الرسم. كان في المدرسة شعبة خاصة من أجل الرسم. كان فارس أفضل تلميذ يرسم الرسوم الجميلة. وذات مرة أحضر مدرس الرسم برتقالة ووضعها فوق طاولة الرسم (على الأغلب كان اسمه أكاه). رسم فارس تلك البرتقالة، شبيهة جداً بالبرتقالة الأصلية، لو رأيتها لمددت يدك لتأخذها عن الورقة. تعرجاتها، ثقوبها، كل شيء فيها كان طبيعياً. وضع معلم الرسم البرتقالة التي رسمها فارس على جدار الصف تقديراً لإعجابه.

كان فارس تلميذاً مجداً ولامعاً بشكل غير عادي. بعد شهرين أجروا له امتحاناً خاصاً ووضعوه في الصف الخامس. بعد مدة طويلة سمعت أن فارس أصيب بمرض السل، ولهذا السبب تأخر عن زملائه صفين أو ثلاثة. وأنهم استأصلوا إحدى رئتيه. تخرج من دار الشفقة، وأنهى دراسة الحقوق، وصار رساماً وكاتباً.

في اليوم السادس عشر من عام (١٩٤٦)، تم اعتقالنا نحن الاثنين، ضمن الاعتقالات الكبرى التي جرت في تلك السنة.

بعد فترة قصيرة أخلوا سبيلي، وبقي (فارس أركمان) معتقلاً في مديرية الأمن، لأسابيع طويلة، تحت التعذيب والإهانة (سيأتي يوم أتحدث فيه عن هذه الممارسات الوحشية). بعد هذا العذاب القاسي والطويل، أصبح فارس نصف إنسان وهو العليل، والمسلول ذو الرئة الواحدة.

الحادثة التي سأوردها الآن سمعتها من أحد الشهود الذين كانوا معه:

تقرر مديرية الأمن في استانبول نقل المعتقلين من غرفهم الضيقة المظلمة، الرطبة، إلى السجن العسكري في الحربية. قبل النقل، يلجأ معاون مدير الشعبة السياسية ويدعى (السيد حمدي) ويلقبونه حمدي مقطوع الإصبع إلى جمع المعتقلين (سأحاول مستقبلاً إعطاء فكرة عن هذا الرجل، لأن له شخصية يجب أن يعرفها الجميع. على الأقل لم يكن قاسياً، حتى ولو تصرف وارتكب أخطاء كثيرة. فالذنب الأكبر ليس ذنبه، بل ذنب من عينوه في مديرية أمن كبيرة، كمديرية أمن استانبول، والسيد حمدي بالأصل رقيب عادي. كان يعتقد أن ما يقوم به ليس إلا واجباً وطنياً من كل الجهات. لكن هذه الصفة لم تكن موجودة لدى الآخرين على الإطلاق. وعليه يحق لنا مدح تربية السيد حمدي. والحادثة التي سأرويها لكم فيها جانب إنساني محض. ولا أريد بكلامي هذا أن أشيد بأفضلية السيد حمدي على الآخرين ولا إظهار مساوئ الآخرين على حساب حمدي. من يأمر بالتعذيب كان رئيساً، في قسم البوليس، وهو السيد حمدي. ومع هذا، كان يتصرف بالفعل والمنطق، وكان رجلاً مستقيماً في كل تصرفاته تقريباً. في الصفحات المقبلة من مذكراتي. سأعطي مجالاً اوسع لهذه الشخصية).

تحدث السيد حمدي مع المعتقلين والمتهمين، مطيباً خاطرهم، هادفاً من خلال حديثه. إنه لا مصلحة له في تعذيبهم بأي شكل من الأشكال وقال فقط، نحن نطبق الأوامر، ونقوم بخدمة الوطن، يعني هذا عملنا. هذا فحوى ما كان يريد أن يقوله، وليس لنا غاية خاصة مع أحد ولننسَ ما حصل هنا.

يتقدم فارس خطوتين إلى الأمام، فارس المعلول، المسلول الأصفر، والذابل. ويقول: يا سيد حمدي، يا سيد حمدي، حتى ولو حاولت نسيان ما فعلتموه بي. ستعمد عظامي على الانتقام منكم، الواجب

الوطني لا يكون هكذا. ما فعلتموه بنا لا يسمى واجباً وطنياً.

أنتم لا تعرفون فارس. فارس الطيب، الشاب أبو القلب الذهبي. ربما فهمتم قصده من خلال حديثه هذا.

السيد حمدي لم يقل شيئاً، وماذا كان سيقول يعني؟. وماذا يفعل. أكثر مما فعلوه معه. نام «فارس أركمان» خمس سنوات في السجن.

أقمت مع فارس في مهجع واحد. في السجن العسكري وفي سجن السلطان أحمد. كان فارس في السجن مثلما كان في دار الشفقة. هادئاً، ساكناً، مصداقاً. أصفر الوجه ناعماً. كان يستلقي على سريره، ويقلِّب وعلى مدى ساعات طويلة، مجموعة الرسوم، للرسامين الكبار. دون أن يحرك ساكناً. يمضي معظم يومه ممعن النظر في لوحة أمامه.

كان على الدوام يتحدث عن الرسم، ويشرح لزملائه في السجن ماهية الرسم والفن دون توقف.

لقد اشتد المرض عليه في السجن. كان يعيش على الدواء والحمية. لكن عليّ أن أقول جاداً، إن قلّة حظه كانت زواجه للمرة الثانية.

بعد خمس سنوات، خرج من السجن، مريضاً جداً وضعيفاً جداً. وكان عليه أن يجد عملاً مناسباً. وأن يجري عملية جراحية، تمّ تأجيلها بسبب ضعفه الشديد وعدم قدرته على تحملها. تأخر ولم يستطع إنقاذ نفسه. بدأ الدم ينزف من فمه. وعلى ما أعتقد أنه مات بعد ستة أشهر من مغادرته السجن. وبعد فترة قصيرة مات السيد حمدي أيضاً، الذي قال له فارس: إن عظامي ستنتقم منكم على ما فعلتموه بي.

لنعد الآن إلى دار الشفقة ثانية. كنا في الحديقة أثناء الانصراف ظهراً، أقبل فارس نحوي مسرعاً وقال: يقولون إنك أخذت عشر درجات.

سألته: بأي شيء؟.

ـ يا للغباء.

كان فارس لا يمزح مع سواي. يضحك بملء صوته. هذه المزحة ربما أعجبته كثيراً. دخلت المدرسة. رأيت منصور في أعلى السلم، وكان ولداً جاداً إلى أبعد الحدود ممن يقال عنهم كَبُر ثمّ صَغُر. لا يضحك ولا يبتسم. عابساً على الدوام، لا يمزح مع أحد، لا يلعب ولا يجري هنا أو هناك. فقط يدرس ويدرس. إنسان وقور بكل معنى الكلمة.

ماذا أفعل يعني. يجب أن أرد مزحة فارس إلى شخص آخر، فلا غاية لي مع فارس. ولكن منصور كان أول من ظهر أمامي فجأة فقلت له:

ـ هل سمعت يا منصور يقولون بأنك أخذت عشر درجات. سألني بجدية دون أن يتغير أي خط من خطوط وجهه.

ـ بأي شيء؟.

قلت: بالغباء.

وما أن بدرت مني هذه الكلمة، وإذا به يتوجه فوراً إلى غرفة مدير الداخلية. اتركوا المزاح والضحك جانباً (آمان ولك منصور. وقف ولك حبيبي). لم يلتفت. التوسل لا يجدي نفعاً. دخل إلى غرفة المدير.

مدير الداخلية أرسل خلفي. كنت أرتجف هلعاً وخوفاً، كان المدير (أبو ذقن):

ـ ماذا قلت لزميلك؟.

الإنكار لا يجدي نفعاً. انطلقت مني كذبة. دون أي تفكير. لا أدري كيف، خرجت مني تلك الكذبة. قلت:

ـ يا سيدي الزملاء في الخارج يقولون لبعضهم. أخذت عشر درجات، وعندما يسألون، بأي شيء فيجيبونهم بالغباء. وأنا أيضاً كنت أقول هذا الشيء لمنصور أفندي. وما إن خرجت مني كلمة الغباء، ودون أن أكمل كلامي، أسرع إلى سيادتكم واشتكى. لو انتظر بعض الوقت. لقلت له: هكذا يقولون. ولكنه لم ينتظر نهاية حديثي.

كنا نادي بعضنا أمام المدير والمعلمين بالأفندي.

ـ أنا لم أقل لمنصور أفندي أنت غبي أو أحمق، كنت أريد أن أقول له: إن الزملاء يقولون هذا الكلام.

قال المدير لمنصور:

ـ انظر: نصرت أفندي ينكر أنه قال لك تلك الكلمة.

خرجنا من غرفة المدير، وكنت متأكداً أن المدير والمعلمين كانوا يبتسمون بعد خروجنا.

مشى منصور أمامي وبسرعة ودون أن ينطق بكلمة واحدة، مسكين أيها المنصور الصغير، فيما بعد أحببنا بعضنا كثيراً، أنهى دار الشفقة ودخل الكلية الطبية العسكرية، ومات مسلولاً في الصف الخامس وهو يدرس في الكلية.

رقعات جوارب ناهد

أكثر ما يغيظ السيد رفقي هو الهروب من الصلاة، كان يطارد الهاربين من الصلاة دون توقف. تلاميذ كثيرون كانوا يتركون ويتهربون من تأديتها. وأكثر من نصفهم يدخلون الجامع بلا وضوء. أيام الشتاء الباردة. وبخاصة عند صلاة الفجر، فالوضوء عند الصباح صعب جداً.

لم أهرب مرة من الصلاة، ولم أصلِّ ركعة واحدة بلا وضوء. ولم أرتكب مخالفة واحد لنظام المدرسة.

كان اعتقادي وإيماني بالله قد ازداد بعد أن نجحت في سحب القرعة، أنني محظوظ والله يحبني ويرعاني، وكنت متيقناً بأن حظي هذا سيرافقني إلى الأبد.

بما أننا كنا ندخل الجامع بالترتيب حسب الطول، فترتيبي الدائم يكون خلف ناهد في الجامع. كان معلم الديانة إمامنا يعطينا دروس «سيرة الأنبياء» ثم نقف للصلاة:

ـ الله أكبر.

عيوني مسمّرة على جوارب ناهد الذي يقف أمامي أثناء تأدية الصلاة. في الوقوف والركوع والسجود. وإليكم سبب ذلك.

في تلك الأيام لم تكن جوارب النايلون المتينة موجودة. كانت جواربنا مصنوعة من خيوط القطن. والجوارب الأقل سعراً. وكانت تباع آنذاك. بين سبعة قروش وسبعة عشر قرشاً. هذه الجوارب الرخيصة تنثقب بسرعة. وعلى الأغلب عند رؤوس الأصابع وعند الكعب فتلجأ أمهاتنا لشبكها على الدوام. ربما خمس مرات أو عشر مرات أو أكثر. رقعة فوق رقعة، وعلى كل حال فالجوارب لا يراها أحد داخل الحذاء، وبما أن الدخول إلى الجامع لا يكون بالحذاء، عندها تظهر الجوارب المرقعة والسميكة.

حتى الكبار كانت جواربهم مرقعة، ومن أهم مهمات ربات البيوت كان ترقيع الجوارب، كنّ يضعن خشبة على شكل بيضة، داخل الجورب، ويبدأ الترميم، فالجوارب الرخيصة ترمم ثم تُثقب، ثم ترقع ثانية وهكذا. في العام كنت أستعمل جورباً واحداً. اثنين. أما تجديدها فكان بمناسبة العيد فقط.

عانيت الكثير من اهتراء الجوارب، وخجلت كثيراً، فالدخول إلى البيوت ممنوع بالأحذية، وعندما كنت أحل ضيفاً على أحد، علي أن أخلع الحذاء، ولكي أستر جرابي المهترئ كنت أغطي الرقعات بإحدى قدمي، فتظهر رقع جرابي المهترئ في القدم الأخرى. أسحب هذه وأسترها فتظهر معايب تلك. يا لها من مصيبة. تزداد الثقوب اتساعاً.

كل الناس ينظرون إلى جوربي المهترئ، أضع قدميّ تحتي، مستحيل. أمدّ رجليّ خلف الكرسي. من رابع المستحيلات.

ثم إن الرقع تؤذي قدم الإنسان، تجرحها وبخاصة عندما يكون الحذاء

ضيقاً، والجوارب سميكة من كثرة الترقيع تلتصق بالأصابع داخل الحذاء. فتظهر فقاعات وبثور. ومختصر الكلام: الجوارب المرقعة نوع من المصائب. إنها البلاء بعينه، وأعتقد أننا اليوم نادراً ما نرى إنساناً يلبس جورباً مثقوباً. كانت أمي تصلح جواربي بقطع من نفس ألوانها، أما الأولاد الآخرون فكانوا أسوأ مني كثيراً، ولكن تبقى رقعات جوارب ناهد أجمل الرقع مقارنة بالآخرين. لست أدري لماذا كان ناهد يلبس على الدوام جورباً أسود ناعماً، رقعه لا تظهر إذا نظرت إليها من بعيد. ولكن عندما تمعن النظر فيها عن قرب، تتضح أمامك. ولهذا كانت عيناي لا تفارقان جوارب ناهد أبداً. كم هي ماهرة أم ناهد، لأن رقعاتها جميلة. وعدت أقول في نفسي: التفكير بشيء آخر والاهتمام بأشياء أخرى أثناء الصلاة لهو ذنب كبير. ومع هذا كانت عيناي مثبتتان على جوارب ناهد. وأتأوه وكلي حسرة. لماذا لا أكون مثل ناهد ولا تكون رقع جواربي، مثل رقع جوارب ناهد. لو كان عندي جوارب مثل جواربه ومرقعة بهذا الشكل على الأقل كنت أحس بالراحة، عندما أحلّ ضيفاً على أحد البيوت ولا أضطر على إخفاء قدمي عن الناس.

بوري المنقل ـ الملقط ـ المشواية

نبدأ بدعاء الصلاة، أفتح يدي الاثنتين كالآخرين، عقلي وفكري متجهان صوب الرجل العظيم. يجب أن أصبح رجلاً مهما يا رب. أصبح رجلاً عظيماً أبدع وأكتشف وأخترع.

كانت كلمة المبدع النقطة الهامة التي شغلت تفكيري فما إن أبدأ بالدعاء يا رب. ساعدني أن أكون مبدعاً. أتذكر على الفور. بواري المنقل والملاقط والمشويات أو الشوايات، نعم. كل واحدة من هذه الأشياء نوع من الإبداع. هنالك أشخاص ابتدعوها. كنت أعتقد أن كل هذه الوسائل لها مبدع واحد. وإن أسماءهم قد غابت كلياً ـ ولم يعد

يذكرهم ولا يعرفهم أحد. كنت طموحاً جداً. ولا أرضى بالقليل أبداً. ومع كل وعاء أتذكر مسخرة الشواية والملقط. وأبدأ بالتوسل إلى الله ثانية يا رب أعني كي أصبح مكتشفاً ومبدعاً كبيراً. لا شوايات ولا ملاقط ولا بواري ومناقل. بل على اكتشاف أشياء مهمة جداً.

الرشوة الأولى

في إحدى الليالي عرضوا لنا فيلماً سينمائياً في إحدى قاعات السمر، قصة الفيلم هذا لا تزال عالقة بكل تفاصيلها في ذهني اسم الفيلم: الراهبة البيضاء يثور بركان فوق إحدى المدن. السيول النارية تجرف البشر.

في اليوم التالي، أعطانا السيد رفقي وظيفة: اكتبوا ما فهمتموه من الفيلم الذي عرضناه لكم الليلة الماضية. أول مرة أمنح ورقة «العفارم» أو الاستحسان على هذه الوظيفة.

يدخل المعلم المناوب ليلة الأربعاء من كل أسبوع إلى غرفة المطالعة، ويوزع على الطلبة المتفوقين في ذلك الأسبوع، البطاقة الخضراء والتي طبع عليها كلمة «عفارم» أو أحسنت، كنت أول طالب نال بطاقة أحسنت. وعندما ينال أي طالب ست بطاقات أحسنت. يعطونه. بطاقة «امتياز».

وكلمة امتياز هذه تكون مطبوعة على بطاقة وردية. وعندما يصل عدد بطاقات الامتياز عنده كما اعتقد إلى أربع بطاقات تتحول إلى بطاقة «مرحى». ومن ينل بطاقتين أو ثلاث «مرحى» يربح كتاباً مجلداً ضخماً يضم تاريخ المدرسة على مدى قرون. كان كل هدفي منصباً في نوال هذا الكتاب.

جميع العفارامات والامتيازات والمرحات التي جمعتها ومع الأسف الشديد. لم أستطع الوصول إلى تلك الهدية القيمة التي كنت أعمل من

أجل الحصول عليها. كنت لكنني كنت أُحرَمُ من الأذونات الأسبوعية بين حين وآخر. ومن يحرم يحظّر عليه الذهاب إلى بيته في عطلة نهاية الأسبوع أي الخميس والجمعة.

إذا جمع التلميذ أو الطالب أكثر من ثمان بطاقات «عفارم» أو «أحسنت» أحرم في الأسبوع الواحد مرتين. حتى ولو أعطيتهم بطاقات العفارم. أظل محروماً. ولهذا لم أستطع الحصول على ذلك المجلد الضخم.

الليلة التي حصلت فيها على بطاقة امتياز لأول مرة. كنت منفعلاً جداً ومسروراً جداً. وعندما نمت في تلك الليلة. دعوت الله أكثر من باقي الليالي.

تأثير السيد رفقي علينا كبير جداً. وكان يقول لنا:

عندما تأوون كل ليلة إلى مضاجعكم. حاسبوا أنفسكم. ضعوا تصرفاتكم كلها أمام أعينكم. مع من تصرفتم إيجاباً... ومع من تصرفتم سلباً. فكروا فيما فعلتم وفيما قمتم به. حتى تكونوا في اليوم التالي. أكثر صفاءً وإنسانية وأكثر إيجابية... تذكروا أيامكم. هل تستحقون الحياة في هذا العالم الجميل. أم لا. وهكذا لا تشعرون بتأنيب الضمير. بل بالراحة المطلقة. بعد ذلك. ادعوا الله.

أجدني بقيت تحت تأثير كلمات السيد رفقي. حتى الآن. كل ليلة أحاسب نفسي قبل النوم. محاسبة النفس تقودني إلى الأمن والسكينة.

أنتقدها أحاسبها أزن كل شيء، وأستفيق صبيحة اليوم التالي على غاية من النشاط والتفاؤل. الليلة التي نلت فيها بطاقة العفارم كنت راضياً عن نفسي إلى أبعد الحدود.

سآخذها إلى البيت. من يدري مقدار فرح أبي وأمي. سيعانقونني

ويقبلونني. ويباركونني. وعلى حلم هذه الآمال. ذهبت إلى البيت يوم الخميس.

ـ لقد نلت بطاقة عفارم يا أمي.

أبي وأمي لم يهتما لا ببطاقتي ولا بفرحي. أحسست بألم شديد. يجب أن أستميل انتباههما واهتمامهما. يجب أن يعرفا قيمة هذه البطاقة التي أحملها. حكيت لهما قصة فيلم الراهبة البيضاء. أبي لا يحب السينما أبداً. يسميه. «المكان المخصص للهو». والذين يهتمون بالخيال. لا يعيشون إلاّ في حيرة ولا مبالاة. والسينما بالنسبة له من عمل الشيطان. والمسرح أيضاً يخرب الأخلاق ويعكر الذهن والمزاج. وهو نوع من العبث ليس إلا. يجب أن يكون أبي قد شاهد فيلماً صامتاً في شبابه.

لم أعد أهتم للفت انتباههما لكن عندما رويت لهما قصة فيلم الراهبة البيضاء تضايق أبي كثيراً وغضب. ماذا أفعل بالبطاقة والوظيفة؟.

أعطتني أمي منديلاً مزركشاً من الحرير. قبيل عودتي إلى المدرسة مساء يوم الجمعة. منديل جميل وكبير. أخرجته من صندوقها. رائحة صندوق أمي أحبها كثيراً. فيه عبق من حنانها ونسمة من حبها فرحت كثيراً بهدية أمي؟. هدية جميلة ورائعة. كل الناس يريدون أو يتمنون أن يشاركهم الآخرون أفراحهم وأتراحهم. هذه الأمنية تظهر عند الأطفال بشكل أكبر عندما وصلت إلى المدرسة أريت المنديل لزملائي. قال ممثل صفنا المدعو فخر الدين:

ـ أعطني المنديل الذي معك.

لم أتوقع أنهم سيطلبونه مني. ولم أعتد مطلقاً على كلمة لا أعطيك أبداً. ثم أنني كنت أخشاه. لأنه ممثل الصف «العريف» والأستاذ شاكر والذي لا تفارق العصا يديه. يحبه كثيراً. ويستلم منه الأوراق التي

يكتب عليها أرقامنا إذا ما قمنا بأية مخالفة في الصف. ولا يرد طلبه أبداً.

عندما قلت لفخر الدين. لا أعطيك. لأن هذا المنديل هدية من أمي.

قال: أعرف كيف سآخذه منك.

لم أقل شيئاً . لأنني كنت خائفاً. كان ممثل صفنا فخري الدين وممثل الصف الذي يلينا. نبيل كنصف معلمين. وخاصة ذلك الذي يسمى نبيل كان رأسه ضخماً كان رأسه ملتصقاً بكتفه أثناء درس العلوم «جسم الإنسان». وفيما كنا جالسين على مقاعدنا ننتظر مقدم السيد الشاكر كان عريف الصف فخر الدين واقفاً على الباب. الصمت مطبق بشكل كامل.

نظر فخر الدين نحوي وقال: لماذا تتحدث؟.

قلت: أنا لا أتحدث. وحقيقة ما كنت أفتح فمي أبداً.

ـ الآن بتشوف حالك.

كتب رقمي على الورقة. وعندما جاء السيد شاكر أعطاه الورقة.

سأله السيد شاكر:

ـ ما هذا؟.

ـ كان يلعب يا أستاذ.

قال السيد الشاكر:

ـ تسعمائة وسبع عشرة:

ـ أفندم.. كنت أرتجف من الخوف.

ـ تعال إلى المنصة.

ذهبت...

ـ تحدث عن العين.

كنت أحفظ الدرس جيداً. شرحته بشكل ممتاز. سألني. أجبته. سألني. أجبته.

أجبت عن أسئلته. ورسمت العين وطبقاتها على السبورة.
طبقة القرنية . والقزحية.
ثم قال:
ـ اشرح كل ما تعرفه عن الأذن
ـ يا سيدي. الأذن هي حاسة السمع عند الإنسان وتتكون من ثلاثة أقسام. الأذن الخارجية. والأذن الوسطى. والأذن الداخلية.
رنَّ جرس الانصراف. بعد أن شرحت الدرس كله. آملاً أن أنال من السيد شاكر بطاقة أحسنت أو عفارم.
قال: لقد حفظت درسك جيداً. ولكن الأخلاق ضرورية للإنسان أكثر من الاجتهاد. وبما أنك لعبت في الصف فإنني أحرمك من الإذن الأسبوعي.
كان المعلمون. يتناوبون الدخول إلى صفنا. كل مادة يدرسها معلم.
آخذ بطاقة الاستحسان من دروس النحو والصرف والقرآن وحسن الخط وسيرة الأنبياء والحساب والإملاء. وكنت انتظر قدوم السيد كاظم مدرس الحساب بكل مشاعري وأحاسيسي. لأنني مجتهد في مادة الحساب. الدروس التي تلقيتها من العم غالب أفادتني كثيراً هنا.
جمعت بطاقات الاستحسان التي تعفيني من حرمان البيت. مساء الأربعاء سيوزعون البطاقات. وسيتلو العريف الأذونات . وزعت البطاقات وقرئت الأذونات. وإذ بي محروم مرتين. إذ لا علم لي بالحرمان الثاني. لأن فخر الدين قد سجل اسمي بدون ذنب وأعطاه للسيد شاكر.
أعطيت البطاقات وتخلصت من إحدى العقوبتين. ولكني لم أستطع التخلص من الثانية لأنني لم أستطع جمع بطاقات استحسان تعفيني منها.

لو لم أذهب إلى البيت. ستتضايق أمي. وبما أنها مريضة لن تستطيع المجيء إلى المدرسة. ووالدي لا يستطيع هو الآخر الحضور إلى المدرسة. حتى ولو جاء إلى المدرسة . ماذا سأقول له. حتماً سأناديه يا عماه. كما ترون. أتذكر تقريباً كل المدرسين الذين علموني. وخاصة في مذكراتي.

بعضهم كان تأثيره قوياً فيَّ. فأذكرهم بالخير. والبعض الآخر أذكرهم بالسلب لأن تصرفاتهم كانت خالية من كل المشاعر الإنسانية. وما كانوا يعرفون أنهم يدمرون مستقبل التلاميذ. من سوء تصرفاتهم هذه.

يوم الخميس توجهنا لتناول طعام الغداء. أكلنا وخرجنا. الزملاء يجهزون أنفسهم للخروج من المدرسة. قال لي فخر الدين.

ـ سآخذ ذلك المنديل منك بأي شكل من الأشكال.

لم أقل شيئاً.

بعد ذلك اليوم حرمت مرات عديدة. مع إنني كنت تلميذاً هادئاً وساكناً. في صباح أحد الأيام. كنا في قاعة المطالعة. فشعرت بضرورة الذهاب إلى المرحاض. طلبت أذناً من فخر الدين: قال:

ـ هذا غير ممكن. لا يجوز الخروج من درس المطالعة. رجعت وجلست في مقعدي. ولكنني لم أستطع التحمل. مرة أخرى ذهبت إلى فخر الدين وبدأت أتوسل إليه.

قال: الخروج من المطالعة ممنوع. أين كان عقلك سابقاً؟.

عدت ثانية إلى مقعدي. والدموع تنهمر من عيني. هذا ليس بكاءً. بل من الضغط على نفسي. وما زال الوقت مبكراً لانتهاء المطالعة وبدأت. أحوص وألوص. مرة أخرى ذهبت إلى فخر الدين. كانت بعض الليونة قد ارتسمت على وجهه. قال: أعطني المنديل حتى أتركك.

كيف أعطيه المنديل؟. وماذا أقول لأمي بعد ذلك؟.

رجعت ولكن لم أستطع السير حتى مقعدي. سأتبهدل أمام كل زملائي.

قلت: تكرم.

أخذ مني المنديل أمام باب غرفة المطالعة. ولكنني لم أستطع الوصول إلى المرحاض. على الأقل لم أتبهدل أمام زملائي. أنا الوحيد الذي يعرف كيف وصلت إلى المرحاض.

هذا المنديل الحريري الكبير والمزركش بزهور جميلة. كان أول رشوة أعطيها. وعندما كنت في الصف الثاني في الكلية الحربية في عام (١٩٣٧) رأيت فخر الدين. وقد أصبح قاطعاً لتذاكر إحدى صالات العرض السينمائية التابعة للبلدية في حي «أولوس».

كثيراً ما فكرت بطريقة أو بأخرى أن أنتقم منه بسبب ذلك المنديل. ولدى رؤيته ثالثة لاحظت أنه قد نسي ذلك الأمر منذ وقت بعيد... أنا الآخر قررت نسيانه مباشرة... وحزنت كثيراً. لأنه لم يكمل تعليمه الجامعي بعد حصوله على الثانوية.

ليالي رمضان

الذكريات التي لا تنتسى في دار الشفقة هي ليالي رمضان. يبدأ بالفرح العارم قبل مجيء رمضان تحديداً.

حدَّدوا لكل منا قطعة أرض صغيرة. بمساحة طاولة كبيرة. داخل الحديقة. حفر كل منا أرضه جيداً وزرعها. الفجل والملفوف والخس. هذه المزروعات ستكبر وسنأكلها في رمضان.

نحب رمضان كثيراً. لأن اللعب فيه كثير والدرس قليل. والمسامحة بقدر الرغبة. ثم إن رمضان. يعد نمطاً حياتياً متغيراً. لا ننام حتى وقت السحور. لأنه غير وارد. لعب على الدوام. نجري هنا وهناك في المماشي والشرفات نتناول طعام السحور وننام. نوم طويل حتى ما بعد الظهر.

بعد الظهر. ساعتان للدرس فقط. ولعب في الحديقة. ثم الإفطار ومن ثم صلاة التراويح. بعد الصلاة تبدأ الأوقات الحلوة. والمتنوعة. لن أنسى لعبي مع رؤوف على الشرفات. نتصارع نتدافع. نقع فوق بعضنا. وبما أن طفولتي كانت قاسية. لم أعشها ككل الأطفال لعباً وجرياً وحرية. كنت أجد اللعب في ليالي رمضان. تسلية. رائعة تقدم لي الأمن والسكينة.

في ليالي رمضان من عام (١٩٢٧). كنت ألعب وأتصارع مع الطفل الحبيب رؤوف بين شرفات دار الشفقة. أما في شهر أيلول من عام (١٩٤٢). كنا على الحدود البلغارية. الملازم رؤوف مريض ينام في إحدى الخيم. وأنا بعيد عنه. أنام في خيمة أخرى.

ركبت الحصان والسائس من خلفي. أريد زيارة رؤوف . الذي نسى الطفولة وليالي رمضان الجميلة. نظرت إلى وجهه لم أجد فيه بقعة مضيئة لا في عينيه ولا في أية حركة من حركاته. رؤوف على الدوام غاضب ـ متشائم ـ أطيل النظر والتحديق علني أجد شراراة حب طفولي في بريق عينيه. ولكن عبثاً .

في تشرين الأول من عام (١٩٦٢). رأيت رؤوف في الباخرة. كنت أسافر من «قاضي كوي» إلى استانبول. عقيد متقاعد حفرت السنون أخاديد عميقة في وجنتيه. الغضب والتشاؤم يأكلانه. أنظر إلى وجهه وهو يتحدث. علني أجد باباً صغيراً ادخل من خلاله إلى مرتع الطفولة. باباً يعيد الفرح والسرور. ولكن دون جدوى. حاولت أن أذكره بليالي رمضان في دار الشفقة.

ولكن ردوده السلبية اضطرتني أن أترك الأمر.

كان لي زميل اسمه رفعت. وعلى الأغلب رقمه (٩١٩). كان طالباً مجتهداً في الحساب. لست أدري لماذا. عندما كان السيد كاظم

يخرجه إلى السبورة. كان يغادر المنصة مكفهر الوجه. والدموع تسيل من عينيه.

كانت الحصة مخصصة لدرس الحساب. ننتظر قدوم السيد كاظم إلى الصف. لست أدري كيف حصل ذلك. كان عريف الصف يعبث بأرضية طاولة المعلم. هل كان ينظف المكان؟. أم أنه كان يقوم بأشياء أخرى. لقد وجد صرة ملفوفة في أسفل الكرسي. وفي داخلها كيس مملوء بنوع من الغبار. وشيء آخر غير الغبار.

فهم الزملاء. أن هذه المادة قد صنعها ساحر ما من أجل تلميذ كي يحظى بحب واحترام المعلم. ولا أعرف الآن هل كانت هذه الفعلة السحرية من اختراع رفعت كي يحوز على حب واحترام السيد كاظم معلم الحساب أم لا؟. ربما كان وجه رفعت قد احمر على الفور. وفهم الجميع الأمر.

الحادثة جرت في أحد أيام عام (١٩٢٧).

في أحد أيام عام (١٩٤٢). كنت برتبة ملازم أول. ومعاوناً لمدير موقع محصن في مدينة «كارس» وفيما كنا نجري بتطبيقات عملية «مناورة». التقيت برفعت في مقر عمليات اللواء فوق إحدى التلال. وكان ضابط احتياط. رفعت هذا انتسب إلى كلية الهندسة وصار مهندساً بعد تخرجه من مدرسة دار الشفقة.

نلعب في حديقة المدرسة مساءً قبل الإفطار. زملائي يلعبون «الدُّحل» (الكرة الزجاجية الصغيرة) أما أنا فلم أستطع ذلك. لأنني لم اعتد ذلك في صغري. عملت المستحيل ولكن عبثاً. كل شيء بحاجة إلى تراكمات. تراكمات فردية وجماعية. وعدم وجودهما تكون فرص النجاح قليلة هنالك لعبة تسمى «قبطان» تنفذ بالكرة الزجاجية. تحفر أربع حفر مربعة الشكل. وتحفر في وسطها حفرة خامسة. ترمي «الدُّحلة» أو

الكرة الزجاجية نحو هذه الحفر. فإن دخلت الحفرة الوسطى. يسمى صاحبها قبطاناً.

وبما أنني لا أستطيع اللعب. أو لست ماهراً في هذه اللعبة. لا أحد يقترب مني. أو يريد اللعب معي. ولعبة أخرى تسمى «قفا قارشي» «أي مقابل الرأس» وجدت هذه اللعبة أسهل من تلك التي تسمى «قبطان». حتى هذه اللعبة كانت صعبة ولم أستطع المشاركة فيها لأنني أجهل بكيفية دفع الكرة الزجاجية بعد تركيزها بين الإبهام وأصبع الإشارة. كنت امارس هذه اللعبة مع رفعت. فقد تغلب عليَّ اكثر من ثلاث أو أربع بمرات. وبعد كل هزيمة كنت أحمله على ظهري.

وهذه من ضرورات اللعبة. سئم رفعت اللعب معي. تركني وراح ليلعب لعبة القبطان مع الآخرين. كان معي كرة زجاجية كبيرة إلى حد ما. ملونة. جميلة مخططة. تسمى «جيجوز». حملتها ودخلت إلى المدرسة. وبما أن الجدران كبيرة وواسعة فالنوافذ أيضاً كبيرة.

وكان أمام النافذة. فسحة منبسطة. جميلة. تستطيع اللعب فيها كيفما تشاء. كانت النوافذ تعلو عن السطح مقدار طولنا تقريباً... ذهبت واقتربت من نافذة مفتوحة. بين الصالون والشرفة. وبدأت ألعب بالكرة الزجاجية تحت تلك النافذة المدهونة باللون الأخضر. ماذا أفعل يعني. لا يلعب أحد معي. كنت أسلي نفسي بنفسي. استعملت الكرة الزجاجية بدلاً من الكرة البلاستيكية «الطابة». وصرت أضرب الكرة الزجاجية بيدي اليمنى. فتقفز عن الأرض.

بدأت بالعد. واحد. اثنان. ثلاث. أربع.

وفيما كنت أعد وإذا يقف فوق رأسي تماماً. يلعب (الدُّحل) من خلفي. يضربه على رأسي بين حين وآخر. من يدري أي ولد هذا؟. إن التفت نحو الخلف. ستتعطَّل لعبتي. لم أنظر.

بل كنت أصرخ: ابتعد عني لا تضربني
ومن جهة أخرى أتابع العد.
ـ ستة. سبعة. ثمانية. تسعة. تضربني. عشرة. إحدى عشر.
(شيل إيدك ولاك) اثنا عشر. ثلاث عشر. لا تفعلها ولك.
أنا أضرب الكرة على الأرض. والآخر يضرب كرته على رأسي.
ـ ثمانية عشر. تسعة عشر. (حاجة بقى ولك). عشرين واحد وعشرين.

صرخت بعصبية شديدة. «شيل إيدك ولك حيوان». التفت نحو الخلف وإذا بالسيد شاكر واقف على رأسي والعصا في يده كان في كل مرة أجعل فيها الكرة تقفز. كان يضرب طرف عصاه على رأسي. وأنا أقول في نفسي أنه أحد الزملاء يمزح معي.

أحسست بخوف شديد. يكفيك إخافة ولد بهذه السن؟. لا. لا يكفي.

ـ أفتح إيدك.

فتحت كفي. وبغصن رفيع مقشور الطرف. يضربني على كفي بكل قوته وأنا أصرخ «أي أي ي» وأتلوى من الألم. مطأطأً رأسي وجسمي نحو الأرض مثل الآخرين. ربما كان يريد أن أفعل هذه الحركة. أقف قليلاً. أشد على أسناني.

ـ أفتح إيدك التانية

أفتح يدي الأخرى. جاءت إحدى الضربات على مفصل إبهامي مع الكف. أحسست بألم شديد. وقفت دون حراك. ضربني. وضربني. ثم غادر المكان.

كانت أصابعي قد تخدّرت من العصا. أمسكت الملعقة بصعوبة أثناء الإفطار. أصابعي لا تقوى على الإمساك بالقلم أثناء المذاكرة... لا أحب السيد شاكر أبداً. لأنه لم يحبّب بنفسه.

حديقة خاصة

نحن في فصل الشتاء. الطلاب الكبار يترقبون هطول الثلج.

وبعد أن يتكدس. يبدأ صراع مرير. بين طلاب الابتدائية والإعدادية من جهة وطلاب الثانوية من جهة أخرى. إنها حرب بالثلج. بالكرات الثلجية. يتحدثون عن الأعوام الماضية بشكل ممتع. يقولون: الطلاب الصغار هزموا الكبار مرات عديدة في حروب السنوات القليلة الماضية.

يهطل الثلج. وتبدأ حرب الكرات الثلجية. ممنوع على طلاب الابتدائية والإعدادية. الدخول إلى قسم طلاب الثانوية. منعاً باتاً. ولكن أثناء حرب الكرات الثلجية. نقتحم حديقة القسم الثانوي. ونزيد من هجماتنا عليهم.

قوانين الأيام الطبيعية لا تسري في زمن الحرب. نعم هذه حرب.

اذهبوا من اليمين. وأنتم اهجموا من اليسار.

هيا. إنهم يهربون. ويفرون.

نحن الصغار كنا نأخذ الأمور بجدية. الحرب معناها. حرب. نهجم عليهم يهربون. ويهربون. نفرح بانتصارنا. وهم يفرحون لفرحنا. بعد نهاية كل حرب. كنت أشعر أنهم يفعلون ذلك عن قصد. يهربون كي يزرعوا الفرح والسرور في أنفسنا . وبفرحنا وسرورنا يشعرون بالمتعة والبهجة ثم يهجمون علينا دفعة واحدة. نهرب أمامهم. بعضنا تسقط فردة الحذاء من قدمه والبعض تطير عباءته. نترك كل شيء كي ننقذ أنفسنا منهم.

ما بين الكر والفر. نقع في الأسر. في إحدى المرات أمسكوا بي.

ـ أمسكوا هذا الصغير. امسكوه. أحاول الهرب منهم ولكن عبثاً. يد قوية تمسكني من رقبتي وترفعني عن الأرض.

أخاف من كل قلبي. إنها لحرب جدية. لن أستطيع الإفلات منهم.

صاروا يتقاذفونني فيما بينهم أنا أصغر واحد في دار الشفقة وأقصرهم طولاً.

يلعبون بي كطابة صغيرة. في نهاية المطاف يمسكني أنور. يقذفني نحو الأعلى ويتلقاني يقذفني ويتلقاني. «أنور اتافرات» هذا كان مديراً عاماً في حكومة الحزب الديمقراطي والآن يعمل رئيساً لبلدية مدينة إزميت/ يكبرني بست أو سبع سنوات سأتحدث عنه في مذكراتي لاحقاً).

التلاميذ الذين جاؤوا من مدرسة دار الأيتام يعرفون كل شيء. ينقلون الأحذية القماشية السميكة. ويلعبون كرة القدم بمهارة. ومجدون في دروسهم كثيراً. وفوق كل ذلك متضامنون مع بعضهم.

وبسبب خبرتهم. يحملون قطع الخبز من المطعم ويجففونها على المدفأة الموجودة في الممشى ويأكلونها بعد أن تحمرّ مثل الكعك. المدفأة موجودة نقط في الممشى. كنا نتحلق حولها في الأيام الباردة.

في إحدى الليالي كان عندنا مناظرة حضرها طالب كبير من مرحلة الثانوية يسمى «فتاح» (وهو الآن. واحد من رجال الأعمال المشهورين). كان لا يتوقف. يروح ويجيء. يجلس وينهض ويتحرك. ذهبنا إلى الصالون بشوق كبير. بدأ الطالب «وصفي ماهر» بقراءة مقاطع من الأشعار التي كتبها. ثم بدأ التمثيل: مسرحية صغيرة اسمها (الحديقة الخاصة). بدأ اهتمامي بالمسرح اعتباراً من تلك الليلة. أحببتها كثيراً.

قطعة كوميدية رائعة. في اليوم التالي بدأت بكتابة مسرحية صغيرة.

بعد سنوات عرفت أن كاتب هذه المسرحية «الحديقة الخاصة» هو «رشاد نوري». ولاحظت أن هذه المسرحية قد أخذت عن قصة لمارك توين تسمى «جريدة الله».

فتاح الذي كان في الصف الثالث الثانوي آنذاك. هو الآن رئيس

جمعية دار الشفقة. وتعتبر مدرسة دار الشفقة من أكثر المدارس اتساعاً وقوة وعطاء ومستوى في تركيا. وهذا كله بفضل النشاط والخدمات التي قدمها السيد فتاح.

وحيد القادم من دار الأيتام

كل إنسان له أصدقاء طفولة لا يستطيع أن ينساهم. جاء وحيد من دار الأيتام وتسجل في الصف الرابع مثلي. ولكن في شعبة أخرى. صداقتنا لم تكن قوية. ويعتبر وحيد من التلاميذ الرائعين جداً. كل من يراه ويعايشه. يتنبأ له بمستقبل رائع. بالنسبة لي على الأقل. هكذا كنت أراه.

كان أستاذ الجغرافيا عندنا يسمى عثمان نوري. دروسه باردة نستسخفه لا ننتبه جيداً للدرس نشعر بالنعاس، ولهذا السبب. وجد حلاً بعدم مبالاتنا بطريقته الخاصة. ليشدنا إلى الدرس بين وقت وآخر.

وعلمنا: أنه عندما يقول واحد: يجب أن نقف دفعة واحدة في أماكننا.

ـ وعندما يقول اثنان: يجب أن نجلس.

ـ وعندما يقول ثلاثة: يجب أن نلتفت نحو اليسار باتجاه النوافذ المطلة على الحديقة. ـ وعندما يقول أربعة: يجب أن نضحك بصوت قوي «على شكل قهقهات» ويبدأ يشرح الدرس. رويداً. رويداً. يلاحظ أن عيون التلاميذ قد تسمرت في مكان آخر. وخاصة في الدروس التي تلي طعام الغداء. وكان السيد عثمان نوري يقطع جملته من نصفها ويصرخ:

ـ واحد. نقف على أرجلنا دفعة واحدة.

ـ اثنان. نجلس على مقاعدنا ثانية. نعود إلى الدرس بعض الوقت. ويتابع السيد عثمان نوري الجملة التي قطعها.

وعندما يلاحظ أن انتباهنا قد خف. يصرخ.

ـ أربعة. نضحك ونعرف أن هذه الضحكة نتيجة أمر منه. ولكن ضحكاتنا مع بعضنا وتبدأ فيما بعد. ينهدم الصف من شدتها. والمدرسة كلها تسمعها عندما يبدأ السيد عثمان نوري درسه ثانية... لا يعود هناك لا صوت ولا حركة. لا يحق لأي منا الضحك بعد بدئه بالدرس.

وبعض الأحيان يغير من مكان الأرقام. يقول فجأة:

ـ ثلاثة. حيرة. ودهشة ومسرة. ولكن هذه طريقة المعلم. يتابع درسه.

معلمون رائعون علمونا. أعجبتكم طريقته في الدرس أم لم تعجبكم فهذا عائد لكم.

ولكن. يجب أن تقدروا موقفه وطريقة إعطائه.

كان السيد عثمان نوري قد أعطانا وظيفة. وقال إن أفضل وظيفة بين تلاميذ الشعبتين كانت وظيفة وحيد. وقال:

ـ في الدرس المقبل سآتي بوحيد أفندي إلى شعبتكم. وسيقرأ لكم وظيفته بدلاً من الدرس الذي سأعطيه لكم.

جاء وحيد في الدرس التالي. وحيد ذو الرأس الضخم والوجه الرجولي المتجهم. شرح لنا الدرس بجدارة. حقيقة شيء رائع. كنت أحس أن وحيد سيكون رجلاً مهماً في المستقبل. على الأقل بالنسبة لي. كنت معجباً به إلى أبعد الحدود. سمعت بعد تخرجي من دار الشفقة. أن وحيداً بقي مجداً في دروسه ومدرسته. ولكنه أصبح لا يطاق من قبل إدارة المدرسة. لتصرفاته الشاذة. يقال أن مدرساً كان يعطي الوظائف المنزلية بشكل يومي. وإنه لا يقرأ تلك الوظائف التي كان يعطيها. هكذا أحس وحيد. فعمد إلى إهمال وظائفه اليومية. وصار يكتب ما هبّ ودب من الكلام الفارغ. عن المباريات والأفلام.

وأشياء أخرى تافهة مثل الرسائل وما شابه ذلك. ودامت هذه الحال

لفترة طويلة. وما حصل بعد ذلك أن أحس الجميع بعملية الغش التي كان يمارسها أو ربما قالها لأحد زملائه. ووشى به الأخير. وربما قرأ المعلم الوظيفة وضبطه بالجرم المشهود. ولهذا طردوه من دار الشفقة.

أكتب هذا لأوضح شيئاً هاماً. وهو أنهم كانوا يطردون ويبعدون العقول النيرة والذكية. من المدارس ومن العمل. دون أن يرشدهم وينصحوهم أو يسامحوهم وبعملهم هذا كانوا يغربلون الواحد تلو الآخر. ولا يبقى سوى الأغبياء والجبناء والمعقدين وأمثال هؤلاء. يوضعون على رأس كل الأعمال. إنهم يحرقون الجيل باسم التربية والتعليم.

بعد سنوات. سمعت أن وحيداً يعمل في /سوق القمل/. تاجراً يبيع الخرداوات والأشياء القديمة. ذهبت إليه فوجدته يبيع الصحون والساعات القديمة وقطع الحديد. والسلاسل المصدئة وقطع السيارات إلى ما شابه ذلك في دكانه الصغير. كان وحيد. جديّاً. ذا رأس كبير كما كان في صغره. ويرمقني بعيون تعبة يائسة.

هذا ما فعلوه بوحيد. وهذا ما فعلو لفارس. رأيت الكثير من أمثالهم وبهذا أكون قد دافعت عن نفسي. وهذا ما فعلوا معي على الدوام. يضعون أغصان العليق والأشواك في طريق الناشئة. والشباب باسم العلم والتربية.

المرور بين هذه الأشواك صعب جداً. جداً. يجب أن تتغير بعض الأنظمة والقوانين لأسباب مهمة جداً. الرجل الهام بالنسبة لهم. أبناء الكبار. ذوو الرؤوس اللينة المتعفنة. المتقوقعة كالمحارة. لا يفهمون سوى دخلني لا يخرجون سوى أمثال هذه الرؤوس والعقول الضجرانة الأمية. التي لا تعرف شيئاً أبداً. مع العلم إن التقدم إلى الأمام. لا يأتي سوى من المعارضة والتطرف. وممن تضيق بهم حياتهم.

مباراة الحب

لا أدري لماذا. عطّلت من المدرسة لمدة أسبوع أو عشرة أيام.

هنالك منزل إلى الشرق من منزلنا. فيه شاب يتدرب على الملاكمة باستمرار فقد علق كيساً مليئاً بالرمل على شجرة في الحديقة. ويظل يضربه دون توقف. كنت أراقبه من بعيد.

في أحد الأيام الباردة من تلك العطلة. صعدت إلى تلك التلة. فرأت بين الأشجار. مجموعة كبيرة من الشباب. كانوا يعلمون «شيرزاد» رياضة الملاكمة. بينهم ذاك الشاب الذي يتدرب على الملاكمة. كان «شيرزاد» يلبس في يديه قفازي ملاكمة.

كنت أراقبهم من بعيد. فلمحني شيرزاد ونحن نتحادث كما في السابق. علاقتي به محدودة جداً وإن التقينا في مكان ما. نتجاهل بعضنا. وبتظاهر كل منا بأنه لم ير الآخر. وكان الكبار يعلمونه:

ـ هذه الضربة عمودية. وهذه كروشة. الكروشة اليمينية هكذا. تجمع نفسك. هكذا.

التفت شيرزاد نحوي وقال فجأة: تعالى. لنلعب ملاكمة.

كان شيرزاد يتحداني. وهذا التحدي يخفى خلفه إحساساً باطنياً.

قلت: لا أعرف.

قال الكبار: تعال. تعال. هو الآخر لا يعرف إنه يتعلم.

نوايا شيرزاد واضحة. انه يريد قتلي شر قتلة. إذ لم أذهب ـ عيب ومعناه. إنني أخافه وأخشاه. كما يعني الهروب والخوف. وهذا بحد ذاته أسوأ من أكل قتلة بشرف. اقتربت منهم. دفعونا إلى الوسط.

شيرزاد أكبر مني سناً. وقامته أطول وبدأ ينهال على وجهي بتلك الكفوف الضخمة. بضربة واحدة منه. تتطاير الشرر من عيني. لا أبكي. ولكن الدموع تنزل بشكل أسوأ واكثر من البكاء.

كان الشباب يشجعون شيرزاد: الآن. أنزل كروشة يسارية. هاه. تمام. عمودية. عمودية.

أحسست بغضب شديد. ولكن ما الفائدة؟.

قال شيرزاد: هذا الكلام غير معقول. فالولد لا يلبس القفازات.

خلعوا القفاز الأيسر من يد شيرزاد وألبسوني إياه. يعني أنهم يطبقون العدالة والمساواة. وهنا حدث الأسوأ بالنسبة لي. دون هذا الكف. كنت أنال من وجهه بين الحين والآخر. الضرب باليد اليسرى وخاصة بهذا القفاز صعب جداً. آه لو أستطيع ضربه على أنفه ولو مرة واحدة قامته طويلة. أقفز مثل الديك. ولكن عبثاً لا أستطيع أن أناله بضربة واحدة.

على كل الأحوال أنزلت لكمتين قويتين إحداها على وجهه والأخرى على بطنه. فرقونا مباشرة. وصراحة. بعد أن أخذت نصيبي من الضرب والقتل على أكمل وجه. وسبب هذه المباراة لا يعرفها إلا أنا وشيرزاد. خلعوا الكف من يدي. مشيت نحو الأشجار الكثيفة. فرأيت فتاة ممشوقة القد. ناعمة. تعيش في المنزل الذي كان يتدرب فيه الشاب على الملاكمة. نعم فتاة نحيفة تعجز عن تخمين عمرها.

تقول في الثامنة عشرة أو الثامنة والعشرين. وكذلك تعطيها الثامنة والثلاثين. ربما هي أخته أو إحدى قريباته. امرأة من أربع عشرة سنة.

وعند ذهابي إلى كلية الفنون الجميلة إذ كنت طالباً في قسم التزيينات الشرقية. رأيت تلك الفتاة النحيفة هناك. كانت كما هي. لا يستطيع أحد أن يقدر عمرها. وبدت كأنها كبرت عاماً واحداً. التاسعة عشرة أو التاسعة والثلاثين.

قاسي

ما تعلمته من العم غالب. ساعدني كثيراً في دار الشفقة.

كان السيد رفقي والسيد والي. يحبونني كثيراً. لأنني كنت مجتهداً

في مادة النحو والصرف. ونظراً لأنني أعرف العربية بعض الشيء. كنت أجيد العثمانية ولهذا كنت اعرف مواقع الكلمات والجمل ومصادرها العثمانية اكثر من بقية زملائي في الصف. مثلاً:

ـ عندما كانوا يسألونني: ألا يجب عليك أن تذهب.

كنت أقول بسهولة: صيغة المصدر هي الذهاب: هو مفرد. المتكلم. استفهامي الشكل.

إذا مرت كلمة «متكرر» في الدرس. كنت اعرف معناها. بعد إعادتها إلى «متفعل».

زملائي كانوا يحتارون لمعرفتي الواسعة هذه. في إحدى المرات تجمعوا حولي بعد خروجنا من درس السيد رفقي. وقال أحدهم لا أتذكر اسمه الآن.

ـ من أين لك بهذه المعلومات؟. ومتى تعملتها. لم ندرسها في الصف الثالث .

رفعت رأسي عالياً. وبدأت أتباهى بنفسي وبمعرفتي. أعرض عليهم معارفي. سألني ذلك الزميل:

ـ شو عمرك ولا.

ـ إحدى عشرة.

ـ غير صحيح.

ـ والله إحدى عشرة سنة.

(أنت قاس) ـ ملامحك قاسية لا توحي بأن عمرك فقط هكذا.

هذه الكلمة صارت لقبي في دار الشفقة كلمة «Kart ـ القاسي» بعد ذلك بدأ زملائي ينادونني بـ «الكارت» ونسوا اسمي ورقمي.

«كارت» لتحت. كارت لفوق. كنت أشعر بغضب شديد منهم. عندما عرفوا أنني أحس بالإزعاج. بدأوا يسخرون مني على اكمل وجه.

- كاررت. كارررت.

لم أستطع أن أبين لهم عمري. وحقيقة أنا في الحادية عشر وأقل بل عشر سنوات وستة شهور. ولكن عبثاً. حتى لو استطعت التفسير والتوضيح. ما كانوا يفهمون مني. ولا يريدون ذلك. لو سخروا من أشياء موجودة فيّ فعلاً لما أحسست بالإزعاج مثلاً لو قالوا: قزم. قصير. ولكن كلمة كارت كانت تزعجني حتى من الأعماق.

كنت أعرف أنهم سيزدادون سخرية وسيتضاعف انزعاجي منهم.

ولكن ما باليد حيلة . كانوا يعرفون تأملي من وجهي.

الأطفال في تلك السن يكونون ظالمين كثيراً. لا يعرفون قيمة للتقدير والاعتبار. لأنهم كانوا على أبواب مرحلة المراهقة. ونتيجة للخبرات المتتابعة التي سيأخذونها في حياتهم سيكبرون. ويتصورون الحياة وفق خبراتهم.

لم يكن لديّ سوى معين واحد. هو الله. عندما كنت آوي إلى فراشي كنت أتوسل إليه وأترحّمه يا ربي. لا تدع زملائي يسخرون مني وينعتونني بتلك الكلمة. كلمة «الكارت» أو القاسي. ثم أقرأ هو الله أحد. حتى أغفو.

إذا أراد الله شيئاً. يفعله كما يريد. وإذا أراد أن يغلق في وجوههم باب السخرية. ولا يترك لهم مجالاً ويبدو أن الله كان يريد منهم أن يسخروا مني ويقولون. كاررت. كارررت.

رأيت تلاميذ كثيرين - في الصفوف الأخرى. أودى بهم الهزء والسخرية. إلى الجنون. وتم نقلهم إلى «العصفورية» نعم كثيرون. بعضهم تحولوا إلى أغبياء وبعضهم إلى ضعفاء والبعض إلى مجانين. كي أتخلص من مزحهم وسخريتهم. أبقى جامداً في الصف. حتى المعلومات التي اعرفها. أمتنع عن قولها. أستر نفسي. خلف هذا وذاك. ولكن عبثاً.

لم تكن هذه طريقة مثلى للتخلص مما أنا فيه.

بعد أن فكرت ملياً. توصلت إلى نتيجة. مفادها أن سخرية زملائي مني أفادتني كثيراً. وخاصة في كتاباتي الساخرة. بنعم يجب أن أقولها علناً. فظلمهم دفعني لإيجاد طرق ومواقف دفاعية بحتة. حتى أحمي نفسي منهم ومن مزاحهم. فهمت أن الدفاع لا يجدي نفعاً. وتذكرت أن الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع. قبل أن أحس بالملل. يجب أن يضجروا مني. إذا كنت لا تريد أن يسخر منك أحد. فاسخر أنت منه ومن الآخرين قبل أن يقوموا بذلك. أنا من كنت أعطي ألقاباً لزملائي في المرحلة الإعدادية والثانوية.

هناك طريقة أخرى للدفاع: يجب على الإنسان أن يسخر من نفسه. دون أن يفسح للآخرين مجالاً ليسخروا منه. انظروا إلى الكتاب الساخرين. كلهم سخروا من أنفسهم دون استثناء. ولهذا وضعت لنفسي لقباً في المرحلة الإعدادية.

الأخ أنور

من المقرر أن تقام مباراة بكرة القدم بين فريق دار الشفقة. ونادي استانبول للرياضة وكان العام الدراسي قد قارب على الانتهاء.

المباراة أوشكت أن تبدأ. الفريقان في الساحة. رئيسا الفريقين يتبادلان الأعلام. والمشاهدون ينتظرون على أحرٍّ من الجمر انطلاق صفارة الحكم. عيناي تراقبان الأخ أنور على الدوام. فهو سريع الحركة ينقل الكرة بمهارة فائقة، يراوغ بها يميناً وشمالاً، وكأنه على وشك أن يسجِّل هدفاً في مرمى الفريق الآخر. رأيت الأخ أنور مرة في ميناء «هيبلي آدا» شاب وسيم. طويل القامة، فأعجبت به إلى أبعد الحدود.

المدرسة كلها ستسافر إلى «بيكوز» بالسفينة مع فريقها لإجراء مباراة بكرة القدم. تناولنا طعام الغداء المكون من البرغل المطبوخ بلحم

الخروف. المباراة قوية. صرخت عشت ولك أخي أنور، إنه يناور ويناور.

مرة أخرى ذهبنا إلى مكان ما. ربما إلى «جير جير» كانت هناك صخرة عمودية. عالية نوعاً ما.

سألني أحد الأولاد: هل تستطيع تسلق هذه الصخرة حتى رأسها؟.

- بالتأكيد أصعد.

صرخ الأولاد الآخرون: لا تستطيع.

- أصعد.

بدأت بتسلق تلك الصخرة العمودية القاسية. صعدت ثلاثة أرباعها، حتى وصلت إلى نقطة بدأت الصخرة عندها تتفتت إلى قطع صغيرة، وتسقط على الأرض. كنت أحسب إن ارتفاع النقطة التي وصلتها تعادل ارتفاع مئذنتين وأكثر. لو تسنى لي أن أمد يدي مرتين أو ثلاث، لوصلت إلى القمة. وتخلصت من الخطر الذي أنا فيه، لولا تساقط فتات الصخور الصغيرة بحجم حبات الجوز والفستق لمجرد أن أضع يدي فوقها. وكذلك بدأت الصخور تتفتت تحت قدمي نظرت إلى الأسفل.

كان بعيداً مثل بئر عميق جداً. الأولاد يتراءون لي كحبات الخرز الصغيرة. فانتابني خوف شديد لصقت تماماً في المكان الذي أنا فيه، مثل الحرباء، لو تحركت قليلاً لتكسرت الصخور تحت قدمي. وهويت إلى الأرض محطماً.

كنت أقف دون حراك، وقلبي يدق بقوة، ماذا سيحصل؟. ماذا سأفعل؟. لا أستطيع شيئاً، حتى أنني فقدت القدرة على التفكير. سمعت صوتاً من الأعلى: توقف لا تتحرك أبداً. إياك أن تتحرك.

لا أستطيع أن أرفع رأسي وأنظر إلى الأعلى.

إذن كنت في موقف حرج وخطر جداً. كما أن الحيرة والاضطراب

قد أصابت زملائي في الأسفل، لولا أن أخي أنور قد جاء ليخلصني مما أنا فيه.

كان الأخ أنور ينزل إليّ من قمة الصخرة، وكانت الصخور الصغيرة تتساقط على رأسي من مكان قدميه. ومن طرف آخر يناديني: لا تخف. إياك أن تتحرك. وصل إليّ وحملني، ووضعني برفق على قمة الصخرة.

مرت سنوات، وصورة الأخ أنور لا تفارق مخيلتي، ذلك الشاب الوسيم، القوي اللائق بدنياً وروحياً.

في عام (١٩٥٨) كنت أكتب الطرائف «النكت» في جريدة «يني غارثة» ـ الجريدة الجديدة. الورق مفقود في ذلك الوقت بشكل مخيف. سوق سوداء بكل معنى الكلمة. بعض الناس يربحون الملايين، جراء الاحتكار. معمل الورق الكائن في مدينة «إزميت» لا ينتج الكميات اللازمة لسد حاجة الأسواق المحلية.

ذات يوم قرأت إعلاناً في مجلة «دوست» عن معمل الورق في «إزميت» وكان عبارة عن دعاية لعموم الأوراق التي ينتجها المعمل آنذاك، بدءاً من ورق التواليت، إلى مختلف أنواع الورق. لقد كان هذا الإعلان احتقاراً للبشر وهزءاً وتلاعباً بأحاسيسهم.

الورق مفقود في السوق والسوق السوداء تتلاعب بمقدرات الجميع، والمعمل ينشر إعلاناً في إحدى المجلات. إنه الكفر بعينه.

هذا الموضوع تناولته في إحدى الفقرات التي كتبتها في «الجريدة الجديدة» قلت فيها: شيء جميل أن ينشر المعمل إعلاناً لإنتاجه، ولكن إذا كان هذا الورق غير متوفر في الأسواق. فما معنى إعطاء هذا الإعلان للمجلة، باعتقادي أن هذه العملية ليست سوى مسخرة أو نوعاً من الضحك على عقول الناس.

كانت مجلة «دوست» بحاجة ماسة إلى مساعدات مادية ومعنوية،

وكان يصدرها أحد الأصدقاء واسمه «سليم شنغيل» ولكن المساعدة يجب أن تكون بشكل آخر، غير هذه الطريقة.

بعد فترة فهمت أنني كتبت اسم المجلة خطأ. إياكم أن تفكروا إن الإعلان قد أعطي لمجلة «دوست»، ولكنه أعطي لمجلة «الحكايات المختارة» التي كان يصدرها «سليم شنغيل» أيضاً. وهاآنذا أعرض لكم الفقرة التي نشرتها في «الجريدة الجديدة» في (٢٦) تموز عام (١٩٥٧).

إعلان معمل الورق

يشعر الإنسان بالخوف عندما يرى مبالغ طائلة تقدر بعشرات الآلاف من الليرات تنفق من أجل بيع بضاعة بعشرة قروش، وكيف لا ينتابه الخوف؟. فالإنسان يصبح في حيرة من أمره عندما يرى أن جسده الناعم يتحمل مثل هذه الخوازيق. فهل نشتري بضاعة أم دعاية؟.

لو كانت المبالغ التي ينفقها البائع لأجل الدعاية من ماله الخاص، لما فعل ذلك، لأن كل ما يصرفه هو كان من مال الآخرين.

عندما ذكرت لأحدهم أن البضاعة التي يعلنون عنها، دون المستوى الذي يعلنون عنه، قال لي:

- إلى أين تنظر أنت. هذه دعاية، عندما يحضر أب ابنته ليريها لخطابها يقول لهم: ابنتي رائعة، تعرف كل شيء، في كل إصبع من أصابعها مهارة، ست بيت، تجيد شغل السنارة والخياطة، والحياكة. و. والنفش .و. ويظل يمدحها طوال الوقت. وبعد أن يبيعها لا يعترف عليها كائنة ما كانت.

في الدعاية لا يعلنون عن الحقيقة، الدعاية تشبه إلى حد ما، الخطابات التي تلقى في المهرجانات الحزبية. الكلام الذي يقولونه في بدايتها، لا ينطبق على ما تنتهي إليه، ويجب أن تقول هذه دعاية وتمضي في حال سبيلك.

اشكر ربك. إننا لا نستعمل النساء العاريات في الدعاية من أجل الديمقراطية، وإلا لكانت الأحزاب قد جانب الشوارع ولوحات العاريات مرفوعة في طليعتها وكتبوا في أسفل إحدى اللوحات هذه الكلمات:

لماذا يلمع وجه هذه الحسناء. ولماذا هو ناعم على الدوام؟. لأنها أعطت صوتها لحزبنا. أيها المواطنون. إذا كنتم تريدون أن تظل وجوهكم ناعمة على الدوام. انتخبوا حزبنا. الإعلان الذي ظهر في إحدى المجلات الفنية عن معمل الورق. جعلني أفكر بهذه الطريقة.

ما نعرفه أن الإعلان ينشر من أجل بضاعة، طرحت في الأسواق. ومعمل الورق هذا، لماذا ينشر إعلانه يا ترى؟. هل يملك في مستودعاته الكثير من الورق؟. وإذا كان ذلك صحيحاً فلماذا يئن الشعب من قلة الورق متوسلاً إلى الله. الله. الله. ولماذا يرتفع صوت الباب العالي وهو صاعد إلى العرش ويصرخ، الورق، الورق؟. من أين جاءت هذه الدعاية؟. ولماذا؟. لا يظن الإنسان أن هذه الدعاية لم تعطِ سوى لتفجير الأصدقاء والأعداء دفعة واحدة. إذا كان معمل الورق مصراً على نشر الإعلان من أجل بضاعته، في الوقت الذي لا يكفي فيه الورق المنتج حاجة للسوق، كان من الواجب على الأقل أن ينشروا صورة لفتاة عارية في معرض دعايتهم، وليكتبوا تحت صرتها هذه الدعاية، كما يفعل الشيوخ عندما يكتبون للنساء تحت صدرهن.

استخدمت هذه الحسناء أسفل صرتها عندما لم تجد ورقة كي تقدم معروضاً لإحدى الجهات. هذا الكلام أحدث إرباكاً للمدعو خليل لطفي، فقال لي: ولك آمان شو كاتب هيك؟. والله يقطعون عنا ورق الجريدة. اكتب فقرة أخرى تحسن من وجهة نظرك.

قلت: ما بكتب.

قال: اكتب.

وتلبية لطلبه ونزولاً عند إصراره، كتبت ما يلي: يقولون إن فلاناً يغضب من كتابتي، وإنه سيقطع الورق عن الجريدة، والمسؤولية مسؤوليتي، وليست مسؤولية الجريدة. عندما قرأها السيد خليل لطفي قبل نشرها قال:

ـ ولك آمان، هذه أسوأ من الأولى، لا تكتب شيئاً، رجعت عن قراري. وتبيّن أخيراً أن مدير معمل الورق في «إزميت» هو أخ لأنور، وكنت أجهل حقيقته. عندما عرفت ذلك، حزنت جداً لتلك المقالة التي كتبتها.

في عام (١٩٥٩) طلبت ورقاً من السيد «صامت آغا أوغلو» الذي كان وزيراً آنذاك. لإصدار كتبي فوافق على إعطائي ثمانية أطنان، وكانت موافقة السيد الوزير لفتة كريمة وعملاً جيداً. وعندما ذهبت إلى معمل الورق في إزميت لاستلام الكمية، قلت في نفسي لأرى الأخ أنور أيضاً وأسلم عليه، وحقيقة كنت قد نسيت المقالة التي كتبتها في الجريدة الجديدة منذ وقت طويل.

كان «أنور آتافرات» في نظري وحتى الآن، أو في مخيلتي ذلك الشاب الوسيم القوي، الذي لا يهاب شيئاً، والذي أنقذني من السقوط عن الصخرة، وكان يحملني بين يديه ويرميني في الهواء، هو هو نفسه. هكذا كنت أتخيله قبل أن أدخل إلى مكتبه.

كنت أقول في نفسي: بدي أدخل هلأ لعندو أعرفه على نفسي. هل سيتذكرني يا ترى؟. أقول له: ألا تتذكر اليوم الذي خلصتني فيه من بلاء تلك الصخرة العمودية يا أخي أنور؟. وأقول: يا لتلك الأيام الجميلة؟. وأقول له: كم كنت لائقاً بدنياً وقوياً وأقول له: ثم سمعنا إنك ذهبت إلى ألمانيا وصرت مهندساً. ربما ستذكرني من يدري؟. وأقول له: لم أعد أصغر طفل في المدرسة، أنا كبرت صرت «عزيز نسين». غيرت اسمي أيضاً.

ـ بدي شوف أنور «آتافرات».
ـ من أنت؟.
أعطيته بطاقتي، دخلت، فأعطوها لرجل ثانٍ، والثاني أعطاها للثالث وهكذا. من هذا إلى ذاك.
دخلت زارعاً أحلى ابتسامة على ثغري. سأبدأ الحديث. الأخ أنور.
الله. الله. هذا هو أنور أمامي. وقد أسند رسغيه على مكتبه. جمدت الكلمات في فمي، احترت ماذا سأقول.
عندها فقط تذكرت مقالتي في الجريدة الجديد. لذلك كان أنور آتافرات، بهذه الصرامة والجدية. أثناءها كان الناس يتوافدون إلى مكتبه ليطلبوا منه ورقاً. ربما ظن أنني أنا الآخر جئت متوسلاً من أجل الورق.
كنت على بعد ثلاث أو أربع خطوات من مكتبه.
ـ ماذا تريد؟.
قلت: لا أريد شيئاً.
أحسست بندم شديد. وبألف ندم، لدخولي إلى مكتبه، ولكن من غير الممكن أن أعود فوراً. ظننتني على الأغلب جئت إليك لأطلب منك ورقاً؟.
قال: نعم.
ـ أنا أعرفك من دار الشفقة ولهذا.
ـ لم أعلم أنَّ مقابلتك صعبة إلى هذا الحد.
ـ كنت تلعب الكرة آنذاك.
ضحك ببرود، وتمتم بكلمات لا معنى لها. كنت أقول في نفسي: ولك شو بدك من أخ أنور وغيرو. نظرت إلى رأسه، وإذ به أصلع من الخلف.
ـ يومها كنت قوياً وشعرك جميل جداً.

- إيه. طبعاً ختيرنا.

- هذا كل شيء. جئت لأراك فقط، إلى اللقاء، يعني لم أحضر إليك من أجل الورق. يعني. إلى اللقاء. وخرجت من مكتبه، من ذاك الجو الخانق، ومن اللقاء الذي تمنيت كثيراً أن لايحدث وكلما تذكرت ذلك الموقف أحسبني سأختنق.

حليب الحمار

انتقلت إلى الصف الخامس، وتعطلت المدارس.

لكن أمي بدأت تبتعد عني رويداً رويداً. تدفعني عنها، لا تحضنني ولا تجبني، ولا تقبلني كما كانت تفعل في الماضي. أعرف سبب ابتعادها ومع هذا فالأمر لا يخصني، فأنا أحيا طفولة أنانية صرفة. الشهور التي قضيتها في مدرسة داخلية. وضعت بيني وبينها حاجزاً، كانت كلمة الموت تتردد هنا وهناك في أرجاء بيتنا. لم أفكر أبداً في حقيقة هذه الكلمة.

كان اللون الوردي لوجنة أمي يتحول إلى أصفر مع مرور كل يوم وساعة وخداها يضمران، ومع هذا وضعها لا يحزنني، ربما لأنني وعيتها مريضة على الدوام، وإن هذا الشعف ليس إلا شيئاً طبيعياً بالنسبة لي ولها.

استنفذت كل الأدوية التي وصفت لها، ذهبت إلى أطباء كثيرين، دخلت كل المشافي المعروفة آنذاك في استانبول، ومع هذا صحتها لم تتحسن.

ذكروا لنا أسماء أدوية كثيرة، وغريبة، قال شو: يقدمون للمريض لحم الكلب دون أن يعرف أنه لحم كلب، وبعد أن يأكل يجب أن يقال له بأن اللحم الذي تناوله هو لحم كلب ليس إلا. وإذا ما أحس المريض باشمئزاز والغثيان، وتقيأ كل ما أكله، يخرج المرض منه كلياً. ويتعافى وتتحسن صحته.

ويقولون أيضاً يجب إطعام المريض لحم القنفذ.

كانت أمي تقول: إياكم وأن تقدموا لي لحم الكلب والقنفذ دون إعلامي.

وقالوا أيضاً: يجب أن نقدم للمريض حليب الحمار، تصور أن هذا الكلام يقوله الأشخاص العاقلون. الجزيرة ملأى بالحمير، يجب أن يقدم حليب الحمير طازجاً. بعد حلبه مباشرة، وبالفعل كان هناك مسلولون يشربون حليب الحمير بانتظام. لا أتذكر إن كانت قد شربت منه أم لا. ولكن أذكر أنها كانت تشرب الحليب الممزوج بالبيضة النيئة صباح كل يوم. كان والدي يتوسل إليها، يرجوها كي تشرب الحليب مع البيض، فتجيبه: لا أستطيع بلعها. فشهية أمي بلغت درجة الصفر. لاتأكل ولا تشرب. وفي كل مرة يطلب منها أبي ذلك تقول: لا أستطيع. اللقمات تكبر في بلعومي. كنت أحتار في أمرها. كيف لا يأكل الإنسان هذه الأطعمة الدسمة المقدمة له.

لقد تحوّل والدي إلى أطيب وأفضل زوج في العالم: صار لها زوجاً وأخاً وصديقاً. وكل شيء. كان يقرأ القرآن حتى ساعات متأخرة من الليل من أجل صحة أمي. ويدعو من أجلها.

كانت البيضة الطازجة في تلك الأيام من أغلى المواد الدسمة اليومية، وكان عليها أن تشرب كل يوم ما طاب لها من البيض الطازج، ومن أجل ذلك عملنا على تربية الدجاج، وصار عندنا منها مجموعة كبيرة. كنا نبيع البيض الطازج، ونحصل على بعض المال.

اشترى أبي بعض الدجاجات الأصيلة، ووضعنا تحت «القرقة» الأصيلة بيضاً أتينا به من مدينة «دنيزلي». صار عندنا منها أعداد كثيرة. كانت الديكة الأصيلة التي نقفت من تلك البيوض، تصيح صيحات طويلة.

كان أحد الديكة يصيح بشكل متواصل حتى يقع على الأرض،

بسبب انقطاع نفسه. صياح ذلك الديك، كان غريباً حقاً. لقد حيّرنا صياحه الطويل هذا. (هذا الديك القادم من دنيزلي فنان حقاً).

إحدى الدجاجات تبيض بيضة بحجم بيضتين عاديتين. هذه البيضة الكبيرة، تشربها أمي عند الصباح. عندما نكسرها يخرج منها صفاران. في إحدى المرات وضعنا تحت إحدى «الدجاجات» بيضة كبيرة، ولَهْوُ الطفولة يتجلى عند خروج الصيصان من البيوض. كانت الصيصان تنقف قشر البيضة من الداخل، وإن عجزت تسرع الدجاجة الأم إلى كسرها بلطف بمنقارها. خروج الصيصان من البيضة منظر جميل ورائع (لا أزال حتى الآن أشعر بالدهشة والغرابة من تلك العملية).

خرج من تلك البيضة الكبيرة نقفان توأمان ولكنهما ملتحمان من الخلف. كبرا، ولكنهما تعذبا كثيراً، لأن كلاً منهما كان يمشي عكس اتجاه الآخر. كان والدي يحزن كثيراً من أجل هذين التوأمين. عاشا شهراً واحداً. في أحد الأيام لم يخرجا من القن، لقد ماتا. حياتهما كانت بالنسبة لنا عذاباً وموتهما حداداً.

الأم التي لا تغني

مع ذبول أمي يوماً بعد يوم، غابت أغانيها واختفت.

في الماضي. كانت تغني بصوتها الجميل. كل أغانيها حول المرض والوحدة وفقد الأم والحسرة والاشتياق.

الآن أتذكر بيوتنا في قاسم باشا، وجرّاح باشا والسليمانية، عندما يأتي المساء تسمع نعيب الغربان بأسراب كثيرة، تطير في الجو، تدور وتلف وتطير مطلقة نعيباً جماعياً يصم الآذان، عندما أنظر من النافذة أرى عبر ضباب وأدخنة المدينة، وميضاً مسائياً أحمر، الخيالات والظلال تستحيل سواداً داخل الغرفة. وتذوب خطوط الأشياء في كل مكان، والوجوه تضيع قسماتها وأبواب الغرف الخارجية تصبح أكثر سمرة.

يجب أن نشعل مصباح الكاز، ولكن نتأخر قليلاً، كي لا تستهلك مزيداً من الوقود، لن نشعله حتى قدوم أبي. وعندما تذوب كل الخيالات في العتمة، تبدأ ساعة الاستماع إلى أمي وانتظار أبي. أجلس فوق المصطبة أمام النافذة، بعد أن أقترب منها كقطة تريد تمسيدة على ظهرها، أضع رأسي فوق ركبتها. إحدى يديها تمسح شعر رأسي وأصابعها تتجول في ساحات وجهي، أغنياتها تكبر في أعماقي.

بالله عليك يا أمي لا ترميني خلف الجبال
لا يشفق عليّ أحد. ليشفقوا على علتي
أملك ثلاث باقات من الورد. في بساتين تجوالي
أيها الإنسان الذي لا يخاف الله. الموت ينتظرك وينتظرني
نعم هناك موت ينتظرني، وظلمة ستلفني وأنا في مقتبل العمر
لا ترميني يا أمي خلف الجبال

عندما تغني هذه الأغنية، ربما تتذكر نفسها وهي في السادسة من عمرها عندما انتزعوها من حضن أمها، وأرسلوها إلى المدينة، وباعوها، ثم تبدأ بأغنية أخرى:

إذا سألتني أين أمك. لا أم لي.
إذا سألتني عن الأب. لا أب لي.
وقعت فريسة المرض في زوايا الغربة
ليس لي من يعطيني حتى جرعة ماء.
بالله عليك أيها الطبيب. يا روحي أيها الطبيب
أعطني دواء ناجعاً لمرضي أو علتي
لأنني واقعة بين مخالب علة لا خلاص منها
يا سيدي الطبيب. أعطني دواءً لعلّتي

عندما تغني أمي هذه الأغنية، أبكي سراً. دون أن أشعرها ببكائي.

أبكي في أعماقي وبحزن شديد. كانت العتمة المسائية الناعمة تفيدني في إخفاء أحاسيسي.

الأغنيات التي كانت ترددها أمي في الأمسيات العذبة وهي تنتظر أبي، بدت لي وكأنها تتحدث عن نفسها.

مندیلي أخضر

فقدت زوجي

خذ هذا المنديل. اتركه معك

حتى تمسح به دموع عينيك

آمان يا دكتور. يا روحي يا دكتور

أعطني دواء لعلتي

وقعت فريسة علة خطيرة

يا سيدي الدكتور. جد لي حلاً

عندما يسيطر عليّ اليأس ويعتصر الألم نفسي، وتشعر أنني أبكي سراً جراء أغنياتها الحزينة، كانت تتحول إلى أغنية مرحة لذيذة:

هل تأثرت مني يا وردتي

فلم تنظر إلى جهتي

إذا كنت حزيناً لنزرع السلام بيننا

ونشتم بعضنا كالطيور الجميلة

أنا سمراء. أنا جميلة. آه يا قطعة الفاكهة

آمان يا الله. إنني أتألم

تغني. وتفتح يديها الاثنتين نحوي. عندما أبدأ مسح دموعي، فتقول بيتها الأخير ومن عندها ساخرة. مازحة:

آمان يا الله إنني أحترق

روح من هون إنني أتسلى

كانت أمي تشعل المصباح قبل مجيء أبي بفترة قصيرة. تشعله، ولكن تنزل الفتيل حتى النهاية، كي لا تصرف المزيد من الكاز، وتحت هذا الشعاع الأصفر الخافت، كنت أراقب البقع والخطوط والأماكن الخربة من بطانة جدران الغرفة. أجلس على الأرض وأراقب بتمعن تلك البقع على الجدران، والخطوط المتعرجة، والخيالات المسقطة والخطوط والطين، عندما تأخذ أحجاماً وأشكالاً غريبة مع ذبذبة شعاع المصباح الأصفر، الضعيف. هذا رجل يمتطي حصاناً. كلما أطلت النظر أكثر. ينقلب الحصان، ويتحول إلى جمل، ويذوب راكبه ويتحول إلى امرأة عجوز شمطاء.

المرأة تسبح في خزان، عارية تذوب وترحل، غرفة ذات مدخنة بين الأشجار، دخانها يتلاشى بعيداً.

كنت أحب تلك الأمسيات وتلك الساعات التي كانت الخيالات فيها تأخذ أشكالاً قبيحة، تتجدد فيها الحياة، وأهم ما كان يعجبني وأتمنى مشاهدته والنظر إليه، هو الغيوم. كنت أرى فيها الخيالات نفسها والأشكال التي أراها على جدران غرفتنا، السحب تسير، تتحرك، تأخذ أشكالاً مختلفة في حلها وترحالها. العساكر والفرسان، المحاربون المنهزمون. وفجأة تتحول كل هذه الرسوم والأشكال إلى رجل ذي لحية، يتحول هو أيضاً بدوره إلى قطة مذعورة.

سعال يسمع من الزقاق، أمي تعرف مجيء أبي من خلال سعاله وخطواته. وأول ما تقوم به رفع فتيل المصباح، نسمع طرقات الباب.

تسرع ضاحكة مستبشرة، تستقبله، كما ودعته في الصباح ضاحكة.

لم أرها مرة واحدة تستقبل أبي أو تودعه بوجه عابس، لم تكن تفعل هذا على أنه واجب أو وظيفة ملقاة على عاتقها، كانت تضحك من عمق أعماقها، دون مصلحة أو مراءاة، الابتسامة الناعمة المرتسمة في

عيني أمي، تُغني وتذيب حتى غضب /سيوز/ الذي يقدح النار والشرر من أطرافه. كانت أمي امرأة توحي بالراحة والأمان والاطمئنان.

بعد انتقالنا إلى جزيرة /هيبلي آدا/ كان المرض قد اشتد عليها، وضاعت الابتسامات المزروعة في عيونها كما في الماضي، ولم تعد تغني وآخر مرة استمعت فيها إلى غنائها، عندما كانت ترسلني إلى مدرسة دار الشفقة، عندما كانت تلبسني ثيابي وتودعني، بعدها لم أسمع غناءها أبداً، لأن أغنياتها سكتت.

شعراء كثيرون يذكرون أولادهم في أشعارهم. بعضهم يذكر إطار ابنه والبعض الآخر يذكرون الكرات. لم أملك مثل تلك الأشياء والدمى حتى أشتاق إليها وأتذكرها. لا أتمنى أن أعيش طفولتي ثانية، ولكن إذا طُلب مني الاختيار، فهنالك ثلاثة أشياء أشتاق إليها، وأعود لأحياها مجدداً: البقع والخطوط المتلاعبة على الجدران عبر شعاع مصباح الكاز الضعيف، والتي تأخذ أشكالاً وأحجاماً مختلفة، وحركة الغيوم وتحولها من شكل إلى آخر بعيون طفل يصورها كما يريد، وأغاني أمي.

أين تلك الجدران التي تساقط عنها الطين، تحولت إلى لوحات رائعة؟.

أين تلك الغيوم التي تتحول من شكل إلى آخر. بإرادتي؟. وأين أغاني أمي؟. كل إنسان هو طفل في مرحلة من مراحل عمره. أقول بين وقت وآخر: أعطوني سحبي، دميتي، لعبتي، عالمي. أعطوني أناشيد أمي؟. أقول ذلك وأصرخ. ثم أضحك بيني وبين نفسي. أليس مضحكاً أن يصرخ رجل في الخمسين من عمره. أعطوني دميتي. لعبتي. ولكن مهما حاولنا إخفاء ما في داخلنا، سنظل أطفالاً، وفي كل مرحلة من عمرنا. بعضنا طفل في الخمسين، وبعضنا طفل في السبعين، والجميل أنه بقي في أعماقنا بعض من الطفولة، وإلا أصبحنا لا نُطاق أبداً.

الأعوام (١٩٢٥) - (١٩٢٦) - (١٩٢٧) هي مرحلة التغيير والتحول لدى المجتمع التركي. خلال هذه السنوات تحطمت النظم القديمة، دون أن توضع قوانين جديدة لهذا المجتمع، لم تتركز. أرجل المجتمع، لم تستطع الثبات على الأرض فهي لا تصل إليها، إنها مبتورة. مجتمع يبحث عن مكان يضع فيه قدمه. ولكنه لا يجد إلا الأرض الرخوة، والصخور الذائبة، هذا التوزع والانتشار ظهر أكثر ما ظهر في العائلة. الروابط العائلية تفككت، وخاصة في الطبقات العالية، النساء، طبعاً نساء الطبقة العالية، كنّ ترين أنفسهن مساويات للرجال، والحقيقة لم تكنّ تعرفن ماهية المساواة ولا شروطها، ولكن قيل لهنّ هكذا. وهن يحسبن أنفسهنّ مساويات للرجل.

هؤلاء الرجعيون، المتعصبون، المتطرفون، سموهم ما شئتم. كانوا يرددون الأخلاق أفلتت من أيدينا. ما قالوها عبثاً، الحق معهم وكل الحق فيما كانوا يقولون. كلمة نحن غربيون. أوروبيون. تقال هنا وهناك وفي كل مكان. موقف «تراجيدي. كوميدي» لا نملك ولو رواية واحدة تصف لنا تلك الحقبة.

إذا قلنا عن تلك الأيام إنها عصر شارلستون نكون قد أصبنا. كان شارلستون قد جال استابنول من أولها حتى آخرها، كان لحن أو أغنية شارلستون ترتفع داخل كل بيت.

أن نكون أوروبيين معناه أننا صرنا من أهل شارلستون والتي لم تكن تشبه هجمات «التويست» الحالية. إنه شيء مخيف، مخيف حقاً. بنطال الـ «شارلستون» يكون ذا أرجل واسعة جداً. ويقال عنه شارلستون الساق. عندما ترقص يجب أن يتحرك البنطال الواسع على شكل تموجات قماشية فوق السيقان. وزي «مون شير» القصير، الضيق، الذي

كان سائداً قبل الجمهورية، تحول وتوسع حتى أصبح بحجم أكياس تغطي الأرجل حتى الأرض.

وعدوى الشارلستون هذه أصابت كل من الجزيرة وشيشلي وآق سراي وشهرمان حتى وصلت إلى قاسم باشا، وأغنية فالنسيا المشهورة حولناها إلى أغنية تركية:

ولك ضيا

اقطع البطيخة. إذا لم تكن حمراء مثل الدم

ما في ي ي ي مصار ررر ي

كل الناس، صغيرهم وكبيرهم، يرقصون ويدبكون، ويقفزون على أنغام ولك ضيا اقطع البطيخة.

ومن يرفع صوته أكثر أثناء ترديد تلك الأغنية، يكون أوروبياً أكثر من الآخرين.

جيب بيرا ولك غارسون

جيب عرق ولك غارسون

جيب ويسكي ولك غارسون

عاش عاش الشارلستون

أعيدوا قراءة مجلات وجرائد تلك المرحلة، تجدون المسابقات الشارلستونية، الإعلان كله يؤيد التحول إلى الغرب إلى التغرب إلى الأوروبية. رقصت السيد الفلانية والسيد الفلاني في الملهى الفلاني ثمان ساعات، رقصة الشارلستون دون توقف. حتى فازا بالمسابقة الشارلستونية.

في اليوم التالي أيضاً، حطم السيد الفلاني والسيدة الفلانية في الملهى الفلاني، رقماً قياسياً في رقصة الشارلستون. دامت أربع عشرة ساعة كاملة. أرقام قياسية متتابعة. سبقنا أوروبا في الشارلستون، وسنسبقها.

إحدى السيدات رقصت على مدى عشرين ساعة دون توقف حتى أُغمي عليها.

نحن الأولاد كنا نصرخ دفعة واحدة:

ولك ضيا

اقطع البطيخة

إذا لم تكن حمراء مثل الدم

ما في ي ي ي . مصار ررر ي ي ي

قالوا:

ـ هذه الليلة في «فاريتا» في كازينو الشفق.

ـ شو في؟.

ـ فاريتا.

ما هو هذا الـ فاريتا يا ترى؟.

ـ ليس فاريتا فحسب. يوجد مسابقة شارلستون أيضاً.

ويقع كازينو الشفق. مقابل الجزيرة الكبيرة في /هيبلي آدا/ في أعلى نقطة منبسطة من ذلك المكان.

ـ فيه جاز أيضاً. جاز.

أقبل الليل. اجتمعنا نحن أولاد الأحياء الفقيرة، على السفح المشرف والمطل على الكازينو. داخل أشجار الصنوبر الكثيفة. ليس الأطفال فقط، والنساء والشباب أيضاً، كلهم من طاقم الفقر جاؤوا ليروا كازينو الشفق من العلالي. رواد الكازينو كثيرون جداً.

كنا سنرى. الجاز والشارلستون والفاريتا. يعني سنشاهد أوروبة. تسلق البعض إلى أعالي الأشجار ليروا الأوروبيين عن كثب. الجاز يُعزف. والناس على قدم وساق يرقصون على المنصة. أول مرة أرى فيها الرقص، ولكن هذا الرقص ليس بمسابقة الشارلستون. بعد قليل. توقف

الراقصون، وأضاء المنصة نور سماوي. رجل وامرأة أقبلا تحت هذه الأضواء، يرقصان على أنغام الأوركسترا.

المرأة تلبس الحرير والدانتيل. الرجل يرفعها نحو الأعلى ويرميها. ويمسكها ثانية. فستانها يكشف عن جسدها جراء الحركات. الرجل يدور بها، بقوة في الهواء. يظهر سروالها الداخلي، والقابعون فوق الأشجار يندمون على صعودهم، ينزلون. يلصقون وجوههم بالأرض كي يشاهدوا المرأة وسروالها أكثر. وماذا ينفع. نحن في الأعلى. يجب أن نكون في الأسفل حتى....

الضوء السماوي. يتحول إلى أصفر، إلى ألوان عديدة. الرجل والمرأة يخرجان هذه المرة مرتدين لباساً شفافاً جداً. حسبنا المرأة عارية في الوهلة الأولى. لأن الثياب من لون الجسد. يرفع الرجل المرأة فوق رأسه ويدور بها. تحني ظهرها، تتغير ألوان الضوء باستمرار، فيصطبغان بالألوان.

يجب أن نراها عارية، ماذا سنفعل يا ترى؟. حتى نرى درجة أوروبيتها. ثم بدأ الشارلستون. الموجودون في الكازينو يتوجهون إلى حلبة الرقص. أسأل من بقربي: متى ستبدأ فاريتا؟.

يسخرون مني:

- شو كانت الرقصة الأولى. هي «فاريتا».

- (هيم م م م.) إذاً تلك كانت «فاريتا»، لم تعجبني سوى الأضواء والألوان فقط.

الشارلستون لا نهاية لها. هذه المسابقة ربما تدوم حتى الصباح. نعود إلى منازلنا، ثلاثة ثلاثة. خمسة. خمسة. بعضنا يعزف الشارلستون المحلي بالصفير أو الصراخ. ولك ضيا. اقطع البطيخة. إذا لم تكن حمراء مثل الدم. ما في مصاري.

لا تعملها يا حسن

عندما تنحدر من محلة التلة نحو الأسفل. تجد فسحة أرضية جميلة مكسوة بالمروج والأعشاب على جانب الطريق، وإلى اليسار أمام تلك الفسحة المعشوشبة، منزل كبير يعيش فيه ولد اسمه هاشم. ولد بهي الطلعة. أنيق الملبس، أجعد الشعر. هاشم هذا وعدد لا بأس به من الأولاد، لا ينادون آباءهم «بابا»، بل يقولون: «بابي». يعني «السيد بابا». أنا شخصياً ما كنت أفهم من كلمة «بابي» معنى بابا. لست أدري لماذا؟. كنت أحسبها كلمة غريبة لا علاقة بها بالبابا.

وكنا نستطيع أن نقسم أولاد الجزيرة إلى ثلاثة أقسام. القسم الأول مثلي، ينادون آباءهم بـ «بابا». والقسم الثاني مثل هاشم الذين ينادون آباءهم بـ «بابي». أما القسم الثالث، الذين ينادون آباءهم بضغط من أمهاتهم بـ/بابي/ أيضاً. مثل القسم الثاني.

المجموعة الثالثة كانت تزعجني كثيراً. أعطي الحق الكامل للذين ينادون آباءهم بـ «بابي» لأنهم أغنياء، يلبسون القميص وربطة العنق، والبنطال المكوي، والنظارات، وأحذيتهم خاصة فيها ما يُعرف أو يسمى بـ «مزيل الغبار».

حقيقة هم «بابي» أصلاء. أما أنتم. لا علاقة لكم بـ «بابي». أنتم بابا بكل معنى الكلمة.

كان هاشم صاحب الشعر الأجعد، يملك دراجة هوائية، وكرة جميلة ذات النمرة خمسة. وكان يسمح للأطفال الآخرين اللعب بكرته ولكنه لا يسمح لأحد بركوب دراجته، لأنه لا يستطيع اللعب بالكرة وحيداً، ولكنه يستطيع ركوب الدراجة وحيداً.

كنا نلعب بالكرة في تلك الفسحة العشبية الخضراء، بيننا ولد يسمى حسن، يعمل والده قبطاناً، وينادونه بابن القبطان. كان حسن أكبر مني

سناً وقامةً. أما هاشم فيصغرني عمراً وقامة. كان كل فريق يختار قبطانه «الكاتن». وبما أن حسن هو الأكبر سناً وقامة، يكون قبطاناً على الدوام. القبطان المختار، يختار أول لاعبيه. ثم يختار القبطان الثاني لاعبه الأول.

كان هاشم من يتم اختياره قبل الجميع. لأن الكرة كرته، مع أنه لا يجيد لعب الكرة. أما أنا فكنت آخر من يتم اختياره، لأنني لا أجيد لعب الكرة كما ينبغي. حتى ذلك الوقت كنت أجهل اللعب بالكرة. ولهذا كنت أحزن كثيراً خوفاً من عدم اختيارهم لي. وكنت أقف جانباً وأنظر في عيون الأطفال الذين يختارون فريقهم. بعض الأحيان يتجنبونني وحصل هذا كثيراً.

كان هاشم يترك اللعب أحياناً، ليستقبل والده النازل من الباخرة، عائداً إلى بيته. يستقبله فاتحاً ذراعيه، منادياً «بابي» وكان والده يأخذه من يده ويدخلان المنزل، طبعاً والكرة معه.

كان حسن هذا مصيبة، وبلاء بالنسبة لي، يلقي بنفسه على الأرض ويخلص الكرة من قدمي، محدثاً كدمات في ساقيّ. وكأنه استحال دباً. يؤذيني. ويؤلمني. فأقول له: لا تفعل ذلك حسن. لا تفعل ولك أخي.

الرجاء لم ينفع. هدفه أذيتي سيضربني. وضعني نصب عينيه. حتى خارج اللعب. يقترب مني. يضربني، يلكمني. يلبطني. يدفعني بكتفيه. وأظل واقفاً مكاني لا أستطيع فعل شيء. أقوله له: يكفي ولك حسن. شو بدك مني.

يفعل ذلك كله، كي يخيف الآخرين، ويجعل من نفسه بطلاً.

لم أتشاجر طول حياتي ولا أحب الشجار مع أحد. على الأقل لا أبدأ بالشجار ولا أتراجع عمن يريدون الإساءة لي. والمشاجرة معي. مع أن الكثيرين يظنونني ولداً مشاغباً، شريراً ولكني حتى في حياتي الحالية ككاتب، لم أصبح من المتشاجرين، ولا أحببت المشاكل، دخلت في

خلافات شديدة، ولكن لم أكن من البادئين في الصراعات أو المشاجرات، لم أكن من يبدأ بالهجوم.

اشتط حسن في غيه كثيراً، حيثما يراني، يركب الشيطان رأسه، وبسببه تركت لعب الكرة، وهجرت تلك الفسحة العشبية. هذه المرة، بدأ التحرش بي في الطريق، في الميناء، أينما يراني. يدفعني بكتفه، يضربني بقبضته. يكفي ولك حسن. لا تفعلها ولك أخي. كلما تحاشيته يحسبني خائفاً منه، يهجم عليّ. دون سبب ولا مسبب. مرة. مرتان. ثلاثة. عشرة.

بينما كنت سالكاً الطريق الصاعدة، عصر أحد الأيام، لاحظت الأولاد مجتمعين في الفسحة العشبية. وهاشم يبكي من جهة، ويصرخ. يا ماما. من جهة أخرى.

اقتربت منهم. إنه حسن لقد امتطى دراجة هاشم غصباً، وصار الأخير يبكي ويصرخ. يا ماما. يا ماما. وما من أحد هب لمساعدته، ربما لا يوجد أحد في البيت. كان ممسكاً بمقود دراجته، يريد منع حسن من ركوبها. غضب حسن ابن القبطان، نزل عن الدراجة ودفع هاشماً بقوة، وأسقطه أرضاً وأصبح هاشم متعلقاً بعجلة دراجته، ثم نهض والتحما ببعضهما. الآخرون لا يتكلمون ولا يتدخلون، ويراقبون المشاجرة فقط. لم يتدخل أحد ويفرق بين الاثنين. دخلت بينهما وأبعدتهما عن بعضهما.

في هذه الأثناء وجه حسن، لكمة قوية إلى وجه هاشم قائلاً:

ـ شو بيصير يعني إذا ركبنا شوية، هل سآكل دراجتك؟. قلت لهاشم:

ـ ولك اتركه يركب شويه.

قال هاشم:

ـ شو عونطه. مال أبوه حتى يركبها.

تداخلا في صراع حاد مرة أخرى. وانهال حسن على هاشم وأوسعه ضرباً. تدخلت ثانية:

ـ لا تفعلها ولك حسن. لا تفعلها ولك أخي.

ـ وأنت شو دخلك ولك.

ترك هاشم وصار يضربني. إنه بلاء بكل معنى الكلمة.

قلت: ولكنه صغير.

قال: إذن تعالى أنت مكانه.

وسار نحوي، وأمسك بياقتي.

ـ لا تفعلها ولك حسن، لا تفعلها ولك أخي. صار الصبي يهزني بقوة، يدفعني مثل ريشة، قلت:

ـ ولكنك ستخسر في النهاية يا حسن.

لست أدري كيف خرجت مني هذه الكلمات، وعلى من اعتمدت. لا أدري؟.

ـ شو بدو يصير يعني.

وجهت لكمة قوية إلى أنفه، فسقط على الأرض، وبدأ الدم ينزف من أنفه. عندما رأيت الدم، خفتُ. وبسبب خوفي هجمت عليه من جديد، وصرت أضربه. وأضربه. وكأن الدم سيتوقف في نهاية كل ضربة. وبدا مثل كيس فارغ منفوخ. كان يتدحرج على الأرض باكياً. كنت أرفعه في الهواء وأهوى به على الأرض. ونفس الوقت كنت أفكر كيف ستنتهي هذه المشاجرة؟. وبين كل ضربتين أرمق الأولاد الواقفين بنظرات عاتبة. كي يتدخلوا ويفرِّقوا بيننا. ما من أحد، ماذا أفعل يعني. أستمر في ضربه، فيخفي وجهه بيديه الاثنتين، ولما لم يجد ملاذاً ولا مخرجاً، نظر يمنة ويسرة، ولاذ بالفرار مثل البرق، وكأنه زيّت مفاصله. ركضت خلفه عدة خطوات، وتركته يذهب في حال سبيله. أنا الآخر تعبت كثيراً، كان

صدري يعلو ويهبط، وأتنفس من فمي، كنت منهكاً إلى أبعد الحدود.
قال هاشم:
ـ لقد خدش وجهك. إنه أحمر مجروح. شو بدو يصير يعني.
ماذا سأقول لأمي. أقول لها، وقعت على وجهي. تركت الساحة الخضراء، واتجهت صعوداً. ببطئ شديد.
في عصر اليوم التالي كنا سنلعب الكرة في نفس الفسحة، وقفت في أحد الأطراف منتظراً اختيار القبطان واللاعبين.
قال أحد الأولاد موجهاً كلامه لي: تعال أنت القبطان واختر فريقك.
كنت أجهل اللعب، ولكن عندما صرعت حسن. صرت قبطاناً.
كان حسن ينتظر في أحد الأطراف، والزرقة تحيط بإحدى عينيه. فزت في القرعة، لاختيار أول لاعب. قلت، دون أن أنظر إليه: أخذت حسن.
اقترب مني حسن رويداً رويداً ووقف خلفي.
مضت سنوات التقيت بعدها حسن، في الثانوية العسكرية. لقد رسب عدة أعوام. في نهاية المطاف دخل الثانوية العسكرية. كنت في الصف الثالث وهو في الصف الأول الثانوي. كان حسن طويل القامة، عريض المنكبين، ولد يشبه الأسد بكل معنى الكلمة، وفوق ذلك كله، كان مهذباً ومحترماً إلى أبعد الحدود.

صورة مع بعضنا

أقضي أجمل أيام العطلة الصيفية، مع فريدة على الدوام، كل يوم نلتقي تقريباً، قبل الظهر ننزل البحر، ونسبح. أحياناً نقصد الشاطئ الكائن بين رأس الطاحونة وعباس باشا، الشاطئ الرملي الطويل العريض. يبدو مقفراً تقريباً، سوى من أشخاص قليلين جداً.
نقصد هذا المكان عندما تستأذن فريدة أمها بالنزول إلى البحر،

وتأخذ المايوه معها. السباحة باتجاه رأس الطاحونة ممنوع وخطر، ويتحدثون عن دوامة بحرية هناك. بئر عميقة، وأن الدوامة تسحب الإنسان من البعيد، وتسحبه إلى الأعماق. عندما لا تأخذ فريدة إذناً من أمها، كنا نتجه سراً إلى البحر، مقابل جزيرة «بورغاز» فننزل من مكان ضيق. ونسبح سراً.

بعد السباحة نتجول حول الجزيرة، ثم نعود إلى منازلنا، وأحياناً نسلك طريقاً أقرب. نمر أمام مدرسة الأيتام اليونانية، عبر ميناء الصنوبر، وبعد الظهر نلعب مع الأولاد الآخرين. لم يتلفظ أي منا بكلمة الحب. إنها عبثية لا ضرورة لها، ولكني وددت البقاء معها على الدوام.

في الأيام الأخيرة من العطلة أشعر بحزن شديد، مرة أخرى فريدة ستبتعد عني. ستتركني، ستأخذ مكانها في عالمها العالي، مرة أخرى ستقص شعرها. موضة «حسن صبي». ستلبس سترتها وقبعتها المدرسيتين، عندها سنصبح غريبين، ولربما نحن قريبان من بعضنا أكثر من اللازم. في إحدى المرات، تحدثت طويلاً عن استانبول. وإنهم سينتقلون إليها قريباً. لم أسألها عن عنوان منزلها هناك. ولكني أعرف أنهم يسكنون في منطقة «شيشلي».

وكان رجل وزوجته يسكنان في منزل يبعد عن منزلنا خمسين متر تقريباً، لا أتذكر تماماً، هل كان من داغستان، أم من تركمانستان. كان صوته يخرج من حنجرته، لأن كلامه ولغته غير سليمين، وبقع بيضاء على وجهه ويديه، كأنها أثار حرق، قضى على القديم من جلده وظهر الجديد مكانه، رجل ضحوك، ماهر في كل الأعمال. «جزيرة هيبلي آدا» تكون مزدحمة في الصيف، خاصة أيام الجمعة. جار هذا الرجل كان يعمل في أيام الصيف مصوراً، يحمل آلة التصوير مع ركيزتها ويجول في الجزيرة. من ميناء الصنوبر إلى عباس باشا إلى الشفق. حتى إنه كان يجول الجزيرة كلها

في الشتاء. عمل التصوير هذا لا يطعم خبزاً، لقلة الناس الموجودين وعندما يبقى فيها المحليون فقط. يبدأ بجلخ (يشخذ) السكاكين. مرة أخرى يدور حول الجزيرة، حاملاً القاعدة على ظهره وحجر الجلخ في يده.

في إحدى المرات كنت مع فريدة، لوحدنا في مكان ناءٍ مكشوف، وإذا بجارنا المصور هنا.

هل نتصور؟..

ممن جاء هذا الاقتراح. لا أتذكر تماماً. فهي أم من فريدة، ولكن لا أظن أنني القائل، لأنني أخجل، يجب أن تكون فريدة هي صاحبة الاقتراح. جلسنا معاً. البحر مقابلنا. وسواحل مال بتة وقرطال.

وضع الرجل قاعدة المكنة أمامنا. ونظر إلينا عبر عدسة المكنة وبعد أن أدخل رأسه وسط قماش أسود يشبه أكمام السترة وقال: اقتربا من بعضكما. اقتربنا

ـ اقتربا بعض الشيء أيضاً.

هل اقتربت فريدة أم أنا. أم نحن الاثنان معاً؟.

ـ تداخلا ببعضكما.

عندما أخرج الرجل رأسه من داخل القماش، كان يضحك، بمعاني عديدة.

ـ اسندا رأسيكما إلى بعضكما.

أحسست بشعر فريدة على وجهي.

ثم التصوير. ننتظر رؤيتها بشوق شديد. الرجل يعمل على إظهار الخيال السلبي، داخل وعاء من الماء. نقترب من العلبة، يلصق الصورة السلبية على الخشبة.

في هذه المرة تظهر الصورة الحقيقية ثم يغسل الصورة بماء الصنبور العالق على إحدى أرجل القاعدة حيناً، ثم يجففها بقطعة قماش قذرة.

ويعطينا الصورة. عندما وضعت الكرت الرطب على يدي، خجلت، ممن؟. على الأغلب من نفسي. أنظر إلى نفسي في الصورة، أضع يدي اليمنى على كتف فريدة. كيف فعلت هذا؟. وفريدة طوقت خصري بذراعها اليسرى.

من الذي دفع ثمن الصور آنذاك، أنا أم فريدة؟. على الأغلب هي التي دفعت. وربما أكون أنا.

عندما أنظر إلى الصورة، أخجل نعم أخجل. ولكن عندما تفتح المدارس وأذهب إلى دار الشفقة، سأمسك بالصورة سراً وأريها لأصدقائي العزيزين.

سيحتارون. ويدهشون وأنا سأمتدح نفسي بصمت.

«الكارت» أو القاسي صار في الصف الخامس

لقد فتحت المدارس أبوابها. ذهبت إليها وأنا أجرّ قدميّ جراً. خطوة نحو الأمام وخطوة نحو الخلف، وعودة قدمي نحو الخلف. ناتج عن معرفتي أنهم سيسخرون مني كما في العام الماضي، بكلمة «الكارت» أو القاسي.

لا أرفع يدي أبداً. كي أتخلص من بلاء المزح والمسخرة.

أية نجاحات تذكر، في الحساب والهندسة وحسن الخط، الصرف والنحو. العلوم الدينية، الإملاء، «التعبير». أما الكتابة العثمانية الجيدة فيسمونها «حسن الخط». وكنت أفضل طالب في الصف في هاتين المادتين، ومع هذا بقيت صامتاً فيهما عن عمد، لا أحاول إظهار نفسي ولا مهارتي فيهما.

كنت أتحول إلى شخص انعزالي منطوٍ على نفسه، للتخلص من السخرية. وما كان يحزنني أكثر، هو ظهور بعض الجروح والقروح على شفتي. عندما تظهر هذه الجروح، تبدأ بالتنقل من هنا إلى هناك. تتوزع وتنتشر وتكبر وكانوا يسمونها «أوجوك».

عندما كانت هذه الجروح تكبر وتنتشر وأنا في المدرسة، أذهب إلى المشفى التابع للمدرسة فتلجأ إحدى الممرضات أو الدكتور أحمد سليم إلى وضع مرهم أصفر اللون فوق الجروح. هذا المرهم الأصفر اللزج. الرطب. يؤثر على أعصابي كثيراً. كنت أشعر به يسيل على حنكي، فأظل مضطرباً على الدوام، في المطعم والدرس وأينما ذهبت، لأنهم كانوا يقولون في الصف إن سبب هذه الجروح هو القذارة، مع أنني لست قذراً على الإطلاق، بل على العكس، كنت متطرفاً في نظافتي.

بعد سنوات عرفت أن هذه الجروح لا تأتي من القذارة ولكن من نقص الفيتامينات في الجسم. يومها لم يكن العالم يعرف شيئاً عن الفيتامين ولم يسمع به أحد. كنا نذهب مرة في الأسبوع إلى حمام المدرسة، ونغتسل جيداً، أنا شخصياً كنت أستحم بشكل جيد وأغسل يدي ووجهي صباحاً ومساءً بالصابون. وأغسلهما أيضاً في الأوقات الخمسة التي أتوضأ فيها. ومع هذا لا تخلو الجروح من وجهي.

ومخاط أنفي كان يسيل على الدوام، وكنت أغضب من نفسي لهذه الحالة أيضاً. فألجأ إلى مسح أنفي بالمنديل، وفي بعض الأحيان أنظفه بالماء، أقف على الصنبور وأنظف أنفي جيداً. لم أكن كالأطفال الآخرين الذين يسمون «أبو مخطة» لا ينظفون أنوفهم لا بالمنديل ولا بالماء.

يسيل مخاطهم من أنوفهم حتى أفواههم. كانت أمي تعطيني كل أسبوع أكثر من ثمانية مناديل مكوية، نظيفة، أستعملها كلها. كنت بحاجة إلى أكثر من عشرة مناديل في اليوم الواحد، لأن أنفي كان يسيل على الدوام. وكلما أتذكر كلمة المنديل، أتذكر القذارة والدنس أو واسطة القذارة والدنس.

عندما أكبر. آه لو أكبر. أعرف ما سأفعله. عندما أكبر بكل تأكيد، سأكون غنياً، وعندها سيكون عندي مجموعة كبيرة من المناديل، المنديل

الذي أستعمله مرة، لن أستعمله ثانية، سأرميه في سلة النفايات. أستعمل، أستعمل وأشلح. إذن كنت أعرف ما يجب وأنا في ذلك العمر، بضرورة استعمال المحارم الورقية التي لم تكن معروفة آنذاك.

كبرت. ولم أصبح غنياً. ولا أرمي المنديل الذي أستعمله. لأن منديلي يظل نظيفاً على الدوام، فأنفي لا يسيل وأبي أيضاً أنفه لا يسيل.

منزل من أملاك الدولة

كانوا يطلقون على الأراضي والبيوت والعرصات التي هجرها اليونانيون، وهربوا أو هاجروا من تركيا بعد حرب الاستقلال /بأملاك الدولة/، وهي أملاك غير منقولة. وهي عبارة عن بيوت وعرصات كثيرة تركها اليونانيون في جزيرة «هيبلي آدا» كل البيوت الصالحة كانت تقريباً دون صاحب.

تحدثوا كثيراً وأشاعوا الكثير عن اليونانيين الفارين من تركيا. مثلاً، عندما دخل جيش الاحتلال مدينة استانبول ورست السفن الحربية الإنكليزية في موانئها، قالوا إن اليونانيين قد قاموا بتصرفات غير لائقة، هاجوا وماجوا، وانشرحت صدورهم من الفرح والسرور. صامتين وساكتين على فعلتهم هذه، خوفاً من قوات الاحتلال.

ولكن بعد حرب الاستقلال، هرب اليونانيون خوفاً من الانتقام. عندما وصلت الجزيرة قادماً من المدرسة في عطلة الأسبوع، وجدت أن أهلي قد انتقلوا إلى بيت جديد، البيت الجديد من أملاك الدولة. ولكن بشكل نهائي، كان صاحبه قد غادر تركيا ولكنه ترك وكيلاً يعتني ببيته وأملاكه، وهو اليوناني الذي يملك متجراً ضخماً في نهاية الطريق الصاعدة. والمهم، انتقلنا إلى المنزل الجديد، ولم ندفع بدل إيجار للبيت لفترة طويلة. بعد مدة صرنا ندفع للبقال مبلغاً رمزياً.

لقد فضل والدي هذا المنزل المجاني لأننا كنا في ضائقة مادية شديدة.

فأبي له معارف وأصدقاء كثيرون في الجزيرة، وأغلبهم مدينون له منذ وقت طويل. أخذوا منه قروضاً ولم يوفوها له، وكل مدين لا يتصرف مع أبي كدائن، نظراً لانقضاء وقت طويل على الدين، حتى أن أحد المدينين كان موظفاً في الميناء. تجاهل أبي وكأنه لا يعرفه مطلقاً.

كل أصدقاء أبي على أفضل حال، أحدهم يمتلك مقهى في ساحة الميناء. ذات يوم قصدت أنا وأبي ذلك المقهى. وبدأ صاحبه يحكي لمجموعة من الناس، معاملة أبي وأفضاله عليه، وأن من الواجب عليه أن يرد له فضله، ويطلب منهم أن يجدوا له عملاً مناسباً. وهنا غضب أبي كثيراً لأن الرجل وضعه في مثل هذا الموقف المهين أمامهم. فوضع ثمن الشاي في الصينية وخرج من المقهى بسرعة البرق.

لا أدري كيف تم الانتقال إلى المنزل التابع لأملاك الدولة، لأنني كنت في المدرسة آنذاك. ولكن الانتقال لم يتم بالعربة ذات الحصان الواحد، كما هي العادة. تنغير. منغير. لأن عربات النقل لم تكن موجودة في جزيرة «هيبلي آدا»، وقد يكون الحمالون نقلوا أغراض منزلنا لأنهم تركوا بعضها في المنزل القديم، مما اضطرنا أنا وأختي «سعادت» لنقلها إلى منزلنا الجديد.

أمي أيضاً لم ترَ انتقالنا إلى البيت الجديد، لأنها كانت في مشفى الجزيرة، قبل يومين أو ثلاثة من عملية الانتقال.

حافظة العين

عند دخولنا غرفة الصف، وزعوا علينا كتاب اللغة الفرنسية (في ذلك الوقت كانت مادة اللغة الفرنسية تدرس في الصف الخامس في مدرسة دار الشفقة).

الجميع وضعوا الكتاب أمامهم. أحببت كثيراً الكتب الجديدة. أفتح الكتاب الجديد مباشرة وأشم رائحته. للكتاب الجديد رائحة خاصة به.

رائحة الورق والحبر. نقلب صفحاته فتعبق رائحته في كل مكان. رائحة أحببتها كثيراً. أنظر إلى صور الكتاب:

ـ آ آ آ آ.

إحدى الصور الموجودة في الكتاب الفرنسي موجودة في كتاب القراءة أيضاً صورة طبق الأصل.

ـ شوفو يا أولاد هذه الصورة موجودة في كتاب القراءة أيضاً.

ـ لا ما في

ـ في

كل التلاميذ يقولون: مافي.

ـ أنت تحلم.

ـ تماماً في وسط الكتاب تقريباً، وعلى الصفحة اليمنى.

ـ بتشارط

ـ بشارط

ـ على شو

ـ على شو ما بدكن

نسيت موضوع الشرط أو الرهان، وكان الشرط كبيراً طبعاً بالنسبة لنا. أحضروا كتاب القراءة، فتحنا كل الصفحات، في المكان الذي يجب أن تكون فيه، لم نجد صورة. كانت الصورة هنا.

ـ هيا. هات خسرت الرهان.

أفتح الكتاب مجدداً، وأقلب الصفحات. مستحيل. كانت تلك الصورة هنا. نعم. تماماً هنا. تذكرت أرقام الصفحات، أمعنت النظر في المكان الذي كانت فيه الصورة. صرخت:

ـ لقد مزقتم الصفحة من مكانها.

بعد أن وافقنا على الرهان. فتشوا كتاب القراءة، وعندما شاهدوا

الصورة تماماً في الصفحة التي ذكرتها لهم، نزعوا تلك الصفحة من مكانها.

دهش أصدقائي لقوة ملاحظتي ودقتها، كانت الذاكرة البصرية عندي قوية عكس الذاكرة السمعية الضعيفة إلى أبعد الحدود. بقيت اثني عشر عاماً في الجيش لم أتعلم إيعازات، استرح، استعد أمام سر.

الآن ضاعت مني الذاكرة البصرية أيضاً، وأصبحتُ بلا ذاكرة بصرية ولا سمعية ولا شمية.

ذهبت مع أبي وأختي إلى الأم المغلوبة في مصح الجزيرة، في إحدى الإجازات التي حصلت عليها من المدرسة، وكانت الزيارة الأولى لذلك المصح. الواقع في ميناء الصنوبرية، مهجع يطل على ساحل مرمرة. أسرة ينام عليها المريضات، كل مريضة عندها زوار من خارج المصح.

جلس أبي على كرسي معدني مدهون باللون الأبيض، وبما أنه لا يوجد سوى ذلك الكرسي، جلست على السرير قرب أمي، مثلما كنت أجلس على سريرها، عندما كانت تنام في المشافي الأخرى. صرخت فجأة:

ـ لا. أجلس على الكرسي.

كانت تخشى من العدوى بمرض السل. جلست على الكرسي الذي نهض عنه أبي. أول مرة أراها مغلوبة على أمرها، وكأنها سئمت الحياة، وربما غلبتها الحياة والدنيا والمرض. حتى الابتسامة كانت جامدة في عينيها.

منذ شهور لا تلمسني، لا تسمح لي بالاقتراب منها. لا تحبني ولا تمسد شعري. كانت نظراتها متجهة نحوي حتى وهي تتحدث مع أبي. عيناها تذبلان. تتمنى أن تعانقني. وتحضنني، ولكنها لا تستطيع ذلك، ولهذا كانت تتألم. الشيء المحير في الأمر، أنني كنت غارقاً في أنانية الطفولة، لا أشعر بأي حزن أو شفقة نحوها. عندما أتذكر الآن تلك اللحظات، ينتابني حزن شديد يغرقني، يقتلني. كيف كنت أتصرف

هكذا؟. لا أستطيع أن أصف لكم ذلك الإحساس الأناني الطفولي.

ربما كنت أجهل الخوف من الموت وألمه، ولكن كنت أعرف من أعماقي أن أمي لن تستطيع التخلص من مرضها. نعم حقيقة الموت وحدها ما كنت أستطيع فهمها. كانت أمي ستموت، ولكنها ستبقى على الدوام قربي. مريضة. مريضة على هذا الحال. هكذا كان يتراءى لي في زياراتي التالية. وجدتها فاقدة الأمل كلياً. كانت الخاسرة دائماً في صراعها مع الحياة والموت.

سبب حياتي وفوز نجاتي

كان السيد رفقي يعلمنا كيفية كتابة الرسائل في دروسه. الرسائل التي تكتب للكبير. للأب والأم، والرسائل التجارية الخاصة. الخ.

كانت الرسالة المكتوبة للأب غريبة بعض الشيء: لأن الأولاد الذين سيكتبون الرسائل لآبائهم كانوا أيتاماً. لا آباء لهم. سيكتبون رسالة إلى والدهم غير الموجود. طبعاً غيري أنا.

كان السيد رفقي يعطينا وظيفة كتابة الرسالة. كلنا نكتبها في الصف، في أكثر الأحيان. كان يطلب مني قراءة الرسالة (الوظيفة) التي طلبها فتعجبه كثيراً، يصحح منها بعض المقاطع، يشرح نقاط الخطأ والصواب.

أمامنا. الدفاتر والأقلام. الكل يكتبون الرسائل لآبائهم. ما عداي إذ لم أستطع ذلك. أصابني الجمود. لست أدري ماذا حصل لي. كنت أشعر بأن يدي جامدتان. لا تعملان. لا أستطيع كتابة الرسالة. الوظائف الأخرى، الرسائل المتنوعة. كنت أكتبها قبل الجميع. إلا هذه الرسالة الموجهة إلى أبي لا أستطيع إليها سبيلاً. لست أدري لماذا.

كان عليّ أن أبدأ السيد المحترم والدي. ولكنني كنت أحس أنني إذا ما كتبت هذه الرسالة، فإن ذنبي سيظهر وسأكشف عن وجود أبي.

ماذا سأفعل الآن. عندي أب وسأكتب له رسالة. القلم لا يسير على

الورقة، بدأت وأنا أضغط على نفسي السيد المحترم والدي. ما صار. محوتها.

تخيلت السيد سليم الذي تبنَّى أمي وأرسلني إلى المدرسة، تصورته أمامي. شخصيته تماماً. سأكتب الرسالة له: السيد الوالد المحترم. خطأ. هذه الكلمات لا أستطيع توجيهها للسيد سليم. يجب أن أجد مقدمة أفضل. ووجدتها:

سبب حياتي وفوز نجاتي السيد الوالد المحترم.

ولكن هذا السيد سليم وليس أبي. ليس هو سبب حياتي. آه كم أنا في حيرة من أمري. عندما كنت أكتب الرسالة وأنا أتصور السيد سليم أمامي. ألا أكون ظالماً لأبي. محوت سبب حياتي.

بدأت الرسالة بـفوز حياتي أبي.

كتبتها غصباً. قهراً. دون قبول مني.

قال السيد رفقي: تسعما وسبع عشر.

وقفت اقرأ.

عندما كنت أقرأ. تهدج صوتي، وشعرت بقبضة أطبقت على حنجرتي. في نهاية الرسالة. كنت سأبكي، فضغطت على نفسي كي لا أبكي.

انتهيت من قراءة الرسالة، أحنيت رأسي إلى أسفل. لم أنظر في وجه المعلم. يا ترى هل عرفوا ذنبي من صوتي المرتجف. ومن قراءتي للرسالة؟. قال السيد رفقي. وحدث عكس ما تخيلته تماماً. لقد ظن أن الولد اليتيم قد غاص في بحر أحاسيس الأبوة والطفولة. ثم تحدث السيد سليم عن دار الشفقة ومعناها. وأنها بيت رحمة وشفقة ورعاية وعناية للجميع. وأنها تقوم مقام الأب والأم في كل مجالات الحياة.

فالرسالة لم تعجب السيد رفقي أبداً. وأحتار في أمري. وكيفية كتابتي لها.

بطاقات العفارم التي أخذتها لم تعفني من الحرمان، وأعرف جيداً أنني سأظل محروماً من الخروج في ذلك الأسبوع. ولهذا كتبت رسالة إلى أبي. طبعاً كانت تبدأ بهذا الشكل:

والدي المحترم. سبب حياتي وفوز نجاتي

كتبتها براحة تامة. سبب حياتي. لا أتذكر كيف أوصلت الرسالة إلى البريد، فمن غير الممكن وضعها من المدرسة.

لماذا رسالة إلى أبي؟. ربما كي لا يفكروا بي وبعدم مجيئي إلى البيت بالإذن الأسبوعي العادي. وليعرفوا أنني محروم من الخروج. وربما لم يكن معي نقود. كي أحصل عليها من مجيء أبي إلى المدرسة. أفكر الآن ملياً، لا هذا السبب ولا ذاك، ولا أي منهما. السبب الرئيسي في كتابتي لهذه الرسالة، كي أقول له بابا. هكذا كنت أشعر بأنني أظلم أبي. لأني أنكره كلياً أمام العالم، أمام زملائي في المدرسة. أحسست أني مذنب تجاهه. ومن جهة أخرى: كنت أدرس في مدرسة خاصة بالأيتام. كذلك أذنبت تجاه زملائي أيضاً. وأعتقد أنني كتبت تلك الرسالة كي أتخلص بعض الشيء من الخجل ذي الحدين. ومن عفوية نفسيتي المسحوقة أيضاً.

يعني هل كنت سأبقى ناكراً وجود أبي على الدوام، من غير المعقول أن أفعل ذلك. وقهراً لنفسي، كتبت الرسالة والدي المحترم سبب حياتي وفوز نجاتي. وربما فعلت هذا كي يطلعوا على الرسالة ويكتشفوا أمري ويطردوني من المدرسة، وأتخلص كلياً من مشاعر الذنب الذي ارتكبته.

في ذلك الخميس وبعد تناول طعام الغداء، صعد التلاميذ إلى المهاجع وخلعوا عنهم ثيابهم الداخلية ولبسوا ثياب الخروج النظيفة. طبعاً المأذونون منهم فقط. خرجوا وبقيت المدرسة فارغة، إلا من بعض

التلاميذ أمثالي المحرومين.

تجولت في الحديقة. في الأماكن المحروقة والخربة. جدران قديمة. باقية بعد حريق كبير أتى على المنطقة كلها. تجولت بين الجدران. فتشت الثقوب. أخرجت ورقة وكتبت فيها بعض الأشياء. لا أتذكر الآن ماذا كتبت. لففت الورقة ووضعتها داخل أحد الثقوب. كنت أتمنى لو يأتي أحدهم ويجد هذه الورقة ويقرأها. كنت وحيداً محطماً. متضايقاً. أنتظر مجيء أبي. لم يأت. كنت حزيناً، أظن أنه لم يأت كي لا يعرف أحد أنه أبي.

تناولنا طعام العشاء قليل من التلاميذ في غرفة المطالعة. ثم المهجع الكبير.

بعض الكلمات تتحول إلى عادة في أفواه التلاميذ وخاصة في المهجع. ساعة النوم، كان الأولاد يصرخون. بعد تمددهم على أسرتهم: أيها الزوج القديم لأمي. أين أنت.

صرخ أحد الأولاد:

ـ أيها الزوج القديم لأمي أين أنت؟.

وصرخ الباقون هكذا أيضاً. أما البعض فقالوا. جواباً.

ـ أنا. أنا.

نمتُ على الجانب الأيمن، كما أفعل كل ليلة. وبدأت بالدعاء:

ـ يا رب. اجعلني رجلاً مهماً، عظيماً، عظيماً جداً.

من يدري كم مرة قرأت: قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق. نمت وأنا أقرأ المعوذتين.

في اليوم التالي. انتظرت والدي حتى الظهر. بانفعال شديد. حتى العصر كانت عيوني لا تفارقان باب الحديقة. بعد الآن، لن يأت قطعت أملي من مجيئه. ذهبت ألعب مع نفسي بين الجدران المهدمة. أخرجت الورقة التي كتبتها صباحاً:

ـ تسعما وسبع عشررررررة.
سمعت صوتاً ينادي رقمي.
قال الولد:
ـ جاء عمك.
ذهبت إلى باب الحديثة. كان أبي هناك. كان يقول لي: وابناه. «يا ولداه».
ـ كيف حالك وابناه. كيف حالك يا ابني.
تعرفون. إن كل إنسان له رائحة خاصة به، وأبي كان له رائحة خاصة به. أحبها كثيراً. في حضنه أحسست بتلك الرائحة، رائحة الأبوة الحقة.
كان البستاني مصطفى أفندي يسقي الأزهار في الحديقة (يقال إن جد مصطفى أفندي هذا قد شارك في تأسيس هذه المدرسة) وكان البواب عثمان أفندي هناك أيضاً.
كنت أشعر بخوف شديد. من هذين الشخصين، أن يشعرا بوجود أبي أو يعرفا أنه أبي. ومن جهة أخرى كنت أتمنى أن أصرخ عالياً. بابا. من يدري بأية حالة كنت حتى سألني أبي:
ـ شو فيك يا ابني هل أنت مريض؟.
ـ لا. لا. ما فيني شي.
ـ لماذا أنت جامد هكذا؟.
ـ لا شيء.
كان أبي قد أحضر لي زجاجة كبيرة من الدبس (أحب أكل الدبس كثيراً وأولادي الآن يحبونه). ـ عند الصباح تضعه على خبزك وتأكله يا بني. وأحضر معه ورقة ملأها بمربى الحمص. حبات الحمص الملونة الجميلة اللذيذة. ربما اشتراها لأجلي من الجاويش كامل. وأعطاني علبة.
ـ اشتريت لك زوجاً من الفانيلة يا بني.

وأعطاني حفنة من النقود ثم قبّلني وغادر المكان.

مرة أخرى تسللت بين الجدران المحروقة، وأول عمل قمت به فتحت العلبة، أخرجت منها زوجاً من الفانيلة. أحدها سماوي أبيض، والآخر. أحمر وأبيض ومخطط. ياقتهما مغلقة. آمان. كم أعجبتني هذه الفانيلة. وكم أحببتها. لا أحد يشتري لي مثل هذه الأشياء.

ذهبت إلى المهجع وليست إحداها مباشرة، ليراها زملائي. ولعقت إصبعاً أو إصبعين من الدبس ووضعت الزجاجة على الخزانة الصغيرة الموجودة قرب السرير.

الهارب من المدرسة

عندما ذهبت إلى البيت في الأسبوع التالي في إجازة. بدأت أفكر بطريقة كي لا أعود إليها ثانية. ما كنت أريد الافتراق عن أبي. أريد التخلص نهائياً من ذنب الكذب والخداع، الذي كنت أعيشه. على أنه ليس أبي. ليس في المدرسة فقط، بل في كل مكان، لأن الجميع كانوا يعرفون أنه لا يدرس في دار الشفقة سوى الأيتام الذين لا آباء لهم، ولهذا ما كنت أريد أن أكشف حقيقتي لأحد. أظل معزولاً عن الناس. ثياب المدرسة التي كنت ألبسها في العام الأول متباهياً بها ومتفاخراً، صارت عبئاً ثقيلاً على جسدي. لو أن لي ثياباً غيرها لرميتها وتخلصت منها، على الأقل في الجزيرة، وأتجول بها هنا وهناك. ومع الأسف لا أملك سواها.

أثناء عودتي إلى المدرسة مساء تلك الجمعة. أشعر كأن أحدهم يشدني من الخلف، وقدماي تسيران عكس اتجاههما. ولدى وصولي إلى باب المدرسة، لم أستطع الدخول. بدأت السير ذهاباً وإياباً. حتى تعبت. وأخيراً اجتزت الباب ودخلت دون رغبة.

في الأسبوع التالي. كذبت على أبي وقلت له: يوم السبت عطلة

رسمية وسأعود إلى المدرسة صباح الأحد. أبي يثق بي ثقة عمياء. لا يفكر بأنني أكذب عليه. صدقني مباشرة.

كان يوماً رائعاً بالنسبة لي. كل يوم لا أذهب فيه إلى المدرسة. أحسبه فوزاً كبيراً بالنسبة لي.

أفكر الآن. لو لم تكن أمي مرمية في المشفى. لو كانت في المنزل. ما لجأت إلى الكذب على أبي. فضغوطات أمي المحبة ترفع عن كاهلي كل حرج. وهكذا صرت تلميذاً هارباً من المدرسة على الدوام.

كنت أعيش حياة قلق وخوف شديدين. وكأنني ارتكبت جريمة شنعاء بحق أهلي ونفسي.لقد صرعني النوم، ولكن الكذبة قد حدثت. وماذا سأفعل في المدرسة؟. كتبت رسالة باسم أمي وهذه كلماتها.

إلى مدير مدرسة دار الشفقة المحترم.

عندكم طالب يدرس في الصف الخامس الابتدائي اسمه محمد نصرت أفندي. وهو ابني. ولم أرسله إلى المدرسة، لأنني بحاجة إليه في المنزل، بسبب مرضي الشديد خالص تحياتي يا سيدي.

والدته: حنيفة

ووقعت عن أمي في أسفل الورقة.

عندما عدت إلى المدرسة صباح يوم الأحد. كان التلاميذ يستعدون للدخول إلى الصفوف والسيد رفقي واقفاً أعلى السلم. قدمت له تبرير الغياب باليد مباشرة، فقرأه:

ـ طيب. يا تسعما وسبعة عشر. خذ مكانك.

في نظراته حب وشفقة. لم يسألني عن سبب غيابي، لأنه أيضاً يثق بي ثقة عمياء مثل أبي. ولكني عرفت الطريق، طريق الكذب والخداع. طريق الهروب من المدرسة. هل من إنسان يهرب من المدرسة، ولا يكرر ثانية.

بدأت أهرب أكثر. يومين، ثلاثة، وفي كل مرة أكتب رسالة على لسان أمي التي لا تعرف القراءة والكتابة وأعطيها للسيد رفقي. كنت مضطرباً إلى حد كبير. لا أدري ماذا أفعل. أتمنى أن لا أهرب من المدرسة، ولكن عبثاً.

عندما ذهبت إلى البيت بالإذن الأسبوعي، قلت لأبي إن المدرسة معطلة لثلاثة أيام متتالية. وإذا سألني: ما هذه العطلة؟. سأقول:

ـ عطلة العيد. العيد الفلاني. والعيد الفلاني. والدي الذي لا يضع أدنى احتمال لكذبي، كان يغضب من كثرة الأعياد هذه. يقول:

ـ هذه الحكومة تحولت إلى حكومة كافرة. كل يوم. كل يوم عيد. نعم للمجنون أعياد كثيرة، والشعب بسيط وعقول الناس أبسط. رأت الحكومة أن هذا العقل كثير عليهم فسلبته منهم بكثرة الأعياد. كان أبي يحمل الحكومة كامل الأخطاء وأسباب التخلف. لا يفرق بين حكومة وأخرى، إنه معارض على الدوام.

ولكنه متعلق بسيدنا الخان عبد الحميد أسكنه الله فسيح جناته، إلى جد كبير. لقد علق صورته على السقف، ولهذا نفوه من هنا.

كان أبي يحترم عبد الحميد بشكل يفوق التصور ويعظمه حتى وفاته، وأعتقد أنه لو كان على قيد الحياة، وظل ملكاً، لصار معارضاً له. كان أبي معارضاً لكل شيء بلحمه ودمه وخلاياه كلها. ولهذا تراه متميزاً بشخصيته الحادة والقاسية.

بقيت في البيت يومين متتاليين، متذرعاً بالعطلة. في اليوم الثالث ذهبت إلى المدرسة، ولكني لم أستطع الدخول. عدت إلى البيت ثانية وقلت لأبي: يقولون إن العطلة أسبوع كامل. لم أفهم منهم سبب ذلك.

صدقني أبي ثانية. لا ثقة أبي العمياء، ولا ثقة السيد رفقي الكبيرة، كانتا تحولان دون هروبي من المدرسة.

الإبرة المصدئة

حتى الآن، عندما أرى إبرة صدئة على الأرض، أنحني وألتقطها حتى أعواد الثقاب لا أرميها في البيت، يجب أن تجمع وتستعمل في شيء ما، على الأقل، في المدفأة، أو الموقد.

كثير من الأشخاص وخاصة أبناء جيلي، كلهم مثلي. شخصياتهم متناقضة. في نفس الوقت، كرماء وبخلاء، وذلك عائد إلى ظروف العصر الذي عشنا فيه.

عمد الكبار في تركيا وبعد نهاية حرب الاستقلال على خداع الأطفال آنذاك. أي نحن، الجيل الذي عايش تلك الفترة. خدعوهم من أجل أن يصبحوا أغنياء، أن يشدوا على أيديهم ويعملوا، ولا يسرقوا. وقالوا: تستطيعون أن تكونوا من أصحاب الملايين في وقت قصير مع قليل من الجهد، ومن التصرف. ماقالوه، كان كذباً ونفاقاً، حتى هم خدعوا أنفسهم في هذا المجال، خدعوا أنفسهم ثم خدعونا. كانوا يروون لنا حكايات عن أمريكا. كيف يفننون ويجمعون الأموال، ونستطيع أن نبدأ من الصفر ونصبح مثلهم وذلك بتطبيق الشروط التالية.

١ ـ بالعمل المتواصل.

٢ ـ بالأخلاق الحسنة والاستقامة.

٣ ـ بالشد على اليد والبطن والفم «عدم بسط اليد».

٤ ـ أن نتبع طريق الدين.

ما زال هناك من يؤمنون بهذه الخرافات، والخدع البراقة، والحقيقة أن الذين لا يطبقون هذه الشروط هم الأغنياء الكبار.

لن أنسى مطلقاً الحادثة التي رواها لنا السيد والي في درسه. يقال: أن شاباً فقيراً جداً، اسمه فلان. وهذا الفلان الفقير كان عاطلاً عن العمل. لم يترك معملاً ولا مكتباً ولا مكاناً إلا وقصده طالباً العمل. وكان كلما

دخل مكاناً ردوه خائباً. لسنا بحاجة إلى عمال.

ذات يوم وكان جائعاً ومرهقاً، يبحث عن عمل دون كلل ولا ملل. قصد معملاً كبيراً، فتسلل من باب المعمل إلى الحديقة، ومن الحديقة إلى البناية، وصعد إلى مكتب صاحب العمل في الطابق الأخير، وطلب منه عملاً بأسلوب حسن. قال له حاجب صاحب المعمل: لا يوجد عندنا عمل. خرج الشاب الفقير من الغرفة كما دخلها. وبكل هدوء وتربية وأدب، ولكنه كان مضطرباً، محتاراً، لا يدري ماذا يفعل. وبينما كان عائداً في حديقة المعمل، انحنى على الأرض وتناول شيئاً ما، وأكمل سيره. أطلّ صاحب المعمل من غرفته، على الحديقة، فشاهد الشاب وهو يلتقط شيئاً عن الأرض، فأرسل رجاله خلف الشاب. وعندما أحضروه إليه سأله:

ـ ماذا أخذت عن الأرض؟.

أخرج الشاب إبرة صدئة من ياقة سترته ووضعها فوق زجاج المكتب. فقال صاحب المعمل: قبلتك عندي. وستعمل في قسم المحاسبة.

كان الشاب واعياً، صبوراً، غير مسرف ومجتهداً. وظلّ يترقى حتى صار معاوناً للمدير. وساهم في زيادة رأسمال المعمل وأرباحه. ثم اشترى حصة صغيرة من أسهمه بالمال الذي ادخره. وزاد من شراكته. زوج صاحب المعمل العجوز ابنته من الشاب. وبعد فترة صار من أغنياء العالم.

كان السيد والي يروي لنا هذه الحادثة بشكل ممتع جداً. حتى صارت حلقاً في آذاننا. هكذا كانوا يقدمون لنا الكذب والخداع. أجيال عديدة طبقت عليهم هذه القوانين البراقة التي لا مناص منها. هذا الخداع كان غطاء قبيحاً للملايين التي كانت تسلب من الشعب والوطن.

العاشق على طرقات شيشلي

خرجت من البيت بعد ظهر أحد أيام الجمعة. عائداً إلى المدرسة. وكنت أفكر بفريدة كثيراً، التي لم تبرح مخيلتي أبداً. نزلت من السفينة

عند الجسر أقول في نفسي: علني أجد فريدة وأراها ولو لنظرة فقط.

سابقاً عندما كنت أذهب إلى المدرسة أسير من الجسر إلى يميش إلى أونكاباني، إلى فاتح، ثم طريق جرشمبا، حتى أصل إلى المدرسة.

في ذلك اليوم، بعد أن غادرت السفينة. اتجهت نحو اليمين، نحو «قرة كوي». منطقة البنوك. قلت في نفسي أين منطقة شيشلي يا ترى؟. يجب أن تكون باتجاه «باي أوغلو» إذن علي أن أصعد أولاً إلى «تقسيم» ثم سرت من طريق الترامواي نحو «حربية» أول مرة أشاهد تلك المناطق. إنها أماكن جميلة.

عندما وصلت إلى حربية. تفرع الطريق إلى فرعين. لا أعرف أن هذه المنطقة حربية. أية وجهة سأسلك يا ترى؟.

فكرت، أن أسأل أحد المارة عن طريق شيشلي، ولكن إحساساً قادني أن الرجل الذي سأسأله يمكن أن يقول لي. أتريد زيارة فريدة. هكذا كان يتراءى لي. من خجلي، لم أسأل. تعبت تماماً، وأحسست بجوع شديد. سرت باتجاه الشمال. مشيت ومشيت، لم أستطع التحمل. سألت أحدهم:

ـ عفواً يا عماه. من أين نذهب إلى شيشلي؟.

ـ هنا شيشلي. عن أي منطقة منها تبحث.

ـ لا شيء. أبحث عن شيشلي.

كنت أمشي مسرعاً. أنظر في وجوه المارة. وكأنني سأرى فريدة بينهم. أسير وسط الأزقة الداخلية. انظر إلى نوافذ العمارات. ألف وأدور بين الشوارع والأحياء. شيشلي ـ السيد عثمان ـ نيشان طاشي ـ ماجكا.

أقول في نفسي إن لم أستطع رؤية فريدة، أستطيع رؤية خادمهم الأعرج. ربما يرسلونه إلى البقال أو القصاب أو بائع الفاكهة، أراه وأتحدث معه.

إذا رأيت الخادم ماذا سيحصل؟. أتعقبه. أتعرف على البناء الذي

يدخله. تكفيني رؤية البناء الذي تسكنه فريدة.

أحضر كل جمعة أمام البناية، أنزل وأطلع، سيأتي يوم وألتقي بها. وأتحدث معها. تسألني: إلى أين أنت ذاهب؟.

أقول لها: عندي عمل. أقصد صديقاً أعرفه. أن أتحدث معها: كلمتان فقط تكفيانني.

أين كانت تلك المنطقة يا ترى؟. شريط عشبي يمتد وسط الطريق وعلى أطرافه قضبان حديدية مثل السياج. ربما كان بين /نيشان طاشي وماجكا/ رأيتها هناك في تلك المنطقة. نعم كنت أنتظر هذه المقابلة، ومع هذا دُهشت تماماً لهذه الصدفة. وسط آلاف البشر، أراها، وخاصة في مكان لا أعرفه. هذا غير معقول أبداً.

في أعماقي خوف شديد، ربما تراني الآن. مع أنني جئت لأراها لأتحدث معها، لا يجب أن تراني. هي من عالم آخر عالم النجوم والأضواء. انتقلت إلى الرصيف المقابل كي لا تراني، وصرت أتبعها.

لو رأتني لتحدثت معي، لتحدثت بكل راحة. أنا لا أشعر بتلك الراحة التي تملكها، لأنها من دنيا هانئة، وأنا من عالم مضطرب، كانت ستسألني: ماذا تفعل هنا. وإلى أين تذهب؟.

وسأجيبها بتلك الكذبة التي جهزتها مسبقاً: لدي عمل، سأزور شخصاً أعرفه.

كانت ستعرف أنني أكذب عليها، وأنني جئت خصيصاً لرؤيتها فقط، وعندها كانت ستقبض عليّ بالجرم المشهود، ولذا يجب أن لا تراني أبداً. كنت أتبعها على الرصيف المقابل، لماذا جئت إلى هذه الأماكن يا ترى؟. آه لو رأتني؟. فريدة التي تسير أمامي، كانت تصغر رويداً. رويداً. كلما ابتعدت عني.

أحياناً كنت أفقدها عندما تضيع بين الجموع البشرية، وأعود فأراها

ثانية عندها. أفتح خطواتي أكثر. أسير مسرعاً، أرى فستانها وسط الزحمة. الألوان تظهر وتختفي، يضيع لون ليظهر لون آخر.

آخر مرة أشاهد فيها فريدة. ضاعت بين المارة واختفت نهائياً.

رجعت من نفس الطريق، وأنا أحس بانكسار شديد في نفسي وروحي، كأنني مسحوق. مخنوق. وصلت جسر غلطة. المدرسة. لا. لا أستطيع الذهاب إلى المدرسة بعد الآن. ركبت السفينة ورجعت إلى الجزيرة، وقلت لأبي إن المدرسة معطلة لمدة أسبوع.

هوزر والآخرون

لا أعرف اسمه الحقيقي. كنا نسميه هوزر وكفى. كان معلماً من نوع خاص. أطلق لحيته ووجهه خشن جداً. يجب أن يكون في الأربعين. ولكنه يتراءى لنا فوق الأربعين بكثير. وربما جراء لحيته. كان يُدرِّسنا مادة العلوم أو علم الطبيعة. وجهه لا يوحي بشيء يعني أن أحاسيسه لا تظهر على وجهه. هل كان يحب التلاميذ أم يكرههم. لم يكن أحد يفهمه أبداً. لا أذكر أنه ضحك مرة أو غضب. ومع هذا كنا نحبه وفي الوقت نفسه نخاف منه.

كان هوزر آنذاك طالباً في كلية «دار الفنون» رأيته مرة في إحدى المناسبات الوطنية على رأس طلبة دار الفنون، في الشارع، وفي الوصف.

طلبة دار الفنون كانوا يضعون على رؤوسهم نوعاً من القبعات تسمى «سربوش». ولون القبعة يشير إلى الكلية التي ينتسبون إليها.

في ذلك المهرجان شاهدنا القبعة على رأسه. التي لم يكن يعتمرها عندنا في المدرسة عندما رأيت هوزر بذقنه وقبعته، رأيت منه العجب العجاب. ضحكت كثيراً لمنظره. كان يمشي في المقدمة، حاملاً علماً في يده.

كنا نحسبه عالماً كبيراً متعطشاً للعلم والمعرفة، بالنسبة لنا، يجب أن يكون استاذاً جامعياً، ولكن لماذا كان يُدرِّس المرحلة الابتدائية ولا زال

طالباً في الجامعة وهو في هذا العمر؟.

خلف ساحة جامع الفاتح في سوق «المالطة» خانات كثيرة، كان هوزر عازباً، لم يتزوج أبداً، ويعيش في إحدى غرف الخان. البعض من زملائنا زاروه في غرفته.

كنت أتخيل هوزر في غرفته تلك. كل شيء فيها سميك. السقف والأرض والجدران. غرفة صغيرة من الحجارة المكعبة، يجب أن تكون غير مرتبة. فعدم الترتيب والفوضى يليقان بهوزر أكثر، ومناسبان له، ضائع مختفٍ بين أكداس الكتب الكثيرة. وكأنه ذاب وسطها. عندما تدخل الغرفة لا تستطيع التمييز بين «هوزر» والكتب، ربما غمرته. جسده لا يرى، مثل إنسان وسط الماء لا يظهر منه سوى رأسه مسود جراء شمعة احترقت أو مصباح اشتعل. وإذا وجد في الغرفة فراغ غير هوزر والكتب يجب أن تكون العناكب قد نصبت شباكها.

هوزر يحمل في يده كتاباً سميكاً في الفلسفة. وأمامه كتاب دين ضخم والكتب الأخرى مبعثرة هنا وهناك في أرجاء الغرفة. كتب التاريخ والجغرافيا والكتب الأدبية.

انحنى فوق الكتاب واضعاً نظارات على عينيه. لا يسمع ولا يشعر، بدخول الآخرين. وعلى الداخل أن يصرخ حتى يجعله يستيقظ من وسط الكتب. يراه من فوق عدسات نظارته.

ربما غرفة هوزر ليست على هذا النحو. أنا شخصياً هكذا تخيلتها، وتصوري هذا كان أقرب إلى الحقيقة من الحقيقة الخارجية طبعاً بالنسبة لي.

لأنه منذ سنوات وأنا أحلم بأن تكون عندي غرفة على هذا النحو. آه لو عندي غرفة مليئة بالكتب، لظللت أقرأ وأقرأ إلى ما شاء الله دون أي منغصات تأتيني من خارج غرفتي. هذا الرجاء كان متجذراً جداً في أعماقي. عندما كنت أدخل مراحيض البيوت الكبيرة والجميلة، كنت

أقول في نفسي آه لو عندي غرفة مثل هذا المرحاض. تتكدس فيها الكتب حتى السقف. أعتكف داخلها وأقرأ حتى الشبع هذا الطلب ظل متأججاً في أعماقي حتى الأربعين من عمري.

كان هوزر لا يبدل ملابسه ولا حذاءه أبداً. وأتصور أنه يلبسها منذ ألف عام. لا أذكر كم يوماً بقيت غائباً عن المدرسة، أسبوع أم عشرة أيام، خلال هذه الفترة كان هوزر قد أجرى امتحاناً لتلاميذ صفي. بعد انتهاء الدرس، أرسل خلفي ليمتحنني في غرفة المدرسين، كان يمسك في يده دفتر الملاحظات.

ـ ما هو تركيب الماء؟.

ـ لا أعرف. لأنني كنت غائباً عن الصف في هذا الدرس.

ـ ما هي نسبة الهيدروجين في الماء؟. وما نسبة الأكسجين فيه؟.

ـ لا أعرف.

رأيت أنه وضع نقطة على دفتر ملاحظاته. النقطة هي الصفر في الأرقام العربية. قال:

ـ اذهب.

خجلت من نفسي لهذا الفشل الذريع. صَعُبَ عليّ كثيراً، وما زلت أذكر ذلك الموقف. في يقظتي ونومي، حتى هذا التاريخ، وأحياناً أرى نفسي أمام هوزر في الحلم. يسألني:

ـ الهيدروجين.

ـ !.

ـ الأوكسجين؟.

ـ !.

لا أعرف شيئاً بالمرة. أستيقظ مذعوراً. مضطرباً. أعود وأحلم كأني طفل. فأستيقظ في أنصاف الليالي.

هناك مدرسون آخرون لا أنساهم. أستاذ علم الدين، وأستاذ اللغة الفرنسية. وكان مدرساً مسناً، يقال إنه درس في دار الشفقة أيضاً. وإنه لا يتقاضى راتباً شهرياً. مقابل عمله. كان عابساً على الدوام وحاجباه مقطبين.

أما كمال الأسناني، صار مدرساً للعلوم في ذلك العام. بعد أن كان مدرساً للتربية البدنية.

أما الملاكم والمدرس زينال، فلم أحضر له سوى عدة دروس، في صالة الجمباز. وهناك مدرس آخر لم أستطع أن أنساه أبداً، وهو السيد شكري، وسأفرد له صفحات أكثر في كتبي القادمة.

الكافيار

كانت أمي قد خرجت من مصحة «هيبلي آدا» وجاءت إلى البيت. لم تكن تغادر فراشها أبداً. لا تقوى على الحراك، فقدت شهيتها وفقد البيت نشاطها، وأصبحت أعمال المنزل كلها على أكتاف أختي الصغيرة. من العناية بأمي إلى الأعمال الأخرى، هذه الأخت الرائعة المضحية لا مثيل لها اليوم في حياتنا الحاضرة، وربما يقرأ عنها في الروايات الرومانسية.

صعب علينا أن تنام أمي على الأرض، ولا نملك سريراً، فجمعنا علب السكر الكبيرة ومددنا فراش الصوف فوقها، وصارت كالسرير.

كان شعرها الأسود الفاحم يوشي بياض الوسادة الناصع. وجهها ذابل وأصفر. لم يبقَ من جمالها القديم سوى عينيها. ما زالتا براقتين كبيرتين وسوداوين. شفاهها جافة، فقدت جمرتها القرمزية. حرارتها مرتفعة على الدوام، وتتعرق بين الحين والآخر. تترطب الخصل الصغيرة على جبهتها، يديها الناعمتان النظيفتان على الدوام. غلب عليهما صفار مخيف. وانطفأت شعلة الحياة التي كانت تشع من جسدها.

أصبحنا غرباء، لا تسمح بالاقتراب منها أبداً. حتى ولا دخول

غرفتها. اسمحوا لي بالنوم في مدخل البيت على الأرض، ترمقني من بعيد بنظرات ملؤها الألم ثم تدير رأسها نحو الجدار.

لقد عزلوا صحنها وملعقتها وشوكتها وكل شيء يخصها، وحظروا على الجميع استعمال ما يخصها.

طبعي الطفولي، الأناني لم يتغير أبداً. أمر عادي بالنسبة لي. أم مريضة وستموت وأنا غير مبال أبداً. لا أفكر سوى بنفسي وأنانيتي، أعتقد أنها الطفولة بعينها. وكم كنت أتمنى أن أعانقها وأقبلها وأحبها. أتسلل إلى حضنها بين حين وآخر. ولكنها كانت تتهرب من هذا كله.

والدي في حيرة، في حيرة كبيرة. لا يظهر من حبه لأمي سوى واحد من عشر آلاف أو من مائة ألف. وأحسست أنه نادم على كل ظلم ألحقه بأمي. مع أنه كان يحبها كثيراً، ولم يظلمها إلا لشدة حبه لها.

قالوا: على أمي أن تأكل «الكافيار» وعلى والدي الذي يعاني من ضائقة مادية شديدة، أن يشتريه لها، وأن الكافيار سينقذ أمي من مرضها. هكذا كانوا يقولون.

لم يكن أبي يملك المال الوفير ولكن إذا اقتضى الأمر، ومن أجل أمي بالذات، يأتي الماس والذهب والبلاتين، بالشوالات.

كنت أذهب مع أبي إلى المتاجر الموجودة في الآمين أونو، وقرة كوي، لشراء بيض السمك المسمى «الكافيار». كان يساوم كثيراً كي يشتريه بأسعار مناسبة. قديماً كنت أتضايق كثيراً من مساومة أبي أثناء الشراء. ولكن هذه المرة أعطيته الحق. كل الحق. في سلوكه. فالكافيار كان غالياً جداً جداً. مع أننا كنا نشتريه كدواء وليس كغذاء. وكثيراً ما تنتابني الدهشة عندما أرى الأغنياء يشترون هذه المادة ويأكلونها، وبهذه الأسعار. كان الأغنياء يشترون دواءنا. فينتابني غضب شديد. أول مرة أجد أبي محقاً في مساومته.

وجدنا متجراً يبيع المازاوات وغيرها في قرة كوي شرق الطريق الموصلة إلى طوب خانه، واتفقنا معه أن نشتري الكافيار من محله على الدوام. الكافيار سيدخل بيتنا كي تتخلص أمي من مرضها.

ولكن أمي لا تأكل شيئاً، تشرب الحليب فقط، ولكن بصعوبة بالغة. وكانت تحاول إطعامي منه. لم أحب الكافيار أبداً. إنه بلا طعم ولا رائحة. كيف يأكله الأغنياء وأحتار في أمرهم كثيراً، بوجود الفاصولياء اليابسة. هل يأكل الإنسان الكافيار؟.

صراع مع مكيروبات السل

كنت متضايقاً جداً. محطماً. مسحوقاً. مرض أمي من جهة، وهروبي المتواصل من المدرسة من جهة أخرى. ماهية الموت لا أفهمها جيداً، غير أني كنت حزيناً جداً لوضع أمي. في هذا اليوم المظلم الأسود أعلنت حرباً ضد ميكروبات السل.

كنت وحيداً، أمشي بين أشجار الصنوبر، أسير من جهة وأحلم أحلام اليقظة من جهة أخرى. وأقول في نفسي: سيأتي يوم وسأكبر وأكبر. أفكر. وقلت أنا الآن لا أستطيع القضاء على ميكروبات السل الموجودة على سطح الأرض كلياً. لأنها مخلوقات صغيرة، لا ترى بالعين المجردة، ولكن إن اتحدت هذه الميكروبات مع بعضها وكونت ميكروباً عملاقاً. عملاق السل، عندها أنازله. أحاربه، أقضي عليه، أفنيه من الوجود كلياً، ويتخلص البشر من السل، وأمي أيضاً.

وفيما كنت أمشي بين الأشجار، أحلم وأحارب وأحطم. رأيت نفسي أحمل عصا بيدي. احلم، أحارب، السيف بيدي. أحارب الميكروبات في حلمي. أقضي على الأعشاب المسكينة في الواقع، الأعشاب تهوي على الأرض.

العصا تتحول إلى سيف، أقضي على الميكروبات، وهكذا، ولما عدت

إلى وعيي شعرت أن جسدي منهك والعرق البارد يتصبب من جسمي. تمددت تحت إحدى الأشجار. أحسست ببرودة التراب على جسدي، وأنا أرنو إلى السماء عبر وريقات أشجار الصنوبر الإبرية. كانت الأغصان تتحرك مع الأنسام الرقيقة الناعمة.

مشفى الأمراض الإنتانية

نقلنا أمي إلى مشفى الأمراض الإنتانية الكائنة قرب محطة حيدر باشا للقطارات. وضعوها في مهجع من الطابق الأخير. أمام المهجع فسحة تتعرض النساء عليها لحمام الشمسي. حركة القطارات الدائمة أمام المشفى لا تتوقف أبداً. الأدخنة المتصاعدة من مداخنها تشكل غيوماً فوق المشفى، ويقولون إن دخان الفحم يفيد مرضى السل، وأن الحكومة قد بنت هذا المشفى في هذه النقطة من أجل ذلك.

هكذا يفكر الفقراء. قال شو: دخان الفحم يفيد مرضى السل، ولذلك بنت الحكومة هذا المشفى في هذا المكان، وإلا فالحكومة ليست مجنونة حتى تبني المشفى تحت أمطار المؤسسة العامة للفحم.

صغرت أمي كثيراً بعد أن نامت في هذا المشفى، صارت بحجم طفل صغير، لم ألحظ هذا الشيء وهي نائمة في سريرها، ولكن عندما خرجت إلى الشرفة في ذات يوم، وفي طريقها إلى الداخل، رأيت جسمها الضعيف المنهك، فاحترت في أمرها كثيراً.

الولد الصغير لا يفكر ولذا يبقى أنانياً، دون عاطفة. هذه المواقف ما زلت أختزنها في أعماقي كعذاب ضمير. في إحدى زيارتنا إلى المشفى، طلبت أمي من أبي أن يحمل إليها بعض قطع الشوكولا، وكانت تقول:

ـ شوف إياك أن تكون من الشوكولاته الرخيصة، هناك أطفال يبيعون منها، تشعر بطعم التراب عندما تضعها في فمك.

قال لها أبي:

ـ طيب. طيب سأذهب وأحضر منها.

ـ لا أريدها الآن أحضرها في الزيارة التالية.

خرجنا من المشفى، في الأسبوع التالي وقبل زيارة المشفى بيوم واحد، أعطاني أبي نقوداً كي أشتري لأمي شوكولاته من النوع الجيد، معتبراً أنني أفهم بالأنواع أكثر منه. هل تعرفون ماذا فعلت؟.

ذهبت فوق الجسر واشتريت من الباعة الصغار، أربع قطع كبيرة من الشوكولاته الرخيصة، سعر الواحدة عشرة قروش، مع أن الشوكولاته الجيدة صغيرة الحجم. والحقيقة، لا أدري ماذا أقول. هل قمت بهذا العمل، لأنني لا أُفرق بين مذاق الشوكولاته الجيدة والرديئة وحسبت أن أمي أيضاً لا تفهم بأنواع الشوكولاته. فاشتريت لنفسي قطعاً أخرى، وأكلتها من النقود الباقية.

يوم الزيارة حملنا الشوكولاته إلى أمي، وما إن رأتها عرفت نوعها وفهمت أنها ليست من النوع الجيد. فقالت لأبي:

ـ ألم أقل لك لا تشتر من هذا النوع؟.

غضبت أمي كثيراً من أبي، ظانة أنه هو من اشتراها لبخله الشديد. حزن من هذا الموقف تماماً، لم يغضب بسبب غضبها ونقدها، بل حزن من أجلها.ومع هذا لم ينبئها: أن الفاعل والمشتري هو أنا. بل تحمل المسؤولية لوحده. عندها طغى الخجل من أعلى رأسي حتى أخمص قدمي.

تصرُّف أبي هذا أدمى قلبي. وما أحمله اليوم في أعماقي ليس إلا أكواماً من عذاب الوجدان والضمير تجاه أبي وأمي. حتى بعد خروجنا من المشفى لم يتحدث أبي معي بهذا الخصوص. ولم يضربني على وجهي. لكنه. عرف ما سببه لي هذا التصرف. فحزن لحزني. حتى

عندما خرجنا من المشفى. بدأ يسليني بكلمات عابرة من هنا وهناك لقد كان رجلاً عظيماً. لو صرخ في وجهي وأهانني. كنت أخذت ما استحقه من العقاب. نسيت الحادثة كلها دون عذاب ضمير ودون تفكير.

الدجاجات والديوك الروحية وحمار حافظ

اعتدت الهروب من المدرسة بين يوم وآخر. وتكرار الغياب هذا عودني على الهرب من البيت أيضاً . فأذهب إلى بيوت معارفنا. وأظل . أينما ذهبت . يحبونني. ويقدرونني وكأنني رجل كبير. وكنت أقصد معارف أبي وأظل عندهم أيضاً. وأكذب عليهم قائلاً بأن المدرسة معطلة.

كلهم يصدقونني ولا يشكون بكلامي. وفي الأيام التي أقضيها في بيتنا. ألعب مع الدجاجات والديوك الرومية.

في الحظيرة. دكان السقا حافظ يترك حماره.أيضاً عندنا.

إحدى دجاجاتنا كانت رائعة جداً. داجنة. قريبة من الإنسان تطير وتقف على نافذة الغرفة وتضرب الزجاج بمنقارها. كي تنبئ عن وجودها.

فأفتح النافذة وأتركها تدخل غرفتنا. فتجوب أرجاءها الغرفة. لا تخاف منا أبداً. تأخذ حريتها على أكمل وجه. وتصعد إلى أحضاننا كقطة عادية. كنت أحب مشيتها في الغرفة وتحدثني بلغتها الجميلة. وعندما تقترب لحظة وضع البيضة تزيد من غنائها وترفع صوتها. عندها. أفتح الباب وأرسلها إلى الحظيرة لتضع بيضتها هناك.

عندنا أيضاً ديوك رومية. كنا نربيها دون أن ندفع قرشاً واحداً لشراء العلف. لأنها كانت تزدرد البلوط الذي نجمعه دون ثمن.

في منطقتنا أشجار كثيرة من البلوط. كنت أتسلق أغصانها وأقطف

من تلك الحبات. وأجمعها في سلة كبيرة وأعود إلى المنزل. إطعام البلوط للديوك الرومية من اختراع أبي. هو من اقترحها. طبعاً لا تستطيع وحدها ابتلاع تلك الحبات الكبيرة لأنها لا تمر من بلعومها. كنا نمسكها ونفتح منقارها ونضع الحبة في فمها حتى تبلعها. كنت أرقب نزول الحبة من بلعومها حتى معدتها.

اعتادت ذلك تماماً. عندما تجوع تقترب منا وتصعد إلى أحضاننا كي تبتلع البلوط.

الحلاق يونس أفندي

بما أنني كنت لا أذهب إلى المدرسة أحياناً. كان شعري يطول. وعندما يراني حلاق المدرسة يونس أفندي. يمسك بي ويجلسني على كرسي صغير ويحلق شعري. كثيراً، ما كان يقبض علي في الطابق بالأرضي.

فليقص شعري. حلاقته لم تكن جيدة. ومرد ذلك مكنته العجوز. القديمة. كانت المكنة تسحب شعري ولا تقطعه. كنت أعتبر الحلاق يونس أفندي معلماً عادياً. وكان يقوم بشتى الأعمال.

يصلح الحنفيات (الصنابير). يطين الجدران. يدهن كل شيء. لا يتوقف عن العمل أبداً وعندما يجد الوقت الكافي. يحلق شعر التلاميذ. لا أنسى يونس أفندي هذا أبداً.

التفاحات المتصارعة من أجلها

خروجي النهائي والأخير من دار الشفقة حصل بعد زلزال «توربلي». قبل روايتي. لحادثة الزلزال سأحكي لكم شيئاً عن المدرس السيد شكري.

قبل مجيئته إلى مدرستنا سمعنا عنه الشيء الكثير. يقولون: إنه من خريج مدرسة دار الشفقة أيضاً. وأنه رجل مهم وعظيم جداً. عمل مديراً في قسم من مديرية الاتصالات السلكية واللاسلكية.

وبما أنه احب هذه المدرسة كثيراً. حيث ترعرع وتخرج منها. صار مدرساً فيها بالمجان. دون أن يتقاضى راتباً شهرياً. ويقال أيضاً: أنه يشرح الدروس جيداً. وأنه في كل درس من دروسه يبكي التلاميذ لكثرة ما يشحنهم بالأحاسيس والمشاعر الإنسانية. والوطنية. التلاميذ الكبار كانوا ينقلون هذه المعلومات.

جاء السيد شكري إلى صفنا أول مرة. شبهته بالسيد «ضياء كوك آلب». (ضياء كوك ألب كاتب وشاعر كبير. وضعوا أشعاره في الكتب المدرسية. والشيء الغريب أن رئيس وزراء تركيا الحالي رجب طيب أردوغان دخل السجن. لأنه قرأ بيتين من شعره) المترجم.

نعم لقد كان شبيهاً بالشاعر ضياء كولا أب. الذي وضعت صوره على الكتب المدرسية. جبهته مفتوحة أصلع من الخلف. كان يطيل شعره الأمامي ويرفعه نحو الخلف. ليستر صلعته. يضع لفحة حريرية على عنق قميصه الأبيض. ويعقدها جيداً. كان رجلاً عظيماً ورصيناً بكل بمعنى الكلمة.

حدثنا السيد شكري في درسه الأول عن محبته وتقديره لدار الشفقة. وأن المتخرجين وغير المتخرجين منها أخوة في كل مكان. تحدث عن تاريخها. قال: إنها كانت في البداية مدرسة مسلكية. تجهز الصنّاع المهرة ثم تحولت إلى ثانوية. وتحدث عن مؤسسيها وما فعلوا من أجلها. وخلاله تحدث أيضاً عن الأغنياء ومساعداتهم لدار الشفقة.

كما روى لنا حادثة. بقيت مغروسة في ذهني طويلاً ولم أستطع أن أنساها. الحادثة على الشكل التالي: كان أحد الأغنياء يحب الخير والإحسان كثيراً. كان يقدم مساعدات جمة لدار الشفقة. يأتي إلى المدرسة كل أسبوع حاملاً ثلاث أو أربع صناديق من التفاح.

ولا يريد بأن يوزع التفاحات على التلاميذ. بل كان يفرغها فوق

قطعة قماش في الحديقة. ويترك التلاميذ ليأخذوا منها ما طاب لهم. ويجلس هو على كرسي يراقب صراعهم وتدافعهم من أجل الحصول على ثمرة منها. كانت قهقهاته تسمع في جميع أنحاء المدرسة. لماذا كان يفعل هذا الشيء؟. قال: لأنه يحب التلاميذ الأيتام كآبائهم ويعجبه صراعهم والتقاطهم لحبات التفاح.

هذه الحادثة التي سردها لنا السيد شكري. يعطي لها قيمة معنوية كبيرة.

أحزنتني كثيراً وكثيراً جداً. ما هذا الكلام الفارغ؟. رجل يعجبه تدافع الأولاد من أجل حبة التفاح. كنت طفلاً آنذاك وشعرت باشمئزاز من ذلك الرجل الغني المحب للخير. هو محب للخير في الكلام. ولكنه في الواقع رجل لا يحب الخير ولا يسعى إليه. إنه إنسان حقير بكل معنى الكلمة. يضحكه فقرهم. ويسخر من أوضاعهم، يفرحه جوعهم، تسره مآسيهم. يطربه صخبهم. وتبتهج عيونه لتدافعهم ربما وصلت إلى هذا الحكم وأنا أفكر بنفسي. لأنني شخصياً وفي مثل هذه المواقف لا أقرب الزحام. وأبقى مشاهداً.

هذه الحادثة. جعلتني أفكر كثيراً . في دار الشفقة يعتنون بالأولاد اليتامى عناية ممتازة. يقدمون لهم كل شيء. الطعام والشراب والسكن والملبس والحنان. كل شيء. وبعد ذلك يطلبون منا تقديم الشكر والعرفان لعملهم هذا. ولكن بأسلوب غير مباشر. (يعني كانوا يضربوننا بالمنية).

عن طريق المعلمين أو العاملين في المدرسة. يوصلون إلينا ما كانوا يريدون قوله. في إحدى المرات كنت أناقش أحد الأطباء المتخرجين من دار الشفقة. قال لي يومها: لا أزال أعاني من تلك العقدة حتى الآن والفرق بين الأقدمين والحديثين. بقاؤنا تحت سيطرة المنَّة. الموجودون الآن في دار الشفقة لم يحسوا بهذا الشيء. أن تفعل الخير صعب جداً.

بعد أن خرج السيد شكري من صفنا سألَنا التلاميذ الآخرون:
ـ كيف. أبكاكم السيد شكري؟.
نعم كان السيد شكري يتحدث بطريقة رائعة. كانت الدموع تنهمر من عيوننا نبكي بحرارة دون أن نشعر. يتحدث. كلمة. كلمة. وبشكل ثقيل. يجعلنا نرى داخل فمه.

زلزال توربلي

في إحدى الليالي. كنا في المهجع. نستعد للنوم. الوقت مبكر. بعضنا استلقوا على أسرتهم. والآخرون ما زالوا واقفين. على وشك. اهتزت الأرض فجأة. واهتز المكان والزمان. إنه زلزال بكل معنى الكلمة. هربنا. صارخين مولولين. هبطنا الدرج نقفز ثلاث أو أربع درجات دفعة واحدة. كنا في الطابق الثالث. صرنا في الحديقة.
حفاة وشبه عراة. اجتمعنا في الحديقة ورؤوسنا نحو الأعلى. تراقب البناء الذي خرجنا منه. كلام كثير يقال. من كل رأس نخرج كلمة. هذا يقول. كيت والآخر يقول: كيت كان أول زلزال أتعرض له في حياتي. بعد مضي وقت قصير. سمحوا لنا بدخول البناء. إلى مهاجعنا. ثم نمنا.
يقولون: في الوقت الذي كانت فيها البناية تهتز تحتنا وفوقنا. كانت البيوت والعمارات تتهدم في ناحية «منمن» في توربلي. والناس يموتون بالعشرات. بقيت الجرائد تكتب عن هذه الفاجعة لمدة أسبوع تقريباً. وتطلب العون للمصابين والعائلات التي فقدت بعض أفرادها. دخل السيد شكري صفنا بعد مضي ثلاثة أو أربعة أيام بعد الزلزال.
شرح لنا قصة الزلزال. وما حدث للأهالي الذين تعرضوا له. بشكل دراماتيكي وحساسية مفرطة. بدأنا بالبكاء والنحيب. ثم أضاف أنه يجب علينا مساعدتهم بقدر طاقتنا. قال:
ـ من يريد منكم الدفع فليسجل اسمه ومقدار المال الذي يريد دفعه.

قم يا فكرت أفندي وسجل أسماء زملائك الذين يريدون المساعدة.

قام فكرت إلى السبورة وهو بطبعه سريع الغضب. كان خطه جميلاً جداً بدأ الأولاد:

ـ أدفع خمسة وعشرين قرشاً يا سيدي.

ـ وأنا خمسون قرشاً.

ـ وأنا خمسون قرشاً.

سجل أسماء من دفع فوراً على اللوح الأسود. ثم على الدفتر.

والباقون بعد عودتهم من الإجازة الأسبوعية. سيقدمون المساعدات التي وعدوا بها. ثم ستكتب الجرائد عنها مساعدات تلاميذ الصف الخامس من مدرسة دار الشفقة للمتضررين بالزلازل في توربلي.

خرجت بالإجازة الأسبوعية. ولم أعد بعدها إلى المدرسة. لأنني لا أملك المال الذي وعدت بدفعه. بعد سنوات فكرت بأن اكتب قصة بعنوان: لا تجعلوا الأطفال يبكون.

ألهمني إياها حادثة الزلزال والسيد شكري.

في الحقيقة لم يكن هذا السبب الأول والأخير لعدم عودتي إلى دار الشفقة. يجب أن نضيف التراكمات الماضية على هذا السبب. سخرية زملائي معي بكلمة «كارت». ومرض أمي ومكوثها في المشفى. ونظراتها العاتبة.

وعدم حضوري لكل الدروس. وبالنتيجة الفشل الذي وقعت فيه. وإحساسي بالخجل من كل ذلك. اعتيادي على الهروب من المدرسة بشكل مستمر. والسبب الرئيسي والأهم: إخفائي وجود أبي وإحساسي بالذنب من جراء هذه الفعلة.

وهكذا تكون دار الشفقة قد انمحت كلياً من حياتي. والحقيقة هذا نقص كبير بالنسبة لي. كنت أتمنى أن أتخرج من دار الشفقة. قد انمحت

كلياً من حياتي. والحقيقة هذا نقص كبير بالنسبة لي. كنت أتمنى أن أتخرج من دار الشفقة. ولربما أصبحت اعمل في مجال العلم الذي كنت أحبه.

في إحدى الاجتماعات التي حضرتها في دار الشفقة تطرقت إلى هذا الموضوع: أنا اعتبر نصف متخرج من دار الشفقة. حين قلت ذلك. صرخ أعضاء هيئة دار الشفقة.

ـ لا. لا أنت تعتبر من خريجي دار الشفقة. ثم أعطوني غرفة صغيرة خاصة بالمدرسة أسكنوني بها. أدامهم الله. حقيقة أنا أحب دار الشفقة كثيراً.

يعيش السيد شكري في رأسي وذكرياتي. بشخصيته المحترمة. وسيبقى إلى الأبد.

ولد يبكي أمام المشفى

كان محمد أفندي الكومرجي الذي أعطاه أبي قرضاً قد مات منذ وقت طويل. وكانت ابنته «نابية» تدير المتجر الذي تركه لها والدها. لا أتذكر الآن لماذا قد ذهبت إلى نابية.

كان ذلك اليوم. يوم زيارة أمي في المشفى. ذهبت معي نابية لزيارتها. وكما في كل مرة. ركبنا السفينة. ثم ذهبنا على الأقدام إلى محطة حيدر باشا والمشفى. كان البواب لا يسمح لنا بالدخول ويقول:

ـ الزيارة لم تبدأ بعد.

مع أنه كنت ادخل المشفى في مثل هذه الساعة عند كل زيارة أسبوعية في البدء انتظرت دون أن يراودني أي شك على الإطلاق. انتظرنا طويلاً في هذه الأثناء كان البواب يترك الآخرين ويسمح لهم الدخول إلى المشفى.

عندما رأيت الداخلين. دمعت عيناي. لقد فهمت أن أمي قد ماتت

ولهذا السبب لا يسمحون لي بالدخول. كنت أحاول إخفاء دموعي عن نابية. قلت:

- لن يسمحوا لنا بالدخول.

- لماذا؟.

- أنا فهمت الموضوع. لأن أمي ماتت

حاولت نابية تسليتي وتهدئتي. هل حضر أبي قبلي أم ماذا؟. هل كان في الداخل؟.

بعد مدة قال البواب.

- تمام بدأت الزيارة

دخلنا. مررت من الدرج المرمري والخوف يلفني. وصلت مهجع أمي بهلع. كانت تحاول رسم الابتسامة على وجهها وهي نائمة في السرير. ولكن لا ترفع رأسها عن الوسادة. ساعدتها الممرضة بعض الشيء فجلست بصعوبة.

تحدثت مع نابية. وأنا سأكتب. بعد قليل حضر والدي.

قطعة من العظام

أخرجوا أمي من مشفى الأمراض الانتانية... المرضى بلا يبقون فيه أكثر من ستة أشهر كي يفسحوا المجال للمرضى الآخرين فقد كانوا ينتظرون دورهم أصبحت أمي كتلة من العظام ليس إلا.

بعد فترة تحسنت بصحتها نوعاً ما. وبدأت تمشي بداخل الغرفة ثلاث أو أربع خطوات. وعاد إلى خديها لونهما الوردي ثانية. فرح والدي واستبشر خيراً. امي كانت تتحسن رويداً رويداً.

الكبش الأسود الذي ظهر في المنام

كانت أمي تحكي حلمها لأبي. وأبي يقول لها:

- خير إنشاء الله. ليعيده الله بالخير المطلق.

وتقول إنها ركبت كبشاً أسود في منامها وأن الكبش طار وهي فوقه.

كلامها ما زال يرن في أذني. وهي تقص حلمها. لا أتذكر تقاسيم وجهها آنذاك. كانت تقص منامها بروية وبعذوبة رائعة. غير مبالية على الإطلاق وربما كانت تفعل ذلك كي لا نشعرها بما تحس به من أعماقها.

بعد ذلك سمعت أبي يقص الحلم على الآخرين. وقالت لأبي حين خرجنا من الغرفة. بعد الآن. تمام. اخلصنا. الكبش الذي رأيته في المنام هو إشارة. سأموت. وأعرف اليوم الذي سأموت فيه. ليس الأربعاء الذي أمامنا. الذي بعده.

إنه موعد مع الموت. الإنسان يأخذ موعداً مع الموت بعد طول صراع مرير مع المرض وهو القرار الذي يعطيه الإنسان لنفسه بعد أن يحس بالإرهاق الشديد.

كنا في بداية شهر أيلول. الأيام التي حسبناها نهاية لأمي. تحولت إلى أيام جميلة. تحسنت صحتها كثيراً. خدودها صارت وردية. تدور في البيت.

حتى إنها كانت تقوم بالأعمال الصغيرة. نعم. ولكن. أجمل ألوان الشمس تظهر عند الغروب. احمرار الأفق. عند الأمسيات. عند الأصيل. وبعد فترة ستطفأ المصابيح ويعم الظلام.

خرجت من الغرفة بعد أن سمعت أبي وهو يقص بالحلم للآخرين.

وفي بيت صغير قرب بيتنا تعيش عائلة يونانية (رومية) (الأتراك يسمون شعب قبرص بالروم). كنت أرى من النافذة داخل منزل تلك العائلة.

على الحائط لوحة للأم مريم وصليباً وأمامه شمعة مشتعلة على الدوام.

أبي تحطم كلياً. انكسر. وكأنه عجز فجأة وصار عمره ألف عام.

مصروف الجنازة للمسلم الميت. يجب أن يكون من عمل يده. من المال الذي جمعه يجب أن يجهز كفنه قبل موته. والصابون الذي يغسل به بعد موته وكذلك ليفته.

لقد فعلت معي كل هذا. وجهّزت أغراضها لما بعد موتها في صندوقها. الكفن والصابون والليفة والقطن. وقالت:

ـ أريد أن تقام جنازتي على نفقتي الخاصة. أملك ماكينة خياطة اشتريتها بعرق جبيني. أبيعها لك وبسعرها إدفع جنازتي.

أبي حزين جداً. لا نهاية لحزنه أبداً. كل شيء يملكه. فداء لها. ملكها. حتى خيالاته كانت خاصة بأمي. إذا كانت الحال هكذا . فلماذا تفعل هذا؟. لماذا تقول هذا الكلام؟. المسلم بالنسبة لها يجب أن يكون هكذا. ماكينة الخياطة التي تملكها. تبيعها لأبي وبسعرها سيرفعون جنازتها.

ماكينة خياطة أمي. أخذتها من السيد سليم وزوجته ثريا. أعطوها لها كجهاز عندما تزوجت من أبي. وهي من حقها.

كانت أمي قد أنقذت هذه الماكينة والقرآن وأنا وأختي من الحريق الذي شب في بيتنا في «ييني جشمة». عندما كنت في الثالثة من عمري.

أبي متضايق جداً من كلمات أمي. ما فعلته أمي ليس مساومة ولا بيعاً ولا تجارة بين زوج وزوجته. لم يستطع أبي إظهار حزنه وأسفه الشديدين كانت عناقيد العنب قد بدأت تسوّد أمام منزلنا. العناقيد تنضج تماماً.

يا ترى لو طلبت عنقوداً من العنب هل يعطونني؟. أم يقولون: لا. لم تنضج بعد عيوني على العناقيد. ولكن الطلب صعب عليّ.

دم بملء الطاسة

في الصباح وبينما كنا جالسين سعلت أمي. كان سعالها قصيراً ومتقطعاً في أكثر الأوقات. ولكن في هذه المرة سعالها لم يهدأ. سالت

الدماء من فمها فجأة. دماء غزيرة جداً. لم تستطيع الكلام. ولكنها كانت تشير بيدها أن أخرجوني من الغرفة. لم أشأ أن أراها وهي على هذه الحال. لا تريد أن تزعجني ولا تحزنني. من الذي سيفكر بي؟. بقيت داخل الغرفة. أحضرت أختي طاسة.

امتلأت بالدم. أحضرت بطشتاً صغيراً. أخرجوني من الغرفة.

العنب أسود. من خلال النافذة المفتوحة. رأيت الأم مريم على الجدار.

في منزل العائلة اليونانية. والقنديل يحترق أمام الصليب. أدور هنا وهناك في وحدتي بين أشجار الصنوبر. أنا مع وحدتي. الصديق الحميم الذي لا يتركني مع وحدتي: التي أعطتني دروس الصبر والثبات. مع وحدتي التي تجعل من عالمي مزدحماً. كم هو أمر محير. لا أبكي. ما من دمعة واحدة في عيني.

وفوق ذلك كله مرتاح إلى أبعد الحدود.

عدت إلى البيت بعد فترة ليست قصيرة. ازدحام شديد. نساء كثيرات ملأن المنزل. لم يسمحن لي بالدخول لأرى أمي. جاء الظهر. الجارات يذهبن إلى منازلهن. أبي وأختي عند أمي. أنا أيضاً أريد الدخول إلى قربها. ولكن لم أستطع الدخول. لست أدري لماذا؟.

أموت مرتاحة البال

أسندت أذني إلى الباب. كي أسمع ما يدور من الأحاديث داخل الغرفة عند أمي.

لا تزال كلمات أمي بكل تفاصيلها في رأسي. كانت تقول لأبي:

- ابني يدرس في مدرسة داخلية. ولهذا سأموت مرتاحة البال.

أما أنا فكنت هارباً من المدرسة. ولا أمل عندي للعودة إليها ثانية. حتى ولو عدت فلن يقبلونني بعد الآن. لا أبي ولا أمي يعرفان بهروبي من المدرسة. لقد خدعت أمي وهي على فراش الموت. صعب عليّ هذا

الأمر كثيراً. وأجدني مديناً لأمي. ومسؤولاً عنها. ومحكوماً من أجلها. يجب أن أعمل المستحيل وأدرس. لو لم تذكر أمي تلك الكلمات ولو لم أسمعها. ما كنت ذهبت إلى المدرسة أبداً. ولم أقرأ.

هذه الكلمات كانت أشبه بضربات السياط تنهال على جسدي.

بقيت كلمات أمي ترن في أذني شهوراً وسنوات.

ابني يدرس في مدرسة داخلية. ولهذا السبب أموت مرتاحة البال.

رؤيتي الأخيرة لها

يجب أن تكون أمي قد طلبتني إليها. النساء الجارات حضرن أيضاً. كن يقفن خارج الغرفة أيضاً. أبي هو الوحيد عندها.

دخلت الغرفة فرأيت أمي ممددة فوق المصطبة دون حراك. الستارة مرخية داخل الغرفة. وجهها مرتاح. عيناها تبتسمان لي. أبي فوق رأسها. الجميع ساكتون. لا حديث ولا حركة. مرّ وقت. كأنه عشر سنوات. مائة سنة. أمي تريد أن تقول شيئاً . ولكنها لا تستطيع الكلام لفْظُ الكلمة يطول ويطول. يعجز فمها عن الكلام. طلباتها أوشكت أن تطير من يديها. لا تستطيع السيطرة على لسانها. تريد أن تقول أشياء وأشياء. أبي يقرأ القرآن.

أمي لا تتحدث أبداً. ولا تحرك عيونها لا تلتفت. نظراتها مسمرة. عيونها مستقرة في السقف. صعوبة في التنفس.

يخرجونني ثانية من الغرفة.

وكانت هذه آخر مرة أرى فيها أمي. ولكن كلماتها لا تزال ترن في أذني.

سأموت مرتاحة البال.

أجد نفسي مذنباً.

يأتي المساء. الداخلون والخارجون إلى بيتنا كثيرون. يهبط الظلام. لم تمت أمي بعد.

طلبوا مني أن أذهب إلى منزل الخالة «ناريمان» وأنام هناك. الخالة ناريمان في الجزيرة. المرأة التي كانت تسكن في غرفة ملاصقة لغرفتنا. زوجة الإطفائي الذي وجد أوراق دار بالشفقة التي فقدتها.

نحن في موقف حرج. طلباتي كلها مستجابة. أطلب عنقوداً من العنب. يقطف أبي عنقوداً كبيراً ويعطيني إياه.

من أحد القصص

هذه الحادثة كتبتها في مجلة /يدي كون/ عام (١٩٤١). ثم نشرتها بعد أن حورت فيها بعض الشيء مجلة بالشهر مرة (١٩٥٣). سأكتبها على شكل قصة وهذه السطور منها:

اسم القصة في مجلة «يدي كون». عنقود العنب وفي مجلة «بالشهر مرة» الولدنة. في الجزيرة يسكن الأغنياء. نحن أيضاً نسكن فيها. كان عندنا غرفة صغيرة. كرمة كبيرة تزين واجهة غرفتنا. عنب على شكل عناقيد. أراها كلهب شموع مصفوفة.

على قطعة من الإبرشيم. العناقيد التي أراها على أطباق باعة الفواكه وفي السلل. لا تعطيني مذاق العنقود الذي لا أستطيع الوصول إليه.

طبعاً الموت ليس جميلاً. ولكن هل رأيتم الموت على وجه أم جميلة شابة مسلولة؟.

المسلول يموت ببطئ. يعتاد على ذلك. يطير من بين أيدينا فجأة دون خوف ولا هلع.

كانت أمي في السادسة والعشرين. مريضة. لم يستطع حبي لها ولا

رائحة التربة الحمراء الساكنة تحت أشجار الصنوبر ولا الشمس المحترقة داخل حبات العنب ولا الرياح التي تمسح صفحة البحار وتلاعب الأسماك في أعماقها أن تربطها بالحياة. أدخلوني غرفة أمي. وجهها الجميل. صار أكثر جمالاً. الأمهات فقط يصبحن جميلات هكذا.

عندما رأتني تدحرجت من عينيها دمعتان. حاولت إخفاءهما عني. لا تريد إزعاجي.

نظرت من النافذة. رأيت العناقيد عبر الستارة المزركشة بالدانتيل. كانت الشمس تنسرب من حبات العنب قطرة. قطرة.

عند المساء. رحلت نظرات أمي إلى البعيد. بعيداً جداً. وحيدة. وفريدة. مثلها ذهبت بعيداً. لم يكن بقائي في البيت مناسباً. أوصاني أبي كي أذهب إلى بيت إحدى الخالات أو الجارات. أحنيت رأسي. تذكرت العنب فجأة. أحسست أن طلباتي ستلبى في تلك اللحظة. طلبت عنقوداً من العنب مدّ أبي يده وقطف عنقوداً كبيراً. مزركشاً. ناضجاً. معبأً بالعبق عبر شرايين أوراق الكرمة. وناولني إياه.

صعدت إلى العلالي. إلى أعلى قمة في «هيبلي». كان القمر قد بزغ باكراً.

وكلما داعبت الأنسام الندية ملوحة لأشعة القمر فتحيل نوره على الأرض إلى فراشات صدفية تتحرك.

تمددت على الأرض. رفعت العنقود نحو القمر. كانت أشعته تترشح من العنقود إلى ساعدي. أكلت العنب وأنا أقطف الحبات بفمي.

وامتصها امتصاصاً. غير آبه أن أمي قد ماتت.

السفر الأخير

عند الصباح رجعت إلى بيتنا. نساء الحي هناك. لم يسمحن لي بدخول المنزل.

أنا تحت الكرمة.

وأمي قد ماتت في اليوم الذي قصت فيه منامها لأبي.

أحضر بائع الماء حافظ على حماره نقلتين من الماء إلى بيتنا. ضمن صندوقين فيهما صفائح الماء الأربع. كانت النساء يغسلن أمي.

أعطاني أبي نقوداً كي أعطيها لحافظ. ثمن المياه التي أحضرها لنا. أما أنا فلم أعط حافظ ثمن المياه. لم أستطع أن أعطيه. ما نوع تلك المشاعر التي أشعر بها آنذاك. لا أستطيع أن أفك طلسمها جاء التابوت الخشبي.

أخرجوا أمي بالتابوت من المنزل: حملوها إلى المقبرة الموجودة في الجزيرة.

عدة أشخاص فقط. وأنا كنت خلفهم. أتبعهم.

أمي. يا أمي. مرارة فراقها كانت تزداد في أعماقي مع مضي كل دقيقة أنا لا أدرس في مدرسة داخلية يا أماه. ولكن. لن أدعك تموتين.

أتموتين وعيناك مطبقتان. أبنك سيدرس وسيدرس وسيكون عظيماً جداً. أمي موجودة في كل الإيجابيات التي عندي.

بدأت أفهم أبي بالمعنى الحقيقي بعد وفاة أمي. حبه لأمي كان اكبر من حب روميو لجولييت ومجنون لليلى. أمضى ستة وأربعين عاماً. بعدها. يعيش على ذكراها. كان يقرأ القرآن على روحها في كل ليلة. بعض الأحيان يظل حتى الصباح وهو يقرأ القرآن. يفكر بها. ومقتنع بأنه سيأتي يوم سيلتقي بها بعد موته لقد عاش على هذا الأمل فقط.

إلى قرائي

أعزائي القراء. ها أنا قد قدمت لكم قسماً من ذكرياتي حتى الثانية عشرة من عمري. قدمته لكم بتفاصيله الكاملة. وعرفتم عني كل شيء. اكتب مذكراتي دون أن اخفي عنكم شيئاً من عيوبي أو كذبي أو أخطائي أو نقائصي واعذروني إن كان النسيان قد طوى بعضها. وإذا ما

استطعت أن أكتب مذكراتي فيما بعد. سأفعل هذا.

وكما عرفتم من خلال الأحداث التي قرأتموها. أن طفولتي قد سحقت وسط مشاعر الكذب والرياء والحقارة. ليست طفولتي فقط. بل وشبابي أيضاً. وأكرر حقيقة يعرفها الجميع: الإحساس بالتحقير. إما أن يُحطم الإنسان أو يدفعه إلى الأمام. ليكون عظيماً. أظن أنني. راقبت نفسي جيداً. وجعلتها تسير نحو الأفضل: ولو لم يكن هذا، لما كنت كتبت مذكراتي بكل هذه الصراحة والفصاحة. ودون أن أترك أي سر دفين في أعماقي.

كاتب صنفي

في بلدي اكثر من ثلاثين مليوناً . ربما اكثر من عشرين مليوناً منهم عاشوا حياة تشبه حياتي تماماً. وما زال هناك من يعيشونها.

والاهم من ذلك الذين يترعرعون وسط ظروف حياة قاسية وصعبة. وهم كثيرون جداً. الأحداث التي ذكرتها لكم جعلتني مديناً ومسؤولاً وحاملاً كل المهام تجاه مجتمعي. ولهذا صرت اشتراكياً. إن اشتراكيتي تتمثل وتتجلى في سعيي لرد كل الديون المستحقة لمجتمعي. ديوني. لأمي وللعم غالب وللسيد رفقي. ديون الذين ساعدوني وقدموا لي الخير والإحسان. فأنا مدين لمجتمعي بوجودي المادي والمعنوي وبكل الخلايا التي تحيا في جسدي.

ولهذا السبب فقط. قدمت لكم مذكراتي. طريقة حياتي التي جعلت مني اشتراكياً. هناك مقولة قديمة: كل نعجة تتعلق من عرقوبها نعم هذا الكلام صحيح. كل نعجة تتعلق بعرقوبها. لأنها نعجة. ولكن البشر ليسوا بأغنام.

لا يعلّق الإنسان من قدمه لوحده أبداً. مع كل متعلق. نتعلق نحن

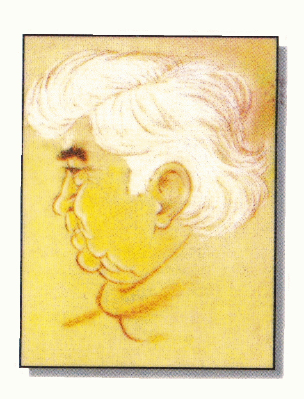
أيضاً. جائع مع كل الجائعين مكتفٍ مع كل المكتفين. لا تتحقق السعادة عندما يكون الآخرون تعساء. السعادة لا تكون بالوحدة. تكون مع المجتمع، مع الجميع، مع الأكثرية. لن تمر اللقمات من بلعومي عندما أعرف أن هناك أناساً جائعين. ولن أشعر بالدفء مطلقاً بينما الآخرون يرتعشون من شدة البرد. هذا إحساس «إنساني». هذا تصرف علمي عقلي منطقي. أريد أن أتناول طعامي براحة. أريد بأن أتدفأ براحة وأنام بحرية وراحة. أليس هذا من حقي؟. أنا أريد حقي هذا.

سأظل طوال حياتي مناهضاً للأقلية، السعداء الذين سرقوا السعادة من الأكثرية التعساء، سأحاربهم ما دمت حياً على سطح الأرض. أنا كاتب نقي. مجبر كي أكون هكذا. ويستحيل أن أكون غير ذلك.

أنا من المتعبين المرهقين. مع ثلاثين مليوناً. أو على الأقل مع خمس وعشرين مليوناً.

هذا التوازن الأعرج الذي يسير في بلدي يجب أن يتغير من أساسه، ولن يستطيع السارقون القول: هكذا أتى للحياة ولن يغادرها بإرادته. لن يستطيعوا أن يقولوا ذلك. لن يغادر هكذا. أطفالي يجب ألاّ يعيشوا الطفولة التي عشتها يجب أن نجاهر بالحقيقة المرّة. متسلحين بالعلم. وأن نقول:

«هكذا أتينا إلى الحياة وسوف نغادرها بإرادتنا».



هكذا أتينا إلى الحياة
ولن نفارقها بإرادتنا

أقدّم في هذا الكتاب جزءاً من ذكريات طفولتي بتفاصيلها الكاملة دون إخفاء عيوبي، وكذبي وأخطائي.

يسألونني، لماذا تمزح دائماً... لا أدري، ربما لطريقة حياتي التي عشتها... فأنا لم أستطع الوصول إلى هنا إلا من خلال الدموع التي ذرفتها. جئت للحياة كي أضحك... ولكنني أبكي لأسباب أجهلها.

سلكت طرق العيش القاسية، تحت ضربات السياط وظلمات السجون. والأحداث التي ذكرتها جعلتني مديناً لمجتمعي بوجودي المادي والمعنوي.

أعلم أن ذكرياتي لا تحمل أهمية، وربما تسترعي الانتباه لأنها تحاكي الكثيرين في طريقة عيشهم وكفاحهم.

وأخيراً لن يستطيع السارقون الذين نهبوا سعادة التعساء أن يقولوا: هكذا أتى إلى الحياة، ولن